

**THE BOOK WAS  
DRENCHED**

UNIVERSAL  
LIBRARY

**OU\_190267**

UNIVERSAL  
LIBRARY







# محاضرات الجمع العلمي العربي بدش

الجزء الاول

وفيه قسم من المحاضرات التي القيت في ردهه الجمع العلمي  
الكبرى في المدرسة العادلية بدمشق سنة ١٩٢١ و ١٩٢٢ م  
( الموافقة لسنة ١٣٣٩ و ١٣٤٠ و ١٣٤١ هـ )

طبع على نفقة الجمع العلمي العربي

و حقوق اعادة طبعها وترجمتها محفوظة له

---

المطبعة الحديثة في دمشق سنة ١٣٤٣ هـ و ( ١٩٢٥ ) م

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اما بعد فان مجمعنا العلمي العربي بدمشق مازال منذ اول عهده يقيم في ردهته الكبرى حفلات اسبوعية للمحاضرات اشدها جمهور كبير من اهل الفضل والادب ثم عزز محاضرات الرجال بمحاضرات اخرى تلتقى على السيدات وجعل لها موافيت معلومة . ولم يخص المجمع اعضاءه بالقاء هذا المحاضرات بل كان يدعو احيانا كثيرة غيرهم من الفضلاء المقيمين بدمشق والطارئين عايها ممن عرف بالاخضاء في الفنون المختلفة ان يفضلاوا بمحاضرات يلقونها على من يجتمع في ردهته كل اسبوع للاستفادة . وكما كان المجمع مجهد في تنظيم هذه المحاضرات وتنويع موضوعاتها كان الجمهور يزداد اقبالا عليها . واعجابا بفائدتها . حتى تمنوا لو نشر في المحله او في كتاب على حدة وما كان يتيسر للجمع نشرها في المحله لكثرتها وضيق مجلته الشهرية عن استيعابها . ولم يكن استحسن نشرها على حدة لان طبعها كلها يقضي نفقات طائاه . ولان معظم هذه المحاضرات لم تكن اثرأ من آثار المجمع الخاصة وانما

هو محصول عقول الطبقة المستنيرة من فضلاء ابناء الوطن . على ان كثيراً من هذه المحاضرات كان يكتب بلغة مراعى فيها حالة الجمهور المستمع وفيهم من يعسر عليه فهم الكلام الجزل . والاسلوب الفحل . فطائفة من هذه المحاضرات - وحالها ما وصفنا - لا يمكن طبعه ونشره الا بعد حذف ما طال من ذيواله .

غير ان المجمع اخيراً لما لم ير عذراً هذا مقبولاً لدى الفضلاء الذين كانوا يلحون في طبع محاضراته قرر في جلسته المنعقدة في ٣١ تشرين الاول سنة ١٩٢٤ ان يكتب في طبع ما وصل اليه من نسخ المحاضرات الحديرة بالنسر وها هو يقدم لقراء العربية الكرام الجزء الاول منها وفيه سبع عتمة محاضرة راجياً تحقيق ما يؤمله من النفع العام والله المستعان .

دمشق : في رجب ١٣٤٣ هـ و كانون الثاني سنة ١٩٢٥ م

المجمع العلمي  
العربي



## معلقة طرفة بن العبد<sup>(١)</sup>

أيها السادة !

كُلِّمْتُ ان اتكلم على مئة بيت شعر ونيتف من كلام عرب الجاهلية . وضربت لي مدة للكلام لأراها تكفي لذلك لان الابيات تحتاج الى شرح و تفسير معنى . ومن دون ذلك لا يكون للمحاضرة معنى . مئة البيت هذه هي التي تسمى ( معلقة طرفة بن العبد ) .

ومعلقة طرفة واحدة من معلقات سبع . والمعلقات السبع بعض شعر الجاهلية . وشعر الجاهلية طائفة من الشعر العربي . والشعر العربي فن من فنون الادب العربية . فاذا حاولنا ان نلم بهذه المقدمات نفد الوقت قبل الوصول الى ( معلقة طرفة ) . فالاجدر بنا اذن ان نعد الى تلك المعلقة التي هي موضوع محاضرتنا ونهجم عليها تواءم من دون تعريج على شيء آخر سواها :

### ( لما ذا سميت المعلقات معلقات ؟ )

غير ان هناك أمراً أحببت التعرض له وهو لما ذا سميت هذه القصائد بالمعلقات ؟ المشهور انها سميت بذلك لانها كانت معلقة على جدران الكعبة او مرقومة على ستارها وانكر قوم ذلك . ومنهم ( ابو جعفر النحاس النخوي ) من رجال القرن الرابع للهجرة . فقالوا — في سبب التسمية — كان الملك في الجاهلية اذا أعجبته قصيدة قال لهم علقوا لنا هذه . يعني اكتبوها لتبقي محفوظة في خزانته مع الاعلاق النفيسة . وربما أيد هذا القول ان قريشاً كانوا قوماً حساساً اي شديد الحاسة والتعصب لديانتهم . وناهيك بمنزلة الكعبة وقداستها في نفوسهم . فبعد ان يسمحوا بتعليق شعر فيه تصريح بالفحش والهر احياناً — على كهنتهم المقدسة .

(١) اول محاضرة القيت في قاعة مجعنا العلمي لاحد اعضاءه « المغربي » وذلك

مساء الاحد الواقع في ١٧ نيسان سنة ١٩٢١

وزد على ذلك أن كتاب السيرة النبوية ذكروا أن النبي (صلم) والصحابة في فتح مكة دخلوا الكعبة وحطموا الاصنام التي فيها وأزالوا عنها كل معالم الجاهلية حتى أنهم كانوا يجعلون الماء يترسهم ويصبونه على جدرانها لمحو الصور المنقوشة عليها بالأصباغ . ولم يذكروا أن المعلقات كانت مما أزيل أو أنزل عن الجدران .

### (الاسباب التي منظمّت معلقة طرفة من اجلها)

ليست محاضرنا في ( طرفة ) نفسه لنسب في ترجمته . وإنما نلم من سيرته بما له تعلق في سبب نظم المعلقة .

كان ( طرفة ) من قبيلة بكر بن وائل التي يضرب بها المثل في العزة والكثرة وكان بيته في الذروة والسنام من تلك القبيلة . وكان هو شاباً جميلاً فصيحاً جريئاً . ومن كان في مثل حالته ومنزلته لا يلبث ان يتصل بالملوك فيكون نديماً لهم وجليساً . وكان ملك العرب اذ ذاك عمرو بن هند . وعاصمته ( الحيرة ) . فاتصل به طرفة وناداه . ثم نقم منه الملك بعد ذلك اتسيا . وحقد عليه من أجلها :

قالوا : رآه يوماً يشي بين يديه وهو يتلعج في مشيته اي يتمايل ويتبخر غير حاسب للملك حساباً .

وكان مرة يشربان فرأى طرفة في الحام ( اي الكأس ) الذي بيده خيال اخذت الملك وكأنها كانت تطل عليهم متوارية فاشد طرفة :

( يا بآبي الظبي الذي ترق شفتاه ولولا الملك الحالس ألتني فاه )  
ويروي ( شنفاه ) مكان ( شفتاه ) فسمع الملك قوله فسكت على غيظ .

وبدرت من الملك نوادر منكورة في سياسة بلاده : منها اليومان الملعونان : يوم البؤس الذي كان يقتل فيه كل من يصادفه . ويوم النعيم الذي كان يكرم فيه كل من يصادفه . فنظم طرفة قصيدة انتقده فيها — وكان حريئاً على النقد — منها قوله :

( فليت لنا مكان الملك عمرو رعوتاً حول قبتنا تدور )

( الممرك ان قابوس بن هند ليجلط ملكه نوك كبير )

و ( الرغوث ) الناقة او العجعة الحلوب . و ( النوك ) الحمق . فصمم الملك على قتله

فخذه بعض رجاله عاقبة الامر . وخوفه عشيرة طرفة وخاله التمس الشاعر الكبير المشهور : فإن هذا اذا هجاه أسقطه في القبائل .

فراى الملك ان يُخلص منهما جميعاً فدعاهما اليه واعطاهما كتابين الى المكعب نامله بالبحرين بأمره بقتلهما وأوهمهما انه يأمر لها بصلة وجائزة . ثم فطن التمس للامر فزق كتابه في حكاية ليس هنا محلها وقال لابن اخته مزق كتابك انت ايضاً وانج . معي . فحملت طرفة غرارة السباب على عدم المبالاة وقال لخاله : « لئن كان اجترأ عليك فما كان ليبتريء عليّ » ثم ذهب طرفة الى عامل البحرين فأطلعه العامل على جلية الامر . وفسح له مجال الحرب . فلم يفعل أنفة واستكباراً . واتار على شبان عبد القيس - وهي قبيلة بالبحرين - ان يسقوه الحمر وان يفسدوا أكله وهو كتميل . والاخل عرق سيفي القدم . ففعلوا فمات . وكان في حدود العشرين من العمر . ولذلك يقال له ( ان العشرين ) وقيل انه بلغ ستاً وعشرين بدليل قول اخته في رثائه :

( عددنا له ستاً وعشرين حجةً فلما توفاهما استوى سيداً ضخماً )

( فُجعنا به لما رجونا إياه على خير حالٍ : لا وليدٌ ولا قحما )

و القحمة المناهي في السن .

وفي معلقة طرفة ابيات اتار بها الى حادثة تبره الحمر في البحرين مع فتيات عبد القيس :

لكن ليس هذا كل السبب الذي حمل طرفة على نظم معلقته . فإن هناك سبباً آخر هاج من قريحته . وحرك من أنفته :

كان الطرفة أخ اسمه معبد وكان لعبد ايل ضلت فذهب طرفة الى ابن عم لم اسمه مالك يسأله ان يساعده في استرداد الابل . ولا يخفى ما يكون في بعض ابناء الاعمام احياناً من السلف والجناء اذا رأوا ان عم لهم يدانهم ويتجرب اليهم من احل قضاء أمر ما . فابتهره ابن عمه وقال له « فرطتم في ابلكم ثم جئتم ننعبونني في طلبها » فتأثر طرفة من قوله . وهاجت شاعرته . فقال معلقته . ومن أحسن ما جاء فيها ابياته في معاتبته ابن عمه مالك كما سيجيء .

والتحقيق ان كل ابيات معاقبة طرفة لم تُنقل في سبب واحد . ولا في زمن واحد  
ومثلا المعلقات الاخرى : فكان الواحد من اربابها يعرض له السبب الآن فينظم  
فيه ابيانا . ثم يعرض له سبب آخر فيقول فيه قطعة من البحر والقافية . حتى اذا  
كثرت الابهات ضم بعضها الى بعض . او فعل هذا بعض رواة شعره . وبهذه  
الصورة تألف المعلقة وتبرز الى الوجود . ومن قلب نظره في المعلقات وسياقاتها  
وجد الامر كما قلنا .

وقد ذهب اكثر علماء الادب الى ان (طرفة) في الطبقة الثانية من ارباب المعلقات :  
اي انه بعد امرئ القيس وزهير والنابعة . لكن (عمرو بن العلاء) — وهو اكبر علماء  
اللغة — كان يقول : ان طرفة اشعرهم واحدة . يعني اشعرهم معلقة . بل ذهب ان  
مقبل الى ابعد من هذا فقال : ( ان طرفة اشعر الناس ) .

اما مذهب (طرفة) في الشعر وحسن تصرفه في فنونه وشعاب اساليبه ومزاته في  
ذلك بين رفاقه اصحاب المعلقات — فيتجلى لنا من أعمال مقارنة اجمالية بين معلقته  
ومعلقة امرئ القيس . وحبذا لو اتسع الوقت للمقارنة بينها وبين سائر المعلقات .

### ( مقارنة اجمالية بين معلقتي طرفة وامريئ القيس )

معاقبة طرفة مئة وتلاتة ابيات . ومطامها :

( حلولة اطلال ببرقة شهيد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد )  
هلوا بنا ايها الافاضل نقف مع طرفة على اطلال محبوبته ( خولة ) ثم سير معه  
فنتطوف حيث طاف . وسمع منه ما أتى على ذكره من الاحوال والادوصاف :  
ها نحن نسمعه يصف اطلال خولة يبتين من الشعر .  
ثم نسمعه يصف نياق الظعائن فيسهبها بالنفن بثلاثة ابيات .  
ثم وصف محبوبته — بخمسة ابيات .  
ثم الناقة التي ساعدته على نيل مقاصده — بتلاتين بيتا .  
ثم الفلاة التي اجتازها وانها مهلكة — بثلاثة ابيات .  
ثم نفسه بتساط العزيمة وكفاية المهمل — بستة ابيات .

ثم عاد الى ناقته ووصف سرعتها — بثلاثة ابيات .  
ثم عاد الى نفسه فوصفها بالجود والشرف وانه يجمع بين الجدّ والهزل — بثلاثة ابيات ايضاً .

ثم وصف مجلس لهوه مع قيئته وندمائه — باربعة ابيات .  
ثم ذكر رأيه في هذه الحياة الدنيا وقال : انما هي شرب ولعب ومسرات . وذم الجمل والبخلاء الذين يضمنون باموالهم فلا ينفقونها في هذا السبيل . وردّ على الذين يلوّمونه في رأيه هذا — كل ذلك بستة عشر بيتاً .  
ثم غاب ابن عمه (مالك) وقص ما وقع بينهما — باربعة عشر بيتاً .  
ثم رجع الى وصف نفسه وسيفه ونحره النياق في سبيل اللهو ومانصحه له ابوه به — باحد عشر بيتاً .

ثم انتهى الى نهاية كل حي وهي الموت فاستوقفنا على مصرعه . وعلم ابنة اخيه (معيد) كيف نئد به . وتبكي عليه . وترثيه بما هو جدير به من القول : لا بما ترثي به انما الناس وذوي الجمل والتح منهم — بتسعة ابيات .  
ثم ختم معلقته بابيات حكيمة بليغة سارت مسير الامثال .  
ويمكن إرجاع هذه المواضيع كلها الى موضوعات ثلاثة كبرى :  
(١) وصف نفسه واطواره — باربعة وثلاثين بيتاً .  
(٢) أخلاقه خاصة . وآداب عامة . بثلاثة وثلاثين بيتاً .  
(٣) وصف الناقة بخمسة وثلاثين بيتاً .

بهذه المواضيع يمكن ان نعرف الفرق الادبي بين معلقته ومعلقة امرئ القيس : فان امرأ القيس لم يصر بفسادهم في وصف الاخلاق وتقرير الحكم والآداب كما فعل طرفة وانما هو اسهب في وصف أمور قد لا تكون مفيدة كالافادة التي تشعر بها في معلقة طرفة .

انقف مع امرئ القيس اسقط اللوى بين الدخول فحومل . ثم نظوف مطافه .  
ونسلم اوصافه :

(١) أسهب امرؤ القيس في وصف النساء ووقائعه معهن — بسبعة وثلاثين بيتاً .

(٢) وفي وصف فرسه - بثمانية عشر بيتاً .

(٣) وفي وصف السحب والامطار - بثلاثة عشر بيتاً .

هذه هي أمهات الموضوعات التي اتى عليها امرؤ القيس في معلقته وقد استغرقت سبعة وستين بيتاً من الواحد والثمانين بيتاً التي هي مجموع ابيات معلقته فبقي اربعة عشر بيتاً : وصف نفسه بيت . والاطلال بستة . والليل باربعة . والمفاوز بثلاثة . ولم نسمعه قال بيتاً واحداً في الآداب العامة ولا الاخلاق ولا الحكم . على العكس من طرفه الذي أستمعنا من ذلك الكثير الطيب . وكان من اكبر مزايا معلقته ما نتمننه من هذه الحكم والامثال .

فناشدنا الادبة والاجتماعية من معلقة ( طرفه ) اعظم وأجزل منها شيء معلقة امرئ القيس . اللهم الا ان يدعي مدع بافضالية هذه من حيث الصناعة الشعرية . وربما كان في هذا التفضيل ايضاً نظر يتحقق لكم أيها السادة بعرض نموذجات عليكم من معلقة طرفه مفصلة ومتميزة بعناوين خاصة بها .

( توارد المعلقة اي موافقتها لغيرها )

توارد طرفه مع امرئ القيس في قوله :

( وقوفاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لاتهالك أوى وتجمد )

وقال امرؤ القيس :

( وقوفاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لاتهالك أسى وتحمل )

فهل هذا من قبيل توارد الحواظر على معنى واحد من دون ان يسمع احدهما ما قاله الآخر . او هو سرقة . وبعبارة أنزه اقتباس ! وأيها الذي اقتبس من الآخر ؟

ووفاة طرفه كانت سنة ٥٥٠ للميلاد . وفي دائرة المعارف الفرنسية سنة ٥٧٠

وهي السنة التي ولد فيها محمد «ص» . اما امرؤ القيس فكانت وفاته سنة ٥٦٠

( أرق بيت في معلقة طرفه )

( ووجه كأن الشمس ألت رداها عليه . نقي اللون . لم يتخذ )

اي لم يتشقق ويخف ويتصق لحمه بعظمه . بل هو بض ممتلي سمناً .

### ( تشبيهاتها البديعة )

هي كثيرة وأحلاها موقعاً قوله يصف الزياق والظعائن :

( كأن حدوج الماكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد )

يريد بالحدوج الزياق وما عليها من الهواجج . وبالخلايا السفن العظام . والنواصف الاماكن الرحبة او الاباطح . و « دد » مكان .  
وقوله في وصف السفائن :

( يتسق حباب الماء حيزومها بها كما قسم التراب المفايل باليد )

« حباب الماء » سطحه او فقاقيعه . و « حيزوم السفينة » صدرها وجوؤها .

و « المفايل » اسم فاعل من « الفيال » ضرب من اللعب عند الاعراب : يجمع اللاعب التراب ويدفن فيه شيئاً كحاتم مثلاً . ثم يقسمه باليد نصفين . ويسأل الآخر عن الدفين في ايهما ؟ فمن اصاب قمر . ومن اخطأ قمر . فالفيال على هذا مشتق من مادة ( الفأل ) .

وقوله في صفة عيني الناقة :

( وعينان كالملاويتين استكنتا بكهني حجاجي صخرة قانت مورد )

« الملاويتان » المرأتان و « استكننا » اسنقرتا و « الحجاج » بفتح اوله العظم الذي

ينبت عليه شعر الحاجب وال « قلت » نقرة في الصخرة يستمتع فيها ماء المطر .

يقول ان عينيها صافيتان كالمراأتين . وقد اودعنا حجاجين من رأس كصخرة ذات

نقرة كالنقرة التي يتجمع فيها ماء المطر : فيكون قد شبه عينيها بالمراأتين اولاً ثم بماء

القلات « جمع قلت » ثانياً عدا ما فيه من تشبيه حجاجيها بالكهنيين ورأسها بالصخرة .

وقوله في صفة تجتر الناقة في المشي :

( فذالت كما ذالت وليدة مجلس تري ربهما أذبال سحل ممدد )

« ذالت » مأخوذ من الذيل وهو ان يمشي المرء وهو يجرد ذيله و « السحل » ثوب

قطن ابيض .

كانت ناقة طرفة اذا ضربها بسوطه ذالت اي نشرت ذيلها على نغذيها . كما  
 نثعل الوليدة وهي الجوزية في مجلس تستقي فيه ربها اي سيدها الخمر . واناها نثعل  
 ذلك حين ترقص أمامه . فهي تخر ذيل ثوبها من القطن الابيض .  
 وقوله في صفة وثاقة خلق الناقة .

( كةنطرة الرومي اقسام ربها لتككتفن حتى تتاد بقرمدم )  
 بقرمدم متعلق بتككتفن . وتتاد ترفع . اي لا يزال بناؤها الرومي يحيطها  
 بالآجر حتى ترتفع .

وقوله في وصف ذنبا .  
 ( كان جناحي مضرحي تكنتفا حنافية شكافي العيب بسرد )  
 ( المضرحي ) النسرا الابيض و ( حنافية ) اي في جانبي الذنب و ( العيب )  
 عظم الذنب و ( المسرد ) الخرز .

وقوله في صفة القينة . وهي المنغية  
 ( اذارجت في صوتها خلت صوتها تجاوب اظار على ربيع ردي )  
 يقول اذا رددت تلك القينة صوتها وهي تغني حسبته لحسنه حين نياق تجاوب  
 من أجل فصيل لها مات .  
 ومما نفحش به قوله .

( ندأماي بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد )  
 ( رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامي بضة التجرد )  
 ( المجسد ) قميص يلي الجسد او قد صبغ بالجداد وهو الزعفران و ( قطاب الجيب )  
 مخرج الرأس منه .

يقول ان شق جيب صدرها واسع حتى اذا مدت الندامي أيديهم للجس رفقت  
 ورضيت . وهذا كل ما جاء فيها من الهنات .

ومن تعابيره الرشيقه قوله في صفة إسراع الناقة وأدبها وخوفها من لدع سوطه .  
 ( وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوي من القيد محصد )  
 ( ترقل ) تسرع و ( الملوي ) يعني به السوط و ( محصد ) محكم القتل

(وإن شئت سامي واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد )  
 ( سامي ) بلغ في الارتفاع ( واسط الكور ) أعلى الحدج . والحدج للبعير كالسرج  
 للفرس و ( نجاء الخفيدد ) أي مثل اسراع الظليم وهو ذكر النعام .

( تباري عتافاً ناجيات وأتبعت وظيفةً وظيفاً فوق مورٍ معبّد )  
 ( تباري ) تعارض وتسبق ( ناجيات ) نياً قاسريعات و ( الوظيف ) مستدق  
 عظم الساق و ( المور ) الطريق المستوي الموطوء .  
 وقوله في صفة حالته مع ابن عمه ( مالك ) .

( فمالي أراني وابن عمي مالكا متى أدن منه ينأ عني وبعبد )  
 وقوله في صفة سيفه :

( 'حسام اذا ما قت منصرفاً به كفي العود منه البدء ليس بمعضد )  
 ( منصرفاً به ) أي منتقاً به لنفسه ، يقول : ان الضربة الاولى به تغني عن  
 ضربة ثانية . وليس هو بمعضد أي سيف يتهن ونقطع به الاشجار .

( ما فيها من الشؤون التي تهّم الباحث في تاريخ العرب )

( يتق حباب الماء حيزوما بها كما قسم الترب المفايل باليد )  
 مرشّح هذا البيت وهو يفيدنا شيئاً مما كانت عليه العرب في ألعابهم وملاهيهم .  
 وقوله :

( كقنطرة الرومي أقسم رُبّياً لتكمنفن حتى تشاد بقرمد )  
 يفيدنا هذا البيت ان اليونانيين كانوا مشهورين بالحدق في فن المعارك لدى عرب  
 الحاملية بحيث يضرب بهم المثل .  
 وقوله في صفة الناقة :

( وأتلع نهناض اذا صعدت نه كسكأن بوصي بدجلة مصعد )  
 ( وخذت كقرطاس السامي ومشهر كسبت الياني : قدّه لم يجرد )  
 ( وأروع نباض أخذت مملم كمرداة صخر في صفيح مصمد )

( اتلع ) عنق ( سكَان ) دفة السفينة ( بوصي ) معرب ( بوزي ) السفينة او النوتي ( مشفر ) شفة ( سبت ) الجلد المدبوغ ( قده لميجرد ) اي لم يقع في قطعه اضطراب ( اروع ) يعني به قلب الناقة الذي يرتاع من كل شيء ( أخذت ) سريع الحركة ( مرداة ) حجر مستطيل يكسر به الصخر ( صفيح ) حجارة رقيقة و يعني بها اضلاع الناقة .  
وقد استفدنا من هذه الايات اموراً من الاعمال والصناعات :

الملاحة في دجلة . وصنع الورق في السام . والجلد المدبوغ في اليمن . وأن العرب قبل الاسلام كانوا يكسرون الصخور بالمرداة كما كان شأنهم في الدور الحجري .

### ( ما في المعلقة من الادب والحكمة )

هذا الضرب من الشعر استوفاه طرفة وأجاد فيه ، ونقسم ابيات الادب في قصيدته الى أقسام : منها ما جرى مجرى الامثال :

( الأأيها هذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي )  
( اممرك ان الموت ما أخطأ الفتى — لكأطول المرحي ونياه باليد )  
( ما ) هي المصدرية التوقيتية : اي ان شأن الانسان في هذه الحياة الدنيا كشأن ناقة لها زمام مرخي أطيل لها لترعى . ولكن طرفيه منيان في يد صاحبها فهو لا يلبث ان يجذبها اليه . وهكذا الموت ما دام هو لا يصيب الفتى لا يقال إنه ناج منه . فهو في صدد أن يجذبه اليه : كصاحب الدابة والدابة :

( وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند )  
( أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً : ما أقرب اليوم من غد )  
( أهداد ) جمع عدد بكسر العين وهو الماء لا ينقطع مدده . ومراده الغد المستقبل الذي يموت فيه الانسان . يقول ان الموت كالمناهل للوراد : يردونها واحداً بعد آخر . وهي لا ينفذ مددها .

( ستيدي لك الايام ما كنت حاعلاً و يأتيك بالاحبار من لم تزود )  
( و يأتيك بالاحبار من لم تبع له بتاناً ولم تضرب له وقت موعد )  
( تبع له ) تستري وتبتاع لاجله ( بتاناً ) هو كساء المسافر وأداته . ويروى أنه

( صلعم ) أنشد هذا البيت ( ستبدي الخ ) بين يديه فقال : ( هو من كلام النبوة )  
اي على طريقة كلام النبوة .

( أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد )  
( أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما ينقص الايام والدهر ينفد )

( يعتام ) يختار وهذا على حد قوله والموت نقاد الخ ( الفاحش ) المبالغ في البخل  
و ' عقيلته ماله العزيز عليه . والمعنى أن ايام العمر كالكنز من المال : يؤخذ منه للنفقة  
كل يوم . وما كان هذا شأنه لا بد ان ينفد أخيراً .

### ( التمدح والفخر )

؛ اذا القوم قالوا: من فتي بخلت أني 'عنيت' فلم أكسل ولم أتبدد ( اتبدد ) اي التحير او أنحل . وهذا على حد قول الحماسي :

لو كان في الالف منا واحد فدعوا من فارس ؟ خالم إياه يعنوننا  
( فان تبغي في حلقة القوم تلقني وان تلمسني في الحوانيت تصطد )  
( وان يلق الحمي الخمي الجميع تلاقني الى ذروة البيت الشريف المتحمم )

قوله « في حلقة القوم » اي للمسامرة او لأدارة الرأي و « الحوانيت » يريد بها  
الحانات . وقوله « وان يلق الخ » اي يلقون للمناخلة في أعمال الجهد . وقوله « الى  
ذروة » اي في ذروة إلى نابت مناب ( في ) كما هي في كقول النابغة :

فلا تركني بالوعيد كأنني الى الناس مطلي به القار أجرب  
فقوله « الى الناس » اي في الناس . ومنه قولهم « جاست الى القوم » اي فيهم  
وقوله « المتحمم » اي المقصود كبيراً .

( انا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد )  
« الضرب » اي الماضي الندب واصله الخفيف اللحم . وقوله « خشاش » اي  
كثير الدخول في الامور الصعبة .

وقال موصياً ابنة أخيه « معبد » ومعرضاً بأخريين من منافسيه :

( فان مت فأنعني بما أنا اهله  
 ولا تجعليني كما مرى ؤ ليس همم  
 وشقي علي الجيب يا ابنة معبد  
 كهمي ولا يغني غنائى ومشهدى  
 ا بطي عن الجلي سريع الى الخنا  
 ذلول باجماع الرجال ملهد )

قوله « ذلول باجماع » اي اذنته او ذلته . كثرة ضرب الرجال له يجمع ايديهم فهو « ملهد » اي كثيراً ما يضربونه في ظهره او صدره بقضبات ايديهم .  
 ( فلو كنت وغلاً في الرجال لصرني  
 عداوة ذي الاصحاب والمتوحّد  
 « وغلاً » اي لثماً جباناً .

( ولكن نفي عني الرجال جراء تي  
 عليهم واقدامي وصدقي ومحتدي )  
 قوله « نفي عني الخ » اي كشفهم ونجاهم عن مباراتي في حلابة الحمد .  
 ( لعمرك ما أمر بي علي بغممة  
 نهاري ولا لي علي بسرمد )

اي لا تعنى علي وجوه انفاذ اموري وقضاء مصالحى في النهار . كما انه لا يطول ليلى في الغم والحسرة على ما فاني قضاؤه : لاني اكون قد قضيت ونفذت كل ما يلزمني عمله . فلم يفني شي ؤ اتجنسر عليه .

( رأيه في الحياة او مذهبه الايبكوري )

« ايبكور » فيلسوف يوناني مشهور . وخلاصة فلسفته ان اللذة أساس السعادة في الحياة الانسانية . وانه يجب علينا ان نبذل كل مساعينا في سبيل نيلها والحصول عليها .

قال فينيلون « الافرنسي » مؤلف كتاب تليماك : ان الناس نظروا الى « ايبكور » كرجل يرى الانفاس في اللذات وتقم الشهوات ولو كانت سافلة — مذهباً له — وهذا ناشى ؤ عن عديم فهم حقيقة فلسفته .

وحيققتها ان الملهوذ عنده يجب ان يساعد على ترقية الفكر البشري وان يكون تناول اللذات ضمن دائرة الفضيلة والحكمة .

ومع هذا فقد فهم معظم الناس ان ايبكور يقول بتناول الملهوذات على أية

صورة وقمت . واخذوا يطلقون كلمة ايبكوري على كل رجل متعمس في اللذات والشهوات من دون مبالاة فضيحة أو عار .

ويظهر ان ( طرفة بن العبد ) كان ايبكورياً بدليل ابياته الآتية :

( وما زال تشرابي الخمر ولذتي وبهي وإتقاني طريقي ومثلي )  
اي ما زال هذا دأبي وديدي .

( الى ان تحامنني العشرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد )  
( رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذا الطرف الممدد )

( بني غبراء ) عني بهم الفقراء الذين ينامون على العبراء وهي الارض . (و أهل هذا ) الخ عني بهم الاغنياء و ( الطرف ) الخباء من جلد . يقول ان أكبر دليل على شرفه ومجده وحسن طريقته ان فريق الفقراء والاغنياء بألقوته ولا يتقرون منه : الاولون لغمره لهم بالعطايا والصلوات . واما الآخرون فشاركته لهم في الشرب واقتطاف اللذات . وما بقي من الناس غير هذين الفريقين فهم حسدة أغنياء .

( فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي )

( فان كنت ) أيها اللائم الحاسد من الفريق الثالث .

( ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم احفل متى قام غودي )

( هن من عيشة الفتى ) اي عيشته اللذيذة او المعنى هن مما تثوقف عليه لذة

عيشه يقول :

لولا هذه الاشياء التي هي منهي لذة الحياة وسعادتها عندني لما باليت الموت  
واذا كنت أرغب في الحياة واتمنى طولها فذاك لاني مولع بهذه الاشياء الثلاثة :

( فمن سبقي العاذلات بشربة كويت متى ما عمل بالماء تتربد )

( وكرتي اذ نادى المضاف - محبتاً كسيد الغضا نبتته المتورد )

( المضاف ) الخائف المدعور و ( محبتاً ) فرساً في عظامه اعطاف و ( السيد )

الذئب و ( المتورد ) العطشان واراد الماء .

( وانقصير يوم الدجن والدجن محبج بهكنة تحت الخباء المعمد )

( كرم يزوتي نفسه في حياته : ستعلم ان مننا غداً ايّنا الصدي؟ )  
و يظهر من هذا ان عرب الجاهلية كانوا يتأتمون من شرب الخمر و يعتقدون ان  
من يشربها في الدنيا يعطش في الآخرة .

( أرے قبر نحّام بخيل بهاله كقبر غويّ في البطالة . منسد )  
( النحّام ) الخيل لانه بنحّم اي يسعل كما سئل صدقة . و ( الغوي ) المستهتر لا بالي  
اللائمين . و ( المفسد ) المبدّر .

( ترى جثوتين من تراب عليهما صنائعُ صمّ في صفيحٍ منسد )  
( الجثوة ) كومة الحجارة و قوله في ( صفيح ) اي انك ترى القارين في جملة قبور  
منضدة كثيرة . و اذا كان قبر الخيل كقبر المنفق في ابداته . و كان مال كل منها  
أن تكون كومتان من صنائع على قبر يها فلماذا يسجل الخيل ولا يحذو حذو الغوي !

( عتاب ابن عمه مالك )

( يلوم و ما أدري على مَ يلومي ؟ كما لامني في الحمي قرط بن معد )  
( فمالي أراني وابن عمي مالك متى أدن منه يبا عني و سعد )  
( وأبا سني من كل خبر طلبته كأنّما وضعناه الى رأس ملحد )  
قوله ( كأنّما وضعناه الى رأس ملحد ) اي كأنّما وضعنا طلبنا و قد مناه الى ملحد اي ميت  
مدفون في اللحد .

( وان أدع للجلي أكن من حماها وان يأتك الاعدا: بالجهد أجهد )  
( أدع ) أي إن دعوتني يا ابن عمي و ( الجلي ) الحلب العظيم . بالجهد اي  
بمشقة لا تطيقها أنت و ( أجهد ) اجتهد في دفعها عنك .

( وان يقذفوا بالقذع عرضك أسقمهم بتراب حياض الموت قبل الهدد )  
اي اذا سبوك أبادرهم فاسقيهم من مشروب الموت وأوردهم حياضه قبل ان  
أهددهم بالاقوال . اي ان فعلي يسبق قولي .  
( فلو كان مولاي امرء أهو غيره لنرجح كرّبي أولاً نظري غدا )

( مولاي ) اي ان عمي وقوله ( لانظرنى ) اي لامهلي .  
 ( ولكنّ . مولاي امرؤ . هو خاتني على الشكر والتسأل أو أنامنتدي )  
 يقول ولكن ان عمي خاتني وآخذ بأكظامي على كل حال : سواء شكرت له .  
 أو سألته العفو . أو امتديت منه بمال .  
 ( وظلم ذوي القربى أسدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند )  
 ( فذرنى وُخّلتني إني لك شاكر ولو حل بيتي نائياً عند ضرعد )  
 اي اتركني على ما أنا عليه من الاخلاق والطباع : فانا راضٍ بها . ولا طاقة لي  
 بتغييرها . واذافعلت هذا يا ان عمي أكون شاكرًا لك . مهما كنت بعيداً عنك .  
 ولو في جبل ضرعد .

( حال ابيه معه وصبره عليه )

( يقول — وقد تروّ الوظيف وساقها ألت ترى أن قد آتيت بمؤيد )  
 ( تر ) سقط (الوظيف) مستدق الساق (ومؤيد) داهية يثقل وقعها على النفس  
 ( يقول ) اي ذلك الشيخ . وقد مرّ ذكره في الايات السابقة . قال الزوزني هو ابوه .  
 لكن ورد في ترجمة طرفة ان اياه مات وتركه صغيراً . وعلى هذا يكون المراد بالشيخ  
 عمه او وصي ابيه عليه .

( وقال : الا ! ماذا ترون تشارب شديد علينا بغيه متمعد ؟ )  
 اي وقال عمه ايضا لجلسائه المشاهدين عقر طرفة للنياق . ( ترون ) اي  
 تشيرون .

( وقال : ذروه إنما نفعها له والاتكفة واقاصي البرك يزدد )  
 كأن الشيخ بعدما استشار جلساءه عاد فقال : دعوه فان النياق إرته ونفعها عائد  
 اليه . فدونكم ردوا عليه تلك النياق القاصية الساردة البعيدة عنه . او التي أبعدناها  
 وأقصيناها نحن عنه . واني اخشى ان لم نفعلوا أن يزداد غضبه فيعقر النياق كلها .  
 ولا يبقى على شيء منها تشفيًا وانقمامًا .

## ( الأبيات المعلقة في المعلقة )

ما كان من هذا القبيل في معلقة طرفة قليل جداً ويمكن أن يُعدَّ منه قوله :

( جمالية وجناء تردي كأنها سفنجة تيري لاذعمر بد )

( كأن علوب النسع في دأياتها موارد من خلقاء في ظير قردد )

( وتبسم عن ألمي كأن منوِّراً تحلل حُرَّ الرمل دعص له ندي )

هذه هي النمودجات التي أحببت عرضها على مسامعكم أيها الأفاضل — من معلقة طرفة وهي نصف أبياتها . وإذا لاحظنا معها أن طرفة لما تألما كانت في حدود العشرين من عمره حكمتنا مع (ابن مقبل) بان طرفة اشعر الناس . أو لافع ( عمرو ابن العلاء ) بانه أشعر اصحاب المعلقات .



# الحسبة في الاسلام



لم يقصر العرب في شأن من شؤون المدنية بالسببة لاعصارهم وكما ارتقت حضارة الغرب وتوفر العاملون من ابناؤه اليوم على استخراج دفائن هذه المدنية العربية الاسلامية تجلي اما امور منها ما كنا نحن اصحاب تلك المدنية نعلمه من قبل . من المعلوم ان المدنية انتقلت الى العرب من الفرس واليونان والهند . ولكن جاء الاسلام بما فيه من العوامل القوية والنظام المدني البديع الذي استخرجه اهل الصدر الاول من روح الكتاب والسنة باجمل مدنية عرفها البشر وما نظمه مها ارتقى في الازمان الباقية يخرج عن حدها الا قليلاً .

لم يترك العرب بابا من ابواب المدنية الا وطرقوه ولا علماً من العلوم والصناعات الا وعانوه وبرزوا فيه . وقد تجلت مدنيتهم باحلى مظاهرها في فارس والعراق ومصر والشام والاندلس اكثر من غيرها من الاقطار التي هذبها الاسلام . وكانت العرب اساتذة انانها . والغالب ان قيام دول عظمى اسلامية في تلك الاقطار كان من اول الدواعي الى تجويد مدنيتها ورفع شأنها بين الامصار على اختلاف القرون والاعصار وللأقليم وطبيعته دخل كبير في نقيف العقول وتعويد القرائح الابداع والاختراع . ضاعت وأسفاه اوضاع مدنيتنا القديمة وتمدناتها لان العرب تمزقوا ونزفوا بعد استيلاء أناس من الفاتحين على بلادهم كانوا دونهم في سلامة الذوق وجودة الفطرة فافسدوا اخلاقهم بما حملوه اليهم من عاداتهم ونقايلهم المختلفة حتى اوصولهم الى درحة من الجهالة لو لم يتداركها في القرن الماضي محمد علي باشا في مصر وخير الدين باشا في تونس ومدحت باشا في الشام والعراق لاضمحل عمرانهم وباد سلطانهم .

وبعد فان النساظر في اصول الحسبة في الحكومات الاسلامية السالفة يعلم ان اجدادنا هيأوا لمدينهم وسكانها جميع ضروب الراحة والهناء وحاولوا ان يبعدها عنها

ما امكن الجور والشقاء . والحسبة بالكسر الاجر وهو اسم من الاحتماب اي احتساب  
الاجر على الله نقول فعلته حسبة واحتمب فيه احتساباً والاحتساب طلب الاجر  
وكانت الحسبة وظيفه دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو  
فرض على القائم بامور المسلمين يعين لذلك من يراه اهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ  
الاعوان على ذلك وبيحت عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويحمل الناس على  
المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات مع الخالمين زاهل السفن  
من الاكثار في الحمل والحكم على اهل المباني المتداعية بهدمها وازالة ما يتوقع  
من ضررها على السابلة والضرب على ابدي المعلمين في الكتابات وعزرها من الابلاغ  
في ضرهم للصبيان المتعلمين — قاله ابن خلدون وقال ابن تيمية: وهو آدم لا يعيسون  
الا باجتماع بعضهم مع بعض واذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد ان يكون بينهما ائتمار  
بامر وناه عن امر واولو الامر اصحاب الامر وذوو القدرة واهل العلم والكلام  
فلهذا كان اولو الامر صنفين العلماء والامراء فاذا صلحوا صالح الناس واذا فسدوا  
فسد الناس كما قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه الاحسبية لما سأته مابقاً نا على  
هذا الامر قال : ما استقامت لكم ائمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمتايخ واهل الزبوان  
وكل من كان متبوعاً فانه من اولي الامر .

وقال ابن الاخوة : الحسبة من قواعد الامور الدينية وقد كان ائمة الصدر الاول  
ببأسرونها بانفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها وهي امر بالمعروف اذا ظر تركه ونهي  
عن المنكر اذا ظير فعله واصلاح بين الناس والمحتسب من نصبه الامام ابن نائبه للنظر  
في احوال الرعية والكشف عن امورهم ومصالحهم وبياعتهم ومأكولهم ومشروبهم  
وملبوسهم ومسأكنهم وطرقاتهم وامرهم بالمعروف ونهيمهم عن المنكر .

وكانت الحسبة ( المقتبس م ٣ ص ٥٣٧ و ٦٠٩ ) في الحكومات العربية وحكومات  
الطوائف ضرباً من ضرور الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يكون من  
تسند اليه الا من وجوه المسلمين واعيان المعدلين ولا يحال بين المحتسب وبين مصلحته  
اذا رآها والولاية تسند معه اذا احتاج الى ذلك . وقد قسمت الحسبة الى ثلاثة اقسام :  
احدها ما يتعلق بحقوق الله تعالى والثاني ما يتعلق بحقوق الآدميين والثالث ما يكون

مستتركا بينهما ويمكن ان تقسم الحسبة الى دينية ومدنية فالديني منها بطل من بلاد الاسلام منذ اصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات . والمدنية استعيض عنها في القرن الماضي في البلاد العثمانية بالخبال البلدية وبقيت الحسبة معروفة في مصر الى اواسط القرن الثالث عشر . ولا عجب فمصر آخر ما اضمحل من اقطار العرب واول من نبض .

فالحسبة والحالة هذه اتدبه بديوان الشرطة والصحة والبلديات اعهدنا وكان المحتسب او صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المنكرة في الدين ويجازي عليها في الحال فينكر ما يجده مثلا من المنكرات في الاسواق ويتدبر على السوق والباعة في صحة الناطير والارطال والمثاقيل والدرهم والموزين والمكاييل والاذرع ويجري قواعد الحدة على الطحانيين والعلافين والفرادين والحسازين والسوائين والفتاقيبين والكبوديين والسوار بين والحزازين والرواسين والطباخين والشرايحين والهراسين وقلافي السمك والزلابسة والحلاويين والتمرايين والقطارين والشماعين واللبانين والبرازين . والدلائين والحلاكة والحياطين والرواسين والقطارين والحرييريين والصباعين والقتلانيين والكنائين والدياريف والذماتة والعماسين والحدادين والاساكنة والهباطرة وسمايرة العميد والجوارى والذراب والنبور والجمامات والسدارين (١) والفضادين والحريامين والاطباء والكنائين والحريين وهو دلي الصبيان والقومة والمؤذنين والوظا والحجيين وعلى اصحاب السفن والمراكب وبنات قدور الخزف والكيزان والناخرايين والعضار بين والابارين والمسلاطين والمرادنين والحناوين والامساطيين وعلى معاصر السرج والنزيت الحار والغرابيين والنباغيين والبططين والموديين والحصر بين والتبانيين والحسائين والقشاشيين والخجاريين والبتاريين والبنائيين الى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات وتدايس ارباب الصناعات .

(١) السدارين الذين يطعمون السدر وهو من المطبرات كالنابون اذا غش يضر ولا ينفع والناخرايون والعضار يون وهم الذين يصنعون السحاف (الزاري او السلطانيات) والمرادنون الذين يعملون المرادن آلات الغزل القديمة تعمل من ختم السادم او من السنط الاثر والمسلاتيون صانع المسلات .

وكانوا يختصون المحتسب بالنظر في امور احداها اراقة الخمر كلها وكسر المعازف واصلاح الشوارع وذلك باب كبير فيه مسائل احداها امر الميزاب والاوحال والارداغ والدكاينة على الباب ومنع جلوس الباعة عليها ومنع سوق الحمر والبقر للخشابين والاجر بين ونحوهم ومنع ربط الناس دوابهم فيها ومنع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع ومنع شغل هواء الشارع بالجناسح ويسمى ( برون داشت ) ومنع المبرز في الجوار بحيث تكون ازالة النجاسة منه بالوقوف في الشارع ومنع الظلة الى غير ذلك من المصالح مثل النظر بين الخيران في التصرفات المضرة كالنظر وسد الضوء الا فيما يرجع الى الملك كغصب قطعة من الارض ومنع اسبال الازار ونحوه على الكعبين وزحر الرجال عن التشبه بالنساء ومنع النساء عن التشبه بالرجال وامر الثبوليين بطهارة مائهم وثقبة نورتهم عن الحصة ومنع الناس عن تطهير الحمام ومنع البغايا وتعزيرهن ومنع اوليائهن ومواليهن وازواجهن وامر غير المسلمين بنظير الاراني التي يبيعون فيها المائعات من الدهن واللبن وامر الغسالين باقامة السنة واجتناب البدعة في غسل الموتى وحفر القبور والحمل وزجرهم عن الغلاء في اخذ الاجرة ونصب الصلحاء وذوي الخبرة بهذه الامور وتفحص الجامع يوم الجمعة والمصلى يوم العيدين راحلا وهما عن البيع والشراء ومنع الفقراء عن التجطي ومنع القصاص عن القصاص المتراة ومنع النساء السائلات عن الدخول في المصلى ومنع الصبيان والمجانين منه ودفع الحيوانات المؤذية عن العمرانات كالكلاب العقور والنهي عن النجس والامر بالتنظيف ومنع الناس عن الوقوف في مواضع التهم كتحدثت الرجال مع النساء في التوارع ومنع النقاشين والصاغين والصواعين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح (١) وكبر الصور ومنع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الاصنام والمعازف والصنج وبيع النبيذ والبخنج (٢) ومنع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة وخروج الناس الى زيارة بعض المذركين او بعض المساحد على متساوية الخروج الى الحج ومنع النساء عن التبرج والذرج بالخروج الى النظارات وزيارة القبور ومنع الناس عن التصرفات في المقابر

(١) المنهي عنه الصور المجسمة للتعظيم اما الصور النصفية فلا مانع منها .

(٢) البخنج كقنفذ عصير مطبوخ واصله بالفارسية .

بلا ملك ومنع المطلسة والسحار والكهان عن منكراتهم ونهي اصحاب الحمامات عن منكراتهم بتطهير المياه واخلاء الحمام عن المرء ودخول العراة فيه وامرهم باتخاذ الحجب بين الرجال والنساء ومنع الناس عن تعلم علم التنجيم مما لا يحتاج اليه في الدين وتمديق الناس الكهان والمنجمين ومنع الناس عن بدعة ليلة البراءة ومنع الناس اللعابين بالرد والشطرنج ونفريق جمعهم واخذ بساطهم وتماتيلهم ومنع القوابل عن اسقاط جنين الحوامل ومنع الجراحين عن الجب والحصا في الناس ومنع الناس من الاقامة في المساجد ووضع الامتعة فيها ومنع النبي اصابه الم عن التكلم بالغيب واجتماع الناس عنده زاعمين انه صادق في اخباره بالغيب ومنع الحطاط ومعلم القرآن ومعلم النحو باجر عن الجلوس في المساجد ومنع المعلم عن اخذ نبي باسم النيروز والمهرجان وينذر المحتسب \*علمي الكتمانين ان لا يضر نوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا في مقتل وكذلك معلمو العلوم بتخديرهم من التغيرير باولاد الناس ويقفون من يكون نبيء المعاملة فيهنونه بالردع والادب .

وكانت وظائف المحتسب تزيد ونقص بحسب البلد ولا تعدو وظائف المحتسب الامور المشتركة بين اهل كل مجتمع فالمحتسب في بيروت يقضى عليه ان ينظر في امور لا ينظر فيها محتسب دمشق مثلاً ففي بيروت يعنى المحتسب بالاحتماب على السماكين والملح والصير والبوري وقلأني السمك والطيور وصيداياها ونجاري المراكب ونقديرات المراكب وجميع المدن مستركة مثلاً في الحسبة على الصيادلة والعقاقير والاشربة والمعاجين والقلانسبين والمرازين وصناع التراك والاساكفة وصناع الخفاف وصنعة السرابات والزفاتين والبيجاتين والدهانين وغشهم والمكارين وغشهم وكساحي السباد وحمالته والغراييل ومناحل الشعر والوراقين والمهريجين وفيمن يكتب الرسائل على الطرق والرقاع والدروج وكتاب الشروط والولاة والقضاة وتدايسهم والميازيب ومضرتها والمراصد والمراقب وطباخي الولاثم والحامل وصناعها والزوايا والقرب الى غير ذلك مما كان يستدعيه مجتمعيهم ودينهم وعاداتهم ومدنيتهم .

وليس هذا كل ما يطلب من المحتسب فقد كان يطلب منه ان يسيطر على العقول ذكراين الاتير في المثل السائر من تقليد انشاء لمنصب الحسبة : ٠٠٠٠ واعلم ان

الناس قد امانوا سناً واحيوا بدناً ، ونفروا فيما احبوه من المحدثات تبعاً ، واطلم منهم من اقرهم على امرهم ، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ، فان السكوت عن البسعة رضا بمكانها ، وترك النهي عنها كالامر باتيانها ، ولم يأت بنا الله الا معيد الدين قائماً على اصوله ، صادعاً بحكم الله فيه وحكم رسوله ، ونحن نأمرك ان نضفح احوال الناس في امر دينهم ، الذي هو عصمة ما لهم وامر معاشهم ، الذي يتميز به حرامهم من حلالهم ، فابدأ اولاً بالنظر في العقائد ، واهد فيها الى سبيل الزرقة الناحية الذي هو سبيل واحد ، وتلك الزرقة هي السلف الصالح الذين لزموه واطن الحق فاقاموا ، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ومن عداه شعب دانوا ديانا ، وعبدوا من الالهوا اولئنا ، واتبعوا ما لم ينزل به الله سلطانا ، ولونسا : لار يسا كهم فاعرقتهم بيسايمه ولنعرفهم في لحن القول والله يعلم اعمالكم ، فمن انتهى من هؤلاء الى فلسفة فاقبله ولا تسمع له قولاً ، ولا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً ، وليكن قتله على رؤوس الاشهاد ، ما بين حاضر وباد ، مما تكدرت الشرائع بتبل مقانده ، ولا تدنس علومها بمثل اثر جهلته ، والمنتحي اليها يعرف بنكره ، ويسندل عليه بغلظة كفره ، وتلك ظلمة تدرك القلوب لا بالابصار ، وتظيرز يادتها وتقصها بحسب ما عند رانها من الانوار ، وما تجده من كنهها التي هي سموه ناعقة ، لا ناره ناعقة ، وافاعي مانفذة ، لا اقوال مؤلفه ، فاستأصل شأفتها بالتمزيق ، وافعل بها ما يفعل الله باهلها من التمزيق ، ولا يسمعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها ، واكتشف عن مكان اسرارها ، فمن وجدت في بيته فايء حذ جهاراً ، ولينكل بداتهاراً ، وايقل هذا من استكرا سنكجاراً ، ولم يرج لله وقاراً ، ٠٠٠٠

قلنا وتطبيق هذه التدة في بعض الحكومات الاسلامية وبالاسف قد دعى الى التناول على كل مخدائف وذهب كثير من ارباب العقل والفلسفة طعنة الضغط والاستبداد فتأخرت بذلك الامة واتسبه المسلمون في كثير من ايامهم المسيهين في القرون الوسطى بما منوا به من دعوى السعتر والكفر فأهلکوا باحكام دواوين المنتهيس المديني الوفا ذهبوا حزاء عقولهم التي ارادت ان تخرج عن مستوى محيطهم الضيق .

ومن اجمل البقايد تقليد رشيده الوضواط في الحسبة وفيه ان اولى الامور بان تصرف اعنة العناية الى ترتيب نظامه وتقصير غايات الهمم عن اتمية اتمامه امر يتعلق به تبات الدين وينعطف عليه صلاح المسلمين وهو امر الاحساس فان فيه ثقیف الزائفین

عن الحق وتأديب المنهكين في الفسق وثقوية اعضاد ارباب التسرع وسواعدها ،  
واجراء اعمال الدين على قوانينها وقواعدها ، وينبغي ان يكون منقلد هذا الامر موصوفاً  
بالبيان ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مرصد الرب ، بعيداً عن مواقف التهم والعيب ،  
لابساً مدارع السداد سالكا منافع الرئاد ٠٠٠٠ . وامرناه ان يجعل الزهد شعاره ،  
والتقوى دناره ، والعلم معلمه والدين مناره ، ثم يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر و يقيم  
حدود الشرع على موجب النصوص والاختبار ، ومقتضى السنن والآثار ، من غير ان يتسور  
الحيطان ، يتسلق الجدران ، يرفع الحجب المسدولة ، يكسر الابواب المسدودة ، و يسلط  
الابواب على دور المسلمين ، وحرّم المؤمنين ، حتى يغيروا على اموالهم ويمدوا الايدي الى  
عوراتهم واطفالهم ، و يظفروا ما امر الله بترده واحفائه ونهى عن اتاعته وافتائه ، فان عبادة  
الاولئان خير من ذلالت الاحتساب ، والعقوبة الالدية اولى تبياسره من الاجر والتواب .  
قال ان فضل الله في التعريف وصية محتسب : وقد ولي امر هذه الرتبة و وكل  
اليه النظر في مدائح المسلمين حسبة لله فلينظر سيئ البقيق والخليل والكثير والقليل  
وما يحصر بالقادير وما لا يحصر ، وما لا يومر فيه بغيره او يهني عن منكر ، وما يسترى  
و يساع ، وما يقرب بتعزير الى الجنة وبعده من النار ولو لم يكن قد بقي بينه وبينها  
الا قدر باع او ذراع ، وكل ما يعمل من المعاش في نهار اوليل ، وما لا يعرف قدره  
الا اذا نطق اسنان الميزان او تكلم فم الكيل ، ويعمل لديه معدلاً لسكل عمل ، و عياراً  
اذا عرضت عليه المعايير يعرف من جار ومن عدل ، ولينفقدا كتر هذه الاسباب ، ويجذر  
من الغس فان الباء اكثره من الطعام او السراب ، ليتعرف الاسعار ، ويستعلم الاخبار ،  
في كل سوق من غير اعلام لاهله ولا اشعار ، ليقيم عليهم من الامناء من يترب عنه  
في النظر ، ويطمئن به وان عاب اذا حضر ، و يأمره باعلامه بما اعضل ، ومراجعتهم مها  
امكن فان رأي مثله افضل ، ودار الضر والنقود التي منها نبت ، وقد يكون فيها  
من ازيف ما لا يظهر الا بعد طول البث ، فليتصد لها بصدده الذي لا يخرج ،  
وايعرض مها على المحك من رايه ما لا يجوز عليه بهرج ، وما يعلق من الذهب المكسور  
ويره بص من الفضة ويخرج ، وما اكلت النار كل لحامه ولا بعضه و يقيم عليه من  
جهته الرقبا ، و يقيم على شمس ذهبه من يرقب منه ما ترقب من الشمس الحرباء ، و يقيم

الضمان على العطارين والطريقة في بيع غرائب العقاقير الا من لا يستراب فيه وهو معروف، و يخطب مطيب ماهر لمريض معين في دواء. موصوف، والطريقة واهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة الى ساسات، ومن يأخذ اموال الرجال بالحيلة و يأكلهم باللسان، وكل انسان سوء؛ من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لانسان، امنعهم كل المنع، واصدعهم مثل الزحاج حتى لا ينتهر له صدع، وصب عليهم النكال والا فما تجدي في تأديبهم اداة التأديب والضعف، واحتم كل هذه المواد الحبيثة، واقطع مايحرم ضعفاء الناس من هذه الاسباب الرتيبة، ومن وجدته قد غش مسلماً، او اكل باطل درهما، او اخبر مشتر بزائد، واخرج عن معهود العوائد، اسيره في البلد، واركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الخلد، وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب وتاملت النساء وغيرهما من الانواع (؟) ممن يحاف من ذنبه العانت في سرب الظباء والاذر ومن يقدم على ذلك ومثله وما يجازر، ارشعهم بسهامك، وزلزل اقدامهم باقدامك، ولاتدع منهم الا من جربت امانته، واختبرت صيانه، والنواب لا ترضى منهم الا من يحسن نفاذاً، ويحسب لك اجر استنابته اذا قيل لك من استنبت فقلت هذا . ونقوى الله هي نعم المسالك، ومالك في كل ما ذكرناه بل اكثره الا اذا عملت فيه بمذهب مالك اه .

واقدم حدثنا التاريخ ان الناس كانوا يتولون الحسبة بانفسهم عندما تضعف الحكومات لان مصلحة اهل كل بلد لانتم الابدفع الاذى بعضهم عن بعض والنواصي بالحق والماهل في ذمة العالم والضعيف من حصص القوي . واهل البلد الواحد متضامنون بمعنى وضماً اذا لم يتضامنوا هلكوا وههيات ان تم للفرد فيه سعادة لانتناول المجموع .

نعم ان تلك الاوضاع قد باغت عند غيرنا في هذا العصر . بل ما عالياً من الرقي بفضل قاعدة توزيع الاعمال وكثرة الاختصاصين في كل فرع من الزروع التي تستد حاجة المدنية اليها ولكن ديوان الحسبة وحده كان يقوم باكثر هذه القومات في المدن الفاضلة فكانت الحسبة آخذة برقاب المنافع دافعة اعناق المضار . ومن الغريب ان عصرنا على رقيه لم يصل في بلادنا الى بعض ما كان يتمتع به اهلها في القرون الوسطى وهذا سر الفرق بيننا وبيننا الملمم العظيم .

محمد كرد علي

## الوبالة ( الملائيا )

« وكيفية الوقاية منها ( ١ ) »

ايها السادة :

انذبنى حضرة استاذنا الكبير رئيس المجمع العلمي المحترم لاحادثكم في هذا المساء فلم اجد بداً من الامتثال لرغبته فأثبت أفئس في حقيبتي عن موضوع يدور عليه محور كلامي فوجدتها حافلة بالمواضيع الطبية والعلمية والصحية . ولا عجب فهي بضاعة الطبيب ومنها يفتق ويفيد . وقد كنت اود لو انفسح لي الوقت فالتقي على مسامعكم سلسلة من المحاضرات في الفلاسفة الطبية والعنائب النسيولوجية والتشريحية التي تترأى المدقق حين تحجى كل خلية من الخلايا التي يترك منها هذا البناء البشري والنظر اليها وهي منبع نظاماً دقيقاً لا تخرج عنه حتى ليمتثل الانسان عندئذ ان في جسده تالماً آخر حديداً يتبع اطمة انى اعمالنا هذا الطاهر ان ياتلها دقة وانظاماً . ولكن البحث في تلك الموضوعات يستغرق طويلاً من الزمن ويستدعي عشرات من المحاضرات ارجي القاءها الى زمن آخر لانني أرغب رغبة شديدة بان اطلع ناستئنا الجديدة التي يرحى منها يقدم البلاد ورقمها على ما يحجى فيهم من الاسرار والعجائب الحارقات التي يقف عدها ا كبر مفكري العالم وهم لا يجدون لحل العازها سديلاً، وعار على الانسان ان يطمح بعقله الى إدراك ما يحيط به ومعرفته ما هو بعيد بالنسبة اليه وهو يجهل ما فيه من العوامض وغليداني اترك هذه المواضيع الى وقت آخر واخترام موضوعاً لكلامي في هذا المساء « الوبال. وكيفية الوقاية منها »

\* \* \*

موضوع رحب متسع الاطراف يتمكن الباحث من الحولان فيه ساعات طويلة

( ١ ) محاضرة الدكتور مرشد بك خاطر احد أعضاء المجمع العلمي ألقاها

في اول تموز سنة ١٩٢١

وموضوع جزيل الفائدة إذا روعي كان سبباً لنجاة مئات الألوف في هذه البلاد السورية وحدها على الرغم من قلة سكانها — ولست أريد ان أتي عليكم الآن درسا طبياً في هذه الحمى واعراضها وكيفية تكونها وعاملها المرضي واختلاطها وغير ذلك من الابحاث التي يطول بنا شرحها ولا يلد لكم سماعها لانها من الاختصاصات الطبية الصرفة والكتبي أحصر كلامي فقط بالقسم الصحي من الموضوع اي بالنقطة التي يجب على كل فرد من الامة طيباً كُن أم غير طيب ان يعرفها ويراعيها لان من الواجب على كل اسان أن يكون طيباً صغيراً أي طيباً في بيته يُدخل اليه من العادات كل حسن ويستأصل منه كل فاسد فإذا حصرت موضوعي بنقط ثلاث اكون قد بلغت الغاية التي اتوخاها فأولى هذه النقاط : حد الوبالة وأضرارها وانتشارها الجغرافي . ونايتها : طريقة انتقالها ولحذة في حيوة العامل الناقل . ونايتها : كيفية الوقاية منها .

الوبالة او (المالاريا) مرض عفني ناتج عن دخول الطفيلي — الذي اكتشفه لافران سنة ١٨٨٠ م. وسمي اسمه — الى دمه الاسان وهذا العامل أيها السادة متى وجد في الدم لا يرضى غذاء له الا اسرف ما في الاسان . لا يرضى الا بذلك العنصر الحيوي الاساسي ، تلك الكريات الحمراء التي تأخذ محضاتها الدموية (هاموغلوبين) او كيميائياً الهوا . تتمتع في الاسان وظيفته التمثيل والاحتراق وهي اس اكل حيوة بشرية وحيوانية ونباتية ومتى التهمت هذه الحرنومة تلك الكريات الحية المارة الحيوية في البناء البشري حدثت اعراض في البنية يطول بنا وصفها واهمها فقر دم عميق يليه ضعف كل وظيفة جسدية لان الاعضا التي في الجسد تحتاج الى غذائها وقوتها . وغذاؤها وقوتها يقومان بتقديمها الكريات الحمراء فإذا نقصت هذه الكريات عدداً أو اختلف تركيبها الكييمي فنقصت جوهراً مع محافظتها على عددها ضعفت الاعضا . جميعها التي تنقص غذاؤها فبدت في البنية اختلالات في الوظيفة أهمها ضمامة الطحال الذي يبلغ احياناً عشرة اضعاف حجمه العادي فمثلاً المطن يصل حتى حدود السنلى وترافقه غالباً ضمامة الكبد وهي وإن تكن أخف من ضمامة الطحال لان الكبد لاتتبع إلا نادراً ثلاثة اضعاف حجمها الطبيعي ، لا يزال حجمها المطلق أكبر من حجم الطحال لان وزنها يعادل اربعة كيلو غرامات مع ان وزن الطحال حين ضمامته

الكبرى لا يزيد على كيلو غرام واحد • هذا عدا التوشات العظيمة التي تطير في السكيتين والتي ( الخ العظمي ) والمراكز العصبية فيتمتع بسببها لوف الوحه ويعلوه تتحوب شديد فتذبل نضرة الوجنين ويشبه المصاب بهذه الوبالة انسانا نشر من بين الاموات •

هذه هي الوبالة أيها السادة وهذا تأبيرها رابية وهذه هي أضرارها الحسيمة وهذه هي أسقالها التي يرزح تحت وتمرها جسدا الي فاذا صورتها لكم بهذه الصورة التقرية أو مثلتها لكم بصورة سنالك عظيم يفك تلميذات انكربات في النقيقة الواحدة فاني لا أدرك الحقيقة • وكما ان ضحاياها في الحسد الواحد تعد بالملايين فلست أرفع اذا قلت ان ضحاياها في حسد الجوع السري لا نقل عدداً عن ضحاياها في البيسة الواحدة من ذلك الجوع فكيف من القرى التي اقمرت بتأثير الوبالة وكما من الجيوش التي أهدت لؤلؤها في البطائح والحرب الي مرت هي اكبر بردان على صحة ما أقول ولعل عدداً غير قليل منك أيها السادة رافق الجيوش التركية في غرواتها ووجد معها في تلك المستقعات السورية والفاستيبية والاباضوية والعراقية ورأى بأمر عينه تلك الموب الحيتة التي لم تكن لتمهل المصاب بها الا عتمرات من الساعات • وكما من المدن الي وهبتها الطبيعة من ماتها وجمالها ما ضمت به على سواها فاستفد من هبات الطسعة بل سودتها فجعلت الماء مرتعا للبعوض فكادت تلك الهبة من البلايا العظيمة على سكان تلك المدينة •

ولو نظرت بطورة عامة أيها السادة الى الكرة الارضية لوحدتم ان للوبالة مستعمرة في كل قارة من القارات فهي لم تترك مملكة الا عرست فيها عليها وشادت قلاعها وان من الممالك ما ناولها وألـ تليها الحرب الحامية الوطيس وأضعف سيطرتها وحصرها حتى كد يحرقها ويقاص ظلمها من ملاده ومثال هذه البلاد البلاد الاوربية فان فرسة مثلا بعد ان كذت تدفع لولؤ البصرائب السديدة توصلت اليوم الى نزع بيردا والقائه بعيداً وبعد ان كذت ولاياتها الواتعة في الوسط لا سيبا ( السولويه ) ( Sologne ) من البلاد الي متى فيها الوبالة أصبحت اليوم آمنة منها بفضل علماء الصحة الجبرين وهمة الحكومة وناطها وهكذا فان اوروبا جميعها قد خطت خطوة

كبيرة في هذا الامر فما يقال عن فرنسا ينطبق ايضاً على انكثرة والمائة وسواها حتى اننا لوزرنا البلاد الاوربية لا نرى الا اصابات قليلة لا تكاد تذكر في كورسكة ( Corse ) وساردانية واسبانية واليونان ولم يبق من البلاد الاوربية مملكة متأخرة عن خنق الوبالة الا البلاد الابطالية التي تكثر فيها المنافع ولا تزال هذا الحمى ضاربة فيها اطباها ومزيلة من وجنات شبيبتهما نضارة الحياة .

وكذلك اميركة فإنها قد حدثت حذو اوروبا في خطتها لا سيما الشمالية منها وهي، وان تكن لا تزال متأخرة في هذا العمل عن مجارة اوروبا القديمة العهد والريقة في العلم، قد أزلت قسماً كبيراً من سيطرة هذا البلاء في اميركة التماية لم تعد تذكر الوبالة الا في مقاطعات لوزيانا ( Lousiane ) وفلوريدا ( Floride ) وتاكساس ( Texas ) واركنساس ( Arkansas ) وجورجيه ( Géorgie ) واما في المكسيك فانها لا تزال مستولية استيلاءً غريباً كما انها في باهاما ونامتالا ( Guatémala ) وجزر الاتيل لا تزال سديدة الوطأة .

واما اميركة الجنوبية فلا تزال وكرا للوبالة فان البرازيل والبحره عدا الصرود منها، وغيوانه ( Guyanes ) وفنازوبلا وكولومبيه وبوليفيه نفستى فيها الوبالة نفسياً سديداً .

والقارات الاخرى من الكرة تلك القارات التي كتب لها التقاء لا تزال متأخرة ترزح تحت نير هذه الحمى وسواها من الاوبئة المنتشية فأفر بقيه على الرغم مما تبدل فيها من العناء لا تزال مرتعاً للوبالة ولا يجو منها الا المدن والقرى الواقعة على المرتفعات وان للمحيط تأثيراً كبيراً في نمو بوض البعوض الذي ينقل هذه الحمى ويجعل تلك البلاد رغم اليد العاملة فيها من اكبر الينابيع التي يتدفق منها هذا البلاء على البشرية لان هذه الحمى تهوى البلاد الحارة اكثر من الباردة .

واما اوقيانية ( جزائر الاوقيانوس الكبير ) فان اكثر جزرها لا تزال معرضة لهذه الحمى اخصها مالازيه ( Malaisie ) وجاوا ( Java ) وسوترا وبورنايو وموليك ( Moluques ) وفيلبين .

واما آسيا هذه القارة التي يخن فيها وتحت سمانها نجحاً فإنها القارة التي لم تخط حتى

الآن خطوة تذكر في سبيل التخلص من ربقة هذا المرض فان الكوشاشين وتونكين والقسم الشمالي الشرقي من الصين وكامبودج والعم وهندستان وسيلان ملوثة بالوبالة تلوثة لا يرجى منه شفاء الا اذا بذات الحكومة اقصى ما في وسعها في هذا الصدد . ولو نظرنا الى المحيط الذي نحيا فيه بعد ان أرسلنا بنظرنا الى أطراف الكرة الارضية لوجدنا أنفسنا في تأخر عظيم ولست أقصد ان أضع لكم الآن إحصاء عن الوبالة في كل مقاطعة من البلاد السورية فان هذه الاحصاءات لا وجود لها لسوء الحظ واذا وجدت فلا تكون حقيقية بل لا تكاد تبلغ عشر الارقام الحقيقية لان كثيراً من الاصابات لا يذكرها الاطباء فضلاً عن ان العدد الكبير من المرضى يتداوى عند الدجالين او عند نفسه فلا تصل اسماءهم الى ادارة الصحة العامة لتضع احصاءها الحقيقي . ولكني اقول كلمة موجزة تحققت صحتها بنفسى وبواسطة زملائي وهذه الكلمة تهكم معرفتها كما انها تهكم كل سوري ضنين بصحة اهل بلاده وهي ان ثلث سكان هذه المدينة وتلثي سكان القرى الجائرة لما يصابون بهذه الحمى .

ولو اخذت مقياساً لكلامي لفيقكم المجتمع هنا أيها السادة سألت كلاً منكم اذا كان أصيب بنوبة وبالة فمر بادوارها الثلاثة النراض ( العرواء ) والحارارة والرق لما وجدت عشرة في المائة سالمين منها مع انكم من الذين يمافظون على صحتهم ويراعون القواعد الصحية مراعاة دقيقة ولكن ليس الذنب ذنبكم . ولو اخذتم انتم على سبيل الاختبار اي مجتمع كان كما لو اخذ اب الامرة افراد أسرته ورئيس المدرسة عامة تلامذته ورئيس النائرة جماع مأموريه ورئيس النادي جميع اعضائه ومدير المعمل ليف مستخدميه لرأيتم ان النسبة تبقى محفوظة او تكاد . إذا اذا جعلت نسبة الاحصاءات ٣٣ بالمائة اكون قد وضعت رقماً دون الحقيقة .

هذا هو انتشار الوبالة في الارض أيها السادة رسمته لكم بايجاز فما هو السبب ياترى في انتقالها وما هو عامليها الناقل ؟ ان السبب الوحيد في انتقال هذه الحمى البعوض والتلرط الاساسي في حياذ البعوض هو المستنقعات والمياه الراكدة او ذات السير البطي فاذا أزلنا التلرط الثاني اتلنسا ببوض البعوض وقضينا على هذه الحمى وخلصنا هذه البلاد من مَرٍّ عظيم يتهددها ويذهب بقوة ابنائها . أجل : المستنقعات هي النقطة

الاساسية التي يجب ان نوجه اليها انظارنا ولو أخذت مدينة دمشق مثلاً على كلامي وذكرت لكم البطائح المتعددة النسيحة المحيطة بهذه المدينة والموجودة في ديارها للمعجم بعد ذلك لكثرة الوبالة وشدة انتشارها ما بيننا .

في دمشق مستنقعات فسيحة مملوءة سمّاً زعاقاً ينتشر في الفضاء ذلك العامل المائل فلا يدع منزلاً إلا يدخله ويقع سكنه بلقاحه المضر فمبها مستنقع (الجبانة) وجنبية النعنع والمرج والدفتردار) والزفتية والساحة والقاعة والمستنقع الواقع خارج بوابة الله قرب القدم والمستنقع الواقع في جوار مدافن النصارى واليهود والنهر الانهض الذي يتبدى من الشاغور ويمر بالحقلية والزفتية والساحة حتى المنزل — رحرح الغوطة الواقع نمرقي الشام . وفي ضواحي دمشق مستنقعات عديدة وبطائح تفسد الهواء الذي الواقعة قربها منها ثلاث بطائح قرب بحيرة العتبية والقرية المسماة باسمها تبلغ مساحتها ٢٤٠٠ متر مربع .

ومستنقع قرب قرية حران العواميد والمستنقعات المتكونة في سنيح جبل حرمان كالمستنقع الواقع على بعد خمسة كيلومترات من قطننا في ذلك الوادي الحصب . ومستنقعات عرطوز وسعسع المتكونة من نهر الاعوج وغير هذه من المستنقعات الصغيرة التي لا تعد وكلها ناتجة عن إخلال قنوات الانهر وتسرب المياه منها الى الاراضي المنخفضة ومتى عرفنا أنها السادة ان المستنقع يند صرره الى مساحة لا يقل قطر دائرتها عن ثلاثة كيلومترات وهي المسافة التي يقوى العوض على قطعها اذا كان الهواء هادنا ادر كذا اذ ذلك ان دمشق وقراها جميعا دخلت ضمن نطاق الوبالة .

ولا نظن ان نقيه المدن السورية أكبر حظاً من دمشق فلو أرسات بنظاري الى حصص وحمام وحسب التسفوف وقراها ولم أتجاوز حدود دولة دمشق لوجدت من المستنقعات عدداً عديداً بيت جرابيم هذه الحمى الذنائة وبميت الالوف ومئات الالوف من سكان القرى المجاورة منها :

مستنقع الغاب : ويسمى ايضاً غارة وجه الحنجر دعي غابا لكثرة ما يبيت فيه من الاعشاب المائية والقصب حتى أصبح حرجاً كثيفاً تأوي اليه الوحوش وهو بوردة الوردلة

تجيش فيه جيوش البعوض فتنتشر على الجهات المجاورة وتبعث بين سكانها سموها .  
طولاً ستة كيلو مترات وعرضه كيلومتران ونصف كيلومتر ومساحة سطحه الف  
وخمسة هكتار وسبب تكونه ارتفاع سطح المياه التي طغت من بحيرة القطينة على  
الاراضي المنخفضة الواقعة في الجهة الغربية .

ومستنقع نهر السبيح : الذي يدع تحت خرابة اسمها معين قائمة على سفح جبل  
لبنان الشرقي ويمتد هذا المستنقع على طول منحى النهر البطيء ويمتاز قري مطرية  
وسفرحه والناعم والبوينة الغربية ودبين والهدبي بمستنقع الغاب فيسم هواء هذه  
القرى كلها .

ومستنقع كنن قرب حمص بين سدّ أنشئ حديثاً للعاصي والحسر الحديدي الذي  
يمر فوقه قطار حمص وطرابلس الحديدي طوله خمسة مائة متر وعرضه خمسون متراً .  
ومستنقع الميلاس : وهو مئذنه مدينة حمص وسبب وبالتيها .

ومستنقع السبيح : وهو مستنقع آخر يكونه النهر متسع الاطراف ببلع طوله عشرة  
كيلومترات وعرضه عشرة أمتار ومساحة سطحه عشرة آلاف هكتار تحيط به  
قري العسارنة والعونية وجملة وتريمسة وصلبا والصفصافية . وهي من اعمال حماه  
وسلحب وجبرملة وديمو من اعمال قضاء الممرانية من منطقة العلوبين .

ومستنقع الغاب : وهو بطيحة أخرى غير البطيحة الاولى المسماة بهذا الاسم  
واقعة قرب حسر الشغور واسمها القديم بحيرة افاميا مساحتها اربعون الف هكتار  
وطولها ٤٠ كيلومتراً وعرضها عشرة كيلومترات وهي كناية في الاراضي الفاصلة بين  
حكومة دمشق وحلب وجبل العلويين تقع في اولها قرية العسارنة وهي من اعمال حماه  
وفي آخرها قرية قرقور من اعمال قضاء الشغور وتحتها قري جلاب وعمورين  
والسقيليه وقلعة المضيق ( وهي مدينة افاميا القديمة ) والتريفة وحوير والتويني  
والناصرية وقرقور وتل العار وحورات ورسم الحرن وتل كثرني وكريم والبارد  
ورصيف سطله . ومما زاد في الطين بلة إقامة سد في معبر المستنقع قرب قرية قرقور  
سميت بانسانه الحكومة العثمانية اشركة ملتزمي الصيد منعاً لمرور الجري (الخنكليس)  
من الفرار .

خطر عظيم يتهدد الأمة ونحن عنه متفاوضون وبلاءٌ جسيم سببته المياه الغزيرة ذلك العنصر الحيوي الذي يلقي الحياة حيث مرّ اذا احسن استعماله و يسبب الامراض والابوثة اذا لم يبدئه اليه ونحن عنه لاهون . خير لسورية ان تكون ظلماً وبنوها اشداء اقوياء من ان تندفق الجداول في كل منعرجاتها وتسيل المياه في دورها وبنوها مرضى ساجدون — وعارٌ علينا ان ندع تلك الهبة التي خصت الطبيعة بها مدينتنا ازاهرة نتقلب الى بلاءٍ وخطر . عارٌ علينا نحن أحفاد الامو بين ان نقف وقفة المنفرج إزاء هذا الخطر الحفي كأنّ الدم الذي يُلتمهم ليس بدم ابائنا والقوة التي تُبعثر ليست بقوة نسلنا ، لابل يليق بنا ان نضع حداً لهذا الداء وان نحمل اولي الامر على إتمام ما لا طاقة لنا بصنعه منفردين .

المستنقعات مضرّة أيها السادة لانها البيئته التي ينمو فيها البعوض و يلقي فيها بهوضه فلا تلبت هذه البهوض متى وجدت من الحرارة وركود الهواء ما يلائمها ان نفقس ونقلب الى سرفة فحشرة فبالغة . فتصبح قادرة على الطيران . وبهذه المناسبة أنبهكم الى امر اساسي خوفاً من الالتباس وهو ان البعوض يقسم نوعين مهمين وان نوعاً واحداً منها يحيا فيه عامل الوبالة وهذا النوع يسمى ( الانوفال ) . والنوع الآخر عديم الخطر يسمى ( كيلاكس ) . واليك بعض الاوصاف المميزة للانوفال عن الكيلاكس البالغتين : يكون جسم الانوفال عندما تحط على سطح مائل مكوّناً مع السطح الذي تستوي عليه زاوية تبلغ أحياناً الدرجة التسعين . واما الكيلاكس فان جسمها يكاد يكون موازياً للسطح فاذا رأيت بعوضة حاطة على حائط او سرير ووجدت ان رأسها اكثر انخفاصاً من ذنبها اي اذا وجدتها مائلة فاعلموا ان في خرطومها سماً زاعافاً وان لدغها لا يقل خطراً عن لدغ الافعي واذا رأيتها موازية للحائط او لسطح السرير فلا تحافوها فهي تلدغ وتؤلم مكان اللدغة ولا ينج عن لدغتها الا الم موضعي لا يلبث ان يزول وما قلته لكم من الاوصاف المميزة بين النوعين البالغين من البعوض نجد سببها له بين الحشرتين والسرفتين الا انني اضرب صمغاً عنها لان ما يقع تحت اعينكم من البعوض هو البعوض البالغ وقلما تندفعون الى تتبع البعوض في وكره والنظر الى سرفاته وهو على وجه المياه — فالانوفال اذا بعد ان تصبح قادرة على الطيران بقي الذكور منها قروباً من

الكان الذي ولد فيه فيتغذى بعصير بعض الاشجار واما أنتاه فانها نهمة لاترضى بسوى الدم غذاء لها فتفتنم فرصة الليل واستغراق الانسان في نومه فتهاجمه وتمتص من دمه غذاءها واما كانت لامتيز بين السليم والمريض فانها متى امتصت من دم مريض مصاب بالوبالة تأخذ مع الدم طفيلي الحبي وبهد ان ير هذا الطفيلي بأدوار متعددة في جسمها تقويه السليم مع اللعاب حين غرز خرطومها فيه والاغتذاء بدمه وهكذا يتم انتقال هذه الحمى من المريض الى السليم . وبدون البعوض لاسهل الى العدوى وبدون المستنقعات لاسهل الى حيوة البعوض .

وبان الانوفال هي العامل الناقل وهي المتح التي الوحيد الذي ينقل العامل المرضي من العليل الى السليم رأيت من الواجب ان اعطيكم ليمة عن حياتها واحلاقتها فاقول :  
 للبعوض دور من الحيوة يسمى الدر السرفي وهو الدور الذي يلي فقس البيضة ويسبق زمن البلوغ وهذا الدر من ادوار حياة الانوفال . أي صرف اي ان الانوفال تقويه في الماء . اذاً لأنوفال بدون ماء .

تنتج الانوفال المستنقعات الصغيرة حيث الماء نقي صافٍ لتاتي بهوضها فيها غيران ركود الماء ايس ترحنا لازماً فان الماء اذا كان هادئاً او خفيف الجريان كان موافقاً لها ايضاً وطلبه فان قسماً كبيراً من الانهر التي تحتترق دمسق مارة في بقع مستوية . من الارض او خفينة الميل يكون سيرها دادنا جداً حتى انه يخيل للناظر اليها انها بركة لا حريين فيها فهذه الغدران جميعها ملائمة كل الملائمة للانوفال وفيها تلقي بهوضها وتنتج نتاجها بئثات الملايين وما يقال في هذه الغدران يقال ايضاً في ضفاف الشواطئ التي سمو عليها الاتيبار المائية فتعوق سير الماء السريع وتولد قرب جذع كل شجرة مستنقعاً صغيراً لا بل تفضل الانوفال هذه المستنقعات الصغيرة على تلك نظراً الى قلة عمقتها وصا . ماثها وهذه كبيرة بدمسق تعد بئثات الالوف لان كثرتها معادلة لعدد الاتيبار النامية على الضفاف .

وكذلك المستنقعات المشبة والمستنقعات المائية الواقعة في الاراضي الخزفية وكل مستنقعات دمسق التي ذكرت اسماءها منذ هنية هي من هذين النوعين ، هي وسط موافق كل الموافقة لهمو الانوفال . ولا ننس ان البرك والمجاري الصناعية التي تحتر

في الجنائن والمنعرجات الواقعة في جوار الجداول وثقوب الحوافر الملقاة حول المسالخ والافتاق التي يحفرها السرطان المائي والجماع المائية مهاصرت لاسيما ما ينبثق عن فيضان خزانات الماء كما هي الحالة قرب خزان من خزانات ماء النجفة في دمشق وكسرات القناني وآنية الازهار وشقوق الصخور كل هذه اذا اجتمع الماء فيها كانت موافقة لنفوس البعوض وبكثرة واحدة فان الانوفال لا تترك بقعة ماء هادئة او راكدة الا تلتقي فيها ببوضها .

ولا نبعجبوا أيها السادة اذا أضفت الى كل ما مضى ما شاهدته بعض علماء النجفة المدققين في فلسطين وعلنا شاهدته نحن ايضا اذا جرتنا حب الاختبار الى التدقيق بان بعض الآبار البيئية نتخذها الانوفال مقرأ لها وتلقي فيها ببوضها فاملوا اذا ما أعظم صولة هذا العدو الخفي الذي يتهددنا وكم ينبغي ان نعد من العدد لثقاته وتحمير معاقله المتعددة . ولكن متى عرف الانسان مكان عدوه وادرك طريق عيشته ودرس اخلاقه جيداً سهل عليه الفتك به فمهما كانت الوظيفة شاقة فان من الواجب اللازم علينا ان نقوم بها لاننا بدونها لا نتوصل الى قطع شأفة الانوفال واذالم نبع العوض من هذا المحيط بقي هواؤنا ملوثاً واجسادنا غليظة مما توفرت الاسباب الصحية الاخرى لدينا فكلكم يعلم ذلك المصيف الجميل الذي يؤمه التساميون اصرف اتهم الصيم فيه وما هي عليه بلودان تلك القرية التي بيت على علو شامح فاحذت من الهواء تقيسه وأتلت بعنقها الى السهول المنبسطة على اقدامها فاخذت من ازهارها ذلك الشذا الشذي فغطرت به هواءها وانعست صدورسا كنيها ومع ذلك فلم يغبها موقعها الطبيعي ولا جودة هوائها شيئاً بعد ان أهملت مياهها فولدت مستنقعات في اراضيها أصبحت مأوى للانوفال ومصدراً للوبالة التي نفتت بين السكان والمصطافين في السنة الماضية حتى ان السواد الاعظم من المدين قصدوا تلك البلدة طلباً للصحة عادوا منها وقد علا وجناتهم اصفرار فقر الدم الوبالي ونهكت قواهم تلك الحمى الشديدة الوطأة . فاذا لم يدرك الحكومة امر هذا المستنقع ونفجره او تجففه في هذه السنة كان النجاع تلك القرية خطراً عظيماً على المصطافين .

وها انا امرٌ على النقطة الاخرى من موضوعي وهي كيفية الوقاية من هذه الحمى .

الوقاية من الحمى تقوم بأمور ثلاثة : اولها اتلاف سرفات البعوض وثانيها توقي البعوض البالغ حين وجوده وثالثها ادخال علاج الى الدم لا يتمكن طفيلي الوبالة من ان يعيش فيه وبكلمة أخرى جعل الوسط الدموي غير ملائم لحياة العامل المرضي .

اما الامر الاول اي اتلاف سرفات البعوض فيقسم قسمين قسم منه وهو الاكبر يترتب على الحكومة القيام به والقسم الآخر وهو الصغير يترتب على كل فرد من افراد الامة اتمامه . فواجبات الحكومة ان ترسم مصوراً مفصلاً للبلاد التي لنولى شؤونها وان تدرس درساً دقيقاً مجاري الانهر وما يتولد عنها من المستنقعات فتصلح القنوات اصلاًحاً منقماً وتجعل بناء السدود محكماً كي لا تتسرب المياه منها في الاراضي المنخفضة الواقعة تحتها ونظراً في امر المستنقعات المنفصلة عن مجاري الانهر فاذا كانت المياه التي تصل اليها قابلة للتحويل ، حولتها عنها لجففتها واذا لم تكن قابلة للتحويل ملاًتهاها أو ردمتها او حفرت فيها خنادق عميقة متصلة بمجرى من المجاري النهرية الاكثر قرباً منها تم غرست فيها اشجاراً سريعة النمو محبة للماء كتشجر الاوكالبتوس مثلاً فلا يبر عليها وقت قصير الا تجف وتصبح الانوفال عاجزة عن ان تجد لها مقراً لتلقي فيه بيوضها . ومن واجبات الحكومة ايضاً ان تصلح ضفاف الانهر وتجعل مجرى النهر عميقاً ونقثلع الاشجار التي تعوق سير الماء فلا تدع سبباً لتولد تلك المستنقعات الصغيرة التي ذكرتها لكم قرب حذع كل شجرة من الاشجار . ومن واجباتها ايضاً معاينة المسالخ وجوارها والمعامل وما يحيط بها والشوارع والازقة وخزانات المياه فلا تدع فيها مجماً صغيراً من الماء تتمكن الانوفال من القاء بيوضها فيه . ومن واجباتها وضع قانون يقضي على كل ملاك او مستأجر او مزارع ان يضع في البركة التي في داره او ملكه من زيت الكاز او التربنتينا كل اسبوع كمية مناسبة سطح تلك البركة اي كمية كافية لتكوين طبقة من الزيت على سطح الماء تمنع السرفات عن استنشاق الهواء ونقضي عليها وهي في اوكارها ونقدر هذه الكمية بعشرين سانتيمتراً مكعباً من الكاز في المتر المربع من الماء . وعليها ان تعين مأمورين صميين لهذه الغاية وان تعاقب العقاب الشديد كل من يجرأ على المخالفة : وعليها ايضاً ان تعين مياه الآبار وترى اذا كانت سرفات الانوفال عاتية فيها فتأمر بما يجفيفها او بوضع الكاز فيها عادة ايها كلبرك الموتة .

فواجبات الحكومة كبيرة أيها السادة واذا هي لم تبدأ بالعمل أولاً وثم بواجباتها فان ما يصنعها افراد الامة منفردين لا يأتي بالفائدة وان حكومتنا الماخصرة وان لم نتم حتى الآن واجباً من الواجبات الصحية المسؤولة عنها فانها قد وضعت القضية تحت الدرس ورسمت الخطط المنوي تطبيقها ولعل الغرامة الحربية التي جعلتها الحكومة المنتدبة تحت تصرف الحكومة الوطنية تصرف لهذه الغاية وكل آت قريب .

اما واجباتنا نحن أيها السادة فبسيطة للغاية يجب علينا ان نساعد الحكومة على اتمام ما تضعه لنا من القوانين الصحية . يجب على كل فرد منا ان ينظر نظرة دقيقة الى بيته فلا يدع في بستانه او داره مجمعاً من الماء الا ملاءه والتي فيه كزراً . يجب علينا ان ننظر الى المراحيض فان الانوفال وان تكن ترغب رغبة شديدة بالماء الصافي فانها لا تستنكف عن المالح او القذر فاذا وجدنا تلك المراحيض قد ولدت بمجامع مائية فيجب علينا ان نلقي كمية من الكاز فيها . يجب علينا ان نعتبر الاقسام المحيطة ببيوتنا كأنها ملك لنا يترتب علينا ان نحافظ عليها ثمافظتنا على مساكسا فنعاملها بمعامله دورنا ذاتها ونخفف عن الحكومة قسماً من الاعصاب . هكذا يصنع الشعب الراقى المتمدن في كل قطر من اقطار العالم .

واما الامر الثاني من الوناية وهو انقضاء البعوض البالغ حين وجوده فاننا لا نمحناج اليه الا اذا أهملنا الامر الاول كما هي الحالة اليوم في مدينتنا الناعسة ويقوم هذا الامر بوضع شبكة من الخيوط المعدنية الرفيعة على الابواب والنوافذ لانه يمكن البعوض من المرور منها ووضع كلات ذات شبكات رقيقة ايضاً على الاسرة ويجب ان تكون هذه الكلات طويلة كي تصل الى الارض وان نثبت حول السرير بقطع من الرصاص كي لا يرفعها الهواء فيدخلها البعوض ويجب علينا ايضاً ان نعاين الكلات في كل يوم فاذا حدث فيها تقب صغير يجب ان يرنق حالاً لان البعوض لا يدع منفذاً .هما كان صغيراً الا دخله . ان الكلمة أيها السادة كافية في حالتنا الماخصرة للتوقي من شر هذه الحمى الشديدة فمهما غلنا منها ومهما قيل فيها فان افعالها يعد جريمة لا تغفر . ومهما الحجت عليكم بتعميم هذه العادة الحسنة في المحيط الذي اُنتم فيه فلا آفي واجب التبشير بهذه القضية حقه . فليكن كل منكم رسولاً في بيته وبين اصدقائه ومبشراً

في كل مجتمع ومعلماً للسذج الذين لا يقدرّون هذا الامر قدسره فلا تمر مدة قصيرة لا يعمّ استعمال الكلات عند الفقير والغني فنتحسن اذذاك الحالة الصحية تحسنا يذكر يعود الفضل فيه اليكم .

وأما النقطة الاخيرة من الوقاية فنقوم بادخال علاج الى الدم لا يتمكّن طفيلي الوبالة من النمو فيه . وهذا العلاج أهبسا السادة يعرفه جميعكم ولكن قل من يستعمله منكم . هذا العلاج هو الكينين هو الدواء الذي يحق لنا أن نحفل اليوم به وبهله الماسي لان السدرات التي مرت على كسفه مائة سنة وسنة . وهذا العلاج الذي اوجده العناية الالهية سناء للوبالة له خاصة واقية أيضاً . فكما انه يطفى نار الحمى حين تاججها فانه يجعل ايضا المحيط الذي يدخله غير قابل للاشتعال . فهو رحمة للبشرية جاء بها بلاتيه وكفاننو سنة ( ١٨٢٠ ) وان التاريخ الطبي يحفظ مع الفخر اسمي هذين الكاشفين الجيدين اما استعمال الكينين للوقاية ففضلى طريقه طريقة لافران كاشف الطفيلي وهي نقوم باخذ عشرين سانتغراماً من كبريتات الكينين في كل يوم او اربعين سانتغراماً كل يومين مادام الفصل الحطر موجوداً . والفصل الحطر حسب تحديد علماء الصحة هو خمسة اشهر اولها حزيران وآخرها تشرين الاول هذا ما أريد أن أقوله لكم أهبسا السادة عن الوبالة وقاكم الله منها بفضل ما أسدي اليكم .  
النصائح المفيدة والسلام عليكم .



## الحباية في الشام (١)

أهم مسألة في قيام الدول وسقوطها ان نفرض الاموال على الرعايا بالعقل وتبني منهم بالعدل ويحسن التصرف في انفاقها على المصالح العامة . وقد كانت الحكومات الاسلامية تعنى بهذا الشأن ككل العناية وكانت اذا غنات عن هذا الامر المهم ايام ضعفها تكثر الثورات أو ينقطع عن العمل الرغبات فتحرب البلاد وتنتشر الفوضى ونعم البلوى .

اعتمدت العرب أول البيع في تنظيم دواوين اموالها على الروم في الشام ينظرون لهم في مسائل الدخل والحرج ووضع التوازن بحسب عرف تلك الايام وذلك لان العرب كانوا لأول امرهم نصف أميين اء نصف متحضرين وأهل الشام اعرق منهم في الحضارة وما ينبغي لها حتى كان زياد يقول ينبغي ان يكون كتاب الحراج من رؤساء الاناجم العالمين بأموال الحراج .

ولقد كان الاسراف يبدؤ في الاموال ايام الدرف والنعيم وتقبل الاقتصاد فيها على عهد الحدت والاصلاح وذلك يرجع على الاغلب الى من يتولى امر الامة من خليفة او سلطان او ملك او امير فاذا صلح الرأس صلح الجسد كله . واذ كانت دواعي الاتفاق محصورة داخل البلاد وكان القدر أقل من هذه الايام بالطبع والذين في ضبط الشؤون الاقتصادية لم يبلغ مبلغه في القرون الاحيرة وحركة المعاملات والمقايضات محدودة وأضعف من العصور الحديثة كانت المسائل المالية لعهد العرب الى السداحة لأول الامر شأنهم في عامة أمورهم .

والحباية أول الدولة كما قال ابن خلدون تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة فان كانت الدولة على سنن الدين فليست الا المعارم التمرعية من الصدقات والحراج والحزبية وهي قليلة الوزائع لان مقدار الزكاة

من المال قليل وكذا زكاة الحبوب والماتية وكذا الجزية والحراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا نعدى وإن كانت على سنن التغلب والعصبة فلا بد من البداءة سيئ أولها . والبداءة تقتضي المسامحة والكرامة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر . قال والدولة تكون في أولها قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وانفاقها قليلا ويكون في الحباية حينئذ وفاء باز يد منها بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث ان تأخذ بيد الحضارة في الترف فيكثر لذلك خراج اهل الدولة ويكثر خراج السلطان خصوصا كثرة بالغة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع ويستحدث أنواعا من الحباية يضر بها على البياعات وينرض لها قدرا معلوما على الاتقان في الاسواق وعلى أعيان السلع في المدينة .

وعد فلا يتصل بنا سند صحيح عن مقادير الحباية في هذه الديار قبل العرب أماعلى عهد حكومتهم فكانت الحباية في التسدر الاول تجمع من الحراج والعشور والصدقات والحوالي أي الجزية أي ان لها اربعة موارد رئاسة ثم صارت اصول جهات الاموال السلطانية عشرة الحزبية والحراج والعشور والاجور والزكوات وأتت المبيعات والمقاسم والغنمة والبيء والمعادن . وزادت أنواع الحباية على عهد انحطاط هذه البلاد وسي المتعلبون أو الفاتحون « ان تكثر الممالك ماله بأموال رعيته بمنزلة من يخدم سوطه بما يقتلعه من قواعد بنيانه » .

قال الظاهري : ان كثرة الاموال وقتلتها بقدر المعرفة باحتلابها من جزى مقررة ، ومتاجر معصرة ، وأخرجة محضرة ، وعشور محررة ، وقسم مقدرة ، وغنائم موفرة ، وفي من جهات غير منحصرة ، هذا الى زكوات واحبة ، وأحور لازمة ، وديات دماء ذاهبة ، ومحور مباحات راتة ، واستخرج معادن غير باهية ، وعدادع سائمة لاسائبة ، ووظائف على أكرة عاملة ناصحة ، الى غير ذلك من تربيع مزارع ، وتوزيع قطائع ، وتوسيع مراتع ، وتربيع مواضع ، وترجع طوالع ، وهذه جهات أموال جعل التسرع بيد السلطنة زمام استخراجها ، ويمكن من استينابها اسلوك دار يقها ومنهاجها ، وفوض فيها حقوقا تجب رعايتها ، عند صرفها واخراجها ، اه .

وقال العزالي : وكل ما يحمل للسلطان سوى الاحياء وما يشترك فيه الرعية

قسان قسم مأخوذ من الاعداء وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر والنبيء وهو الذي حصل من ملهم في يده من غير قتال والجزية واموال المصالحة وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقدة والقسم التسائي المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه إلا قسبان الموارد وسائر الاموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك والاقوات التي لا تمولي لها اما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان — اي في القرن الحامس — وما عدا ذلك من الحراج المضروب على المسلمين والمصادرات وانواع الرسوة كلها حرام . وقال ايضا ان اموال السلاطين في عصرنا حرام كلها او اكثرها وكيف لا والحلال هو الصدقات والنبيء والغنيمة ولا وجود لها وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ولم يبق الا الجزية وانما تؤخذ بانواع من الظلم لا يحل اخذها به فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط ثم اذا نسبت ذلك الى ما ينصب اليهم من الحراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشره .

واول شيء من المال فرض على اهل دومة الجندل وهي في طرف الشام ومعدودة منه يعرف من الكتاب الذي ارسله النبي صلى الله عليه وسلم مع حارثة بن قطن الكلابي من اهل دومة الجندل يقول فيه : هذا كتاب من محمد رسول الله الى اهل دومة الجندل وما يليها من ضوانف كلب انا الناجية من النخل ولكم الصامنة من النخل على الجارية العشر وعلى الغابرة نصف العشر لا تجمع سارحتكم ولا تعد فاردتكم نقيمون لوقيتها وتؤتون الزكاة بحقيها لا يحظر عليكم النبات ولا يؤخذ منكم عشر السمات لكم بذلك عهد الله والميثاق واسما عليكم السبع والرفاه وذمة الله . رسول الله شهد الله ومن حضر من المسلمين اه .

واختلف مقدار الجبايات باختلاف العصور وكان لاول الفتح ضرب الحراج على الارض والجزية على الرقاب وراعى الخليفة الثاني حال الشام فعمل في نواحيها غير ما عمل في غيرها من البلاد التي فتحت في عهده راعى في كل ارض ما تحمله وكانت الجزية في بدء الامر ديناراً في كل حول على كل جمجمة (١) ثم وضعها عمر بن

(١) يقول لامنس ان الرومان ضربوا الجزية على اهالي سورية على المذكور من سن الرابعة عشرة وعلى الاناث من الثانية عشرة الى سن ٦٥ من عمرهم جميعاً وفرضوا عليهم

الخطاب على الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهماً وجعلهم طبقات لغنى الغني وإقلال المقل وتوسط المتوسط وقيل جعل على كل رأس موبسرتانين وأربعين درهماً ومن الوسط أربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً والجزية تؤخذ من غير المسلمين والخراج يشترك فيه كل من يملك أرضاً . وصالح ابو عبدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على ان تترك لهم كنائسهم وبيعهم وعلهم ارشاد الضال وبناء القناطر على الانهار من أموالهم وأن يضيفوا من مراء بهم من المسلمين ثلاثة أيام وصالحهم عمر على ضيافة من مراء بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبيح شاة اودجاجة وتبيت دوابهم على غير شعير وجعل ذلك على اهل السواد دون المدين .

خراجاً جبوه من الاملاك ببلغ في المئة واحداً ورسموا ايضاً ضرائب ومكوسا على الواردات والصادرات من السلع الا ان هذه الرسوم مع تقابلها كانت أخف على عائق السوريين من المغارم والسخر التي حملهم إياها ملوكهم سابقاً وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي أي آن تساؤوا اه .

وقال غيره كان أهل الولايات الرومانية يؤدون للرومان الجزية وعشر غلاتهم وإتارة من المال ورسمًا على كل رأس ونالهم أن يخضعوا لجام مايوأمرون به قال شيشرون ان الولايات أملاك الشعب الروماني فاذا احضع هذا الام بأسرها لسلطانه فذلك طمعاً بفائدتها لا لاجل منفعة الشعوب ولذلك لا يتوخى ان يدير تلك الولايات بل يحرص على استثمارها . نالوا وكان للشعب الروماني في كل ولاية مواد مهمة من الجراك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزراع الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متعهدين يسمونهم العتارين بتناعون من الحكومة حق جباية الخراج ويجب على سكان الولايات أن يطيعوهم كأنهم وفود الشعب الروماني ويتناول هؤلاء العشارون اكثر مما يجب لهم أحذه يسلبون الاهلين وكبيراً ما كانوا يبيعونهم كما يباع الرقيق . نال سنيوبوس وكثيراً ما كانوا يأخذون في آسيا حتى السكان بدون سبب وجمع الرومان في بلادهم ثروات الامم المغلوبة ولذلك كانت الدراهم كثيرة جداً في رومية ونادرة كل الندره في الولايات واضطر سكان الولايات أن يبيعوا حتى التجف والظرف . وقد شوهد أبوان يبيعان ابناهما وبناتها .

ولما مسح عمر السواد وضع على كل جريب (١) عامر او غامر يناله الماء بدلو او بغيره زُرع او عطل درهماً و قفيزاً (٢) واحداً والغى عمر النخل عوناً لاهل السواد واخذ من جريب النكرم عشرة دراهم ومن جريب السمسم خمسة دراهم ومن الحضرم من غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم ومن جريب القطن خمسة دراهم ثم حمل الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً وعلى كل الف اصل كرم مما قرب ديناراً وعلى كل الف اصل كرم مما بعد ديناراً وعلى الزيتون وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك ومادون اليوم فهو في القرب وحملت الشام على مثل ذلك . وقد ذكر عن بعض اهل المدينة واهل الشام انه تخرج زكاة الحضرم من اثمانها على حساب مائتي درهم خمسة دراهم . ولما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا اشداء على عدو المسلمين وعوناً للمسلمين على اعدائهم فبعث اهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجلاً من قبائلهم يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم فكتب ابو عبدة الي كل وال ممن حلفه في المدن التي صالح اهلها يأمره ان يرد ماجبي منهم من الخزية والحراج وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما ردنا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع

(١) الجريب عسرقصات في عسرقصات والقفيز عسرقصات في قصبه والعسير قصبه في قصبه والقصبه ستة اذرع فيكون الجريب ثلاثاً آلاف وستائة ذراع مكسرة واما الذراع فسبعة اصناف وهو يختلف باصطلاح كل بلد وقطر . (٢) القفيز مكيال ثمانية مكايك جمع مكوك وفي القساموس المكوك مكيال يسع صالحاً ونصفاً او نصف رطل الى ثمان اواقي او نصف الوابة الوابة اثنان وعشرون او اربعة وعشرون مداً بمذ النبي صلى الله عليه وسلم او ثلاث كيلجات والكيلجة تسع مناً وسبعة امان مناً والمما رطلان والرطل اثنان عشرة اوقية والاوقية اسيار وتلثا اسيار والاستار اربعة متاقيل ونصف والمتقال درهم وتلاثة اسباع درهم والدرهم سنة دوانق والدانق قيراطان والقيراط طسوجان والطسوج حبتان والحبة سدس تين درهم وهو جزء من ثمانية واربعين جزءاً من درهم .

وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا تقدر على ذلك وقد ردونا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم . فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الاموال التي جبوها منهم قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم يردوا علينا شيئاً واخذوا كل تى بقي لنا حتى لا يدعوا شيئاً .

اول من وضع العشور عمر لقوله عليه الصلاة والسلام ليس على المسلمين عسر وانما العشور على اليهود والنصارى وقال يا معشر العرب احمدوا الله الذي وضع عكم العشور . ولا تؤخذ الصدقات الا مرة في السنة الا ان يجد الامام فضلاً . وفرض عمر سنة خمس عشرة الفروض ودون الندواو بن واعطى العطايا على السابقة في الاسلام وفرض لاهل الشام الفين الفين وكانوا يسمون بالجمعون من الغنائم الا قباض ويقسمونها بين الفاتحين . و امر عمر عثمان بن حنيف لما ارسله لمخ السواد ان لا يمسح تلا ولا أجمة ولا مستنقع ماء . ولا ما لا يبلغه الماء ولما فرض على الرقاب وجعل على من لا يجده اي النقيب اتني عشر درهماً في السنة قال درهم في الشهر لا يعوز رجلا وكان يأخذ الجزية من اهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم وكذلك فعل علي . ذكروا في العمى والحراج ان من صولحوا اذا عجزوا يخفف عنهم وان احتملوا اكثر من ذلك فلا يزداد عليهم وان تظالموا فيما بينهم حملهم امام المسلمين على العدل ووضع ذلك الصلح عليهم جميعاً بقدر ما يطيقون في اموالهم وارضيتهم ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات ولا لاسلام من اسلم منهم ويؤخذ بذلك كل من بقي منهم ما كانوا يطيقونه ويحتملونه قاله يحيى بن آدم . كتب عمر الى سعد حين افتتح العراق : اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم مغانمهم وما افاء الله عليهم فاذا اتاك كتابي هذا فانظر ما احلب الناس به الى العسكر من كراع او مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء وقد كنت امرتك ان تدعو الناس الى الاسلام فمن أسلم واستجاب لك قبل القتال فهو رحل من المسلمين له ما لم وله سهم في الاسلام ومن استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل المسلمين وما له لاهل الاسلام لانهم قد احرزوه قبل الاسلام . ولما ولي عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن جذيم حص

وما يابها من الشام كتب اليه كتاباً يوصيه فيه بتقوى الله والجد في امر الله والقيام بالحق الذي يجب عليه . ويأمره بوضع الحراج والرفق بالرعية فأجابه سعيد بن عامر على نحو من كتابه . ولما طعن عمر قال : أوصي الخليفة من بعدي باهل الامصار خيراً فانهم جباة المال وغيظ العدو وردء المسلمين وان يقسم بينهم فيئهم العدل وان لا يحتمل من عندهم فضل الا يطيب انفسهم . واوصى الخليفة من بعده باهل النمة وان يوفي لهم بعهدهم وان يقاتل من ورائهم وان لا يكلفوا فوق طاقتهم . وكن كثيراً ما يصادر عماله و يجعل اموالهم في بيت المال فمن صادر خالد بن الوليد فاتح الشام لانه اجاز رحالاً اتبعوه منهم الاشعث بن قيس اجازه بعشرة آلاف وسأله عمر من اين هذا الثراء قال : من الاتفال والسهمان مازاد على ستين ألفاً فلك فقوتم عمر ماله فزاد عشرين ألفاً فجعلها في بيت المال .

قال الصولي في ادب الكتاب : ارثنع خراج التام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه خمسمائة الف دينار فلما أفضى الامر الى معاوية قطع الوظائف على اهل المدن فوظف على اهل قنسرين اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماع من ذلك الثمان وعلى اهل دمشق اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماع من ذلك الثمان وعلى الاردن مائة وثمانين الف دينار على الجماع من ذلك الثمان وعلى فلسطين مائة ذلك ثم جعل بعد ذلك يصطفي الارض الجيدة و يدفعها الى الرجل بخراجها وعلوجها والنراج على اصله لا ينقص منه شيء .

وقد تغير الحال على عهد الخليفة الثالث لانه نشأت له تروة واعطى بعض ولاته حريتهم ومنهم معاوية بن ابي سفيان فصاروا يجمعون المال و يهدرونه وقد دفع هو الى ثلاثة انفس من قريش زوجهم بناته ثلاثمائة الف دينار فيما قال المسعودي لكل واحد مائة الف دينار وأقطع بني أمية قطائع لمصلحة تعود على المسلمين لان تلك الضياع كانت خراباً لا عامر لها فلبيا الى من يعمرها و يؤدي الحق عنها واقنى هو وجماعته الضياع والدور وكن في نهاية الجود والبذل في القريب والبعيد فسلك عماله وكثير من اهله طريقته وتأسوا بفعله وكان عثمان على ما يظنر على تبيء من السعة قبل الخلافة وكثرت في ايامه اموال الاتفال والغنائم بكثرة النتوح .

والغنيمة ما غلب عليه المسامون بالقتال حتى يأخذوه عنوة والنبي ما صلحوا عليه من الجزية والخراج . قال الذهبي في حوادث سنة ٣٢ : ان الدنيا اتسعت على الصحابة حتى كنّ النرس يشتري بمئة الف وحتى كان البستان بالمدينة يباع باربعائة الف وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والاموال والناس يجي اليها خراج المالك وهي دار الامارة وقبة الاسلام فبطر الناس بكثرة الاموال والخييل والنعم وفتحوا اقاليم الدنيا واطمأنوا ونفروا هـ .

واراد الخليفة الرابع ان يرجع في معاملة العال الى طريقة الشيخين ابي بكر وعمر الا انه لم يوفق الى ذلك واستأثر معاوية بامارة الشام عشرين سنة وبالخلافة عشرين سنة وما كان اعلي بل ولا لعتان حكم على هذه الديار مع معاوية الداوية الذي دعي بكسرى العرب لكثرة أهبته ونفقتة وكانت بذل المال لمن وافقه ولمن خالفه فانشأ للأموال بين ملكاً بالشام توارثوه وبنوا القصور والمصانع والمرافق وهذا لا يكون بالطبع الا بتوفر الجباية والتطلع ولو بعض الشيء الى ما في ايدي الناس من الاموال والاعضاء عن بعض الحقوق ولا مجال للانكار ان من خاسر الامور بين من كانوا يجورون على الرعية ومنهم من كانوا يقطعون انفسهم او بعض ابناء بيتهم او خاصتهم الاقطاعات الكثيرة . والجباية كانت تكثر في عهد العادلين اكر من زمن الجائرين وما نقص من مال السلطان زاد في مال الرعية . والاقطاع اقطاعان تملك وهو موات وعامر ومعادن واطقاع استغلال وهو عشر وخراج . والمقاح البلد الذي لا يؤدي الى الملوك الاربان والاربن هو الخراج وهو الاتاوة . قال مكحول : كل عشري بالشام فهو مما جلا عنه اهله فاقتطعه المسلمون فاحيوه وكان مواتاً لا حق فيه لاحد فاحيوه باذن الولاة . واول من اقطع الارضين وباعها عتاف ولم يقطعها ابو بكر ولا عمر ولا علي .

اوصى الخليفة الرابع احد عماله باهل عمله فقال : اذا قدمت عليهم فلا تبعن لهم كسوة شتا . ولا صينا ولا رزقا بأكلونه ولادابة يعملون عليها ولا تضرب احد منهم سوطاً واحداً في درهم ولا تنمه على رحله في طلب درهم ولا تبع لاحد منهم عرضاً في شيء من الخراج فانما أمرنا ان نأخذ منهم العفو . وكتب للاشتر النخعي : ونفقد امر

الحراج بما يصلح اهله فان في اصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لان الناس كلهم عيال على الحراج واهله وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استجلاب الحراج لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الحراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم امره الا قليلا فان شكوا تقلا او علة او انقطاع شرب او وباللة او إحالة أرض اعتمرها غرق او أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجوا ان يصلح به امرهم ولا يثقان عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزبين ولا يتك مع استجلاب حسن ثنائهم وتبجحك باسئفاضة العدل فيهم متمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم فر بما حدث من الامور ما اذا عوت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة انفسهم به فان العمران محتمل ما حملته وانما يوتي خراب الارض من اعواز أهلها وانما يعوز أهلها لانفس الولاية على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة ائتماعهم بالعبراه .

هكذا كان قانون آخر الخلفاء الراشدين وهو من اهم القوانين في اصول الجباية الا ان الامو بين الذين قابوا الخلافة الى ملك عضوض كانوا يعتمون بتوفير الجباية مع الظلم ليتمكنوا من اعمال العمران التي اقاموها واطعام الحيوش التي فتحوا بها القاصية وكانت الجباية نقل عندما ينكسر الحراج فلا يحمل شيء كثير منه للخط او زلزال او وباء . واقد كان عمال معاوية يحملون اليه هدايا النيروز والمبرحان فيحمل اليه في النيروز وغيره وفي المبرحان عشرة آلاف الف . وهدايا النيروز والمبرحان مما رده عمر بن عبدالعزيز كما رد السخرة والعطاء على قدر ما استحق الرجل من السنة وورث العيالات على ما جرت به السنة غير انه اقر القطائع التي اقطعها اهل بيته والعطاء في الشرف لم ينقصه ولم يزد فيه وزاد اهل الشام في اعطياتهم عشرة دنائير ثم رأى ان ينكثها وسماها مظالم . وكتب الى عماله عامة : « اما بعد فان الناس قد اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله وسنن سيئة سننها عليهم عمال السوء فلما قصدوا قصد الحق والرفق والاحسان » . وبقي العطاء على حاله حتى تقص يزيد بن الوليد الناس من عطائهم فسمي يزيد الناقص .

وبما كان عمر بن عبد العزيز يقول لأسامة بن زيد وكان على ديوان الجند بدمشق لما بعثه سليمان بن عبد الملك على مصر يتولى خراجها : ويحك يا أسامة انك تأتي قومًا قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل فان قدرت ان ننعشهم فانعشهم كان سليمان يقول لعامله أسامة : احلب حتى ينفيك الدم فاذا نفاك فاحلب حتى ينفيك القيح لا تبقىها لاحد بعدي . فعمل أسامة في مصر اعمالا جائزة حتى استخرج من اهلها اثني عشر الف دينار .

اما عمر بن عبدالعزيز فانه لما ولي الخلافة جعل لا يدع شيئًا مما كان في ايدي اهل بيته من المظالم الا ردّها مظلمة مظلمة خطب على المنبر ذات يوم فقال : اما بعد فان هؤلاء يعني خلفاء بني أمية قد كانوا اعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا ان نأخذها منهم وما كان ينبغي لهم ان يعطونا اياها واني قد رأيت الآن انه ليس عليّ في ذلك دون الله حساب وقد بدأت بنفسي والاقرابين من اهل بيتي اقرأ يا مزاحم جعل مزاحم يقرأ كتابا كتابا فيه الاقطاعات والضيايع والنواحي ثم يأخذ عمر بيده فيقصه بالحلم اي المقراض .

ولقد اجتمع اليه بنو أمية لما عزم عمر بن عبدالعزيز على اخذ ما في ايديهم من حقوق الناس ورده على اهلهم واكلوه فقال : انكم اعطيتم في هذه الدنيا حظًا فلا ننسوا حظكم من الله واني لاحسب سطر اموال بني الدنيا وأمة محمد في ايديكم ظلماً والله لا تركت في يد احد منكم حقاً لمسلم ولا معاهد الا ردده . قال ابن سعد لما ولي عمر بن عبدالعزيز وضع المكس عن كل ارض ووضع الخزينة عن كل مسلم واباح الاحماء كلها الا النقيع وفرض عمر بن عبدالعزيز للناس الا للتاجر لان الساجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمه بين وسوى بين الناس في طعام الجار وكان اكثر ما يكون طعام الجار اربعة ارادب ونصف لكل انسان . وكتب الى احد عماله ان استريء الدواء ين فانظر الى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم او معاهد فردها عليه فان كان اهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه الى ورتتهم وما زال عمر بن عبدالعزيز يرد المظالم من لدن معاوية الى ان استخلف . اخرج من ايدي درنة معاوية ويزيد بن معاوية حقوقًا . وكتب عمر بن عبدالعزيز الى عدي بن ارضاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين : اما بعد فانظر اهل الذمة فارفق بهم واذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه فان كان له حميم فمر حميمه بنفق عليه وقاصه من

جراحه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بعد من ان تنفق عليه حتى يموت او يعثق .  
وكتب اليه ان ضع عن الناس المائدة والتوبة والمكس ولعمري ما هو بالمكس ولكنه  
البنس الذي قال الله ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدین فمن  
أدى زكاة ماله فاقبل منه ومن لم يأت بالله حسيبه . وحرّم عمر بن عبد العزيز الكلاء  
في كل ارض . وان عمر بن عبد العزيز لم يزل رأيه والذي يتسير به على من ولي هذا الامر  
من اهل بيته توفير هذا الخمس على اهله فكأنوا لا يفعلون ذلك فلما ولي الخلافة نظر  
فيه فوضعه مواضعه الخمسة وآثره اهل الحامه من الاخماس حيث كانوا فان كانت  
الحاجة سواء وسع في ذلك بقدر ما يبلغ الخمس وانه ربما اعطى المال من ستة آلاف على  
الاسلام وانه اعطى بطريقاً الف دينار استألفه على الاسلام . وامر ان لا يؤخذ من  
المعادن الخمس وتؤخذ منها الصدقة وانكر التسخير في سلطانه وضرب احداهم اربعين  
سوطاً لانه سخر دواب النبط . ومما كتبه الى احد عماله : اما بعد فخل بين اهل  
الارض وبين مبيع ما في ايديهم من ارض الخراج فانهم انما يبيعون في المسلمين  
والجزية الراتبه . وكتب باباحة الجزائر وقال انما هو شيء انبته الله فليس احد احق  
به من احد . دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال كم جمعت من الصدقة فقال  
كذا وكذا قال فكم جمع الذي كان قبلك قال كذا وكذا فسمى شيئاً كثيراً من ذلك  
فقال عمر : من اين ذاك قال : يا امير المؤمنين انه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن  
الخادم دينار ومن الفدان خمسة دراهم وانك طرحت ذلك كله قال لا والله ما القينه  
ولكن الله القاه . وكتب اني ظننت ان جعل العمال على الجسور والمعابر ان يأخذوا  
الصدقة على وجهها فتعدى عمال السوء ما أمروا به وقد رأيت ان اجعل في كل  
مدينة رجلاً يأخذ الزكاة من اهلهما فخلوا سبيل الناس في الجسور والمعابر . وكتب الى  
عامله ان لا تقاثلن حصناً من حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم الى  
الاسلام فان قبلوا فاكفف عنهم وان ابوا فالجزية فان ابوا فابذ اليهم على سواء .  
وفي عهد عمر بن عبد العزيز وقد اصيحت عادة للخلفاء « اذا جاءتهم جبايات الامصار  
والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل  
بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يجلف الوفد بالله الذي لاله الا هو ما فيها

دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل اعطيات اهل البلد من المقاتلة والذرية بعد ان اخذ كل ذي حق حقه « اي فضل اعطيات الاجناد وفرائض الناس . قال ابن ابي الحديد: رد عمر بن عبدالعزيز المظالم التي احق بها بنو مروان فابغضوه وذموه وقيل انهم سموه فمات . امامن جاؤا من قبل ومن بعد من بني أمية فكانوا استكلاً ومشارب منهم الجماعة ومنهم المبدد فقد كان في بيت مال الوليد يوم قتل سنة ١٢٦ هـ سبعة وسبعون الف دينار . ففرقها يزيد عن آخرها .

وكذلك كانت سيرة العباسيين بعد فقد اخذ المنصور اموال الناس حتى ماترك عند احد فضلاً وكان مبلغ ما اخذهم ثمانمائة الف الف درهم وعدل ابو جعفر المنصور ارض الغوطة غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مداً بدينار بالقاسمي وكان اداء الناس على ذلك وكان الخلفاء من بني العباس يمدون الى ابطال الرسوم عندما تجلي لم ضررها ولا يقطعون امراً بدون اخذ اراء حلة الفقهاء في عصرهم فقد امر المعتضد سنة ٢٨٣ بالكتابة الى جميع البلدان ان يرد الفاضل من سهام المواريث الى ذوي الارحام واطل ديوان المواريث . وحلف المعتضد هذا في بيوت الاموال تسعة آلاف الف دينار ومن الورق الف الف درهم . ومن حلف هذه القناطر المقطرة من الذهب لابله ان يظلم أمته وان لا يصرف اموالها في وجوه . صالحها وقد كنت ترى في ايام العباسيين عدلاً شاملاً لا مثيل له حيناً وتجد ظلماً ثانياً في دور آخر فعهد الرشيد والمأمون والمهدي والظاهر والمتوكل كان عجباً في العدل وانتظام الجباية . فقد كتب المأمون سنة ٢١٨ الى اسحق بن يحيى بن معاذ عامله على جدد دمشق في التقدم الى « عماله في حسن السيرة وتخفيف الموائنة وكف الاذى » عن اهل عمله قائلاً فنقدم الى عمالك في ذلك استبد النقدمة واكتب الى عمال الحراج مثل ذلك . وكتب الى جميع عماله في اجناد الشام جند حمص والاردن وفلسطين بمثل ذلك . والمهدي مثلاً افنتح امره بالنظر في المظالم وبسط يده في العطاء فاذهب جميع ما حلفه المنصور وهو ستمائة الف الف درهم واربعة عشر الف دينار سوى ما جباه في ايامه . والمأمون العباسي اقام سنة بدمشق (٢١٤) لمساحة اراضي الشام واجتلب لتعديله مساح العراق والاهواز والري وكان جده ابو جعفر المنصور تشبث بذلك فلم يتم له فبعث بقية بن الوليد ليمسح اراضي دمتق كما كان يبعث اسماعيل بن عياش العنيسي الحمصي

الى دمشق فعدل ارضها الخراجية وعدل احمد بن محمد ارض دمشق والاردن وكان على ديوان الخراج سنة ٢٤٠ وحمل كل ارض ما تستحقه . والخائف الأول من بني العباس كانوا اقرب الى الرق بالرية فقد كان اسماعيل بن صبيح الكاتب يحدث عن الرشيد انه قال للحسن بن عمران يوم أدخل عليه في الحديد : وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدر نكفأ أمواجه على رياض كالزراي واردة منها كفايات المؤمن الى بئوت اموالي فما برح بك التعدي لارفاقهم فيما امرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر ووحش من الفقر قال : والله يا امير المؤمنين ما قصدت غير التوفير من جهته ولكني وليت اقواماً تنقل على اعناقهم الحق فنفرقوا في ميدان التعدي ورأوا المراغمة بترك العمارة اوقع باضرار المملك وانوه بالشنعة على الولاة فلا جرم ان امير المؤمنين قد اخذهم بالخط الاوفر من مساءتي . والمهدي اول من نقل الخراج الى المقاسمة وكان السلطان يأخذ عن العلات خراجا مقررأ ولا يقاسم وجعل الخراج على النخل والتبج . واعاد الظاهر بامر الله سنة ٦٢٢ سيرة العمرين . قال ابن الانير فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز مثله لكان القائل صادقا فانه أعاد من الاموال المغصوبة في ايام ابيه شيئاً كبيراً واطلق المكوس في البلاد جميعها وامر باعادة الخراج القديم وان يسقط جميع ماجدده ابوه وكان كبيراً لا يحصى وفي ايام ابيه خربت العراق ونفرق اهله في البلاد .

خربت العراق وما اليها من الامصار والافطار للسدة في تقاضي الجباية والنفن في الضرائب وعدم اطرادها على وتيرة واحدة . كتب علي بن عيسى الى عامل ديار ربيعة وقد ورد الحضرة قوم من اهلبا ينظلمون من حيف لحقهم في معاملاتهم : « بسم الله الرحمن الرحيم . في علمك اكرمك الله بما امر الله به من العدل والاحسان ونهى عند من الحور والعدوان وعاقب به الظالمين في سالف الازمان عنى لك عن النسبه والموقف والوعظ والتخويف وفيما رسمته لك مسافهة ومكاتبه في انكار الظلم وارالته واظهار العدل وافاضته كفاية وبلاغ . وقد ورد الحضرة اكرمك الله جماعة من جوه البناء والمزارعين بديار ربيعة مظلمين مما عوملوا به في سني ثلث عشرة وتاتمانه من اكراههم على تضمين نلات بهادرهم بالخزر والتقدير وانزاههم حق الاعتسار في ضياعهم على الزرع واستخراج الخراج منهم على اوفر عيرة قبل ادراك غلاتهم وقمارهم واكراد وجوههم ونخارهم على

ابتياع الغلات السلطانية بأسعار مسرفة بحجة فاقلني ما افاضوا فيه من الشكوى  
وألمني ما انتهوا الى وضعه من عظيم البلوى ووحدته مع قبيح ذكره وعظيم وزره عائداً  
لخرب الضياع ونقصان الارنفاع فينبغي اكرمك الله ان تجري سائر رعيته على  
المعاملات القديمة وتحمليهم على الرسوم السليمة حتى يعودوا الى افضل حال عهدوها  
واجمل سيرة حمدوها وتزيل السنن الجائرة وتبطلها ونقطع اسبابها وتحسمها وتكتب  
الي بما يكون منك في ذلك فاني على اهتمام به ومراعاة له ان شاء الله .»

ولو رجعت الى كتب التاريخ والسير لرأيت شيئاً كثيراً من هذا القبيل وفيه  
الكتاب الذي كتبه الامام ابو يوسف صاحب الامام ابي حنيفة الى الخليفة هرون الرشيد  
صورة لطفة من تطف العلماء في نصع الملوك والحلأء . وكتابه دستور في الجباية  
استدل به على ترقى العقول في عصره . وما حلا عصر من علماء يعون على العمال اعمالهم  
ونحافهم عن طرق الحق في معاملدة الامة وقلما كانت المواعظ نفع الا في المستعدين  
للخير من الحلأء فن دونهم .

وكثيراً ما كان الناس يعذبون في الحراج وقد وقع ذلك في اوائل دولة الأماميين  
بالشام فاخذ حاة الحزبية يعذبون بعض اهل الذمة ويجعلونهم في الشمس ساعات  
عقوبة لهم فهي عن ذلك الفقهاء وبطل تعذيب المكافين من ذاك اليوم . ونص  
الفقهاء انه لا يؤخذ شيء من نصراني البحر في بلاده من اعلاها الى اسفلها ولم يخرج  
مها واذا خرج من بلاده الى غيرها من بلاد المسلمين تاجرأ لم يؤخذ منه مما حمل قليل  
ولا كبير حتى يبيع وقال مالك في النصراني يكرى ابله من الشام الى المدينة يؤخذ  
منه في كرائهم العشر بالمدينة قال لا . فان اكرى من المدينة الى الشام راحعاً يؤخذ  
منه ويؤخذ من اهل الحرب ما صالحوا عليه في سلهم ويؤخذ من عبدهم كما يؤخذ  
من ساداتهم . ذكروا ان عمر بن الخطاب قال لاهل الذمة الذين كانوا يتجرون  
الى المدينة : ان تجرتم في بلادكم فليس عليكم في امواكم زكاة و ليس عليكم الا جز يتكم  
التي فرضنا عليكم وان خرجتم و ضربتم في البلاد و ادركتم امواكم اخذنا منكم وفرضنا  
عليكم كما فرضنا جزيتكم فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كما قدموا  
من مرة ولا يكتب لهم براءة مما اخذ منهم كما تكتب للمسلمين الى الحول فيأخذ

منهم كلاً جاءوا وان جاءوا في السنة مائة مرة ولا يكتب لهم براءة بما اخذ منهم .  
 زاد الاجحاف بحق الرعية لما توزع ملوك الطوائف البلاد واخذ كل ملك او  
 امير يستولي على اقليم صغير من الارض ويخفف على الناس في الجباية ويسمي نفسه ملكا  
 من ذلك بنو حمدان في حلب وما اليها فانهم كانوا على جانب من البطش والظلم فقد لحوا  
 في الظلم والاستئثار بالاموال وكانت فتنهم مع الروم لا تنقطع فاستأثر القضاء مهلاك  
 العباد وخراب البلاد على ايدي المدافعين والمهاجمين ( كما سنقف على ذلك في الكلام  
 على حلب ) . ولي خلافة الرازي سنة ٣٢٤ فبطلت الدواوين والوزارة فكان كل من  
 تولى امره الامراء تحمل اليه الاموال فيتصرف فيها جميعاً كما يريد ويطلق للخليفة  
 ما يريد وبطلت بيوت الاموال وكانت الشام اذذاك في يد محمد بن طعيص . وبنينا كانت  
 الشام تدافع القرامطة وتتسلغل بفتن بني حمدان لتقع في ايدي الاخشيدية اصحاب  
 مصر كانت بغداد في شغب وتعب واذا كانت هي العاصمة فاحر بالاطراف ان تكون  
 اسوأ حالا .

وهكذا احتلت احوال المملكة العربية وطرق الجباية فيها لما نال الناس من المعارم  
 والمطام والحكومات لاتعرف واجبها ولا تدري ان الجباية في الدولة اجرة الحماية  
 ولذلك تأفف ابو العلاء المعري في النصف الاول من المئة الخامسة من ملوك عصره فقال :

وارس ملوكاً لا تحوطرعية  
 و قال : عجم وعرب دائلون وكلنا  
 في الظلم اهل تشابه وحناس  
 و قال : ارى امراء الناس يمسون نهرهم  
 اذا خطفوا خطف الزاه اللوامع  
 وطاع يجابي في اخس المطامع  
 و قال ايضاً : يقولون في المصر العدول وانما  
 حقيقة ما قالوا العدول عن الحق  
 ولست بمختار لقومي كونهم  
 قضاة ولاوضع الشهادة في رق  
 يضرب للناس شر سكة  
 و قال : بكل ارض امير سوء  
 ان العراق وان الشام مذموم  
 صفران ما بها للملك سلطان  
 في كل مصر من الوالين تسيطان  
 ان بات يشرب خمر او هو مبطان  
 من ليس يحفل خص الناس كلهم

وقال : وجدت عنائم الاسلام نهباً  
 وقال : مل المقام فكم أعاصر امه  
 لاصحاب المعازف والملاهي  
 امرت بغير صلاحها امراؤها  
 نملوا الرعية واستباحوا كيدها  
 معدوا مصالحها وهم اجراؤها  
 ومن قوله : فتان ملوكم عزف ونزف  
 واصحاب الامور حباة خرج  
 وهم زعيمه انهاب مال  
 حرام النهب او ااحلال فرج

وبعد فقد استقر خراج فلسطين على عهد معاوية على اربعمائة وحمسين الف دينار  
 واستقر خراج الأردن على مائة وثمانين الف دينار وخراج دمشق على اربعمائة الف  
 وحمسين الف دينار وخراج جند حمص على ثلاثمائة وحمسين الف دينار وخراج قيسرين  
 والعواصم على اربعمائة الف وحمسين الف دينار وفعل معاوية بالشام والحزيرة واليمن  
 مثل ما فعل بالعراق من استنصاف ما كان للملوك من الصياع وتصيرها امسه حالفة واقطعها  
 اهل بيته وحاصه وهو اول من كانت له الصوافي في جميع البلاد قال البلاذري وكانت  
 وظيفه الأردن التي اقطعها معاوية مائة الف وثمانين الف دينار ووظيفة فلسطين ثمانه  
 الف وحمسين الف دينار ووظيفة دمشق اربعمائة الف دينار ووظيفة حمص مع قيسرين  
 والكور التي كانت تدعى بالعواصم ثمانمائة الف دينار ويقال سبعمائة الف دينار . وكان  
 ارتفاع الشام سنة ٢٠٤ هـ وهي اول سنة حده حسابها في الدواوين الحصر لان الدواوين  
 احرق في الفنة فتنه الامين على مارواه قدامة - ثمانمائة الف وستين الف دينار ارتفاع  
 قيسرين والعواصم وارتفاع جند حمص مائتي الف وثمانمائة الف دينار وارتفاع جند  
 دمشق مائة الف وعشرة آلاف دينار وارتفاع جند الاردن مائة الف وتسعة آلاف دينار  
 وارتفاع جند فلسطين مائتي الف وتسعة وحمسين الف دينار .

قال اليعقوبي ان خراج دمشق سوى الصياع يبلغ ثمانمائة الف دينار وخراج جند  
 الاردن يبلغ سوى الصياع مائة الف دينار وبلغ خراج جند فلسطين مع اصار سيه  
 الصياع ثمانمائة الف دينار وخراج حمص سوى الصياع ايضا مائتي الف وعشرين الف  
 دينار . وكان خراج الاردن زمن عبد الملك بن مروان مائة وثمانين الف دينار  
 وكان خراج قيسرين على عهد المأمون اربعمائة الف دينار ومن الزيت الف حمل  
 وخراج دمشق اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار وخراج الاردن سبعة

وتسعين الف دينار وخراج فلسطين ثلثمائة الف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثمائة الف رطل .

ولما تغلب الموالي من الاترك وناثر سلك الخلافة وبقيت الدولة العباسية في الترف وقوي عامل كل جهة على ما يليه كثرت النفقات وقلت المجابي بتغلب الولاة على الاطراف قال المقدسي كانت الضرائب ثقيلة على قاسرين والعواصم زمن سيف الدولة بن حمدان فكان خراج هذا الاقليم ثلثمائة الف وستين الف دينار وعلى الاردن مائة الف وسبعون الف دينار وعلى فلسطين مائة الف وتسعة وثمانون الف دينار وعلى دمشق اربعمائة الف ونيّف .

وات ترى ان الجباية في الشام كانت تختلف باختلاف العصور والادوار والتقلبات الجوية ومن الاراضي الحراجية والعشرية التي تدفع العشر لانها مما يخه المسلمون عنوة قال ابو يوسف : كل ارض اقتطعها الامام مما فتح عنوة ففيها الحراج الا ان يصيرها الامام عشرية والشام في ذلك كصر والعراق لانها كلها فتحت عنوة وفي المنار خابية ان السلطان اذا دفع اراضي لامالك لها وهي تسمى الاراضي المملكية الى يوم المعطوا الحراج جاز وطريق الحواز احد سبئيين اما اقامتهم مقام المالك في الزراعة واعطاء الحراج او الاجارة بقدر الحراج ويكون المأخوذ منهم خراجا في حق الامام احرة في حقهم وقال ابن عابدين ومن هذا القبيل الاراضي المصرية والسامية ويؤخذ من هذا انه لا عشر على المزارعين في بلادنا اذا كانت اراضيهم غير مملوكة لهم لان ما يأخذهم منهم نائب السلطان وهو المسمى بالزعيم او النيجاري ان كان عشرا فلا شيء عليهم غيره وان كان خراجا فكذلك .

قال الغزالي ان الاموال المصصة الى الحزائن المعمورة اربعة اصناف الصنف الاول ارتفاع المستغلات وهي مأخوذة من اموال موروثه له والصنف الثاني اموال الحزبة والصنف الثالث اموال التركات والصنف الرابع اموال الحراج فهذه هي الاموال المأخوذة واخذها جائز وبقى النظر في مصارفها وهي مع اختلاف جهاتها تحويها اربع جهات وفيها تخصص مصالح الاسلام والمسلمين . الجهة الاولى المرتزقة من جند الاسلام الجهة الثانية علماء الدين وفقهاء المسلمين القائمون بعلوم الشريعة فانهم حراس الدين

بالدليل والبرهان كما ان الجنود حراسه بالسيف والسنان والجهة الثالثة محاويج الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال وطوارق الزمان عن اكتساب قدر الكفاية . الجهة الرابعة المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس . وهذا وجه الدخل والخرج .

ولم تكن الاقطاعات الا في القرون الوسطى قال المقرئي : وكانت عادة الحلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن اميرالمؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان تجبي اموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الامراء والعمال والاجناد على قدر رتبهم و بحسب مقاديرهم وكان يقال لسالك في صدر الاسلام العطاء وما زال الامر على ذلك الى ان كانت دولة العجم فغير هذا الزيم و فرقت الاراضي اقطاعات على الجند واول من عرف انه فرق الاقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين وذلك ان مملكته اتسعت فرأى ان يسلم الى كل مقطع قرية او اكبرها و اقل على قدر اقطاعه فعمرت البلاد و كثر العلات واقتدى بفعله من جا بعده من الملوك من اعوام بضع وثمانين واربعمائة الى اوائل القرن التاسع .

وكانت اقطاعات التمام اقل من اقطاعات مضر في القرن الثامن والناسع و ايس في التمام من ببلغ تسأو اكبر الامراء المتقدمين بالديار المصرية الا نائب التمام فانه يقار بهم في ذلك . وخاصة الامراء المتقدمين انواع من الانعامات ماعدا المقررات من المشاهرات والاكل والعليق و الكساوي كالعقار والابنية الضخمة التي ربما أتق على بعضها فوق مائة الف دينار . قال التاج السبكي المتوفى سنة ٧٧١ : ومن قبائح ديوان المجلس الزامهم الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة والفلاح حر لا يد لا دمي عليه وهو امير نفسه وقد جرت عادة التمام بان من نزع من دون ثلاث سنين يلزم و يعاد الى القرية قهراً و يلزم بتد الفلاحة والحال في غير الشام اسد منه فيها وكل ذلك لا يحل اعتماده والبلاد تعمم بدون ذلك بل انما تحوب البلاد بذلك لانهم يضيقون على الناس .

وماعد الاراضي التي كان الملوك يوغرونها اي التي يدفع عنها ار بابها قدرأ من المال مرة واحدة فتعفى من الخراج و ما خلا الاقطاعات التي يستأثر بها اصحابها من ار باب الدولة ولا يؤدون عنها خراجا و عدا ضياع كثيرة تعفى من الضرائب و عدا الصوافي واحدها

صافية وهو ما يستخلصه السلاطون خاصته او هي الاملاك والاراضي التي حلا عنها اهلها اوماتوا ولاوارت لها -- ماندا هذا كان هناك نوع من الاراضي يسمى الجاء اي يلجأ صاحب الارض الى بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه تعز زأبه من عمال الخراج حتى لايجوروا عليه فتصبح الضيعة مع الزمن ملكا لذلك الكبير .

قال ابن ابي الحديد : ان من اهل الحراج من يلجئ بعض ارضه وضياعه الى خاصة الملك ويطامنه لاحد امرين اما لامتناع من حور العمال وظلم الولاة وتلك مبرلة يطير بها سوء اتر العمال وضعف الملك واحلاله بما تحت يده واما للدفاع عما يلزمهم من الحق واليسير له وهذه حلة تستدبها آداب الرعية وبتقص بها اموال الملك . وكان العادلون من الملوك يعاقبون الملتجئين والمجأ اليهم ولكن الناس يلجئون املاكمهم عندار باب الصولة . كما من مرة حربت سور ية او وقع كبير من اصقاعها بظلم ظالم من عملها . دكروا ان الخليفة الحاكم اعنى ولاية حلب من الخراج سنة ٤٠٧ لانها كانت ضعفت بالنفن المتواصلة وان الب ارسلان لما ولي امره حلب رفع عن اهلها الكلف التي كانت مجددة عليهم وان فحم الدين ايل غازي بن ارقى ( ٥١٤ ) رفع المكوس عن اهل حلب والمؤن والكلف وانطل ما حدده الطلمحة من الحور والرسوم المكروهة و بالغ الامير حصن الدولة وعلى بن حيدرة بن منزو الكيتامي الذي ولي دمشق سنة ٤٦١ في المصادر وارتكب المطالم فلم يلق اهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش ابن الصمصامة في ولايته ما لقيه من ظلم وسوء فعلة نخرت اعمال دمشق وحلا عنها اهلها وحلت الاماكن من قاطعها والغوطة من فلاحيا .

والمالك ان المكوس والضرائب كثرت او اخر حكم العباسيين والعباسيين في الشام ونفي سمة البلاد رسوم كبيرة حتى انطابها نور الدين وانطل ابق الصوفي الاقسطا سيه دمشق وما كان يوحذ في الكور من البانة حمله وانطل صلاح الدين مثل مكس مكة وعوض اميرها بجلاب غله تحمل اليه كل سنة وتعين ضياعه وقوفة نالها بالديار المصرية . قال ابن ابي طي : ان الذي اسقطه السلطان صلاح الدين والذي سماحه لعدة سنين آخرها سنة اربع وستين وخمسمائة . بلغه عن نيف الف الف دينار . التي الف اردب سماح بذلك وابطله من الدواوين واسقطه من المعاملين وكذلك فعل

اخوه ابو بكر بن ايوب فانه ابطل كثيراً من المظالم والمكوس وطبر بلاده من الفواحش والجمور والقمار وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصاً مائة الف دينار الا ان المكوس عادت فأحدثت . ولما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ ازال المكوس وكانت الولاية في اهلها قد ساءت وأسرفت واليد المتعدية قد امتدت الى اموالهم وأجفت . قال العماد : اقتصر صلاح الدين في جميع البلاد على الرسوم التي يبيحها الشرع وهي الحراج والاجور والزرع . وكذلك كانت من قبل سيرة نور الدين محمود بن زنكي فانه منع ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكياله وغيرها وكن والده زنكي ينهى اصحابه عن اقتناء الاملاك ويقول . مهما كانت البلاد لنا فأبي حاحه لكم الى الاملاك فان الاقطاعات تعني عنها وان خرجت البلاد من ايدينا فان الاملاك تذهب معها . ومعنى صارت الاملاك لاصحاب السلطان . تلوا الرعية وتعدوا عليهم وغيبوا املاكهم . قال ابو يعلى : تجمع قوم من السهبا العوام وعزموا على التحريض لنور الدين على اعادة ما كان ابطل وسامح به اهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعرصه البقل والامار وصانهم من اعانت نمرار الضمان وصله الاحناد وكرروا . احف عقولهم الخطاب وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار بهض وكتبوا بذلك حتى اُجيبوا الى ما راموا وسرعوا في فرضها على ارباب الاملاك من المقدمين والاعيان والرعايا مما اهندوا الى صواب ولا ينجح لهم قصد سيء خطاب ولا حواب وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا واكثروا الضجيج والاستغاثة الى نور الدين فصرف همه الى النظر في هذا الامر فتمت له السعادة وابتار العدل في الرعية الى اعادة ما كان عليه فأمر بانادوا بالرسوم المعنادة الى ما كانت من اماتتها وتعفية ارضائها وأضاف الى ذلك تبرعا من نفسه ابطل ضمان الهريسة والحن والبن ورسوم بكتبت منتسور يقرأ على كافة الناس بابطال هذه الرسوم جميعها وتعفية ذكرها . قال السبكي : وقد علم ان الكوس حرام فان ضم الوزير الى احدها الاحفاف في ذلك وتسد يد الامر فيه والعقوبة عليه فقد ضم حراما الى حرام .

ومع كثرة احتياج البلاد للال زمن نور الدين وصلاح الدين للاستعانة به على قتال الصليبيين كانت الجباية الى الرفق في الجملة سداد التام فاطلق نور الدين المكوس والضرائب واكتفى بالحراج والجزية . واسقط صلاح الدين فرضة الاتبان المقسطة على

اعمال دمشق وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والتساغور والعقيبة ومزارعها ولما فتح حلب اطلق المكوس والضرائب وسامح باموال عظيمة « ومنها ما هو على الاتواب المحلوبة ، ومنها ما هو على الدواب المركوبة ، ومنها ما هو في المعاش المطلوبة » ومما كتب عنه من منتور ان اتقى الامراء من سمن كيسه واهزل الحلق ، وابعدهم من الحق من اخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وكان هذان الملكان من ازهد الناس فلم يخلفا في خزائنها الا التافه وقد حلف الملك العادل ابو بكر بن ايوب اخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف في خزائنه وكان يجب ادخار المال ليصرفه حين الحاجة — سعمائة الف دينار وخلف الملك الافضل ستمائة الف الف دينار عيناً ومائة وخمسين اردباً دراهم نقد مصر ومائة مسمار من ذهب ووزن كل مسمار مائة متقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير وصندوقان كبيران فيهما ابرذهب برسم الحواري والساء عدا النياب والطرائف والقطعان والخيل والبغال والرقيق . وهذا ما لا يمكن ان يحوزه ملك صغير الا بالضغط على الرعية ولو قليلاً لاستخراج هذه الاموال والتوقف في صرفها على مصالح الامة ومرافقها . وقد استعمل ملوك الطوائف الشدة في تكتير الجباية وكان ينال المنكر لها من العلماء اذى من ذلك ان نغر الدين بن عساكر انكر على الملك المعظم تصمين المكوس والنمور فعاقبه بان انتزع منه المدرسة النقوية والصلاحية بدمشق . وقد فعل عكس ذلك الاتابك طغرل الظاهري صاحب حلب فقد امر سنة ٦١٨ برفع الحمايات ومحو اسمها واهراق كل خمر في المدينة ورفع ضمانها وكتب الي النواحي . قال القفطي : وكان المحصول من ضمان ما اطلق ما مقداره مائتا الف درهم في السنة وان اضيف اليه ما يسغل في السنة الآتية من رخص الكروم وتعطيل صماناتها وقله دخلها بهذا السبب كانت الف الف درهم او ما يقاربها .

ولم نعتد لدمشق عاصمة البلاد على ارتفاع لها خاصة وقد قال ابن ابي طي: حدني كريم الدولة بن سرارة النصراني وكان مستوفي دار حلب يومئذ انه عمل ارتفاع سنة تسع وستائة في الايام الطاهرة دون البلاد الحارحة عنها والضياع والاعمال فبلغ ستة آلاف وتسعمائة الف واربعة وثمانين الفا وخمسة مائة درهم قال : ومما

احظت به علماً في أيام الملك الناصر ان ارتفاعها على القاعدة في الارتفاع في آخر دولته مع حلوله بدمشق وخلقها منه كان على ما يفصل ٠ ثم فصل الارتفاع فكان ستة واربعين صنفاً وسطر المجموع ب ٧٦٣٠٥٦٠٠٠ درهم ٠ وكان مسافة ما بيند مالك حلب في ايامه وهو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي من المشرق الى المغرب مسيرة خمسة ايام ومن الجنوب الى الشمال مل ذلك وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية ملكت لاهلها ليس للسلطان فيها الا مقاطعات يسيرة ونحو مائتي قرية ونيف مشتركة بين الرعية والسلطان قال ياقوت الحموي: اوقفني الوزير صاحب القاضي الاكرم جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم التيباني التفتي ادام الله تعالى ايامه وختم بالحالات اعماله وهو يومئذ وزير صاحبها ومدبر دواوينها على الحر بدة لذلك واسماء القرى واسماء املاكها وهي بعد تقويم برزق خمسة آلاف فارس مزاحي العلة موسع عليهم قال لي الوزير الاكرم ادام الله تعالى علوه: لو لم يقع اسراف في خواص الامراء وجماعة من اعيان الفاريد قامت بارزاق سبعة آلاف فارس لان فيها من الطواشية الفاريد ما يزيد على الف فارس يحصل لواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم الى خمسة عشر الف درهم ويمكن ان يستخدم من خواص الامراء الف فارس وفي اعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بدخاثرها وارزاق مستحفظها خارحاً عن جميع ما ذكرناه وهو جملة اخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الاقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الحبايات الى قلعتها عساو حبو بما يقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم وقدر نفع في العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي تجي فيها العتور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمانه الف درهم وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لا يرى فيها متظلم ولا متهم ولا مهتضم وهذا من بركة العدل وحسن النية اه ٠

ومن هذه النقول تعرف درجة الحباية والثروة في تلك العصور ٠ ولما قبض الاتراك والحرا كسة على زمام الاحكام في الشام في القرن السابع والثامن والتاسع كانت المكوس كبيرة جداً وزادوها هم وبنفونوا في ضررها حتى صعب احصاؤها وحفظها وكانت الخمر في سنة ٦٤٣ مضمنة والمكوس تسديدة وكان صاحب امين الدولة في مدة وزارته للملك الصالح اسمعيل حصل له اموالاً عظيمة جداً من اهل دمشق وقبض على كتير من

املا كهيم وابطل الملك الطاهر بپبرس سنة ٦٦٥ ضمان الحثيشة وامر باحراقها والغالب ان بعض الملوك لم يكونوا يستنكفون من اخذ الضرائب عن الخمر والمكينات بل تعدوا ذلك في تلك الحقبة من الزمن الى اخذ الرسوم عن البغايا والمواخير فقد ابطال الطاهر برقوق في جملة ما ابطال من المظالم والمكوس في بر الشام ضمان المعاني اي المغنين والمعنيات في الكرك والسواك . وضمن المعاني كان معروفا في مصر فاطل سنة ٧٧٨ زمن الامير قلاوون ابطله من جميع اعمال مملكته وكان عبارة عن مال كبير مقرر على المعاني من رجال ونساء يؤدونه كل سنة الى الخزانة . وابطل الناصر قلاوون ضمان المعاني ايضا وهو عبارة عن اخذ مال من النساء البغايا وذلك لوجرت احد امرأة بقصد البغاء ونزنت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة واقامت بما يلزمها من القدر المعين عليها لما قدر اكر من في مصر ان تمتعها عن البغاء وعمل الفاحشة وكان يحصل من ذلك جملة كبيرة من المال .

لاجرم ان دوله الترك والجزا كسة في مصر والشام تسبه في كثير من الوجوه دولة الترك العثمانيين التي حات بعدها وكانت مراسيمها كها تصدر الحين بعد الاخر باطلال بعض الرسوم والضرائب ولكن مع هذا تحذ من الامرا . من كانوا يصادرون على ملايين من الدينارين دع سائر اسباب التزوة من ناطق وصامت . والبوله التي تخفف عن رعاياها بالاقوال ، والافعال على خلاف ذلك ، هي دوله سيند ادارتها المالية فقد كان الملك المؤيد شيخ كبير المصادرات للزعة وهو الذي قطع دابر النواب العصاة الذين احرلوا غالب البلاد السامية وحدث في ايامه اتسبا كثيرة من ابواب المنطالم كما كن يخرج الى التجار يد . والخروج الى التجار يد او الحملات كان من جملة الاسباب التي نتهيا ملوك الجزا كسة ليلسوا الناس او الهمل ولا تكلف التجار يد اقل من نصف مليون دينار فاذا احرل السلطان في حياته عشرين تجر يد كان المصروف من ذلك في هذا السبيل عشرين مالا بين لاتصل الى خزانة السلطان حتى يحجى مملها من الرعايا المساكين .

وفي سنة سبعمائة استخرجت الحكومة مالا عظيما من جميع الاملاك والاقواق بدمشق وذاورها فكان من داخل دمشق حق اربعة اشهر واخذوا من العوطة من كل قرية تكتر املها بلت صمانها واخذوا من القرى التي لزراعة القمح والتعير والقطن والحب على اسة معل سنة ثمان وتسعين وستائة فعظم ذلك على الناس وهرب

حلق كبير واستخفي جماعة والذين وقعوا ايديهم قطعوا اتجار المايقين واباعوها  
حطباً بجيت اباعوا القنطار النمسقي بتلاته دراهم . فكان خراب الغوطة بهذا السبب  
ومن سدة الطلب وكثرة الظلم والجور .

وفي سنة ٧١٤ اصدر الملك المؤيد صاحب حماة امرأ الى جميع نوابه ان لا يقبل  
احد حماية لاحد بل الكل .تساوون في الحقوق ودفعت ما عليهم وذلك لان الاستماعيليين  
كانوا في مصياف لا يدفعون اسلمه اموالاً بدعوى الحماية فأخذت الاموال من الجميع .  
وفي سنة ٧٢٤ برزت المراسيم السريفة الى نائب حلب بان يروك البلاد الحلبسية  
اي يمسحها ويعين عليها مالا كما فعل في البلاد الشامية فراكوا جميع البلاد الحلبسية  
وجميع البلاد الشامية والحلبية والمصرية في الزوك الناصري واطل في هذه السنة مكوس  
العلقة الشام وكن مباحا عظيما يؤخذ من ثمن العرارة ثلثة دراهم ونصف .

ومن جملة ما اطلوه في أدوار مختلفة من الرسوم وهو ما نوردته متالاً من حالة تلك  
الايام ما ابطله بقوق مما كان منقراً على البردارية في كل شهر من المال وما كان  
يأخذه السامسة على العلال والكيالة وعن الملح في عين ناب وعلى الدقيق في البيرة وما كان  
مقرراً للنائب طرابلس عندما يتولى على كل قاض من قضاة البر والولاية بغلة او تمنها  
خمسائة درهم . وأبطل المنصور قلاوون من جملة ما ابطل من المظالم ووظيفة ناظر الزكاة  
وهو ان يؤخذ من عدده مال زكاته فان مات الرجل صاحب المال او عدم ماله يبقى ذلك  
القدر المقرر عليه في الدفاتر يؤخذ من اولاده او من ورثته او من اقاربه ولو بقي منهم  
واحد . واطل الاسرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجباية  
بدمشق من القمح خمسة دراهم من المكس بل ابطل المكوس والضرائب عن سائر  
اصناف العلة بجميع الشام وكان ذلك جملة تخرج عن الاحصاء . وتجد الى اليوم على  
السواري الاربع القائمة في مدخل جامع بني أمية بدمشق من الغرب اربع وثائق في  
ابطال المكوس كتبت كل وثيقة على سارية . تاريخ الاولى سنة ٨٦٣ على عهد تايقباي  
الجزاوي كفل الممالك الشامية ابطل بها الرسم المقرر على الاسواق والطواحين وغيرها  
من الكوس بدمشق . والثانية كتبت سنة ٨١٥ وهي مما امر به الظاهر ابو سعيد بن  
جقمق بابطال المكوس على الاقشة الحمضية وفرع الاردية وفرع القطن وغيرها والثالثة

تسارح سنة ٨٥٢ تقول بأنه ورد مرسوم بتريف من مولانا السلطان الملك الظاهر ابوسعيد جقمق بإبطال بعض المكوس ومنها التمر والعفص والسمنك البوري والحناء والقماش المصري . قال وهذا في صحائف الدولة العادلة ! والرابعة فيها ذكر القلي والخروج والقلاس وجلود الجاموس والماعز .

وكانت العادة أن تنقش على الرخام صورة الأمر الصادر من الملك في رفع مثل هذه المظالم فنقش الملك الظاهر ابوسعيد ططر رخامة والصقها على باب الجامع الأموي في هذه المدينة بإبطال ما كان لنائب الشام على المحتسب في كل سنة وكذلك اطل في القدس ما كان يجبي لنائب القدس في كل سنة من المال ونقش ذلك على رخامة والصقها باب الجامع الأقصى . وفي سنة ٧٤٦ كتب على باب قلعة حلب وغيرها من القلاع ما مضمونه : مسامحة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الخندي وذلك احد عشر يوماً وبعض يوم في كل سنة وهذه مسامحة بمال عظيم وكتب بالمسامحة بمثل ذلك على حائط تامة طرابلس وهذا التفاوت ايام الدوران ما بين السنين التسمية والقمرية . وكثيراً ما كان يصدر الأمر في زمن الحرا كسة بجمع الذهب اذا قل او الفضة وتسليمها الى الملك ليضرب بها سكة ونقوداً وكر في ايامهم غش الفضة حتى كان سعر الدرهم ينزل كثيراً ويصاب الناس في الشام ومصر بخسائر فادحة وكبيراً ما كانوا يمسرون ثلث اموالهم لان بعض ملوكهم كانوا يغشون الفضة وينزلون عيار الذهب فكانت المصيبة بالفضة والذهب لعهدهم كالمصيبة بالاوراق النقدية لعهدنا كل يوم في ارتفاع وانخفاض . ولا عجب فقد كانت الدبل بعد عصر صلاح الدين وآله في هذه الديار تخبط بدون قاعدة مستقرة والدول التي ينصب لها ملك وهو لم يبلغ الحولين ويتولى الممالك امره لا يصدر منها اكثر من هذا كواقع في سلطنة الملك المظفر ابي السعادات احمد بن الملك المظفر فار كبه فرس التوبة وهو ابن سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام وهو يزعم من البكاء ومشت قدامه الامراء حتى دخل القصر الكبير وهو في حجر المرضة وقبلوا الارض امامه ولما دقت الكوسات بهت الطفل وصار احوال العين .

وكانت ايام الحرا كسة فريدة بثروة عمالها والغالب ان الواحد منهم كان يأخذ رزق مئة الف او مئتي الف انسان على نحو ما كانت الحال في مصر قبل اربعين سنة واكثر

التروة كانت شيئاً كثيراً في تلك الايام محصورة في الافراد فقد اُخذ تيمور من دمشق لما حاءها سنة ٨٠٣ عدا المأكول والمشروب وغيره الفالف دينار فقام بها اهل دمشق من غير مشقة فلم يرض تيمور بذلك وقال ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينار او الف تومان والتومان عشرة آلاف دينار من الذهب فنزل بالناس باستخراج هذا منهم تانياً بلاء عظيم ولما حمل الى تيمور قال هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف الف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف الف دينار وظهر لي انكم عجزتم ثم اخذ اموال المصر بين حكام البلاد والتجار الغائبين عن دمشق وافرد على كل رأس من كبير وصغير عشرة دراهم سامية وافرد على اوقاف الحوامع والمساحد اجرة ثلاثة اشهر فترايدت البلايا وكانت دمشق يومئذ احسن مدن الدنيا واعمرها على ما قال ابن تغري بردي ولذلك هان عليها ان تجمع عشرة ملاين دينار وهو اذا قيس اعتباره بنسبة هذه الايام لا يقل عن مئتي مليون ليرة .

رجع الى الرسوم والمكوس في القطر السامي فقد تنوعت انواعها في عهد الخراكية ومنها ما كان الحلف يلغيه على غير ارادة السلف فقد وضعوا على اهل محلة قبرعانة ومحلة القديبات وقرية القابون في دمشق سنة ٨٣٢ رحالاً على حاري عادة الفتن فيبلغ علاء الدين البخاري احد صلحاء المدينة فانكره وارسل الى النائب فأبطله وفي سنة ٨٣٦ ركب السلطان برسباي الانسرف الى صالحية دمشق لزيارة الشيخ علاء الدين البخاري فوعظه الشيخ وكلمه كلاماً غليظاً فرسم السلطان باطال طرح السكر ونودي في المحرم سنة ٨٣٧ برسوم السلطان بان يبطل طرح السكر وان ينقش ذلك في الجامع الاموي والقاعة ودار السعادة قال الاسدي فنقش ذلك وعلى الطن الغالب انهم لا يفوا بذلك لما علم من عادة السلطان . وترى الى اليوم في جامع حلب الكبير عدة سوار في الغاء الرسوم فالسارية الاولى كتب عليها ان الملك دمرداس أبطل سنة ٨١١ مكس البيض من المملكة الحلبية . الثانية أبطل فيها الملك جقمق سنة ٨٥٢ ما كان يؤخذ ظلاماً من الدالين في سوق الحراج . الثالثة في سنة ٨٤٦ باطال الملك الطاهر جقمق مكس الكتان . الرابعة سنة ٨٤٦ باطال ما كان يؤخذ من اهل سرمين . الخامسة تاريخ سنة ٨٥٧ باطال مكس الزيتون من قري عزاز . السادسة سنة ٨٦٤ باطال ما تجدد

على المصبغة بقلعة القصير عن كل خابية عشرة دراهم وان لا يؤخذ سوى درهم واحد عن كل خابية . وغيرها بابطال مكس السلاح في جميع سوق السلاح ومنها ما كذب سنة ٨٨٢ بابطال مكس الملح الداخل مدينة حلب ومنها بابطال ما على الدباغين ندير كوش من المكس ومنها ما صدر سنة ٨٩٣ بابطال ما كان يأخذ ناظر الحنة من سوق الحناء ية ومنها ما صدر سنة ٩٠٢ بابطال ما كان يؤخذ من مكس القطن ومنها ما صدر سنة ٩٠٢ بابطال مكس المسك والزعفران ومنها بابطال مكس السماق ومنها بابطال ما هو معين عن ختم القماش العراقي والمدشني والقدسي . ومعظم هذه الاوامر المستورة على الاعمدة متفوعة بمجمله ملعون ان ملعون من جردها او يعيدها الى غير ذلك من الاستلاب اللعنات على من يجردها ومنها كانت الله ورسوله حصمه يوم القيامة الى غير ذلك من القيود والعقود .

ويحق لنا ان نستنتج مما تقدم ان المكوس كانت تختلف باختلاف البلاد فما كان في طرابلس لا يجبي منله في حمص وما كان في القدس لا عهد. لخدمه وما في دمشق لا مثيل له في المدن الاخرى . وهالك أمثلة أخرى من هذا القبيل في مدخل جامع طرابلس امر بابطال المطالم المحدتات على اهل طرابلس من التخيير على قوت العباد من القمح واللحم والحز والفراخ وغير ذلك وذلك في ايام ابي النصر سنخ سنة ٨١٢ وفي مدخل هذا الجامع أمر من صاحب طرابلس بابطال منع استيفاء رسم النخاف وما يستأديه من يكون منكلها في ديوان الحبوبة الكبرى واستاد دارية الديوان السريف من سكر وحل وغير ذلك ومن طرح الصابون والزيت والبلس ( البوتاس ) ومن جميع ما يجت من ديوان الليابة والديوان السريف وغيرها ومن جميع الكف والمخادم الحاربية بها العادة قديما والحادة مستقلا وعلى حائط مدرسة التسمية امر كذب سنة ٨٢٦ بابطال الملك اسرف برسباي ما على البلاد الطرابلسية من الخيل بالزيد ورسم الملك الاسرف بابطال التحكير بالحنات والمكوس على الحطب والتين وغيره وجيز بالنداء بذلك بدمشق بالجامع الاموي ونقش به رخامة وفي سنة ٨٤٦ سونغ عوام القدموس بما على احوال الحياكة وحراج الكروم بالقدموس مساحمة مستمرة على الدوام ونقش رخامة على حائط الجامع الكبير وفي سنة ٨٥١ ابطال ما تجدد على عوام القدموس

والكهف والمنيقة والعليقة والحوابي من الاعمال الطرابلسية من الثياب الخام ودورة الاستاددار ٠ وفي مدرسة طرابلس رسم بابطال ما على نخيرة ( المسلخ ) بطرابلس من الموجب لديوان النيابة وقدره في كل يوم تمانون درهماً وباطال معلوم كتابة السر احد وعشرون درهماً ومعلوم الحجو به ثلاثة عشر درهماً وفي حائط تلك المدرسة ايضاً كتابة بتاريخ ٨٨٨ بابطال المظالم وهي الطروحات التي كانت تطرح من التجار والمتسبين بمدينة طرابلس وذلك عن الصابون والكرم والزيت وغير ذلك وفي سنة ٨٨٨ ابطال مكس الدواليب الحرير والقصابة بالكهف والقدموس وابطل مكس نخيرة البقر والجاموس وقطع الضأن وقرم الاسا كفة بالقدموس والحوابي وعلى ذلك الحائط كتب سنة ٩٠٩ بابطال المظالم والحوادث عن فلاحى الوقف ان لا يكرّ بوا فلاحى الوقف الاجزية الشرعية والمال المقرر وفي سنة ٨٢١ ابطال ضمان المكس بسوق العطارين بطرابلس الشام وكتب على حائط مدرسة الرفاعية سنة ٨٧٠ ان لا يؤخذ من تجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة الا ما جرت به العادة القديمة وهي على الالف عشرة دراهم لا غير وان لا يتناول الاجرة الا من بانر العمل بنفسه من ابناء السبيل ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة وان لا يؤخذ شيء من باع سلعته بغير دلال ٠ والغى قانصوه الغورى المكس عن حاكة حمص ٠

وبذلك رأينا ان الغاء المظالم والمغارم كان على اشده في آخر ايام الجراكسة وكان من اسوا ملوكهم شعبان قال المؤرخون فيه انه كان متطلعاً الى جمع المال واقام ديواناً برأسه للبدل وفتح باب قبول البدل في الاقطاعات والوظائف وجعل لذلك ديواناً قائماً بالذات وكان يعين البدل في المناسير وهو مبلغ ثلثائة درهم فما فوقها والخالصة فان الجراكسة نفضوا في طرح المكوس ومن غرّبها في ايامهم مكس القرعان وذلك ان شحصاً من المالميك الجراكسة كتشف رأسه في سنة ٨٣٠ بين يدي السلطان فاذا هو اقرع فضحك منه السلطان فقال ذلك المملوك: اجعلني والى القرعان يامولانا السلطان فاجابه السلطان الى ذلك واخرج له مرسوم سلطاني به وان يكون شيخ القرعان وخلع عليه خلعاً فصار يدور في الاسواق والحارات ويكشف رؤوس الناس فن وجده اقرع يأخذ منه ديناراً حتى اعيان الناس ففتح منه الناس وتكوه للسلطان فضحك ونادى

بالامان للقرعان وان كل شيء على حاله وكسب ذلك الرجل في هذه الحركة مالاً عظيماً .

\*\*\*

انتهى دور الجراكسة المحزن المرض واملت الامة بدخولها في حوزة الترك العثمانيين ان ترى ايام رغد وسعادة لانها دولة جديدة تُخامى ما امكن الاغلاط التي وقعت فيها الحكومة قبلها ولكن جاء الامر على العكس من ذلك على ما تراه . لما فتح السلطان سليم العثماني الشام ومصر بعد ان كان في ضائقة شديدة اضطر معها الى الاستدانة من بعض التجار قال وقد ملأ خزائنه من اموال الجراكسة : اني ملأت الانابيب بالذهب وكل من يستطيع من اخلافي ان يملأها دراهم فليختم عليها بطابعه والا فتبقي الخزينة السلطانية محتومة بطابعي . هذه كانت وصيته ولذلك كانت خزينة « الاندرون » محتومة بخاتم سليم . لاجرم ان اكثر فتوح السلاطين العثمانيين كان السائق اليها حب الغنائم والنهب ولذلك كانوا يرحمون فتح البلاد في جهات اوربا على الفتح في آسيا لان تلك كانت اغنى في نظرهم وعلى شيء من الانظام في الجملة تسد مغانمها نعمة جيوشهم وخواصهم وفيها من الخمال ما يكفي الاتعاب فيتمتع السلطان واهل دولته بمن شاءوا من نوات المغلوبين وبنبيهم ولذلك جاء النسل التركي في الاستانة فقط مزيجاً من الروم والكرج والبشناق والارناؤد والرومان والصرب والبغار والمجر والطيلىان والروس والبولونيين وغيرهم من امم اوربا .

ولما فتح السلطان سليم دمشق ( ٩٢٢ ) فوض نيابة دمشق وما اليها من بلاد الشرق الى عمر يش مصر الى جان بردي العزالي على مال معين قال ان طولون قيل قدره مائتا الف دينار وثلاثون الف دينار . وذكر النجم العزي ان هذا السلطان نفن في ضرب المكوس ومن جعلتها المكس على المومسات فتأسف العقلاء واكر الامر اهل الدين والورع . ومن وصل به الطمع في مال الامة الى هذه الدرجة وهو في مبداء تعليه على البلاد يجب عليه ان يريها شيئاً من العدل ينسيها مظالم الدولة الجركسية تحدث ما شئت ان تحدث عما احدهه اخلافه من البدع في الارتفاعات بعده حتى قال مؤرخو الترك انفسهم ان خراج اباله الشام كله كان يعطي للمرأة السابعة من ساء السلطان ابراهيم وكان الجباي يأتى دمشق فيجيبها بنفسه لان ساء القصر لم يكن يأمن احداً

من الولاة والمتصرفين على جبايتها من الأمة . فتأمل اياالة بل مملكة كهذه تعطى جبايتها لامرأة واحدة من نساء القصر ننفقها على زينتها وازيائها كيف تكون مجايبها عادلة مصروفة في سبلها !

وذكر مؤلفو الترك ان اقطاع الشام كله كان مسانحة مليون اقچه (١) ولا مير لوائها من مئتين الى ثلثائة الف اقچه وفيها ١٢٨ زعامة و ٨٦٦ اقطاعاً وعدد جندها ٢٦٠٠ من الفرسان . وكانت اياالة طرابلس وارنفاعها السنوي خمسة يوكات (٢) ولديوان الخاص من ٢١٠ الى ٣٩٠ الف اقچه وحميتها من الفرسان ١٤٠٠ واياالة حلب وخراجها ثمانمائة وسبعة عشر الف اقچه وديوانها الخاص يرتفع من ٢٠٠ الى ٥٠٠ الف اقچه . وفي هذه الاياالة ١٠٤ زعامات و ٧٩٩ اقطاعاً وحميتها ٢٥٠٠ فارس يخرج منها عشرة يوكات كان يدفعها اولاد رمضان حكام اذنة .

وكانت الدولة تستوفي نصف ايراد الشام على عهد السلطان سليمان الاول اعني في سنة ٩٩٩ هـ ١٥٥٣ م ٢٠٠٦٠٠٠ دوكا والدوكا عشر اقجات والبارة ثلاث اقجات وتصرف الباقي على وقاية البلاد ومحافظتها وكذلك كانت تفعل في مصر تأخذ نصف ريعها وتصرف النصف الاخر في حمايتها .

(١) كل ثلاث اقجات بارة وكل ٤٠ بارة قرش والكيس خمسمائة قرش ذهباً او فضة . وذكر لامنس ان القرش كان يساوي في القرن الثامن عشر في سورية نحو خمسة فرنكات وفي منتخبات الجوائب ان نقود الدولة العثمانية كانت قبل القرن الحادي عشر للهجرة من صنف الدوكات المنسوبة الى البندقية التي كانت مملكة عظيمة . مستقلة وكان وزن كل مئة دوكات ذهباً ١١٠ دراهم اما نقود الفضة فكانت من صنف الريال الجرمانى الذي كان يجلب من المانيا وكان وزنه تسعة دراهم وقيمه ٨٠ اقچه . واول من استعمل الاقچه السلطان بايزيد الاول وذلك في سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠) اما استعمال البارة فاستمر في سنة ١٠٦٦ هـ وفي سنة ١٠٩١ قر الرأي ان كل ٤٠ بارة تحسب قرشاً وكانت البارة تساوي ثلاث اقجات اما الكيس الذي كان يساوي ٥٠٠ قرشاً ذهباً او فضة على حساب المعاملات فكان يساوي الف دوكات .

(٢) اليوك مبلغ خمسمائة الف قرش .

وما برحت الحال المالية في هذه الديار في ادبار وهي تبع للوالي الذي يتولى زمام الحكم فقد ذكروا ان والي الشام رفع في سنة ٩٩٤ المظالم وأبطل المكوس الزائدة فابطل مكس الحمارات وكان هذا المكس لكل من كان حاكماً على بر الشام ثم ابطل اليسق من باب صاحب الشحنة. واليسق كبير الانكشارية يلتزم هذه الوظيفة بمال كبير يدفعه للآغا وللباتا ويكون في باب صاحب الشحنة يقطع الجرائم ويدفع المال عن اربابها ويربح ديناراً عثانياً كل يوم فاذا كانت الجريمة خمسين ديناراً مثلاً دفعها عن اربابها ولها ربحها في كل يوم خمسون عثانياً فاذا بقيت عليه اياماً حتى يسعى في تحصيلها تضاعفت عليه حتى لا يقدر على الوفاء والتخلص منها فان كان له اسباب او عقار او وقف او غير ذلك باعها او ما كفا لذلك اليسق كيف اراد فادى ذلك الى تمول الانكشارية وتملكهم كثيراً من الاملاك واطل اليسق من باب القاضي ورتبت الانكشارية مالا على البضائع المحلوبة. واطل المكوس التي كانت تؤخذ على اللبن الداخلى الى دمشق وعلى الموازين .

وفي سنة ١٠٠٤ طالبت الحكومة الرعايا بعوارض سنئين جديدة وعتيقة وطالبوا الاسرائيليين بمال عظيم. وهذا كثيراً ما كانت تعمد اليه حتى الى عهد قريب تطلب المال قبل استحقاقه وتسلب اموال الصيازف والمرابين بحجة الاستدانة منهم وحدث ان بعض الامراء والملوك صادر والنصارى واليهود خاصة كما فعل الملك الاتسرف قايتباي فصادرهم مرتين في ايامه. وفي سنة ١٠٠٨ تولى السيد محمد باتسا ولاية دمشق وامر بتغيير المعاملة فيها وجعل كل سلطاني بثمانين قطعة جديدة زنة كل قطعة قيراطان ونصف قيراط وهبطت الاسعار وحصل الرخاء. وذكر بعضهم ان نجر الدين المعني كان يجبي تسعمائة الف ليرة ويزيد ذلك بزيادة التجارة فكان دخل صيدا يأتي الدولة سنوياً بمانتي الف ليرة. ويدفع من جبائمه للسلطان ثلاثمائة واربعين الف ليرة فقط وكان الامير بتسير كالا مير نجر الدين يجب البذخ وقد ضاعف خراج لبنان اربعة اضعاف. وغرّم احمد حافظ باتسا سنة ١٠١٨ وكان كافل الشام اموالاً طائلة وصادر جماعات في دمشق واخذ اموالاً منهم بغير حق ولذلك كانت المصادرة عامة نتناول من في صندوقه مال اياً كان مذهبه .

وهكذا انقضى القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر في سلسلة مغارم

ومظالم فقد تولى احمد باسا الجزائر دمشق لأول مرة سنة ١٢٠٠ و كانت مدة حكمه فيها خمس سنين لم يرتح شهراً واحداً من طلب المال ظلماً ومن طرح النقود وطرح البضائع المتنوعة بينهما من جهات و يطرحها على أخرى باسعار زائدة ومن مظالمه انه اذا وحده قتييل في احد الانهار يلحقون جميع القرى التي تشرب من ذاك النهر و يأخذون منهم مالا غزيراً و كان لا عمل له الا القبض على الاغنياء ومصادرتهم على اشبع صورة فصدق فيه قول الشاعر :

قد بلينا نامير ظلم الناس وسبح فهو كالجزار فيهم يذكر الله و يذبح  
قال ابن آق بيق في حوادث سنة ١٢١٢ شغل الشام بالظلم و اكرامية الباسا من البلاد و اشتغل حسن آتا بالظلم في دمشق و ارهاق القرى بالطردحة و الاكراميات و اقراض الذخائر و معاونة الجردة و غير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها اثر في السابق .  
وفي سنة ١٢٤٧ كادت محاولة سليم باسا و الي الشام وضع «مصريتين» ضربت على كل سكرة اي عقار في دمشق من جملة اسباب قتله حرقاً مع جماعته .

وقال ابن عابدين : ان غالب الغرامات الواردة على القرى في هذا الزمان ( اي في اوائل القرن الثالث عشر ) ليست لحفظ املاك و لالحفظ ابدان و اما هي مجرد ظلم و عدوان فان غالب مصارف الوالي و اتباعه و عمارات منزله و منزل عساكره و ما يدفعه الى رسل السلطان الواردين باوامر و نوامٍ و امشال ذلك كله يأخذه من القرى و يسمون ذلك بالذخيرة توخذ في بلادنا في السنة مرتين و يزيد فيها دراهم كثيرة رشوة لاعوانه و حواشيته من اعيان البلدة و قد جرت العادة بقسمة ذلك كله على عدد فدان القرية و تارة يقسمونه على مقدار حق الشرب بالساعات الرملية فمن كان له فدان مثلا يؤخذ منه ما يخصه او من له ساعة يؤخذ منه ما يخصه سواء كان رجلاً او امرأة او صبياً وكذا يجعلون منها على رقاب الرجال الساكنين في القرية الذين لا ملك لهم فيها .

وما اخترعه العثمانيون « الزعامة » وهي عبارة عن قرى يقطعها من يعطاها و تحمن على الاقل بعشرين الف درهم عثماني كل سنة و اخترعوا العوارض وهي مظلمة سلطانية توخذ من البيوت في التسام في كل سنة و يقال انها من محدثات الملك الظاهر بپبرس اشار اليها الاكرمي بقوله :

لحس الله ايام العوارض انها هموم لروءياها تشيب العوارض  
بضيقة لما صدري واني اشاعر ضليع وببتي ما عليه عوارض

قلنا وهذا من جملة الدواعي التي انتقلت بها في القرن الماضي قرى رمزارع كبيرة في سهول الشام وجباله الى ارباب النفوذ فخرج اهلها عن ملكها ورضوا بالاستعباد على ان يكونوا احراراً مالكين وذلك فراراً من ظلم الحكومة وتحلصاً من الصرائب الثقيلة التي لا تتحملها نفس بشرية وكثيراً ما كان الشيوخ يقصون علينا قصة الطبلة يوم تدق في قريتهم ويحجي اعوان الظلمة لاخذ المظالم من اهلها وهناك كنت تسمع من المؤلمات وضروب الظلم في طرق الجباية ما تسأل الله معه السلامة وتستغرب كل العراية من جنس هذا النساطق المتمرد ومن طرز ادارة العثمانيين التي تعرف كيف تسد زف دماء الامة واموالها وقلمها فكرت فيما يجلب لها الثروة ويحفظ عليها الحق ويقيم بينها قسطا العدل .

ولما فتح جيش محمد علي باتا المصري بلاد الشام كان الاجنبي اذ ذاك يعطي رسوم كارك وضرائب اقل مما يدفع الوطني بكسير ولذلك اضطر بعض التجار الى اتباع حماية الاحاب حتى يستطيعوا ان تحجروا وهذا كان مبدءاً استمداد الامتيازات الاحنبة . كذب اللورد دوفرين الى حكومته سنة ١٨٦٠ يقول : في مقدمة اسباب ضعف الادارة العثمانية في الشام ان الباب العالي كان يعتبر هذه الولاية منذ بضع سنوات كأبالة اجنبية يقتضي الانقاع منها ما يمكن ولذلك طرح منصبها في المزاو ولم يول عليها الا الزائد الاخير ومن الطبيعي ان كل وال جديد لم يكن يفكر الا في تعويض مادفعه من الممال و بجمع الثروة فيسلب اهالي ولايته لدن وصوله مبتزاً منهم الاموال ومثقلاً كاهلهم بالصرائب الجديدة . وبعد ان ذكر كيف كان الوالي يرثي جماعة الاستانة لتسليم له الولاية مدة يواصل فيها اسدراف الاموال واملاء جيو بهم بها . قال : فشأ عن ذلك مظالم لا تطاق وابتزاز اموال لا تحصى وتعاقب على الابالة ولاة غير اكفاء للمنصب جائرون مرتشون طماعون في جمع المال لا تشبع بطونهم خالون من ادنى اهتمام بالمصلحة العامة اه .

تبدلت الاوضاع الادارية في هذا القطر مرات على عهد العثمانيين وفي سنة ١٢٧٢ هـ

كانت تقسم الى ايلتين اياة دمشق و اباله صيدا و دخل الاولى التي هي عارة عن دمشق و مرج الغوطة و وادي الحشم و وادي بردى و جبل قلون و حماة و حمص و بعلبك و معرة النعمان و عجولون و البقاع و حاصبيا و راشيا و حوران و جبل الدروز و حصن الاكراد و القنيطرة و ابي قبولي من الحراج و الاعشار و البدل العسكري و الرسوم المختلفة ١٤١٨٠٥ اكياس يضاف اليها ٩٠٠ كيس كانت تدفعها الخزينة الى الاوقاف و ذلك عدا ما كان يؤخذ من حماة و حوران و حمص و جبل الدروز و حصن الاكراد و معرة النعمان و عجولون عيناً من الاعشار و الرسوم و هو ١٨٢٥٩ اردناً من القمح و ٢٥٨٨٤ اردناً من الشعير و ٩٥١ من الذرة ١٣٣٩٣ اوقية سمن و ٣٢٠ اوقية حرير و ١٣٠٠ رأس غنم . و كان دخل ايالة صيدا و قائم مقاميتي لبنان الدرزية و المسيمية و يدخل فيها بيروت و طرابلس و اللاذقية و نابلس و عكا و حيفا و ساحل عنتليت و الاقضية الشمسية ٣١١٥٤ كيساً ماء المستوفى عيناً من القمح و الشعير و الذرة و الكرسة و السمسم و العدس و السم و الزيت و الفيالج و القطن .

و كان مجموع دخل ايالة دمشق ١٨٥ الف ليرة على ذلك العهد و ايالة صيدا ٥٠ الفاً و كان لبنان يؤدى للدولة سنوياً ٣٥٠٠ كيس جزية و خراجاً . كذب المستر برانت قنصل انكلترا في دمشق الى سفير دولته في الاستانة عن حالة ايالة دمشق في ١٤ احريران ١٨٥٨ من كتاب مايا تي : « ان الضرائب كانت باهظة على عهد الحكومة المصرية على ان استناب الامن و عدم تحمل الحكومة على الشعب كانا بكفيان لاقتساعه ان في وسعه تحمل و قرها دون ان يرزح تحتها و كان الدخل يدار براحة و اقتصاد و لدى الحكومة المصرية جيش و افر العدد و يقوم بكل نفقات ادارة الايالة المتوقع ازديادها تدريجاً اماحالة اليوم ( اي على عهد الحكم التركي ) فهي على عكس ما تقدم من جميع الوجوه فالضرائب عبّ ثقيل لا يطاق (١) مع انها اقل من ذي قبل و الامن مفقود و الدخل يقل كل يوم لاهال القرو و بين حرارة الاراضي و كل ما يتم جمعه ينفق باسراف او يسرقه

(١) قال بيرييه ان الضرائب التي وضعها ابراهيم باشا المصري على السور بين كانت شديدة و ما كان القوم يتحملونها لو لم يكونوا من عناصر و اديان مختلفة قلنا و من حسنات ابراهيم باشا انه ابطل الرشى و الاصطناع و ابطل المصادرات و قرر حق التملك .

الموظفون والاموال اللازمة لادارة الحكومة تطلب من الاستانة وصار من الجلي ان المالمية تزداد اختلافاً وفساد الادارة مستمر .

« كانت حكومة محمد علي فرضت على كل ذكر ساكن في المدينة ضريبة جديدة تدعى ضريبة الفردة تحتلف بين ١٥ قرشاً الى ٥٠٠ قرش حسب حالة كل انسان وكانت مجموعها يبلغ عشرين الف ليرة انكليزية ولما عاد الاتراك الى البلاد لقوا مقاومة شديدة في جبايتها فابدلوها بضريبة على البهوت تستوفي دون حدوث اضطراب كبير او قتال على ان مجموعها لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة انكليزية وقد جرت بعض احتسارات وفرضت ضرائب حديدة على البنائات المحدثتة للاستعاضة عن الدخل الذي اسرفوا به وكانت الحكومة المصرية تستوفي نحو ٥٥ الف كيس ولا يتأخر لها بارة وهذا المبلغ يساوي ٢٧٥ الف جنيه فيهبط الدخل اليوم الى ٣٥ الف كيس قيمتها ١٤٣ الفاً وخمسمائة جنيه يجبي منها عشرة آلاف كيس وبقى زهاء ٤١ الف جنيه في ذمة الاهالي وهذه يتعذر جباية قسم منها .

هذا ما قاله رجل غريب عن البلاد واصرح منه ما كتبه مدحت باتا ايام كان والياً على الشام بتاريخ ١٧ آذار ١٢٩٥ شرقية من لائحة في سياسة الشام واموالها ومما قاله : ان الاوامر التي تصدر من الاستانة الى الشام محصورة في طلب المال والجند فقط وبذلك بطل العمل بالقانون والاصول المرعية وفتحت ابواب سوء الاستعمال وما عدا بعض الرحال من الموظفين اصبح كبار العمال وصغارهم لا يلتفتون الى غير مصالحهم فطراً على المعاملات خلل و بسوء تأتير ذلك فسدت اخلاق الناس وكثير القتل والنهب والغارة على الاموال والعروض في كل مكان واختل الامن كل الاختلال . وقال واذا ألقينا نظرة على واردات الدولة نرى الحراج والاموال قد نزل ارتفاعها الى النصف وخربت مسائل الاعستار البلاد وقلّ البديل العسكري وحدث ما نتت عن بلية «القائمة» فمن اجل سقوط اسعارها نزلت الواردات في العام الماضي الى النصف وبقى النصف الآخر في باب النفقات بدون تسديد .

وكلام مدحت باشا يشمل ولايتي سورية وبيروت لان الولايتين في عهده كاننا ولاية واحدة فكلامه يتناول معظم سورية وفلسطين وبالطبع كانت فلسطين اقصى

الجنوب وحلب في أقصى الشمال على هذه الصورة أو اسد لان روح المملكة كانت واحدة وهي المركزية الشديدة وكانت في الدور الذي سلف لامركزية ولكنها اسبه بالفوضى . ولم تغير الحالة المالية عن عهد مدحت باشا بل ظلت تعسه الى آخر سقوط الشام ورحيل الاتراك عنها وان كانت الارناعات زادت في العقود الاربعه الاخيره لانتشار الامن في الحملة بنأسيس الحاكم النظامية التي قضت على الاشقياء بعض الشيء وكفت البادية عن العيت في البلاد القرية من العمور بعد ان كانت تأتي لاختد الحوة من القرى القرية من الحواضر الكبرى ولزيادة النفوس بقلعة الاوبئة وتخفيف بعض البطائح وسد العجز المالي ولا سيما في الساحل بما ادخله المهاجرون الى اميركا وغيرها من ابناء الشام فكانوا وما زالوا يميلون الى هذه الديار مبالغ طائلة تدخل في تحسين الزراعة والصناعة وتراد بها الحركة التجارية . وكانت الدولة العثمانية كبا سلت عنها الولايات السابعة تزيد في مقدار الحماية والمظالم على بلادها فالدخل نقص على الدول اسلخ الممالك من سببها والخرج يزيد لان اهل الاستانة عالة على اهل الولايات يتبقى هو لا ايعم اوائك وبنوا القصور وتمتعوا بالودان والخور .

ولم يكف الحكومة العثمانية زيادتها في العصور حتى بلغت ثلاثه عشر اربعا في المئة تؤخذ من الحاصل والخصول عدا ما لحقها من ظلم الملتزمين والعشارين وهو قد بلغ عشرين في المئة في بعض الاشحاء ولم يكن لها زياد الاموال والضرائب الاخرى الى ضعفين بل الى اضعاف ما كانت قبل عشرين سنة بل زادت في العشر والحراج زيادة مهمة مدة الحرب العامة مع ما احده من التكاليف الحربية واستتابته من اموال الفلاحين وعروضهم ومواسيهم ولولا ارتفاع الاسعار ودخول ملايين من الليرات التي اقترضتها الدولة من المانيا لبقها على الحاش الذي جمعته وحبلبته من القاصية لولا ذلك ابقى عشرة في المئة فقط من قري هذا النظر عامرأولا ضت الحال اتعس مما كانت قبل سنين او سبعين سنة ايام كان الفلاحون لا يستطيعون زراعة اراضيهم لقله الايدي العاملة فيجلبون اناسا من العميد لخدمتهم في الحرت والكرث .

وبعد الحرب كادت الحماية والمغارم في بلاد الشام خصصا لقلعة الذهب في الايدي والاستعاضة عنه بالورق القدي فزادت الخباية في بعض المال اربعة اضعاف فعملت

التسكوى واخذت اسعار البهاعات تعلو وتسفل في المدة القليلة والمقرر على الرعايا ينزل ويرفع على تلك النسبة فتضرر الناس من ذلك وكان البلاء في ذلك عامًا في كل البلاد التي لم يستقر سعر ورقها المالي على وتيرة واحدة او لم تواز قيمته قيمة الذهب واضطرت حكومات الشام الى الاتفاق اكثر من ذي قبل على صفار عمالهوا وكبارهم لئلا تترك لهم مجالاً الى الرشى والتلاعب بحقوقي المساكين والضعفاء وان تقوم ببعض الاعمال اللازمة في الحكومات المتمدنة فانفجرت مسافة الخلف بين الدخل والحرج ثم تعادلا واحذت الحكومة تفكر في الغاء طريقة الاعشار والاستعاضة عنها بال مقطوع وزادت الضرائب على العقارات نسبة احورها .

لاجرم ان الاموال اذا حبيت كما تجبى في البلاد المتمدنة بالرفق وبحسب طاقة المكافين يتوازن مع الزمن الدخل والحرج بل قد يزيد الاول على الثاني ادا وقع الاقتصاد في وجوه النفقات كأن تكثفني الشام بما تحرحه لها ارضها و يفيض عليها ما تصرفه على الخطوط الحديدية و رصف الطرق وتعبدها في المدن و بين القرى وعلى الاسلاك الرقية والكهربائية والهاتفية وتخفيف البطائح واصلاح طرق الري واقامة معالم العلم ودور التهذيب . وكل مملكة تسد عجزها بالاقتراض ولا تستمر بايدي رحالها ما ي سطعها وبطنها من الخيرات يكون مصيرها الى الاستعداد الاقتصادي وهو اشع ضروب الاستعباد في هذا العصر . وما لا تستطيع ان تعمله لنفسك ليس في مكنة غيرك ان يحمله اليك . وكل امة لا تفرض الجباية بالعقل ، ولا تجببها بطرق العدل ، ولا تبدل على المرافق العامة منها الفصل ، نخل بل تضخم .

محمد كرد علي



## القضاء في الاسلام<sup>(١)</sup>

رأيت ايها السادة ، ان يكون الحديث في هذا الاجتماع ، عن القضاء في الاسلام  
لاسباب اربعة :

اولاً — ان القضاء هو افضل مظهر يتمثل به العدل . ودل العدل الذي جعل به  
ارسطو « قوام العالم » الاركز المالك الوطيد ، لا يتبث له بيان الاغايه .  
ولا يستقيم الدول امر الا معه . ولا سيما ان تأسيسها واوائل نشأتها كمالنا  
الحاضرة . فاذا لم يكن قضاء حر ، مستقل ، نزيه . فلا عدل . واذا لم يكن  
عدل ، فلا سبيل الى البقاء .

ثانياً — ان هذا القضاء كان منذ كان . الى ان جعلوا يحرجوه عما وضع له . وتآولونه  
على غير ما أريد به ، خير قضاء عرفه الاسب . ممتلا لروح العدل ، متكيفاً  
مع المكان ، متمشياً مع الزمان . وكان قضاؤه حتى منتصف العصر العباسي ،  
انزه قضاة عرفهم التاريخ ، لامستتنبأ احداً من مشارق الارض ومغاربها .  
في حاصر الانام وغايرها .

ثالثاً — ان المهضة العلمية الاخيرة ، قد حدرت التام الذي كانت سدانه القرون الوسطى  
- قرون الجول والجمود - على حضارتنا السابقة ، فعرفنا كثيراً عن اسلامنا  
مما يدعو الى الاعجاب والمفاخرة غير . ان اكثر ما عرفناه فلأنا به الكتب  
الحديثة ، كان في الادب ورجاله . والآداب الرفيعة وذويها ، وما الى ذلك .  
امالقضاء ورجاله فقد ظل خبرهما مجهولاً عندنا ، الا قليلا مما لا يبغي الغناء  
كله ، بل مما قد تكون معرفته سراً من جهله . فاذا كانت الناشئة اليوم ،  
تعرف رجالات الادب . والتاريخ في العرب . محجري بها ان تعرف شيئاً

(١) أقيمت هذه المحاضرة يوم الجمعة ٢٣ ذي القعدة ١٣٣٩ هـ و٢٩ تموز ١٩٢١ م .

صحيحة عن القضاء وتاريخه ورجالهم وكيف كان ، والى اية حال صار اهتماماً للنأديب وخدمة للتاريخ .

رابعاً -- انا وان كنا نعلم ان الامجاد التاريخية القديمة ، لا تكفل الامة ارتقاها وتعزيز مكانتها ، ان لم يمض الازمان على سنن الآباء ، ويضفوا الى تليد الجهد طريقه . فلما ننكر ان التحدث بالجهد ، داع الى النشاط . وانس اللهم من مراقدها . نزاع النفوس . وقد عرفت سابق سيرها وبأسق غرسها -- الى الاقدياء بالأسلف الصالح ، والجري على آثاره . ولعل العبي العربي الكريم لم يرد غير ذلك يوم قال : « الشرف معوان » .

ب .

ولا ارى لي بدا قبل ان اخوض في هذا الموضوع من ان اقول ان هذا القضاء قائم بنفسه ، لاصلته الهبة الشرعية الزمانية . اما الدين يذهب من الى ان الدين الاسلامي ، هو في جملة الترائع التي استمدت اصولها واحكامها من هذه التريعة . فاما يذهبون مذهبا لا ينهض به حجة ، ولا يبرئ به دليل . ومع هذا فقد اصاب مدعاه شيئا من القيمة في بعض العقول والنفوس . ونكبي لا ينبغي قولنا مجردا عن الديهان كما جاء قول الخنخين ، نعززه بالادلة الآتية :

١ -- ان القضاء في الاسلام . وان كان احترام سيده مدة . تباع الترتين . فليس يصح ان يقال فيه ، انه نقل عن التريعة الزمانية ، ما دام لم يوضع دفعة واحدة . بل بما مع الحاجة وعلى الايام . حتى ولا ان يقال : انه استمد منها ، ما دامت مد ادره معروفة : الكتاب ، والسمة صراحة او استنباح . او قياسا . ثم اسبغ الى ذلك الاجماع .

وبل يصح في سبغ عرفت مصادره ، وبيت فيه طرق الاستنباح وهو حوه القياس . ان يقال فيه : انه تبرع نقل عن غيره او استمد . منه !

٢ -- ان التاريخ ذكر انما احده العرب في النهضة العباسية عن غيرهم من الامم . من العلوم بعضها او كلها . كالمسمة والطب والفلك والتنجيم ، وسائر العلوم الكونية . فعرفنا اسماء المترجمين والمعرين . في كل فن وعلم . وعرفنا المصادر التي اخذوا منها . واللغات

التي نقلوا عنها . ولم يذكر انه حصل شيء من ميل ذلك في القضاة .  
 ٣ - ان العلوم المقلولة بقيت نابها في اعتبارها . سحة من التهمة ، وفي مردادها الناط  
 غريبة عن العربية . خلا هذا القضاء . فقد حار عربها صحيتها مفردا ومركما . فادرا  
 وقع فيه لفظ غريب . فليس اكثر مما هو في بعض الفنون العربية الخنة كالادب . مالا .  
 وهذه الالفاظ اكثرها فارسي . جاء به المولفون الفرس . تمانقت منهم الى من اخذ  
 عنهم . او كانت مما اقتضته الصناعة والتجارة والزراعة .

٤ - اذا كان بين التبريعتين تشابه في بعض الاحكام ، فدل ان التبريعه في  
 كل امة تعتمد في مصادرها ايضا على العرف والعادات ، والامالات الطبعية . ويكثر  
 ان تستترك كثير من الامم ، في كثير من هذه الامور . وليس ادل من ذلك مما عسى  
 اهل الداية من الاحكام التي يكاد يكون بعضها ، كما نقوا من المرصونة .

ثم لو صح ان تكون الشريعة الاسلامية استقت من القانون الروماني ، لما كانت سلمت  
 من ان يتسرب اليها او الى عقول اصحابها ، شيء من اضر عملات التي كادت تجبري في  
 مواطن هذا القانون ، لذلك العهد وما بعده . كسما سما كنهه اليونانيات ، والقضاة الروماني  
 او التعذيب ، والصلب . وكسبت الموتى ، وما كنهها ، واصدار الاحكام عليها . وهذا ما تعانت  
 عنه هذه الشريعة علوا كبيرا .

٥ - لو صح ان يكون القانون الروماني ، من مصادر الشريعة الاسلامية . لحق ان  
 يكون موطن الاستراع الاسلامي ، او احد مواطنه . فيتم اتم ما يكون - بلداً  
 من البلاد التي كادت خاضعة لسلطان روما ، نازله على احكامها ، وهذا ما لم يكن  
 شيء .

وبنه وجد آخر لا يخدر السكوت عنه . وهو ان القانون المعروف بالقانون الروماني ،  
 كان من قبل متبوعا معقدا . لم يطبر بشككه الاخير الا بعد ان لاست الترجمة العرب  
 في الاناس ، احذت العلم عنهم . وقد قال بهذا كثير من واوردوا عليه أدلة عقلية  
 وبقلة . ليس من عرض الآن ان نأتي بها . وادانحن ازننا بين هذين الرأيين : رأي القائلين  
 بان الشريعة الاسلامية اقتت من القانون الروماني - وهو رأي قد تكسفت مقاتله -  
 ورأي القائلين : ان الشريعة الاسلامية هي التي أمدت هذا القانون فصيتره ما در .

- كانت كفة هذا الرأي هي الراجحة . وحجة الفائلين به ، أقرب للعقل . وأوزن في النقل .
- لذلك نستطيع ان نقول : ان القضاء الذي نتكلم عنه ، هو قضاء لا اثر للنقل فيه . ولا فضل في وضعه لغير ذويه . ولسلفه من قبله .
- وسيدور بحثنا على أربعة أمور :
- ( ١ ) القضاء في العرب قبل الاسلام .
- ( ٢ ) القضاة ، والقضاء ، وما يؤخذ عليه .
- ( ٣ ) آداب القضاء والقضاة .
- ( ٤ ) مقارنة بين القضاء في الاسلام ، والقوانين في هذه الايام .

\* \* \*

القضاء قبل الاسلام -- كان العرب يسمون القضاء حكومة . والقاضي حكام . ولم تكن الحكومة عملاً مستقلاً الا في قرنتس . فكانت عندهم في جملة المناصب الخمسة عشر التي كانوا يتولونها قبل الاسلام . وكان ممن تولى الحكومة فيهم دابن بن عبدالمطلب ، وابنه عبدالله ، وابوطالب بن عبدالمطلب ، والعاص بن وائل .

واما في سائر القبائل ، فقد كان الحكم صاحب الرأي فيها . فادا وقع خصومة احتكوا اليه ، فيفصل بينهم بما أوتيهم من الحكمة والعقل ، وما جرت عليه العادة . كما كتم بن صبيح ، الذي كان يعد من رؤساء المحكمين . والحاجب بن زرارة ، والاقرب بن حابس في تميم .

وكانوا يرجعون ايضاً في خصومتهم الى الكهان . اذ كانت الحكومة تدرج تحت علمهم الذي هو الكهانة . كسطيح الدئبي ، المعروف بسطيح الكاهن . وشرق امار . اما حيث كان يكون ملك او امير ، فكان اليه مرجع الامور كلها وفي جملتها الحكومة . الا ان يكمل ذلك الى غيره .

• كانت الحكومة عندهم فطرية سادجة ، كحالتهم الاجتماعية . ايس لها قوانين موضوعة ، ولا سرائع منبئة ، الا ما كان من قبل العرف والعادة . ولعل الحكومة كانت محملة عندهم في القول المأثور عن قس بن ساعدة « البينة على من ادعى واليمين على من انكر » وهو قول لم يبتدعه الرجل ابتداء ، ولكنه استخلصه من الحكومة التي كانت

حارية في ايامه وقبلها . وهي انهم كانوا يسألون البينة من ادعى ، واليمين على ادعى عليه .

\* \* \*

القضاء . والقضاء في الاسلام - - لما جاء الاسلام ، ظلت الحلة في بادئ الامر على ما كانت عليه من قبل . فلا يكن في ايام الرسول حكم غير . وكذلك كانت الامر ايام حليفته ابي بكر .

والسبب في ذلك ان الاسلام كان لذلك العهد قليلاً ، منحصرأً في جنوبي الجزيرة . وكان قدمت في روع الناس آدانا سامية . وبعث فيهم أخلاقاً عالية . حلبت اب من دخل فيه إيماناً وافتناناً . وحررت قلوبهم رحمة وحناناً . وملك عليهم عواطفهم . فقلت الحصومات في ثلاث الفرة . وحف اعنندا : هؤلاء الناس بعضهم على بعض . وكان اذا وقع شيء من ذلك اجتمعوا الى صاحب الرسالة فيقصي بهم ، او اسئلوا اصحابه ، ونزلوا عند قتيابهم .

بل بلغ الامر فوق ذلك ، فكان الرجل اذا احترم حاء من ذات نفسه ، يقول : يا ابي الله : لقد كن مني كيت وكيت .

ان زما هذا تباها ، لا يحتاج الى قضاء اخفاء . ولا الى قوانين متعددة . بل كان حسه ما كان فيه . من كتاب الله وسنة نبيه .

فلما امتد سلطان الخلافة الى العراق والشام . واتسعت رقعة الملك . انتمت تلك الصراحة التي كانت في بأناة الاسلام . بعد ان دخل فيه كثير من الاقوام رهبة او رغبة . لذلك ، ولاستعمال الخليفة عمر تدبير امر هذا الملك ، رأى ان يجعل القضاء عملاً مستقلاً خاصاً . وعهد فيه الى ثلاثة تجيرهم من اهل الدين والعلم . جعل ابا الدرداء معه في المدينة . وبعث سريخاً الى البصرة . وولى ابا موسى الاشعري بألكوفة . فكأوا اول قضاء في الاسلام ، كما كانت عمر . على اصح الروايات . اول من دفع القضاء الى غيره .

وكتب عمر الى عمرو بن العاص ، عامله في مصر ، ان يولي على القضاء كعب

ان يسار بن ضنه العبسي ، وكان حكماً في الجاهلية . فابي كعب (١) . فولى عمرو ، عثمان بن قيس بن ابي العاص (٢) فاتخذها عمال مصر سنة . فكانوا هم يولون القضاء . واستمر ذلك الى ايام بني العباس . فلما قام ابو جعفر المنصور جعل لنفسه هذا الحق ، فولى عبد الله بن لهيعة الحضرمي على مصر سنة ١٥٥ هـ . اما الوظيفة (٣) التي كان يجر بها عمر على القاضي ، فمئة درهم كل شهر ، وموئنه من الخنطة . وهكذا فعل عثمان وعلي . فولى الاول زيد بن ثابت . وولى الثاني نريجاً ، واما الاسود الدؤلي . وجاء بنو أمية فضوا على ذلك ، فجعل معاوية على قضائه فضائه بن عبيد الانصاري . فلما مات استنقى ابا ادريس الحولاني . غير ان وظائف القضاة زادت ايام بني أمية زيادة مذكورة ، فبلغت الف دينار في السنة .

وكان عدد القضاة ، يكثر ويقل حسب الحاجة . حتى ان بغداد لما تكاثرت عدد سكانها . وكثرت خصوماتهم . ولى عليها الرشيد جماعة من القضاة . وجعل ابا يوسف المشهور ، ناضي القضاة — وهو اول من تلقب بهذا اللقب — وفوض اليه تولية قضاة بغداد . ثم قضاة سائر الامصار . وجعل ابو يوسف للقضاة لباساً خاصاً يتميزون به . اما وظائف القضاة في ايام بني العباس فقد كانت اقل منها في عهد بني أمية . اذ دامت الى ثلاثين ديناراً في الشهر . حتى بلغت ايام المأمون مائتين وسبعين ديناراً في السنة . فلما ملك ابن طولون ، أعادها الى مثل ما كانت في عهد بني أمية . اي الف دينار في السنة . غير ان المطلب بن عبد الله الخزازي ، والي المأمون على مصر ، أجرى على قضاة المضل ابن غانم مائة وثمانية وستين ديناراً في كل شهر . وهو اول ناضٍ أُجرى عليه هذا . وكان عيسى بن المنكدر مقلداً ، وأجرى عليه عبد الله بن طاهر ، والي مصر سبعة دنانير كل يوم ، (١) وفي « اخبار قضاة مصر » : ان عمرأ قال لكعب لا بد من السمع والطاعة لامير المؤمنين فاقض حتى اكتب لامير المؤمنين فقضى لكعب حتى اغناه عمر . وكان قضاؤه فيها شهرين .

(٢) وفي اخبار القضاة قيس بن ابي العاص بدلاً من عثمان بن قيس ولعل ما نقلناه هنا اصح لانه عاد فيما بعد فقال عثمان بن قيس .

(٣) الوظيفة . ما يقدر لصاحب العمل من طعام او رزق .

او اربعة آلاف درهم في الشهر . وهو اول فاضٍ أُجري عليه ذلك . واجازه بالف دينار . واجرى التوكل على بكر التقني في الشهر مائة وثمانية وستين ديناراً . وكان ابوالجيش خمارويه بن احمد بن طولون يبذل فاضيه محمد بن عبدة بن حرب ويعظمه ويبري عليه كل شهر ثلاثة آلاف دينار . ثم اخذت وظائف القضاة — وقد وقع في الدولة من الضعف والوهن ما وقع — لتقلب من حال الى حال . حتى اصبح القضاء تجارة واصبح القاضي يضمن القضاء على مال معلوم يقدمه كل سنة .

\*\*\*

مصادر القضاء :— فلما ان للقضاء في الاسلام مصادر خاصة استقى منها واعتمد

عليها وهي :

- (١) الكتاب الكريم . وهو القرآن
- (٢) السنة الشريفة: وهي اقوال الرسول وافعاله .
- (٣) الاجماع: وهو اتفاق مجتهدي الامة بعد النبي في عصر من العصور على امر من الامور .
- (٤) القياس : وهو حمل معلوم على معلوم : اي الحاقه به في حكمه لمشابهة بينهما . وهو انما يستنبط من الثلاثة الاول .

كان الرسول يرجع في قضائه في الامور الدينية والدينية الى الكتاب الكريم، والى ما نلججه له فطنه ويوحيه اليه الحق . فلما توفي : كانت اقواله واعماله هدى لمن قضى بعده . فاضيف بذلك الى الكتاب — وهو المصدر الاول للقضاء — المصدر الثاني وهو السنة . ثم كانوا اذا اشكل عليهم امر فلم يجدوا له نصاً في كتاب ولا سنة . فاسوه بما شابهه : فكان القياس وهو قديمي به قبل الاجماع : وان اخروه بالترتيب عنه لما ذكرنا من انه يستنبط ايضاً من الاجماع . يؤيد ذلك ما قاله الامام عمر في كتابه المشهور الى ابي موسى : يوم ولاء الكوفة :

« الفهم : فيما يتلجج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الامثال والاشباه : وقس الامور بنظائرهما . . . »

فنحن نرى ان القياس بديهي به منذ ذلك التاريخ او قبله . يوم لم يكن اجماع بل

يوم كانت القضاة السابقون والخلفاء الراشدون، يحكمون كل حسب رأيه واجتهاد وقياسه . وكثيراً ما كانت تختلف احكامهم واقوالهم . لاختلاف في الآراء : او طرق الاجتهاد : او مناهج القياس .

### وقد جاء في الوسيط :

« انقضى زمن الخلفاء الراشدين : ولم يدون فيه كتاب : الا ما كان من امر كتابة المصحف . وكان مرجع الناس في امر دينهم وديارهم كتاب الله وسنة رسوله . فاذا اشبهت عليهم امر من الامور ، رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة ، او استخاروا الله فيه ، واستنظروا واجتهادهم رأياً معمولاً به . وقد كانوا لا يكتبون اقوال النبي - صلى الله عليه وسلم - وفتاوى الصحابة ، خشية ان يجرهم ذلك الى الاعتماد على الكتب ، واهمال حفظ القرآن الكريم والسنة . ولان الكتاب عرضة للضياع وللتصحيف والتعريف . »

« ثم لما حدثت الفتن ، وتعددت المذاهب والنحل ، وكثرت الاقوال والفتاوى ، والرجوع فيها الى الرجال والرؤساء ، ومات اكثر الصحابة . خافوا ان يعتمد الناس على رؤسائهم ، ويتركوا سنة رسول الله . فاذن امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لابي بكر محمد بن حزم - نائبه على المدينة في القضاء والولاية - ان يدون الحديث ، بعد ان استخار الله اربعين يوماً . فدون ما يحفظ عن الرسول في كتاب بعث به عمر الى الامصار . فلم يكن للقضاة الى ايام ابي جعفر المنصور مراجع مدونة ، يستمدون منها ويقاسون عليها ، غير القرآن وكتاب ابي بكر هذا . »

فلما كان العصر العباسي ، نهض ابو جعفر المنصور نهضته المباركة . وجعل يحث الأئمة والفقهاء على تدوين الحديث والفقه . ولم يدخر وسعاً في الحواجز السنية في هذا السبيل . فمضوا فيما رغب فيه . واقبلوا على الجمع والتدوين والتصنيف في العلوم الاسلامية ، ومنها القضاء . وكانت القراءة والفقه والفسير والحديث في اول الاسلام علماً واحداً . فجعلت تميز على توالي الايام ، الى ان اصبح كل علم مستقلاً عن الآخر . فلما اسنقل الفقه سمي اصحابه الفقهاء وكانوا قبلاً يعرفون بالقراء ، تعظيماً لشأن القراءة التي كان يجهلها العرب في اول امرهم .

قال العلامة ابن خلدون :

« وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين : طريقة اهل الرأي والقياس ، وهم اهل العراق . وطريقة اهل الحديث ، وهم اهل الحجاز . وكان الحديث قليلاً في اهل العراق فاستكثر وامن القياس ومبروا فيه ، فلذلك قيل لهم اهل الرأي ، ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي اصحابه ، ابو حنيفة . وامام اهل الحجاز ، مالك ابن انس ، والشافعي من بعده . »  
ثم دخل اهل الحجاز العراق . ونقلوا اليه الحديث . فتساوى الفر يقان في معرفته .  
ونتأعن ذلك عدة مذاهب . اشزرها : مذهب الشافعي ، ومذهب الحنبلي ، فكانا والمذهبين الاولين : الحنفي والمالكي ، والمذاهب الاربعة المشهورة ، التي رضىها الأمة في امر دينها وديانها الى يومنا هذا .

وجاء في الوسيط :

« اما الامام الاعظم ابو حنيفة (١) فقد اخذ كل علمه عن سلفه الصحابة ونقل عنهم . واستنبط فقهه من القرآن الكريم . وما صح عنده من الحديث على قلته ، مع استعمال الرأي والقياس »  
« وتابعه في ذلك اكثرائمة العراق لقللة رواية الحديث الصحيح بينهم »  
« واما الامام مالك (٢) فقد اعتمد في فقهه على الحديث »  
« والشافعي (٣) استنبط مذهبه من القرآن والحديث والقياس والرأي . فكان مذهبه وسطاً بين اهل الرأي من اصحاب ابي حنيفة . وبين اهل الحديث من امثال مالك واحمد »  
« واحمد بن حنبل (٤) استنبط مذهبه من السنة متسواً بشيء من القياس والرأي »

المواطن التي انتشرت فيها هذه المذاهب

قال ابن خلدون :

« اما احمد بن حنبل . فقلده قليل . لبعده مذهبه عن الاجتهاد . . . . . واكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وهم اكثر الناس حفظاً للسنة ورواية للحديث . واما ابو حنيفة فقلده اليوم اهل العراق ، وسلمة الهند والصين ، وما وراء النهر وبلاد الحج

(١) ولد سنة ٨٠ — وتوفي ١٥٠ (٢) ولبسنة ٩٥ — وتوفي سنة ١٧٩ (٣) ولد سنة

١٥٠ — وتوفي ٢٠٤ (٤) مولده سنة ١٦٤ ووفاته سنة ٢٤١

كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق وكان تليذه (١) صحابة الخلفاء من بني العباس ، فكثرت تأليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافات وجاءوا منها بعلم مستظرف وانظار غريبة . »

« واما الشافعي فقلده مصر أكثر مما في سواها ، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر . . . ثم درس ذلك كله بدروس المشرق واقطاره . »

« واما مالك فاخص بمذهبه اهل المغرب والاندلس . وان كان يوجد في غيرهم . الا انهم لم يقلدوا غيره الا في القليل . لما ان رحلتهم كانت غالباً الى الحجاز ، وهو منزه سفرهم . والمدنية يومئذ دار العلم ، ومنها خرج الى العراق . ولم يكن العراق في طريقهم ، فاقصروا عن (٢) الاخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وامامهم مالك ، وشيوخه من قبله وتليذه من بعده . فرجع اليه اهل المغرب والاندلس وقلده دبرت غيره ، ممن لم تصل اليهم طريقته . وايضاً ، فالبدوة كانت غالبية على اهل المغرب والاندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق ، فكانوا الى اهل الحجاز اميل ، لمناسبة البدوة . ولذلك لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم ولم يأخذوا بتفقيح الحضارة وتهذيبها ، كما وقع في غيره من المذاهب »

هذا ما قاله العلامة ابن خلدون ، بياناً لمواطن هذه المذاهب الى يومه . وتعليلاً لانتشار بعضها دون بعض .

اما في يومنا هذا :

فان المذهب الحنفي ، منتشر في ما كان يعرف بالبلاط العثمانية الاوربية والاسيوية . وفي تركستان ، وهندستان ، وبلاد النتر .

والمذهب المالكي في المغرب كما اقصاه ووسطه وادناه

والشافعي في مصر والهند .

والحنبلي في بعض بلاد العرب وفي مدينة بلخ

(١) لفظة صحابة وردت في النسخ الثلاث التي وقفنا عليها وهي مصدر في الاصل . فيجوز ان تطلق على المفرد . ولكن الكلام الوارد بعدها بصيغة الجمع ، يرشح كون تليذ وردت من خطأ النساخ ، وكان حقها ان تكون تلاميذ . (٢) هكذا ورد في الطبعة البيروتية .

بقي ان ما اورده ابن خلدون ، تعليلاً لانتشار مذهبي ابي حنيفة ومالك — مع ما فيه من وجوه الصواب — ليس بالسبب الذي استقل بهذا الامر . بل لعل السبب الذي اتي به الفيلسوف ابن حزم اوجه واقوى نال : (١)

« مذهب ان تشرفي مبداء امره بالرئاسة والسلطان . مذهب ابي حنيفة : فانه لما ولي قضاء القضاة ابو يوسف يعقوب : صاحب ابي حنيفة . كنت القضاة من قبله . فكان لا يولي قضاء البلدان من اقصى المشرق الى اقصى افريقية الا اصحابه وانتمين اليه والى مذهبه . ومذهب مالك بن انس عندنا فان يحيى بن يحيى كان مكياً عند السلطان مقبول القول في القضاة ، فكان لا يولي قاض في اقطار الاندلس الا بمشورته واختياره . ولا يشير الا باصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى الدنيا . فاقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به . على ان يحيى لم يزل قاضاً قط ولا اجاب اليه . وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم . وداعياً الى قبول رأيه لديهم »

ومثل ذلك ما انفق لمذهب السافعي : من نصره محمود بن سبكتكين ونظام المالك في بلاد المشرق . وصلاح الدين الايوبي في مصر

\* \* \*

فلما وضع هؤلاء الائمة الاربعة قواعد الفقه . وقف النقباء بعدهم . ونظروا الى ما وضع كأنه قطعة من الوحي . لا يجوز تعديله ولا تبديله ولا الخروج عنه ولا الزيادة عليه . وصرفوا همته الى وضع الشروح والتعليق والحواشي . على ما كانت كتب من قبل . فكان ذلك حجر عثرة في سبيل طلب الفقه : لما فيه من التطويل الممل : والاجتاه العقيمة : مما يضيع على الطالب فكره ووقته .

ولم يقف ضرر هذه المطولات عند التشويش على الافهام : والتضييع في الاوقات . بل كان علة من نلل الجور والانحطاط . قال السيد عبد الله جمال الدين : قاضي قضاة مصر في كتابه « السياسة الشرعية » وهو يعدد اسباب الانحطاط :

« سادساً تعمق الاجتاه وتضيق الكتب حتى خرجت بالشرعية الخيفية السخاء عن

الرفق والسداحة »

(١) ابن خلكان .

وفي هذا الصدود والمعنى: يقول بن قيم الجوزية في كتابه «الطرق الحكيمة»: معترضاً على الذين قصر واعقولهم واعمالهم على ما كان من احكام السلف: غير مراعين تبدل الاحكام وتغير الازمان:

«وهذا موضع منزلة اقدم ومضلة افهام، وهو مقام ضنك، ومعترك صعب فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق، وجرأوا اهل النجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لانقوم بمصالح العباد، محتاجة الى غيرها، وسدوا على نفوسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق والنفذ له... ظلمتهم منافاة التواعد الشرع»

وهو يقول في موضع آخر من كتابه المنوه به:

«واقدم كان عبد الله بن عمر اذا احتجوا عليه بايه يقول: ان عمر لم يرد ما يقولون فاذا اكثروا

عليه قال: افرسول الله احق ان يتبع ام عمر؟

والمقصود: ان هذا وامثاله سياسة جزئية: بحسب المصلحة: تختلف باختلاف الازمنة.

فظنهم ان ظننا شرائع عامة لازمة الى يوم القيامة»

ومن هذا الباب: ما ذكره الطحاوي قال: (١) «كان ابو عبيد علي بن حسين البغدادي

قاضي مصر — يذاكرني بالمسائل فاجبته يوماً في مسألة فقال لي: ما هذا قول ابي حنيفة؟ فقلت

له: ايها القاضي او كبا قاله ابو حنيفة اقول به: قال ما ظننتك الا قليلاً، فقلت له: وهل قلد

الاعصبي، فقال لي او غبي، فطارت هذه الكلمة في مصر حتى صارت مثلاً»

وكان ابو عبيد من قبل يذهب الى قول ابي ثور ثم صار يكثر من جمع احكامه

بمصر باختياره.

فغريب: ان يضيق الناس بعد ذلك على انفسهم هذا الضيق، فيزعموا

ان ليس لهم ان يروا رأياً لم ينص عليه من سبقهم، ولا ان يستنبطوا حكماً لم يقل به من كان

قبلهم، ولو انهم نظروا نظرة صادقة، لرأوا ان الاحكام انما توضع تبعاً للحاجة، ولو انه جاز

للسلف ان يضع للخلف احكاماً في امور دينهم ثابتة راسخة، لا تتغير ولا تبدل، لكان ذلك

حقيقاً بأئمة الصدر الاول من الخلفاء الراشدين، بل بالرسول نفسه، اما وانهم لم يفعلوا ولم

يفعل، فذلك ان لكل زمان حوادثه، ولكل حوادث احكامها

واهم مما قدمناه وادل على مخالفة الرأي حتى مع من هم فوق الأئمة والمجاهدين :  
ما جاء في كتب السير :

« اراد النبي — صلى الله عليه وسلم — في بعض الحروب ان يعطي نصف اثمار نخيل مدينة لقبيلة من قبائل العرب لثلاثي مجاربه مع قريش . فلما سمع السعدان : سعد بن عبادة رئيس الحزرج ، وسعد بن معاذ رئيس الاوس . قالوا : يا رسول الله . هل ذلك بوحي من الله ام رأي رأيته . قال بل رأي رأيته . فقالوا : لا وحقك لا نعطيهم نصف ثمرة . فاجابهما الرسول الى ما رأيا .

ومن ذلك يعلم ان ما كان يراه الصحابة وجميع المسلمين واجب التنفيذ غير قابل للتقض والتغيير . انما هي السنة المنفذة للمنصوصات « .  
ومن هذا القبيل :

« ان القافة (١) دلت عليها سنة الرسول . وعمل خلفائه الراشدين . والصحابة من بعدهم منهم : عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب وابو موسى الاشعري وابن عباس وانس بن مالك ولا يخالف لهم في الصحابة . وقال بها من التابعين : سعيد بن المسيب وعطاء بن ابر رباح والزهرى واباس بن معاوية وقتادة وكعب بن انس واصحابه . ومن بعدهم : الشافعي واصحابه واحمد واصحابه واسحق وابو ثور واهل الظاهر كلهم «  
فلم يمنع هذا الاجماع المتصل المتسلسل . اباحيافة واصحابه من بعده ان يخالفوه فيقولوا : ان العمل بالقافة تعويل على مجرد الشبه . وهو قد يقع بين الاجانب . وينبغي بين الاقارب . «  
واحسن ما قيل في هذا الباب قول ابن عقيل :

« السياسة الشرعية ما كان فعلاً يكون معه الناس اقرب الى الصلاح وأبعد عن الفساد . وان لم يضعه الرسول . ولا نزل به وحي . فان اردت بقولك — الاما وافق الشرع — اي لم يخالف ما نطق به الشرع . فصحيح . وان اردت — ان لا سياسة الا ما نطق به الشرع — فغلط . وتغليط للصحابة .

لقد سمع المتأخرون تلك الاقوال التي فيها من الرخص والاستقلال ما فيها . ورأوا تلك الاحكام التي أقدم عليهم سلفهم مخالفة لسلفه . فلم يجروا مع هذا كله

(١) الطرق الحكمية . والقافة : الخاق الابن بابيه لمشابهته له .

على شيء من مثلها . وان قضت به حالة زمانهم . بل جبنوا عما ليس فيه مخالفة .  
ولكنه مجرد اجتهاد في الرأي .  
لقد خاف الائمة على الناس ان يذهبوا قبائل في آرائهم . ويفسروا الشريعة  
حسب اهوائهم . فاحتاطوا للامر بان جعلوا للاجتهاد باباً محدوداً لا يفتح على  
مصراعيه . ولكن الناس كانوا على انفسهم اشد تضييقاً فصاروا الى ما صاروا اليه .  
واستمر القوم في جمودهم هذا وتقليدهم الاعمى . حتى ضاقت حلقات الاحكام  
عن ان تنسع لحاجات الايام . والزمان يُجدد احواله . والعالم يُغير اوضاعه . سنة الله  
في هذا الكون . فاضطر السلطان عبدالمجيد في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ هجرية . و ٣١  
تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ ميلادية . ان يصدر مرسوم الاصلاح المعروف ( بخط  
كلخانة ) . فأُنشئت منذ ذلك الزمن المحاكم النظامية مستقلة عن المحاكم الشرعية .  
واخذت الدولة تقلد اوربا في قوانينها بل تترجمها قانوناً قانوناً . وفي كثير من الاحيان  
فصلاً فصلاً ومادة مادة . وانحصرت الاحكام الفقهية في المحاكم الشرعية وفي شاكل  
الحقوق ايضاً . غير انهم الفوا من الاحكام الفقهية خلاصة موجزة . سموها « الجلة  
العدلية » ثم قيدوا ذلك وبنوا وجوه المحاكمة فيه ، بكتاب نقلوه عن الفرنسية  
— كما كثر ما نقلوا من القوانين — عرف بـ ( اصول المحاكمة الحقوقية ) .

\* \* \*

٣ آداب القضاء والقضاة — هذا مجال يقف فيه القلم عاجزاً . واللسان قاصراً .  
واي امريء معها أوتي من ضروب البهان . يستطيع ان يصف ما هو عليه هذا القضاء  
من العدل . وما كان عليه ذووه من قبل من الزاهاة والفضل . وحسبنا ان نقول : انه  
قضاء هو العدل بعينه بل العدل نسخة عنه .  
يكثر — في كل أمة وفي كل زمان — ان يدعي الناس لانفسهم كثيراً من فضائل  
الاخلاق وهم منها براء . وينسبوا لاوضاعهم الشرعية والاجتماعية انها المثل الاعلى  
في الكمال وهي اوضاع خرقاء . وقد ينفق ان تكون الانظمة عادلة فاضلة من حيث  
الوضع فحسب . ويكون بين القائميين بها وبين العدل والفضل . ما بين الشرق والغرب  
لذلك لانقف عند ذكر ما اودعه هذا القضاء من الفضائل بل نتعداه الى ذكر

آداب القضاة انفسهم . حتى يعرف هذا الخلف العاثر حقيقة ذلك السلف الناهض  
فلقد شرطوا على القاضي ان يكون :

موثقاً به في عفافه وعقله وفهمه وصلاحه ، وعلمه بالسنة والآثار . واقفاً على المسائل  
الفقهية ، مقتدرآ على فصل الدعاوي . مهيبآ وقوراً . وحكيآً وجيهاً صبورآ . يفتي الله  
ويقضي بالحق . ولا يقضي هوى بضمه ، ولا لرغبة لغيره ، ولا لرغبة تزجره .  
لاصغيرآ ولا معتوهاً ولا اعمى ولا اصم .  
وجعلوا من آدابه .

ان لا يطلب القضاء بقلبه ولا يسأله بلسانه .  
وان لا يكون فظاً غليظآ . بل شديدآ من غير عنف . لينآ من غير ضعف .  
وان لا يجلس للقضاء وحده ، لان ذلك يورث التهمة .  
وان لا يسلم ، ولا يسأم عليه في مجلس الحكيم .  
وان لا يقدم رجلاً جاء غيره قبله .  
وان لا يسار احد الخصمين ولا يشير اليه ، ولا يكلمه بلغة لا يفهمها خصمه .  
وان يقضي - اذا امكن - من غير ان يوغر الصدور ، وان يبين للمقضي عليه وجه قضائه .  
واوجبوا عليه رد الهدية . ولو تأذى المهدي بالرد ، يعطيه مثل قيمتها . ولو تعذر  
الرد لعدم معرفته ، او لبعدهمكنه . وضعها ( اي القاضي ) في بيت المال .

ومن آداب هذا القضاء واصوله . انه جعل القاضي ضامناً اذا اخطأ . وهذا الضمان :  
يكون تارة في بيت المال ، وهو اذا اخطأ في حد ترتب عليه تلف نفس او عضو . وتارة  
يكون في مال المقضي له ، وهو اذا اخطأ في قضائه في الاموال . وتارة يكون هدرآ وهو  
اذا اخطأ في حد ، ولم يترتب على ذلك تلف نفس او عضو . كحد شرب مثلاً . وتارة  
يكون في ماله ( اي مال القاضي ) وهو اذا تعدد الجور .

وحذه قطعة من كتاب عمر ( رض ) الى ابي موسى الاشعري حين ولاه قضاء  
الكوفة . ولعله من امتع الكتب في هذا الباب . واجمعها لآداب القضاة والقضاء .

« ان القضاء فرضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا ادلى اليك ، فانه لا ينفع تسكلم  
بمعنى لانفاذ له . وآس بين الناس في وجهك وبجاسك وعدلك . حتى لا يطمع شريف في



فقال له: لا تسأل عني ولا عدي! فوالله الذي لا اله الا هو ان آياس بن معاوية افقه مني واعيا بالقضاء. فان كنت كاذبا فما يجعل لك ان توليني بانك كاذب. وان كنت صادقا فيبايعني لك ان تقبل تولي. فقال له: آياس انك جئت برجل وانته على سبب جهنم فجبى نفسه معها يبين كذبة اسمعق الله منها ونخبو مما يخاف. فقال عدي بن ارضاة اما از فهمتها فانت لها. واستقضاه» (١)

واراد يزيد بن شهر بن هبيرة النزارى - امير العراقيين ايام مروان بن محمد آخر بني أمية - اراخنة على قضاء الكوفة، فابى فخر به مائة موطوع وعشر ذاسواط: كل يوم عشرة اسواط، وهو على الامتاع. فلما رأى ذلك منه على سبيله.

والربيع :

«رايت المنصور، يمازل اراخنة في امراءنا، وهو يقول: اتق الله! ولا ترع في امانك الا من ثمان الله. والله مالنا بما أمرنا الرضا، فكيف اكون مأمون الغضب. ولواتجه الحكة. ماتت به يدى ان عرفتى في الثرات اولى الحكم. لاخبرت ان اغرق، ولك حاتية ثمان. من الى من يكرمه لك، ولا اصالح لذلك. فقال له كذبت انت اصلح. فقال له: نعم حكمت ر على نسان. كتب يجعل لك ان تولي قاضيا على امانتك وهو كذاب؟ (٢) ثم دسى ابوحنيفة ان القضاء مرة مائة، فمات حتى استشير اصحابي، فاستشار ابا يوسف. فقال لو علمت مات الناس نظرت اليه ابوحنيفة نظر المغضب وقال: ارايت لو أمرت ان اعبر اخر ساحة ا كنت اقدر ايه؟ ومات وهو على الالباء.

ودنى محمد التميمي الى القضاء فابى. حتى قيد وحبس واضطر فنقلد.

ومن نفروا من القضاء عد الله بن وهب بن مسلم احبته عباد بن محمد بن حيان راى المأمون على مصر سنة ١٩٠ ان يوايه قضا ما فاستنزمه. قال احمد بن عبدالرحمن وتعبت عني في مرل يحيى بن حرملة فهذه عباد بعض داره. قيل وسمع ان وهب اتداء ذلك يقول: نارب يقدم عليك اخواني نداء علماء علماء فقهاء واقدم عليك قاضيا لا يارب واو قرضت بالمعارضين.

وكن جميع آحاءه واحله فتاوزه فقالوا له: لعل ان يتعبا الحق على يدك فقال لهم:

(١). مرجح مقامات الحر بري للشمريسي وان خاكان (٢) ابن حلكن.

أكله في بطونكم اردتم ان تأكلوا ديني .

وحياة أراده على القضاء يزيد بن حاتم امير مصر من قبل المنصور فقال حيوة : لست أفعل فافعل ما انت صانع . فتركه وولى ابا خزيمه الرعيبي وسمع حيوة يقول بعد ذلك : ابو خزيمه خير مني اخترت فصيح ولم أختبر .

وسعيد بن ربيعة اخذه الوليد بن رفاعه بالقضاء فامتنع فقيل لسعيد : استعجم عليهم حتى يكون لنا عذر ففعل ولم يقض بين اثنين .

وسفيان الثوري ، كتب له المهدي عهداً على قضاء الكوفة ، وان لا يعترض عليه في حكم ، فرمى به في دجلة وهرب . وعلي بن معبد بن شداد العبدي عرض عليه المأمون قضاء مصر فابى . والحارث بن مسكين عرض عليه الفضل بن مروان وزير المأمون قضاء مصر فامتنع ثم اراده المتوكل على قضاء مصر فابى ايضاً فأكرهه اصحابه .

وفي هذا الابهاء عن تولى هذا المنصب — على ما كان من رفعتة وعظيم شأنه وسعة وظيفته — دليل على ما كان في قلوب هؤلاء الناس من التخرج والتأثم ، ان يشبه لهم ، فيخرجوا في احكامهم عن محبة الحق والصواب . وتحوقاً على نفوسهم مما ناله الرسول ( ص ) : « من ولي القضاء ، فقد ذبح بغير سكين » . ولقوله :

« القضاء ثلاثة ، اثنان في النار وواحد في الجنة : رحل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة . ورحل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار . ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس على جهل فهو في النار . »

اما وقد نوهنا بهذا النفر من ابو ان يتولوا القضاء فقد حق لنا ان نذكر قطعة من اخبار من ولي هذا الامر لتدل على مبلغ العدل من نفوسهم ، وكيف انهم تقيدوا بالآداب التي اشترطها عليهم القضاء تقيداً تاماً . وعدلوا عدلاً تقصر المحمة عن ان تطاع الى ما وراءه . بل تعجز النفوس — مهما بلغ منها العدل — ان تطمع في مثله .

وقع خلاف بين امير المؤمنين ابي جعفر المنصور وزوجته ام المهدي بنت يزيد الحميرية — والغوث بن سليمان الحضرمي على قضاء مصر — فاسنقدهم الخليفة وقال له : « يا غوث ! ان صاحبكم الحميرية ، خاصمتني اليك في شروطها ، قال غوث :

فقلت ايرضي امير المؤمنين ان يحكمني عليه ؟ قال نعم . فقلت : ان الاحكام لما

شروط أفيجعلها امير المؤمنين؟ قال نعم . قلت يأمرها امير المؤمنين ان توكل وكيلا وتشهد على وكالته خادمين حرين يعدلها امير المؤمنين على نفسه ففعل . فوكلت خادماً وبعثت معه كتاب صداقها وشهد الخادمان على وكالتها . فقلت قد تمت الوكالة فان رأى امير المؤمنين ان يساوي الخصم في مجلس فانحط عن فرشه ، وجلس مع الخصم . قال غوث ودفعت الي الوكيل كتاب الصداق ، فقرأته عليه وقلت . يقر امير المؤمنين بما فيه ؟ قال نعم . قلت ارى في الكتاب شروطاً مؤكدة بها تم النكاح بينكما . ارايت يا امير المؤمنين ، لو خطبت اليهم ولم تشترط لهم هذا الشرط اكانوا يزوجونك ؟ قال لا . قلت فيهذا الشرط تم النكاح : وانت احق من وفي لها بشرطها (١)

وعن يحيى بن عبد الصمد قال :

« خوصم امير المؤمنين الهادي الى القاضي ابي يوسف في بستان . وكان الحكم في الظاهر للهادي وفي الباطن خلاف ذلك . فقال الهادي لابي يوسف — ما صنعت في الامر الذي تتنازع اليك فيه ؟ فقال خصم امير المؤمنين يسألني ان احلف امير المؤمنين : ان شهوده شهدوا على حق . فقال له الهادي وترى ذلك ؟ قال فقد كان ان ابي ليلى يراه . فقال اردد البستان عليه . وانما احتال عليه ابو يوسف لعله ان الهادي لا يحلف (٢)

وكان ابو يوسف على ما مر بنا قاضي الرشيد ، بل قاضي القضاة في ايامه . ولقد نال عنده المنزلة التي لا يتعلق بها درك . ومع هذا في فقد قضى عليه خصومة بينه وبين نصراني . وروي انه قال حين ادر كفته الوفاة :

« اللهم ! انك تعلم اني وليت هذا الامر فلم امل الى احد الخصمين ، حتى بالقلب الا في خصومة نصراني مع الرشيد لم اسوء بينها وقضيت على الرشيد ، وبكي (٣) وشهد عنده يوماً من الايام ، الفضل بن الربيع ، وزير الخليفة فود شهادته فعاتبه الخليفة في ذلك قائلاً : لم رددت شهادته ؟ قال :

« سمعته يقول لك انا عبدك فان كان صادقاً فلا شهادة للعبد وان كان كاذباً فكذلك » (٤)

(١) اخبار قضاة مصر (٢) الطرق الحكيمة (٣) حاشية ابي عابدين (٤) ابن خلكان

واقبل صاحب خراسان يشهد عندنا اس فقال له : مالك وللسهادة ؟ انما يشهد  
السوقة . قال صدقت وانصرف ، فقبل له خدك انه لا يقبل شهادتك . (١)  
ولما ولي القضاء على مصر ، توبت بن عمر الحضرمي مستهل صفر سنة ١١٥ دنا  
امراته عنيرة الأصبعية وقال لها : (٢)

يا ام محمد ! اي صاحب كنت لك ؟ قالت خير صاحب واكرمه .  
قال فاسمعي ! لا تعرض لي في شيء من القضاء ولا تذكريني بخصمه ، ولا تسألني عن حكمه ،  
فان فعلت شيئا من هذا فان طالق . فاما ان تقبلي مكرمة ، واما ان تذكريني بمكرمة .  
فكأنك لتري دواته قد احتاجت الى الماء فلا تأمر بها ان تمدا ، خوفا من ان يدخل  
عليه في يمينه شيء .

وسرط محمد بن صالح الهاشمي العباسي لما ولي قضاء العديسة ببغداد وأخبره اليه  
قضاء مصر والشام وغيرهما ، سره طامعا منها ان لا يات على الدنيا أحرأ ولا يقبل ثمانية  
في فعل ما لا يجوز ولا في ابيات حق .

وقد بلغ من استئلال القضاة في آرائهم ، وعند اتقيادهم الى اسماء الشان السلطان  
ان احدهم كان يربأ بنفسه ، ان يرسل على امر سلطانه ، اذا خالف معتقده . وقد ذكرنا  
عن احمد بن طولون صاحب مصر انه كان يبالغ في اكرام قاضيهما تكار من قتيبه النبي ،  
حتى انه كان يدفع له كل سنة الف دينار غير المقرر له . فكان تكار يكرها لهما ولا  
يتصرف فيها . فلما دنا الى حياح الموفق ز المنوكن ، وهو والد المعتمد ، من ولاية العبد .  
امتنع بكار (٣) فاعتقله احمد ، ثم طامع سائلة المبلغ الذي كان يأخذ كل سنة ، فحمله

(١) العقد الفريد (٢) اخبار القضاة (٣) وفي ذيل اخبار القضاة ان بكارا اجاب  
الى حياح الموفق من ولاية المعتمد وسار الى المعتمد واسه على مسه دور سائر قضاة الشام والبعور  
واكنه امتنع عن لعنه وكان احمد تامله بما فتح عليه فاحصر بكار على الامساح الى ان مال  
الا له فأتى الله على الظالمين . فقال ان ساضها ، كان تقييب الظالمين بمصر : ابها الامير انه  
عاداك . فغضب باحمد وامر بتوقي بيان رجوه برجله وايس عليه الاسراويل وخزان  
وقلمسوة ، مساوت اليبات تم حمل من يري يديه الى السجن . واقامه للناس يطالبونه بظالم  
يدعونها عليه وكان الشحاوي يقول ماتعرض له احد فافلح بعد ذلك .

اليه بحتمه ، وكان نائبة عشر كيساً . فاستسى احمد منه . وكان يظن انه اخرجها  
وانه يعجز عن القسام بها . ( ١ )

هذا قليل من كثير عن عدل هؤلاء القضاة ومتين اخلاقهم ، واني يخاف امرؤ  
ان يضيع عندهم حقه وهم يوم وحلهم . بارأينا مع الخلفاء واصحاب السلطان الذين اليهم مرجع  
الامر . بقي ان نرجع بصرنا قليلا الى ذلك العهد . ارى ماهي الاسباب التي سمت بهذه النفوس  
فرفعتها الى ذلك المسوى الباذخ . حيث نزهت عن الاغراض وتجردت عن المآرب .  
ان ذلك يرجع الى اسباب عدة . منها :

- ١ — الفطرة الخاصة التي كذب قريبا عنها .
- ٢ -- الدين ربما كذب من اتره في النفوس من حيث التربيتهن الدينية والديوية .
- ٣ -- ما كان نبيه ديو السلطان : سلكاء وامراء ولا سيما في الصدر الامر ،  
من العدل الصحيح انسي كذب مثلا لقضائهم وللذين جاؤا من بعدهم على الاثر :
- ٤ -- ما كذب عليه الامة من الانفة ان تستكين الى جور او انام على مظلمة .
- ٥ -- تثير القضاة من رحالات لهم . من ابناء النفس وسرف الصيت وصحيح  
العلم ، ما يجافون معه على عرضهم ان يناله لسان بحق .  
ونحن نقص على مسامعكم شيئا يوءيد ما قلناه .

« جاءت عمر بن الخطاب برود من اليمن . ففرقها بين المسلمين . فخرج في نصيب  
كل رجل برود واحد . ونصيب عمر كتنصيب واحد منهم . قيل ، واعتلى عمر المنبر  
وعليه الرد وقد فصله قيصاً . فمدب الناس الى اخبار . فقال له رجل لا سمعاً ولا  
طاعة . قال عمر : ولم ذلك ؟ قال الرجل . لانك اسناثرت علينا : لقد خرج في  
نصيبك من الابراء اليمية برود واحد ، وهو لا يكفيك توباً ، فكيف فضائه قيصاً .  
وانت رجل طويل ؟ فالنفت عمر الى ابنه قاتلاً : اجبه يا عبد الله . فقال عبد الله لقد  
ناولته من برودي فاتم قيصه منه . قال الرجل : اما الآن فالسمع والطاعة ( ٢ ) . »

وحديث من اراد ان يقوم اعواجه بحد سيفه مشهور .  
ولما ضرب ابن ملجم علياً جمع الامام ابناءه وقال لهم :

« يا بني عبد المطلب ! لا الفينكم تخوضون دماء المسلمين خوفاً ، تقولون : قتل امير المؤمنين الا لا تقتلن بي الا قاتلي . انظروا اذا انا من ضربته هذه ، فاضربوه ضربة بضربة . ولا يمثل بالرجل . فاني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول : اياكم والمثلة ولو بانكلب العقور . »  
 ودخل علي بن ابي طالب مع خعم له ذمي ، الى القاضي شريح فقام له . فقال :  
 « هذا اول جورك »

وشكته ذمية الى عمر بن الخطاب فقال له ق يا ابا الحسن الى خعمك فقام مغاضباً فقال له وقد نضى بينها - اساءك يا ابا الحسن ان ادعوك الى خعمك وانت مكذوب عليك ؟ قال كلا يا امير المؤمنين لم يسؤني هذا وانما ساءني ان تدعوني برابي الحسن ، لعل الخعم يداخله شيء من الرهبة او التحفظ ان كنت كنيثني .  
 ومثل ذلك ، ما وقع للأمامون ، في قضية رفعتها اليه امرأة على ابنه العباس في حديث طويل مشهور . ونحن نجتزئ بهذا القدر حتى لا يطول نفس الكلام  
 ولقد بلغ من تحفظ اولياء الامر والقضاة ، انهم رأوا ان قضاء احدكم بعله موجب للتهمة ، فجعلوا ينصرفون عنه فلقده روي عن ابي بكر انه قال : لو رأيت رجلاً على حد من حدود الله لم آخذه حتى يكون معي شاهد غيري  
 وعن الضحاك ان عمر اختصم اليه فيما يعرفه فقال للطالب ان شئت شهدت ولم اقض . وان شئت قضيت ولم اشهد وعن الشعبي . انه قال : لا اكون شاهداً وتأخياً ( ا )

\* \* \*

٤ ما يأخذونه على القضاء - اكثر ما يأخذونه على هذا القضاء - حتى بالنسبة الى المصدر الاول -

الشهادة : فيما يتعلق بالمرأة ، وبغير المسلم  
 آَشهادة المرأة : يقولون : ان القضاء الاسلامي امتحن المرأة وصغر من شأنها  
 اذ جعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل  
 ومن نظر نظراً صحيحاً رأى ان ذلك لم يكن احقاراً لها ولأنها اعجز في ذاتها من

(١) الطرق الحكمية

الرجل — واقل ثقة منه . بل لان النساء يعهدن غالباً بحضورهن مجالس الحكم . وحفظهن وضبطهن دون حفظ الرجال وضبطهم . قال ابن قيم الجوزية :  
 « انا لانسلم ضعف شهادة المرأتين اذا اجتمعا . ولهذا نحكم بشهادتهما مع الرجل . وان امكنه ان يأتي برجلين . فالرجل والمرأتان اصل لابدل ، والمرأة كالرجل في المصدق والامانة والديانة . الا انها لما خيف عليها السهو والنسيان ، قويت بمثلها . وذلك قد يجعلها اقوى من الرجل الواحد او مثله . ولا ريب ان الظن المستناد من رجل واحد دونها ودون امثالها . »

وقبل كثير من ائمة الفقهاء ، شهادة النساء ليس معهن رجل . ولقد سئل الامام احمد في الرجل يوصي ولا يحضره الا النساء ؟ قال أجيز شهادة النساء . فظاهر هذا انه يثبت الوصية بشهادة النساء على الاتفراد اذا لم يحضره الرجال .  
 وذكر الجلال عن احمد: انه سئل عن الرجل يوصي باشيء لاناربه ويعتق ، ولا يحضره الا النساء هل تجوز شهادتهن ؟ قال نعم تجوز شهادتهن في الحقوق .  
 وقد حكوا وبشهادة امرأتين وبيمين المدعي في الاموال وحقوقها وهذا مذهب مالك . فانظر ! اين هذا من قول العابثين على هذا القضاء اذ دراء المرأة ثم أليس هذا الذي يأخذونه على هذه الشريعة . يرد على غيرها من الشرائع والقوانين ؟ أليست هذه الشهادة هي اليوم ايضاً موضع بحث رجال القانون في اوربا ؟

وهذا المسيو ( كيلر ) الخامي امام محكمة باريز الاستثنائية ، عقد في كتابه ( السر في خطأ القضاء ) فصلاً خصيصاً للمرأة ابان فيه ما يعرض لها من الوهم . وما ينبعث عن ذلك من الخطأ في الحكم . وتوسع في ذلك توسعاً لا يقف عند تحديد شهادة المرأة . ولكنه يقضي على هذه الشهادة من حيث هي .

٢ شهادة غير المسلم : اما شهادة غير المسلمين على المسلمين . فقد غلب فيها المنع . لانه اشترط في الشاهد ان يكون عدلاً ، ولما كُنْ اكل دين آداب خاصة . فقد يكون العدل في دين ، غير عدل في دين آخر . وعلى هذا استند القائلون بانه « اذا اختلفت الملل لم تجز شهادة بعضهم على بعض » (١)

(١) روى ذلك بن ابي شيبة عن ابن عيينة بن يونس عن الحسن .

يؤيد ما قلناه ان القضاة كانوا يقبلون شهادة النصارى على النصارى  
واليهود على اليهود ويسأل عن عدالتهم في اهل دينهم (١)  
ولكن هذا المنع لم يكن جازماً باتاً في كل حالة . فلقد قال مالك « تجوز شهادة  
الطبيب غير المسلم على المسلم للحاجة » (٢)

وفي الكتاب الكريم سورة المائدة : « يا ايها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر  
احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم . او آخران من غيركم ان اتمتتم ضربتم في الارض »  
قال ابن قيم الجوزية : في كتابه ( الطرق الحكيمة )

« قال شيخنا رحمه الله : وقول الامام احمد في قبول شهادتهم ( يريد غير المسلمين )  
في هذا الموضوع . هو ضرورة ، يقضي هذا التعليل قبولها في كل ضرورة : حضراً وسفراً  
وعلى هذا لو قيل : يحلفون في شهادة بعضهم على بعض ، كما يحلفون في شهادتهم على  
المسلمين في وصية السفر لكان متوجهاً . ولو قيل : تقبل شهادتهم مع ايمانهم ، في كل  
شيء عدم فيه المسلمون . لكان له وجه . ويكون بدلاً مطلقاً . »  
فيرى النصف ، ان امر هذه الشهادة ، سواء أكن في حق المرأة ؟ ام غير المسلم ؟  
لم يجيء اذراءً وتعصباً ، ولكن كان له مواضع خاصة . وعلل واسباب لا ينكرها امرؤ  
او في الرشد والنصفه .

وهل ادل على ان هذا الشرع ، انما شرع للعدل المطلق ، وان الاولين لم يقيدوه  
بقيد تجرجه عن الطريق اللاحب والصراط القويم ، من قول ابن قيم الجوزية :  
« والمقصود ، ان البينة في الشرع تكون اربعة شهود . وتارة ثلاثة بالنص في بينة  
المفلس . وتارة شاهدين . وشاهداً واحداً . وامرأة واحدة . ونكولاً وميئناً . او  
خمسين ميئناً . او اربعة ايمان . »  
الى ان يقول :

« فاذا ظهرت امارات العدل . واسفر وجهه باي طريق كان . فتم شرع الله  
ودينه . والله سبحانه اعلم واحكم واعدل من ان ينخص طرق العدل وامارته واعلامه  
بشيء . ثم ينفى ما هو اقوى دلالة ، وابين اماره . »

(١) اخبار قضاة مصر (٢) ابن قيم الجوزية .

٤ القضاء في الاسلام ، والقوانين في هذه الايام — جا — هذا القضاء بكثير من الاصول والاحكام التي يزعم اكثرنا انها كانت مجهولة لولا القوانين الحديثة . واذا كان في هذا الشرع الذي افل باه منذ مئات من السنين ، نقص عن حاجات هذا الزمن ، فان فيه كثيراً مما يوافقها ، بل فيه ما قصرت عن مثله هذه القوانين . واليكم ادلة على ما نقول .

الادعاء العام — فوض القانون الى المدعي العام ، ان يتبذع الجرائم ، فيقيم الدعوى على فاعلها . وان يدافع عن الحق العام . ويخاصم كل من يعتب به . وهو يكاد يتدخل في كل دعوى جزائية . واما في الدعاوي الحقوقية . فقد نص على خطته في المادة (٦٥) من اوضاع المحاكم النظامية . وخلصتها : انه يتدخل في كل ما يندرج تحته اسم الحق العام ، صراحة او ضمناً . كأموال الدولة ، والمؤسسات العامة ، وصكوك الوصية التي تعود لجهة الر . ورد الحكم . والتسكوى منهم . ودعاوي من هم قيد الوصاية ، والغائبين . الخ

وهذه الخطة لم يغفل الشرع امرها . وقد سماها الاصوليون حقوق الله . وعرفوها بانها ما تعلق نفعه بالعام ، ويجب على ولي الامراقاتها : مثل جزاء السارق ، وقاطع الطريق ، واللص وغيرهم من اهل النسق والفجور .  
قال ابن تيمية في كتابه ( السياسة الالهية ) مانصه :

« الحدود والحقوق هما قسمان : فالاول الحدود والحقوق التي ليست لتقوم معين ، بل منفعتها لعمامة المسلمين ، او نوع منهم ، وكلهم يحتاج اليها وتسمى حدود الله ، وحقوق الله مثل : حد قطاع الطريق ، والسراق ، والزناة ونحوهم . ومثل الحكم في الاموال السلطانية ، والوقوف ، والوصايا التي ليست لمعين . فبذه من اهم امور الولايات . »  
ففي هذا الكلام خطة المدعي العام . فالشق الاول حدد وظيفته في الامور الجزائية . والشق الثاني اشار الى ما ينبغي عليه في الامور الحقوقية « المدنية » وهي تكاد تكون — ووظيفته في هذه الايام — وظيفة واحدة . ثم قال :

« وهذا القسم ( اي الحد الذي يتعلق به حق الله ) يجب على الولاة البحث عنه . واقامته من غير دعوى احد به . وكذلك تقام الشهادة فيه من غير دعوى احد به . وان

كان الفقهاء قد اختلفوا في قطع يد السارق، هل ينقر الى مطالبة المسروق بآله . لكنهم متفقون على انه لا يحتاج الى مطالبة المسروق بالحد . بل استترط بعضهم المطالبة بالمال ثلثا يكون للسارق فيه شبهة .

نزيد على ذلك ان المدعي العام يسونه في القوانين التي نقلنا قوانيننا عنها ( وكيل الامبراطور ) او ( وكيل الملك ) . فهم قد جعلوا هذا الحق الى ولي الامر وكذلك هو الشرع الاسلامي واذا كان الامبراطور او الملك ، قد وكل عنه من يتولى خطة الادعاء العام . فقد سبق للخلفاء ففعلوا ذلك ، وسماو وكيلهم في هذا الشأن صاحب الشرطة . وجعلوا اليه المطالبة بحقوق الله . وهي ما قلنا عنها انها الحق العام نفسه . وكما ان المادة ال ١٥٥ من اصول المحاكمة الجزائية ، فوضت الى المدعي العام ، ان يطلب تنفيذ الحكم من الجهة التي تعلق به ، فكذلك كان امر صاحب الشرطة في تنفيذ الاحكام .

الحق الخاص والعام — ليس رجوع المدعي عن دعواه بمؤثر ، في ما يتعلق به الحق العام — الا في امور معينة — وكذلك في الشرع لم يجعل رجوع المدعي عن دعواه سبباً يترك من اجله او الحق الالهي الذي هو الحق العام جاء في (السياسة الالهية) : « وفي الصحيحين عن عائشة (رض) ان قریشاً اذهم شأن الخزومية التي سرت . فقالوا من يتكلم فيها عند رسول الله (ص) فليل : ومن يجتري عليه الا سامة بن زيد . قال يا سامة ! اتشنع في حد من حدود الله ؟ انما هلك بنو اسرائيل انهم كانوا اذا سرق منهم الشريف تركوه . واذا سرق فيهم الضعيف اتاموا عليه الحدود . والذي نفس محمد بيده ، لو ان فاطمة بنت محمد سرت . لقطعت يدها . »

ومثل ذلك ما رواه بن تيمية ، في كتابه هذا قال :

« كان صفوان ابن أمية نائماً على رداءه . فجاءه لص فسرقه . فأتى به الرسول . فامر بقطعه . فقال يا رسول الله . اعلى رداءي لقطعه ؟ اني اهبه . قال فهلا قبل ان تأتيني الاستنطاق — وكذلك يقال عن الاستنطاق ، فلقد كان الامام علي اول من اجراه على ما يقرب من اصوله الحاضرة ، بل على هذه الاصول عينها . ذلك ان شاباً شكاه اليه تقرأ فقال :

« ان هؤلاء خرجوا مع ابي في سفر ، فعادوا ولم يعد ابي . فسألتهم عنه فقالوا مات . فسألتهم عن ماله فقالوا ما ترك شيئاً . وكان معه مال كثير . وترافنا الى شريح ، فاستخلفهم وخلي سبيلهم (١) فدنا علي بالشروط فوكل بكل رجل رجلين . واوصاهم ان لا يمكنوا بعضهم ان يدنوا من بعض ، ولا يمكنوا احداً يكتب . ودنا كاتبه . ودعا احدهم فقال : اخبرني عن ابي هذا الفتى ، اي يوم خرج معكم وفي اي منزل نزلتم ، وكيف كان سيركم ، و باي علة مات ، وكيف اصاب بماله ؟ وسأله عن غسله ودفنه . ومن تولى الصلاة عليه واين دفن ؟ ونحو ذلك . والكاتب يكتب . ثم دعا آخر بعد ان عيب الاول عن مجلسه ، فسأله كما سأل صاحبه . ثم الآخر كذلك حتى عرف ما عند الجميع فوجد كل واحد منهم يخبر بصد الخبر به صاحبه . فضيق عليهم . فاقروا بالقصة . فاعزمهم المال ، وافاد منهم بالقليل »

التزيت بين اليهود — وكان الامام علي ، يترق بين اليهود ، ويستشهد كلاً على حدة . وهذا وفاق المادة القانونية القائلة « ان اليهود يؤدون الشهادة فرداً فرداً »  
السجن بالدين — وكذا لا يجبس بالدين ، ويقول انه ظلم — الا ان يظهر بقرينة انه نادر مماطل — وهذا ما جرت عليه القوانين الحديثة . وكذلك كان خير بن نعيم الحضرمي قاضي مصر يسجن بالديون ثم يكشف عن امره اذا ادعى العدم فان شهد له به اطلقه من ساعته .

الاوراق الرسمية — ان الاصول الحديثة ، تعد المحاضر والاعلامات والاوراق الرسمية صحيحة ، الى ان ثبت تزويرها . وهذا ما كان يفعله القضاة . فقد نال ابن قيم الجوزية :  
 « وقد كان القاضي يجيز كتب غيره من القضاة ، بغير محضر الشهود . فان قال الذي جيز عليه بالكتاب ، انه زور . قيل له : اذهب فالتمس المخرج من ذلك »  
الترجمان — في اصول الحماكمة الجزائية المادة ال (٢٨٦) ما نصه :

(١) وفي لسان العرب : ورفع الى علي رضي الله عنه امر رجل سافر مع اصحاب له فلم يرجع حين قفلوا الى اهلهم فأتتهم اهلهم اصحابه فرفعوه الى شريح فسأل الاولياء البينة فعجزوا عن اتاמתها . واخبروا علياً بحكم شريح فتمثل بقوله :

اوردها سعد وسعد مستمل باسعد لا تروي بهذاك الابل

« اذا لم يحسن المتهم او الشهود او احدهم ، التكلم باللسان الذي يتكلم به الآخرون . فربئس المحكمة يعين ترجماناً رسمياً يكون له من العمر لا أقل من احدى وعشرين سنة . ويحلف انه يترجم واقع الحال الخ . »  
وفي الفتح : اذا كان الحاكم يعرف لسان الخصم يكفي له ترجمان واحد . فاذا لم يعرف لسانه فلا يقبل فيه الاعلان كالشهادة »

وفيه عن مالك : « ويشترط في الترجمان ان يكون ثقة ، عدلاً ، اميناً ، عنيقاً . »  
فالشروط التي اشترطها الشرع تشمل الاغراض التي رعى اليها القانون ، ونفضاها من وجوه .  
انواع الجرائم — جعل الفقهاء الجرائم وعقوباتها على نوعين :

« العقوبة المقدرة للجرائم الكبيرة . وهي تكون بالقود والقصاص والحد — ويغلب عليها اسم الجنابة — والعقوبة غير المتصدرة لما دون ذلك . ويرجع امر تقديرها للحاكم . ويكون التأديب فيها : بالحبس او الضرب او الصفع او الكلام العنيف وما اشبه . وأطلق بعض الفقهاء عليها اسم الزلة — وكذلك قسموا القتل الى عمد وتبته عمد وخطأ . وعرفوا كلاً منها تعريفاً جميلاً »

درجات الحاكم — جعلت القوانين الحاكم درجات ، صيانة للعدل .  
« وكان الامام علي قدانثاً ديواناً سمي ( ديوان المظالم ) كان يلجأ اليه المتظلمون من الاحكام التي تصدر عليهم . وتابعه في ذلك بنو أمية ثم بنو العباس . غير ان عبد الملك بن مروان أفرد لهذا الديوان يوماً موماً يتخفف فيه قصص المتظلمين وكان اذا وقف منها على متكل رده الى قاضيه ادريس الإودي فينفذ فيه الحكم . وكان ادريس المباشر وعبد الملك الآخر (١) . وكان سائر الخلفاء بين من يجلس هذا المجلس بنفسه ، كما فعل علي بن ابي طالب وعمر بن عبد العزيز من بني أمية والمهدي والهادي والرشيد والمأمون ثم المهدي من بني العباس .

وفي المنهج السلوك : لما قضى ملك التمام الى الملك العادل نور الدين بن زنكي بنى له داراً في قلعة دمشق سماها دار العدل ، فكان يجلس فيها فيتصفح قصص المظلومين ويفصل بين امر المتنازعين ولديه الفقهاء وأئمة الدين فيرجع اليهم ما أشكل عليه من امور الشرع (٢) .

وبين من يكله الى قاضيه »

الظنين واليمين — حظرت القوانين ان يحلف الظنين او المتهم . وعدت ذلك أثراً من آثار العجمية . لان الرجل يقف عندئذ بين احدى خطتين : كذب كاسر من نخوته ، او صدق مضيع لحيته ، متلف لنفسه .

وقديماً قال ابن القيم الجوزية ، في كتابه ( الطرق الحكيمية ) :

« وقد استثنى من التلحيف في الحدود صورتان : احداها اذا قذفه فطلب حد القذف . فقال القاذف حلفوه انه لم يزن فذكر أصحاب الشافعي فيه وجهين . والصحيح قول الجمهور انه لا يحلف ، بل القول بتلحيفه في غاية السقوط . فان الحد يجب بقذف المستور ، وليس من شرطه ان لا يكون قذاتي الفعل في نفس الامر . ولهذا لا يسأل الحاكم عن ذلك ولا يجوز له سوءه . ولا يجب عليه الجواب . وفي تلحيفه تعريضه للكذب واليمين الغموس ، ان كان قد ارتكب ذلك . او تعريضه للفضيحة نفسه ، واقراره بما يوجب عليه الحد . او فضيخته بالنكول الجاري مجرى الاقرار . »

ادغام العقاب — لما ارتقت الحياة الاجتماعية رقت قوازينها — فكان من وراء ذلك ان جعلت الجزاء اصلاً وتأديباً . لا انتقاماً وتعذيباً — وجاءت المادة الـ ( ٢٩٩ ) من اصول المحاكمة الجزائية تقول في شقها الثاني :

« اذا ارتكب المتهم عدة جنائيات وجنحات معاً . فتجزم بالجزاء المعين للجرم الاشد عقوبة »  
ومثل ذلك ما قاله ابو يوسف في كتابه ( الخراج ) .

« وان لم يكن القاذف ضرب للاول ، حتى قذف آخر ، فانه يضرب لهما جميعاً حداً واحداً . »  
« فان كان القاذف عبداً ، ضرب حد العبد اربعين . فان لم يكن ضرب بعد ما قذف حتى أعتق ، ثم قدمه الي الحاكم فانه لا يزيده على الاربعين لانها هي التي كانت وجبت عليه يوم قذف »  
وهذا وفاق ما نظر اليه الاصول الحديثة ، اي الى الحالة التي كان عليها المجرم يوم وقوع الجرم « فان لم يكن ضرب بعد العتق ، حتى قذف آخر . ضرب الاول ولثاني ثمانين . اي انه عوقب للجرمين بعقوبة أشدهما فقط . وكذلك لو ضرب من الحد اسواطاً ، ثم قذف آخر . كمل له الحد فقط . ويحتسب بما مضى . ولا يضرب ثمانين مستقلة ما بقي من الحد سوط . فان كملت له الثمانون ، ثم قذف آخر . ضرب لذلك ثمانين أخرى بعد ان يجبس حتى يخف الضرب »

« وكذلك لو سرق غير مرة ، قطع مرة واحدة لتلك السرقات كلها . »  
السرقه وانواعها — للمادة (٢٣٠) من قانون الجزاء ذيل جمعت احدى فقراته للسرقة  
 وسوء الأثمان واخذ المال بالحيلة مما يقع على الاشياء الخسيسة . عقوبة دون غيرها .  
 « وفي الشرع لا يقطع السارق في الشيء التافه » وفي الحديث لا قطع في الذغرة :  
 وهي احدى الشيء اختلاسا .

فيكون الشرع جعل الاختلاس أخف عقوبة من السرقة . وهو ما جرت عليه القوانين  
 الحديثة . اذ ثبتت على السرقة نفع ( اخذاً ونشلاً ) جزاء اخف من السرقات العادية .  
 ومن هذا القبيل النرق بين السرقة نفع في مكان محرز ، وبينها نفع في مكان غير  
 محرز . فواجبوا القطع في الاولي فقط . وهذا وفاق تقسيم السرقة الى جنابة وهي  
 ما صاحبها خلع او كسر او فتح آلة خصيصة . والى جنحة وهي السرقة العادية .  
 على انهم اشتطوا في القطع ان تبلغ قيمة المسروق عشرة دراهم فصاعداً . وهذا  
 القيد خير من الاطلاق الذي جرى عليه القسانون . لان رجلاً يدفعه الجوع فيفتح  
 باباً بمفتاح او آلة فيسرق رغيفاً يدافع به الموت عن نفسه كما كان يقع ايام الحرب .  
 يكون من الجنابة ان يعد فعله جنابة .

السرقه بين الاصول والفروع — في قانون الجزاء .

« اذا اخذ الزوج او الزوجة مال الآخر في حالة الاجتماع او الافتراق . او اخذ الاولاد  
 وسائر الفروع مال آبائهم وامهاتهم وسائر اقر بانهم من الاصول . او اخذ الآباء والامهات  
 وذوي القرابي من سائر الاصول مال الاولاد وسائر الفروع . يسترد المأخوذ ويعطي  
 لاصحابه . »

وقال ابو يوسف في كتابه ( الخراج ) :

« ولا يقطع احد بسرقة من ابيه . ولا من أمه . ولا من ابنه . ولا من اخيه . ولا من أخته  
 ولا من زوجته ، ولا من ذي رحم محرّم منه . ولا تقطع المرأة في السرقة من مال زوجها . »  
المحاولة — جعل القانون لمن صم على جنابة — ثم حالت اسباب تاهرة دونها —  
 عقاباً خاصاً هو دون ما يترتب على تلك الجنابة لو انها خرجت الى حيز الفعل . وهذا  
 ما انفطن له الفقهاء من قبل . فقد قال ابو يوسف في كتابه ( الخراج ) :

« ومن وجد قد نقب داراً او حانوتاً . ودخل فجمع المتاع ولم يخرجه . حتى ادرك . فليس عليه قطع . ولكنه يوجع عقوبة ، ويحبس حتى يحدث توبة »  
ومثل ذلك ما قاله ابن تيمية في كتابه ( السياسة الالهية ) .

« واما اذا شهروا السلاح ، يريدوا الاعراب وفسقة الجند وغيرهم ) ولم يقتلوا نفساً ، ولم يأخذوا مالاً . ثم اغمدوه او هربوا . وتركوا الحرب . فانهم ينفون . واختلفوا في النفي فقيل هو تشريدهم فلا يتركون في بلد . وقيل هو حبسهم ، وقيل هو ما يراه الامام اصح من في اوحس او نحو ذلك .

المشاركة — جاء في المادة (٤٥) من قانون الجزاء :

« اذا ارتكب عدة اتصاص متحدين ، جنابة او خيعة . او كانت احدهما مؤلفة من عدة افعال . فأتى كل منهم فعلاً او بعضاً من هذه الافعال قصد حصول الجرم . عدوا مشتركين في الجريمة وعوقبوا كلهم عقاب الفاعل المستقل »  
وقبل ذلك جاء في نوير الابصار ، باب السرقة :

« تشارك جمع ، واصاب كلاً قدر نصاب ، قطعوا . وان اخذ المال بعضهم . » وفي الدر المختار : ( ولو فهم صغير او مجنون او معتوه او محرم لم يقطع احد ) وزاد في الحاشية قوله : قال في الفتح ( وانما وضعها في دخول الكل ، لانه لو دخل بعضهم لكنهم اشتركوا بعد ذلك في فعل السرقة ، لا يقطع الا الداخل ان عرف بعينه . وان لم يعرف عزروا كلهم وابد حبسهم الى ان تظهر توبتهم )

وفي هذا الاستدراك ، الذي استدركه صاحب الدر ، من الرحمة والصواب مافيه .  
الرشوة — في المادة ( ٧٧ ) من قانون الجزاء .

« اذا اكراه انسان ، واضطر اضطراراً صحيحاً ، ان يرشو آخر ، صوتاً لنفسه وماله وعرضه . وبالاجمال لكل منفعة مشروعة . ثم اعلم الحكومة بامرهم . استردت نقود الرشوة واعيدت لصاحبها . وعوقب آخذها عقاب المرثي . »  
وهذا وفاق ما ورد في السياسة الشرعية قال :

« وللرشوة نوع آخر ، هو دفع شيء الى الظالم بالاضطرار لرفع ظلمه ، او لتخليص المال والنفس من شره . وهذا لاشك في انه حرام على الآخذ الظالم ، واما الدافع

المظلوم فلا يدخل تحت الوعيد ، اذ الرجل مأمور بجعل ماله وقاية لنفسه ودينه ، في مواضع الضرورة . كما يدل الحديث الشريف : اجعل مالك دون نفسك ، ونفسك دون دينك . فالرشوة من هذا القبيل ، لما كانت لا تستند الى سبب شرعي من اسباب الملك ، تسترد من المرتشي وترد الى صاحبها .

اسقاط الحق العام — رأى اصحاب القانون في الفترة الاخيرة انه كثيراً ما يقع خلف بين ذوي العلاقة والقربى ، فتحمل الطرفين او احدهما نزوة من نزوات الغضب ، فيرفع الامرال الى الحاكم . فاذا انتهت القضية اليه ، فلا بد من حكم يكون في غالب الاحيان ، سبباً في توسيع الخرق واستحكام حلقة العداة . فاستدركوا الامر ابقاء للمودة وحفظاً للحقوق ، بان جعلوا للمادتين الـ (١٧٩) والـ (٢١٤) فقرتين اجازوا فيها اسقاط الحق العام ، تبعاً للحق الخاص ، في كثير مما تشمله هاتان المادتان .

وإذا دققنا في اقوال الفقهاء ، وجدناهم ما يقرب من هذا كثيراً ، بل ما يرد وياه شرعة واحدة . ففي حاشية ابن عابدين . بحث ( هل للقاضي العفو عن التعزير ) :  
« قال : لاخر يازاني ! فقال الآخر بل انت . حذاً لغلبة حق الله ( الحق العام ) فيه . بخلاف ما لو قال له مثلاً يا خبيث فقال بل انت . لم يعزرا . لانه حقهما ، وقد تساوا اما اذا تشابها بين يدي القاضي ، او تضاربا ، لم يتكافأ لهنك مجلس الشرع »  
الاقرار — في الاصول القانونية لا يكون مداراً للحكم .

« وقد قال ابو يوسف — من ظن به او توهم عليه سرقة ، او غير ذلك فلا ينبغي ان يعزر بالضرب والتوعد والتخويف فان من اقر بسرقة او بجد او بقتل وقد فعل ذلك به وليس اقراره ذلك بشيء . ولا يحل قطعه ولا اخذه بما اقر به . وعن عمر انه قال ليس الرجل بمأمون على نفسه ، ان اجعته او اخفنه او حبسته ، ان يقر على نفسه . »

« وكذلك لا يعتبر اقرار الرجل عما وجب عليه فيه الحد ، مالم يزدده . ثم يسأل عنه ، هل به لم ؟ هل به جنون ؟ هل في عقله شيء ينكر ؟ فان لم يكن في عقله شيء من ذلك وجب عليه الحد »  
الاتهام والتبرئة — ولقد منعت الاصول الحاضرة ، ان يحكم على رجل لتهمة يتهم بها ، او بينة قلقلة ترد عليه . وواجبوا في كل قضية يتردد فيها وجدان الحاكم بين البرائة والحكم

بل بالغوا في ذلك، حتى قالوا: ان تبرئة جماعة من الجرمين اولى من تبريم بريء واحد .  
ولقد جاء في هذا الشرع :

« ادروا الحدود بالشبهات ما استطعتم . والخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة .  
وقال عمر لئن اعطل الحدود في شبهات . خير من ان اقيمها في الشبهات . »

تخلية السبيل والكفالة -- شرعت تخلية السبيل بالكفالة، صيانة للعروة الشخصية ان  
نقضي عليها الشبهات . ورحمة بالظنين او المتهم في بعض الحالات . وهو تدبير عدل جرت عليه  
الامم الراقية كافة . ولم يذهب هذا الامر عن بال القائم بهذا الشرع . قال ابو يوسف:  
« ولا ينبغي ان تقبل دعوى رجل على رجل في قتل ولا سرقة . ولا يقام عليه حد الا  
ببينة عادلة . او باقرار من غير تهديد من الوالي له او وعيد . ولا يحل ولا يسع ان يجبس  
رجل بتهمة رجل له . كان الرسول لا يأخذ الناس بالقرف . ولكن ينبغي ان يجمع  
بين المدعي والمدعى عليه فان كانت له بينة على ما ادعى . حكم بها . والا أخذ من المدعى  
عليه كفيلاً . وخلي عنه فان اوضح المدعى بعد ذلك شيئاً ، والا لم يتعرض له . »  
ولم يجوزوا السجن بالتهمة .

« الا اذا كان المتهم من ذوي التهم السابقة ، او من اجلاف يتوقع منهم صدور  
مثل تلك الافعال . ولم يجعلوا مدة معينة للسجن في هذه الحالة ، فتحدد مدته راجع الى  
الرأي والاجتهاد »

جلب الظنين — ان القانون الذي يجري عليه في يومنا، قد اوجب على الظنين ان يحضر  
المحاكمة بنفسه . ولا يسوغ له ان يرسل وكيلاً يدافع عنه في اساس القضية اذا كانت الدعوى  
التي اقيمت عليه من دعاوي الجنحة او الجنابة: وكانت تستوجب — ان هي ثبتت عليه —  
جزاء الحبس . ولا ينكر ما في هذا القيد من التشديد، اذ لا يندر ان تكون الدعوى انما  
اقيمت نكايه بالظنين وخطأ من كرامته . فالقضاء عليه ان يحضر بنفسه والا يمنع حق التوكيل  
و يحاكم غياباً — فيه اجحاف وظلم كبيران . ولقد كان الشرع في هذا ، اصح من القانون  
وانصف اذ كان مالك . على ما جاء في كتاب الحراج : ممن يرون ان حضور مجلس الحاكم تعويق  
من جنس الحبس فلا يجب حضور الحميم المطلوب بمجرد الدعوى . بل لا بد للمدعي  
ان يبين ان للدعوى التي يدعيها اصلاً .

الافتراء والذم — في قانون الجزاء عن الافتراء . اخلاصته :  
 « من عزا الى آخر جرماً لغرض ما وهو يعرفه بريئاً او اختلق على ذلك الرجل  
 آثاراً ودلائل مادية لكذا جرم يجبس الخ ... »  
 وفيه عن الدم والتحقير .

« من ذم انساناً باسناده اليه ما يجعله عرضة لاحقار الناس وخصوصاً متهم . يجبس  
 او ما يحبط من قدره وناموسه . . . . يجبس الخ »  
 قالوا : ويتم الافتراء ايضاً اذا ورد الاخبار في لأئحة دعوى مكتوبة او مطبوعة  
 او في ضبط يودعه المخبر اخباره .  
 واليك ما قاله الفقهاء في هذا المعنى :

« قال مالك واتهب لا ادب على المدعي الا ان يقصد اذية المدعى عليه وعيبه  
 وتسته . فيؤدب »

فالحكام الشرعي والقانوني في هذا واحد . من حيث الجوهر والروح . كلاهما  
 يجازي حيث يراد الافتئات على آخر ، والنيل من كرامته .  
الحامل والجزاء — في المادة الثامنة عشرة من قانون الجزاء : « المرأة المستحقة  
 جزاء الاعدام ، اذا اخبرت بانها حامل وتحقق ذلك وتبت ينفذ فيها العقاب بعد  
 وضعها »

وفي رد المختار على الدر المختار : ويقام الحد على الحامل بعد وضعها . فان كان  
 حدها الرجم ، رجعت بعد الوضع . الا اذا لم يكن للمولود من يربيه . فتمتى يستغني . وان كان  
 الجلد فبعد النفاس (

الحرمان من الحقوق المدنية — لاشهاد لمن حكم عليه بالحرمان من الحقوق  
 المدنية . وقريب من ذلك . اورد في الشرع ( من ان الرجل اذا حذفت ذفد ، لم يقبل شهادته )  
 سن المجرم — راعت — المادة ( ٤٠ ) ، من قانون الجزاء — سن المجرم . من  
 حيث نوع العقوبة وتطبيقها قال الفقهاء :

« ولا يقام له الحد على غلام لم يبلغ الحلم »

الدفاتر والسجلات — وكان القضاء يتخذون دفاتر وسجلات يقيدون فيها اقضيتهم .

واول من فعل ذلك منهم سليم بن عتر النجدي (١) قاضي مصر : وذلك انه اختصم اليه في ميراث قضى بين الورثة ثم ناكروا فسادوا اليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه واشهد فيه سبوح الجند . ثم جا المفضل بن فضالة فطوّل السجلات ونسخ فيها كتب السمايا والوصايا والديون ولم يكن ذلك قبله (٢)

\* \* \*

هذا وقبل ان نختم الكلام نرى حقاً ان نشير الى بعض اصول ما يجري لهما اليوم وقد سبق للسلف ان جروا عليهما من قبل . من ذلك :

كتابة العدل -- فهي ليست مما احده المتأخرون . بل كانت قديماً . احدها الفقهاء من الكتاب الكريمة . وصيروها عملاً مستقلاً كاد يكون كما هو اليوم . قال ابن خلدون : «العدالة . . تابعة للقضاء . وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم عند النزاع وكتباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس واملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم . وشرط هذه الوظيفة . الاتفاف بالعدالة الشرعية ، والبراءة من الحرج ، ثم القيام بكتابة السجلات والعقود من جهة عباراتها ، وانتظام فصولها ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها . فيتاج حينئذ الى ما يتعلق بذلك من الفقه . ويجب على القاضي تصنع احوالهم والكشف عن سيرهم . . فيقولون ( اي القضاة ) نالبا بها ( اي بالبينات الموثوقة ) على هذا الصنف . ولهو لاء في سائر الامصار دكاكين ومضاطب يختصون بالجلوس عليها ، فيتعاهدوا اصحاب المعاملات للاشهاد وتقبيده بالكتاب .

دار القضاء -- كان التحكم قبل الاسلام والقاضي في الصدر الاول . يوثق في بيته فيحكم بين المتخاصمين . او كان حيث يكون فهناك مجلسه . ثم اتخذ القضاة المساحد ندوة للحكم ، يقضون فيها بين المسلمين ، فاذا جاء العصر جلسوا على باب المسجد يقضون بين غير المسلمين او جعلوا لهم يوماً في منازلهم . فلما انتهى قضاء مصر -- ايام الرشيد -- الى محمد بن مسروق ادخل النصارى المسجد الجامع في خصوصاتهم .

السجن -- كان الرسول يسجن في المسجد ، وتبعه في ذلك ابو بكر وعمر

وعثمان . ثم احدث علي سجناً خاصاً . وأجرى على من لا مال له ولا شيء له ، مايقوته من بيت المال . ومضى على سننه الخلفاء من بعده .  
وكتب ابو يوسف ، مخاطباً امير المؤمنين الرشيد في شأن السجناء :

« فر بالتقدير لم ما يقوتهم في طعامهم وادمهم . وصير ذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر . فانك ان أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن . . . . . وول ذلك رجلاً من اهل الخير . يثبت اسماء من في السجن . ممن تجري عليهم الصدقة شهراً فشهراً . ويقعد و يدعو باسم رجل رجل . ويدفع ذلك اليه في يده . . . . . وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء . وفي الصيف قميص وأزار . ويجري على النساء مثل ذلك . وكسوتهن في الشتاء قميص ومقنعة وكساء . وفي الصيف قميص وأزار ومقنعة »

« ونهوا عن غل السجن . الا اذا خيف فراره . وعن ضربه الا اذا أقيم عليه حد . وأذنوا له اذا كان عليه ديون ان يخرج فيخاصم . »

\* \* \* .

هذه صفحة من هذا القضاء . قضى عليها الدهر بان تكون مطوية ، مع ما لاصحابها في نشرها من حسن الاحدوث وطيب النشر . وأنا لا أدعي اني قد أحطت بهذا الموضوع من جميع وجوهه . اذ قد يكون ما فاني ذكره ، لا يقل عما ذكرته دقة وعدلاً ، من حيث الاداب . وموافقة لروح العصر ، ومماشاة للقوانين الحاضرة ، من حيث الاصول .

ولقد كانت الامور الجزائية اكثر ماتعرضت له في هذه المقارنة لسببين : ( اولاً ) لان القانون المدني عندنا هو الجملة ، وهي ستمدة بجماتها من الشرع . فليس ما يدعو الى التوبة بها ، وهي لا تزال واحكامها هي هي . لا يعوزها الا قليل من التعديل . حتى تُجدد نضارتها . وتصبح خليقة ان ينسج في القوانين على منوالها .

( ثانياً ) ان اهل العصر الحاضر ، يزعمون هذا الشرع غربياً عن قضايا العقوبات جملة . دع الاصول الحديثة . بعيداً عن روح العدل في هذا الباب . على حين رأيتم

ما بينهما من الصلة والعلاقة . ولو انه أُتبع هذه الشريعة خلف سار على سنة ذلك  
السلف . لانفردت عن الاشباه ونزهت عن النظائر .  
وهو وان كان شرعاً اسلامياً فقد كفل العدل والنصفة لكل من نزل على حكمه  
مسلياً كان او غير مسلم .  
لهذا ولا مثاله لقبت هذه الشريعة بالشريعة السمحة وهذه هي المفاخر الصحيحة التي  
يعرفها التاريخ الحق لا تلك البدع العريقة بالوهم . فاذا استفاق الخلف . واقننى سنة  
السلف . ونبت القشور . وعاد الى اللباب . فقد عاد الى هذا الوطن . عصره الاول .  
الاغر المحجل .

عارف النكدي



## (١) العلم

لاجرم ان العلم الصحيح الكامل وسيلة الى كل فضيلة وصلاح وسلم ارتقاء الام الى اعلى درجات النجاح والفلاح . به يتميز الانسان على الانسان كما يتميز على غيره من انواع الحيوان بالعقل والبيان . ولذلك وصف بانه حياة النفوس وضياء البصائر وبان رتبته ارفع الرتب . ووصف العلماء بانهم ورثة الانبياء وامناء الله على خلقه ومصايح الهداية وكواكب الارض . كما وصف الجهل بانه موت النفوس وعمى الاذهان وظلام العقول . ووصف الجاهل بانه بهيمة في صورة انسان وبأن عينيه في ظهره . ورأسه في معدته . وقد كان للعلم شأن عظيم عند كل أمة من الامم السالفة واول من استغل به البابليون او الكلدانيون فكان علماءهم ينتقون رصدا الكواكب بمنهى التدقيق واخترعوا الهال المزاول المضبوطة وكان لهم باع طويل في الطب وشهرة واسعة في الصنائع النفيسة كالنقش والحفر والتصوير . ثم انتقل العلم الى الفرس والفينيقيين والصيبيين والهنود واليونان والرومان وكما سطعت انواره في أمة ارفع شأنها وعظم عمراتها . وكما تقلص ظله من مملكة تقاص معه مجدها وافل سعدها وتزعزت اركانها وتهدم بنيانها كما حدث للشعوب التي مرت ذكرها . فلما جاء العرب ادر كواهم للعلم من المنزلة العالمية في الحالتين المدنية والسياسية وعرفوا شدة الحاجة اليه في الشؤون الاجتماعية وعنوان بشره في البلاد العربية فسطع ضياؤه في الشام والعراق ومصر والمغرب والاندلس ولا سيما في زمن الخليفة العباسي المأمون الذي اثنى افضل الكتب الفلسفية اليونانية وامر بترجمتها الى العربية وحرص الناس على مطالعتها وتعلمها حتى حفلت بغداد بالعلماء والمصنفين وزخرت خزائنها بالكتب النفيسة وامتدت شعلة الطلب والتدريس الى سائر البلاد الاسلامية . وفي زمن الخليفة الاموي عبدالرحمن الملقب بالناصر الذي جعل مدينة قرطبة داراً للعلم على نحو ما كانت بغداد في المشرق والقيروان في المغرب والقاهرة في مصر وحشد الكتب من افرريقية وبلاد فارس ومصر وسائر الافاق العربية حتى

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ انيس سلوم القاها في ٢١ تموز سنة ١٩٦١ م .

جمع في ما يقال اربع مئة الف مجلد وقيل اكثر وانتشرت هذه الرغبة في جميع الكتب حتى كانت من انفس ما يغالى به . وقد قيل ان الاندلس كان فيها في اوائل القرن الخامس للهجرة سبعون مكتبة حافلة .

وكان للعلماء عند العرب مقام سام حتى ان الخلفاء انفسهم كانوا يصبون الماء على ايدي العلماء ويقضون اوقاتهم بين المحابر والدفاتر و يبنون بيوت العلم كما يبنون بيوت العبادة . ورغب علماء العرب في العلوم الطبيعية وافلحوا فيها واخذوا عن اليونان مبادئ الفلك والهندسة والحساب والجبر والطب والنبات وغير ذلك من العلوم وحسنوها كلها ومازالت انوار المعارف ساطعة في آفاقهم حتى دالت دولهم فألقيت مقاليدها الى الغربين وقد كانوا خابطين في ظلمات الجهل فاهدوا بما اقتبسوه من علوم العرب واجتهدوا في انقاذها وزادوا عليها وبعد ان كانوا تلاميذ العرب اصبحوا يمجدهم ومثابرتهم وثباتهم اساتيد العالم بأسره وقادة الافكار البشرية كلها وتوصلوا بفضل فروع العلم المختلفة الى الاتيان بما عجب الاختراعات والاكتشافات واعظم الاعمال التي تحير العقول وتكاد تشبه المعجزات واستخدموا كل ذلك في ما يؤول الى خير البشر وراحتهم وسعادتهم . ولا بد لي في هذا المقام من ذكر خلاصة المنافع التي جناها العلماء من حدائق العلم واهدوها الى المجتمع البشري وهي : (١) تحسين الصحة العامة فان العلماء كـبـنـر و باستور وكوخ وغيرهم اكتشفوا اذوية وافية وشفافية من الجدري والخناق والهواء الاصفر والحميات المتنوعة . والجراحين نفننوا في الاعمال الجراحية وبلغوا في انقاذها درجة سامية فاصبحوا قادرين ان يفتحو البطن ويستأصلوا بعض الاعضاء بدون تعريض الحياة للخطر وساعدتهم على النجاح في اعمالهم استعمال مضادات الفساد التي اوصلهم العلم الى كشفها حديثاً فقلت الوفيات بتقدم الطب والجراحة ومرعاة القوانين الصحية وطال معدّل العمر كما ثبت ذلك بالاحصاء الدقيقة وشهادة الخبراء العارفين . قال احد ساسة اليابان انه قبل انتشار العلم في بلادنا كان اكثر من ثلثي اطفالنا يموتون لجهلنا وسائط التربية وقوانين الصحة وكانت الاوبئة نذرك بنا فتكاً ذريعاً لجهلنا طرق الوقاية منها وسائط منع نفسها اما الآن فان المدارس والمستشفيات والاطباء والوسائط الفنية قد افادتنا فوائد جمة لا يسع احداً انكارها فتحسنت عندنا الصحة العامة وزادت مواليدنا على وفياتنا . وهو قول حري بالاعتبار وكفى به دليلاً على ان العلم لم ينشر في بلاد الافاد اهلها فوائد

صحية عظيمة والصحة أساس كل خير ونجاح وهي أم من كل شيء ولا يغني عنها شيء .

(٢) ثقوبة العقل وترقيته بتمرينه على الحذر والانتباه والملاحظة والاستقراء والاستدلال والقياس والتدقيق والتحقيق والاستنباط والاختراع ورد النتائج الى اسبابها الحقيقية وادراك النسبة بين العلة والمعلولات . وجملة القول ان العقل المستير بضياء العلم الصحيح يكتسب مضاءً وقوةً و يتحرر من عبودية الحرافات والحزبيلات والترهات التي كانت تحييف الناس كالاعتقاد ان الحسوف والكسوف وظهور ذوات الازناب وهبوط النيازك مما يؤثر في احوال البشر ويحلب عليهم الحروب والابوثة والحجائن وغيرها من البلايا . وكما ان الرياضة البدنية بالالعاب المتنوعة والاعمال المختلفة تقوي البدن كذلك الرياضة العقلية بدرس العلوم المختلفة تقوي العقل وتزيل عنه الجمود والحمول والوهن وتقوّم كل اعوجاج فيه . فعلم الهندسة يقي الذهن من التشتت وعالم المنطق يعصمه من الخطأ في الفكر ويدرّبه على إقامة الحجج . وعلم الحقوق يعينه على استتيزار القضايا والاستشهاد باقوال الفقهاء وانبات الدعاوي بالنصوص الشرعية والقانونية . غير ان الرياضيات أشد العلوم ثقيفاً للعقل لانها قائمة بالقياس والبرهان ومتضمنة احسن ما يهيأ به العقل للاستدلال واقامة الحجة .

(٣) اصلاح الآداب فان الذين تعلموا العلم الصحيح يعرفون ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات فيحافظون على حقوقهم ويقومون بواجباتهم ويحترمون انفسهم فيعتزلون المنكرات و يترفعون عن الدنيا ويتزينون بالاخلاق الحسنة ويتسابقون الى الاعمال الشريفة والمساعي الحميدة فلا ريب ان العلم الصحيح يصلح الآداب ويحسن الصيت ويحمل الحصال و يقلل الجرائم في البلاد . ولذلك قيل اذا امنلأت المدارس فرعت السجون . وكما بعد الناس عن العلم وتوغلوا في الجهل ساءت احلامهم وفسدت آدابهم وقبحت أعمالهم كما يري ذلك في القبائل المتوحشة كقبائل اواسط افريقية التي تأكل لحوم البشر وتعمل القبائح التي لا يليق ذكرها بلا خوف ولاحياء لان غير المتمدنين لا يفرقون عن الوحوش المفترسة الا بكونهم يقبلون العلم والتهذيب اذا أُتيح لهم ذلك وتوفرت لديهم الوسائط الكافلة به . فان قيل ان بعض اهل العلم ذوو اخلاق فاسدة

وآداب ساقطة قلت ان علمهم غير صحيح او غير كامل لان العلم الصحيح الكامل مقترن ابداً بالاخلاق الناضجة فلا يصدر عنه الا الصلاح فهو كالشمس التي لا يدور عنها الا النور

(٤) اخضاع الامور الطبيعية اسلطة الانسان فالدين تعمقوا في العلم عرفوا كثيرا من اسرار الطبيعة وكتشفوا اخفاياها واطلعوا على سننها وخبائرها وشاهدوا عجائبها وغرائبها واستمطوا دخالها ومكنوناتها واستخدموا لمافعهم قوايتها فسخروا برق السماء وتسلطوا على الماء والهواء واخترقوا الحجب ببعض الاشعة فراوا ماخفي على الابصار وولدوا بقوة الماء بدائع الانوار وتمكنوا من احداث كثير من الفوائد ورفع كثير من الاضرار وانما توصلوا الى كل ذلك بفضل الطبيعيات وهي علوم التجربة والاستقراء .

(٥) توفير الثروة فان العلم هو الذي حسن مصادرها اي الزراعة والصناعة والتجارة فوفرت الاموال وحسنت الاحوال باصلاح الاعمال وبان ذلك ان العلماء توصلوا بعلم الزراعة وهندسة الري الى تزويد علال الارض كما يشاهد ذلك في اكثر بلاد العرب وبعض بلاد الشرق كمصر التي اصبحت تفيض ذهباً وهاحا على سكانها بفضل تحسين الري فيها . وبعلم المعادن استخراجها كنز الارض التمينية وذخايرها المدفونة . وبعلم الكيمياء رفقوا الصناعة وبنفخوا فيها على اساليب تتى حتى انهم انتفعوا بالنفاسيات كالحرق البالية والافذار الجارية والعظام وقصاصة الجلد ونشارة الحشب والامعاء فصنعوا منها الورق الابيض الثقيل والطيوب الذكية ومقابض السكاكين واوتار آلات الطرب الى غير ذلك من الاستيلاء التي ينفع بها وباتقانها . وحازت المانيا قصب السبق في هذا الميدان فكانت تصدر من الاصباغ الكيماوية المستخرجة من قطران الفحم في كل سنة ما يبلغ ثمنه اربعين الف الف دينار فوق ما كانت تستعمله في بلادها وقد نابت تلك الاصباغ منا -- النيل الذي كان يستعمل من قديم الزمان لهذه الغاية . وجملة القول ان العلم هو الذي افاض الغنى العظيم على سكان اوربة واميركة وهو الذي فتح لهم خزائن الارض وهو الذي حول الماء والتراب والنبات ومعادن الرصاص والحديد والنحاس الى ذهب وهاج والفرق بينهم وبين اكثر الشرقيين هو انهم هم يحتالون على الارض ليستخرجوا الذهب من ترابها ومائها ومعادنها ونباتها واكثر الشرقيين يحتالون على الثروة الموجودة في ايدي الناس

يسلبوها بالغش والخداع ولذلك كانت ثروة الغربيين تزداد بالاجتهاد في العلم وثروة الشرقيين تنقص بالكسل والجهل .

(٦) تسهيل طرق المعيشة وتوفير اسباب الراحة باستناد القوت الطبيعية مثل قوة الماء وقوة الهواء بدلاً من قوة الحيوان كما في ادارة الارحية بهما بدلاً من ادارتها بالايدي واستخدام البخار لتسيير القطر في البر بدلاً من الخيل والجمال والسفن في البحر بدلاً من الاشرعة وتسيير البرق لنقل الانباء الى اطراف المعمور في طرفة عين بواسطة الاسلاك المعدنية وبدونها بدلاً من البريد والسعاة . واناة البيوت والشوارع بالاضواء اللوامع بدلاً من الشموع والسرچ وتسيير المركبات وتدوير الآلات والقيام باكثر الحاجات كالغسل والطحن والعجن والخبز والكنس وغير ذلك مما كان يعمل باليد اصحبت قوة الكهرباء تعمله بدون مشقة وكل ذلك بفضل العلم . وزد على ذلك اختراع الآلات العديدة التي تخفف التعب وتوفر الوقت كآلة الحياطة وآلة النسيج وآلة الطبع وغيرها مما تضيق المحلدات عن وصفه . فالمطبعة تطبع في ساعة ما لا يستطيع الانسان ان يكتبه في شهر والمنسجة تنتج في يوم ما لا يقدر الانسان ان ينسجه في سنة وعلى ذلك فقس . وخلاصة ما يقال في هذا الشأن ان العلم يمكن الانسان من السفر الى اقصى الارض في ايام قليلة ومعرفة اخبار العالم في ساعات معدودة ومحاطبة من يشاء على امد الوف من الاميال في لحظة والحصول على الوف من الكتب باثمان زهيدة . وقدم له الجليد في ايام الحر الشديد والدفء في ايام البرد القارس وحمل اثقاله وسهل اعماله وراح جسده وافكاره وازال من سبيل سعاده اكثر العقبات وهوّن عليه في حياته اعظم الصعوبات .

(٧) الابهاج بآيات الله في خلقه فان العلم بما في هذا الكون العجيب من الآيات البينات من اكبر دواعي السرور لانه يكسب صاحبه لذة عقلية تفوق كل لذة جسدية بمقدار ما يفوق العقل الجسد فاذا طاف عالم الحيوان والنبات الحقول والغابات سمته الازهار ورحبت به الاتجار واطربت سمعه الاطيار لانه درس خصائصها وعرف طبائعها واذا رفع عالم الفلك بصره الى القبة الزرقاء في ليلة زهراء او رصد كواكبها او تأمل عجائبها شعر بلذة لا يعبر عنها بلسان ولا يشعر بها الا اولو العرفان وكذلك يهتز الشاعر طرباً لنفيس الاشعار وترنم الموسيقي عجباً لنغمت الاوتار ويمجد كل عالم او

مؤمنين في علمه او فنه سروراً عظيماً لا يقدر الجاهل ان يعرفه او يشعر به فحياة العالم سعيدة وايامه بهيجة اذ لاشيء يبهج القلب ويملاؤه حبوراً مثل العلم ولا صحة لقلوب بعضهم من زاد علماً زاد همماً لان زيادة العلم تزيد المسرة واللذة وذلك ثابت بالبدئية لانه كما ان النور يبهج البصر بكشفه المرئيات كذلك العلم يبهج القلب بكشفه الحقائق الثمينة للعقل فكما زادت المعرفة زادت اللذة .

(٨) رفع شأن الافراد والجماعات والامم فقد رفع العلم كثيرين من وهداة الهوان الى ذروة المجد فبعد ان كانوا حطابين او خزافين او صانعي احذية ارتقوا الى مراتب الوزراء او السفراء اورو ساء الجمهوريات . والامم التي عنيت بالعلم ورفعت الويتة في بلادها بلغت اعلى ذرى العز والنعمة والنجاح والسيادة والتاريخ اكبر شاهد على ذلك فان مملكة الرومان لما كان العلم فيها مشرقاً اتسع نطاقها وعلا سوءدها وخدمها السعد قروناً فمدت صولجانها على الخلفقين ولكن لما انطفأت شعلة العلم فيها تمزقت شذر مذر وكذلك جرى للمالك السالفة وللدول العربية فانها لما عنيت بالعلم سادت وشادت وبلغت من المجد ما أرادت و لما أهملت انشط شأنها وتهدم عمرانها : والدول العظمى في عصرنا الحاضر لم تبلغ ما بلغته من العز والقوة والجاه والسطوة الا بفضل العلم وحسبنا اثباتاً لهذه القضية مانراه من البون التاسع الاديبي بين اليابان والصين وهما في بلاد الشرق الاقصى فان الصين على اتساع ارضها وكثرة عدد سكانها ليس لها شأن يذكر بين الدول المعظمة . واليابان على ضيق ارضها وقلة عدد سكانها لا تقل شأناً عن دول اوربة العظمى وكفاها فخراً انها غلبت أعظم الدول الغربية واكبرها جيشاً وماسر غلبتها الا العلم فلا تطمع أمة او مملكة في العز والصلوة والمجد والعظمة والسيادة والقوة مادام الجهل ضارباً اطنايه فيها وذلك من البدئيات التي لا ريب فيها عند العقلاء . قال زوج الملكة فكتوريا في احدى خطبه حين كان رئيساً للجمعية العلمي البريطاني « ينبغي ان يزيد النيات الدولة الى العلم كمنزجو وسجد فيه عنصر جوهرياً من عناصر قوتها ونجاحها » . وقال الفيلسوف جول سيمون « ان الامة التي تعلم بنهيا التعليم الاكثر تصير العظمى بين الامم ان لم يكن في اليوم في الغد » . وقال واشنطنون في خطابه الوداعي لبلاده « أحلوا اهل المراكز العلمية المحل الاول فان الحكومة التي تقصد الاعتماد على رعاياها يجب ان

تهذب عقولهم قبل ذلك» . وقد حفظ الامير كيوت هذه الوصية واهتموا بنشر العلم اهتماماً عظيماً وانتقوا في هذا السبيل الاموال الطائلة حتى ان الحكومة وقفت على ترقية العلوم في الولايات المتحدة مئة وخمسين الف الف فدان من اراضيها الزراعية وكذلك اهتمت دول اوربة بترقية المعارف في بلادها وانفقت قناطير من الذهب على المدارس والجامع العلمية والمكاتب العامة لتيقنها ان العلم هو الدعامة الكبرى في بناء الممالك والسيادة الوحيدة الموصلة الى درى الجهد والعظمة فلا عنى عنه في السياسة كما انه لاغنى عنه في الزراعة والصناعة والتجارة . هذه هي خلاصة منافع العلم ذكرتها بالايجاز ولو شئت الاسباب لما استطعت الى ذلك سبيلاً لانه يستغرق السنين الطوال ويملاً الجملدات الضخمة . وهنا يجدر بنا ان نسأل ماذا كُن نصيماً من تلك المنافع واي اختراع او اكتشاف مفيد ينسب الينا في هذا العصر ؟ ان لاديسون الاميركي الذي لا يزال حياً يرزق نحو الفى اختراع مفيد غير يهنا حالة المجتمع البشري ورقى تسوءت العالم العمرانية وهو رحل واحد فهل اخترع اهل بلادنا اختراعاً واحداً كما هم وهم يعدون بالوف الاول ؟ أليس البتسر كما هم من طينة واحدة فلماذا نرى هذا الفرق العظيم بيننا وبين الغربين العلمهم انصرف مناصحاً ام اسى عقولاً ام اصفى اذهاناً ام اقوى ابداناً ام اعز نفوساً ام اكر رؤوساً !! لا لعمري فقد اثبت الاختبار ان السوري اذا توفرت له وسائل الارتقاء وجال في ميدان العلم حارى غيره ولم يقصر عنه وبعض السور بين الذين دخلوا جامعات اوربة واميركة سققوا رفقاء هم من ابناء الغرب وامتازوا عليهم بالتحصيل فحين لا ينقصنا الا الاجتهاد والاتحاد والنبات . اننا لا ننكر ان حاننا العلمية اليوم احسن مما كانت عليه منذ مئة سنة وذلك بفضل الحكومة السابقة والحكومة الحاضرة والبعثات الاجنبية . فبعد ان كان ظلام الجهل محمياً في ربوعنا حتى انه لم يكن فيها من يعرف القراءة والكتابة الا افراد يعدون على الاصابع كانوا يتيمون عجياً بتلك المعرفة التليسة ويمتون في الارض مرحاً زاعمين انهم وسعوا كل شيء علماً وبعد ان كانت بلادنا خالية من المدارس العالية والمطابع والصحف السياسية والمجلات العلمية بزغت فيها انوار العلم فتشيدت المدارس المختلفة من ابتدائية وعالية وطبسية وتجارية وصناعية وحقوقية تخرج منها كتيرون من شبان البلاد النجباء فشغلوا احسن

المناصب في سورية ومصر وغيرها وانتسنت الصحف والمجلات وظهر في هذا القطر  
 الكتاب والخطباء والصيدلة والاطباء والمحامون والمعلمون والمهندسون كما يشهد هذا  
 المخمل الحافل . ولكن اين نحن من الغربيين الذين جاؤا بالعجب العجاب وحيروا باعمالهم  
 الالباب جعلوا الر بجرأاً والبحر برأً وذلك بفتح الترع كترعة السويس وترعة نامة العجبية  
 وانشاء المراىء كمرافق بيروت ومرقا نيوبورك وكثير غيرها ومشوا على وجه الماء وغاصوا  
 في لبحج الدماء وركبوا على مناكب الهواء بالمناطيد والطيارات وساحوا بين كواكب  
 السماء بالمرصد والنظارات وقاسوا ما بينها من الابعاد بادق الآلات وصنعوا من  
 الادوات الحديدية المختلفة الاشكال والحجوم ما يفوق الحصر ويدهش العقل من  
 آلات الساعة الدقيقة التي لا تكاد ترى بالعين المجردة الى القاطرة البخارية التي تجر  
 وراءها سلسلة مركبات ضخمة لا يدرك الطرف آخرها الى الجسر العظيم العجيب كسر  
 بروكلين الذي تجري عليه الفطر وتسير من تحته السفن . قيل ان بنا هذا الجسر تغل  
 نحو ثلاث عشرة سنة ونطاقته بلغت ثلاثة آلاف ليرة انكليزية وهو من اسلاك  
 قوة كل منها اثنا عشر الف سق وعليه طريقان حديدتان وطريقان لاترامواي  
 وطريقان للمركبات الحيلية وطريق للمساة عرضها ثلاث عشرة قدماً فهو من غرائب  
 المصنوعات البشرية . وقد فتحوا الانفاق الطويلة في الجبال وتحت الانهار والبحار  
 لتسيير مركبات البخار وبنوا الحزانات الكبيرة لحفظ المياه الغزيرة والانفعا بها وقت  
 الحاجة . وحملة القول انهم دكوا الاطواد وانطقوا الجماد وعمروا البلاد ورقوا العباد  
 بل جعلوا الصم يسمعون والعمي يبصرون والموتى يتكلمون فاين نحن انهم بل اين نحن  
 من اسلافنا العرب الذين وسقوا اسباب الحضارة في جميع الاقطار وخفقت اعلام مجدهم  
 على كل الامصار فقد الفوا وصنفوا واستنبطوا واكتشفوا و ضربوا في مناكب الارض  
 بحثاً عما ودعتها الطبيعة من الآثار وتطلعوا الى آفاق السماء طلباً لمعرفة ما فيها من  
 الاسرار وكان عندهم من بديع الصنائع وغريب الفنون واتساع التجارة وعمو الزراعة  
 ما لا يتسع المجال لذكره في هذه المحاضرة المختصرة . ويكفي ان أقول ان العلم كان  
 مصاحباً لجنودهم في كل بلاد افنتحوها حتى امتدت حضارتهم من اطراف آسية الى  
 اقاصي افريقية وقلب اوربة . فلم نشبه بهم في طلب العلم ونشره ! ولم نرض

بالتأخر عن مجارة الامم الغربية الراقية في سلم التمدن الصحيح والتهديب الكامل وماهي  
أسباب عدم رواج العلم في بلادنا ياتري ؟ لا ريب ان لذلك اسباباً كثيرة أخصها  
ما يأتي :

١ — اعتقاد اكثر القوم عندنا ان العلم غير ضروري لكل الناس وانما هو ضروري  
للذين يريدون ان يشتغلوا به لا كتساب الرزق فقط كما سأتبذ المدارس والكتاب  
والمشئين والاطباء والمحامين وغيرهم من ارباب الصناعات العلمية اما التجار والصناع  
والزراع وسائر العامة فهم في غنى عنه لانهم يستطيعون ان يكتسبوا الرزق بدونهم . وهذا  
الاعتقاد خطأ عظيم لان العلم ضروري لكل فرد من أفراد الامة كبيراً كان أم صغيراً  
اذ يحتاج اليه الصعلوك كالمملك والفقير كلفني والمرأة كالرجل فلا احد يستغني عنه . قال  
عبدالمملك بن مروان لبنيه « يا بني تعلموا العلم فان كنتم سادة فقمتم وان كنتم وسطاً سدتهم  
وان كنتم سوقة عشمتم » . وقال بعض البلغاء « تعلم العلم فانه يقومك صغيراً ويقدمك  
كبيراً ويصلح زينتك وفسادك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوّم عوجك ويملك  
ويصنع همتك واملك » . وقال مصعب بن الزبير « تعلم العلم فان يكن لك مال كان  
جمالاً وان لم يكن لك مال كان لك مالاً » . وقال بعضهم اذا اراد الله بالناس خيراً  
جعل العلم في ملوكهم والمملك في علماءهم لان العلم عصمة الملوك فهو يمنهم من الظلم ويردهم  
الى الحلم ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية . والخلاصة ان البشر كلهم على  
اختلاف طبقاتهم واحوالهم واطوارهم منفقرون الى العلم فارباب السياسة يحتاجون الى  
معرفة التاريخ وفلسفة الاجتماع وحقوق الدول وسائر العلوم العمرانية ليستطيعوا ان  
يسنوا الشرائع العادلة الكفالة بسعادة الامة وينفذوها بالعدل والنزاهة والعفة .

وارباب التجارة يحتاجون الى معرفة علم الاجتماع وعلم الاقتصاد السياسي وعلم  
مسك الدفاتر وسائر العلوم التجارية ليستطيعوا ان يخرجوا في تجارتهم نجاحاً تاماً .  
واهل الصناعة ينفقرون الى معرفة الرياضيات والطبيعات لكي يتمكنوا من انقان  
صناعاتهم والنفنن فيها حسب الحاجة . والزراع يلزمهم ان يدرسوا العلوم الزراعية لكي  
يعرفوا خواص الاتربة وطرق الحراثة والتسميد واساليب الري وانواع الزرع والفرس  
والتطعيم والتلقيح وترهبة المواشي وغير ذلك مما لا بد منه لتحسين الزراعة وتوفير الغلال

والنساء يفتقرن الى علم التربة وعلم التمريض وعلم تدبير المنزل لكي يستطعن ان يربين اولادهن تربة صالحة ويخدمهم في اوقات المرض الخدمة النافعة ويدررن بهوتن التدبير الكافل براحة ازواجهن وسعادتهم . والرجال بالاجمال محتاجون الى العلم ليعرفوا مايجب عليهم لازواجهم واولادهم ووطنهم وحكومتهم ويقوموا بواجباتهم كلها حق القيام فاذا نالت الامة كلها نصيباً وافراً من العلم صلحت اعمالها وحسنت احوالها واعزت حكومتها وارثي وطنها الى اسمي درجات العمران . فلا احد يستغني عن العلم بوجه من الوجوه لانه حياة الافراد والجماعات والشعوب . ولا ينكر هذه الحقيقة الا الذين اعمى الجهل بصائرهم ولم يفهموا معنى الآية الكريمة « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

٢ — زعم فريق كبير من الناس انه لافائدة من العلم بدون مال وان المال هو الغاية التي يجب على الانسان ان يسعى لها لانه قاضي الحاجات ورافع الدرجات فهو يعني عن العلم وعن كل شيء وعلى ذلك قول بعضهم :

ان الدرهم في المواضع كلها      تكسو الرجال مهابةً وجلالاً  
فهي اللسان لمن اراد فصاحةً      وهي السلاح لمن اراد قتالاً  
وقول الآخر :

فصاحة سبحان وخط ابن مقلبة      وحكمة لقمان وزهد ابن ادم  
اذا اجتمعت في المرء والمرء مفلسٌ      ونوديه عليه لا يباع بدرهم

وهذا الزعم ضلال مبين واقوال الشعراء بهذا المعنى مخزقة وتضليل . والحق ان العلم هو الذي يرفع شأن الامة لا المال . قال علي بن ابي طالب : « العلم خير من المال . العلم يحرسك وانت تحرس المال . العلم حاكم والمال محكوم عليه » .

لا احد ينكر ان المال قوة عظيمة اذا كان بيد من يحسن استعماله ولكنه لا يرفع شأن الجاهل فالجاهل حقير وان كان غنياً والعالم شريف وان كان فقيراً . ومما يؤيد ذلك اننا اذا نظرنا في العلم منفرداً رأيناه خيراً محضاً لانه علة الاتحاد والالفة والتعاون والتناصر . واذا نظرنا في الغنى منفرداً وجدناه شراً محضاً لانه داعية الجري في ميدان الشهوات المحرمة والنافر والتفريق بين الاهل والاصدقاء . واذا نظرنا في العلم مقترناً بالغنى رأينا

المال خادماً للعلم نافعاً به فالغني العالم منهلٌ عُذْبٌ وشجرةٌ مُثمرةٌ والغني الجاهل بلية عظيمة واضراره للناس جسيمة وكفى بما قدمناه دليلاً على ان العلم خير من المال و ينبغي ان يكون غاية لا واسطة بل هو أشرف الغايات عند العقلاء ولو كرهه الجاهل .

٣ — توهم بعضهم ان العلم كله يقوم بمعرفة القراءة والكتابة وبعض قواعد الصرف والنحو وأعمال الحساب الاولى وحفظ بضع قصائد وحكم فاذا تيسرت هذه المعرفة لاحد الناس لقب نفسه بالعالم وادعى التفوق على غيره وطلب التصدر في المجالس وطالب الامة باكرامه وتعظيمه واحقر العلماء الكبار واستخف بالعلوم الحديثة التي يتوقف عليها عمران البلاد ونجاح العباد وانكر الحقائق العلمية الثابتة بالادلة الراهنة كدوران الارض حول الشمس وحاول البرهنة على انها ساكنة غير متحركة او انها مسنقرة على قرن الثور وكل ذلك من الاغلاط الفاضحة لان معرفة الاشياء المذكورة وان كانت ضرورية ونافعة ليست الا جزءاً صغيراً من العلم فلا تغني عن غيرها من المعارف المفيدة ولا تكفي لتسمية صاحبها عالماً ولا تحرر عقله من الخرافات ولا تعرفه قدر نفسه وانما العالم الحقيقي من تضلع من العلم على اختلاف انواعه الطبيعية والرياضية والتاريخية وغيرها وعرف على الاقل نظام الارض وخواص تربتها ومعادنها وترتيب بلدانها واصناف سكانها وحواصل اقاليمها وعجائب حيوانها وتركيب مائها وسنن هوائها وتواريخ اجيالها القديمة وممالكها العظيمة وعرف مع كل ذلك قدر نفسه ولم يستكبر على ابناؤ جنسه . فعنى العلم عند المحققين أوسع مما يتوهمه المدعين وما أحسن قول الشاعر :

قولوا لمن يدعي علماً ومعرفةً عرفت شيئاً وغابت عنك اشياء

٤ — ادعاء شذوذة من الناس ان العلم يناقض الدين ولذلك رفض بعض البسطاء من اهل الدين حقائق العلم خوفاً على دينهم من الفساد واحقر بعض المشتغلين بالعلم حقائق الدين ظناً منهم انها تخالف العلم . وكلا الفريقين مخطئان لان العلم الصحيح لا يمكن ان يناقض الدين القويم وانما هما حليفان كل منهما يوءد الآخر ويخدمه ولي على اثبات ذلك أدلة . الاول انه لو كان العلم والدين تقيضين للزم عن ثبوت احدهما بطلان الآخر ولكن كلا منهما ثابت بالادلة القاطعة الجليلة فلا تناقض بينهما لان مصدرها واحد فالدين وحي الله على محيا الشريعة والعلم وحي الله على صفحات الطبيعة . وبين الدين

والعلم رابط شديد وهو الايمان وهذا مما يستغربه السامع لاول وهلة لان الشائع بين القوم ان الايمان مخصص بالدين والحق انه من لوازم العلم ايضاً فكما يؤمن اهل الدين بالحقائق الروحية ويسيرون في حياتهم الدينية بقوة الايمان فيعملون خيراً الاعمال وأعمال الخير كذلك يؤمن اهل العلم بالحقائق الطبيعية ويسيرون في حياتهم العلمية بقوة الايمان فيحيثون بعجائب اختراعات وغرائب المكتشفات . فالايان من أعظم قوى العالمين وبه تم كل شيء نافع في عالم العلم وعالم الدين وهو بينهما رباط متين .

الثاني : انه لو كان العلم مناقضاً للدين لازم عن ذلك ان كل عالم كافر وكل دين جاهل وهو خلاف الواقع لان كثيرين من اهل العلم متدينون وكثيرين من أهل الجبل كافرون . بل ان الذين يتمسكون بالدين حق التمسك هم العلماء لا الجهلاء وما أحسن قول القرآن الكريم : « انما يحشى الله من عباده العلماء » . وحسبنا تبتاً لذلك ان نذكر بعض المتدينين من اهل العلم المتقدمين والمتأخرين . فمن المتقدمين ابو جعفر المنصور الذي كان مع كنهه بعلم الفلسفة وعلم النجوم متديناً بارعاً في علم الفقه . وهرون الرشيد الذي امر ان تبني بجانب كل جامع مدرسة ليسير الدين والعلم معاً لانه كان يعتقد انها حليفان لا تقيضان . والمأمون الذي كان أعظم الخلفاء واعلمهم وكان عارفاً من اللغات اليونانية والعربية والهندية والارسية فضلاً عن تجرته في الفلسفة وعلم الفلك ومع ذلك كان ثقيلاً ورعاً . وابن سينا الذي اشتهر بالعلم الطبيعي وعلم الطب وغيره وكان له نحو مئة تصنيف كتب ايضاً مشهوراً بالعلم الالهي والتمسك بدينه . ونفر الدين الرازي عبدالله المعروف بان الخطيب الذي فاق اهل زمانه في علم الاوائل والمعقولات وكان له عدة تصانيف كان ايضاً اماماً في علم الكلام ثقيلاً متعبداً . ومن المتأخرين فيلسوف الانكاي العظيم اسحق نيوتن مكتشف ناموس الجاذبية والعلامة الاميركي المشهور بعلم طبقات الارض الدكتور دوسن . والناطقة الاميركي الذي خدم سورية سنين عديدة بالتطبيب والتدريس والتأليف العلامة فاندريك . فان كل هؤلاء وكثيرين غيرهم من وطنين وأجانب كانوا من فحول العلماء وكبار الاثقياء . والعالم اليوم مملوء بالرجال الذين يعدون بالوفى الالوف وكلمهم من العلماء المتدينين فليس كل عالم كافراً ولا كل دين جاهلاً ولا تناقض بين العلم والدين . فان قيل ان كثيرين من العلماء مرقوا من الدين

قلت ان مروهم لم ينشأ عن العلم بل عن فساد قلوبهم وخبث نفوسهم الامارة بالسوء وما كان العلم الا كشافاً لذلك المروق لاسباباً له وعدم التناقض بين العلم والدين لا يستلزم ان يكون كل عالم ديناً كما ان عدم التناقض بين العلم والغنى لا يستلزم ان يكون كل عالم غنياً وكفى بذلك دليلاً لمن يريد الاذعان للحق .

الثالث : انه لو كان العلم مناقضاً للدين للزم عن ذلك ان المرء كما تجر في العلم توغل في الكفر وهو خلاف الحقيقة لان الاختبار اثبت لنا ان المتدين كما تجر في العلم زاد ديناً اذ ان العلم يعينه على كشف أسرار الكون وكما كشف منها سراً تقرب من رب الاسرار وعالم الخفايا جل جلاله كرافي سلم قصر شاهق كما صعد درجة تقرب من المقيم باعلى غرفة فيه . وقد شهد العلماء الانقياء ان العلم لم يزد هم الا ايماناً بخالق الاكوان لانهم قرأوا آياته البينات في كتاب الطبيعة كما قرأوها في كتاب الشريعة . وهم الذين اثبتوا وجوده تعالى وجلوا آيات كونه ورفعوا اعلام عظمتهم ومزقوا حجب الظلمات عن محيا حكيمته وقدرته وجودته . منهم العلامة كلفين احد أعيان الانكبيز المتوفى سنة ١٩٠٧ الذي اشتهرت مباحثه الكبر باثية في الاقطار وجاء بالبدع العجيبة في معرفة اعماق البحار وقد نسب اليه العلماء اعظم المسائل المتعلقة بالجواهر الفرد والاثير وغيرها فهذا الرجل الجليل الذي فاق اقرانه في المباحث العلمية لم يكتف بكشف الاسرار المادية بل أخذ يبحث في المعقولات والمشائمة والاختيار والعواطف والانفعالات والقوة والعقل والعلة العاملة وامثال ذلك من الموضوعات العقلية وأثبت في كل من تلك المباحث آيات القصد والحكمة في العالمين ومما قاله في ذلك « ان الاشياء كانت اما بالانفاق ( الصدفة ) واما بالضرورة واما بالقصد وكل من الاول والثاني باطل . اما الاول فلانه يقتضي كون معلول بلا علة . واما الثاني فيقتضي ان الاشياء على ما هي عليه الآن كانت كذلك منذ الازل . والواقع خلاف ذلك على ما ثبت في مباحث التكوين فكيف توزعت عناصر العالمين على نسبتها المعلومة ولما ذا كان الذهب أقل من الحديد والحديد من الصلصال . وكيف استنسبت الكرة الارضية في خواص موادها وصفاتها ومقدارها وتوزعها على مقتضى حاجة الاحياء وانتشارها ونموها وكيف نشأت الحياة في الجماد ؟ ما ذلك الا لان كل حي قائم بعناية خالق حكيم ضابط الكل فالعالم مخلوق فثبت الخالق » .

وهذا من الأدلة العلمية التي لا يسع الكفرة انكارها فالعلم الحق لا ينافي الدين الحق ولا ينفيه بل يثبت به ويؤيده ويقويه . واما الذين كفروا بالله وآياته فقد كان كفرهم لقلّة علمهم قبل ان يقفوا على بينات الدين فلما تعمقوا في العلوم اشغلوا بهادون غيرها فتمكن منهم الكفر الى حد لم يستطيعوا عنده الرجوع عنه ولو عرفوا ضرره فمثلهم مثل الذي أدمن المسكرات حتى صار شربها من طبعه واخلاقه فيستمر عليها ولا يرجع عنها مع معرفته ضررها . وجملة القول ان التعمق في العلم يزيد المؤمن ايماناً والكافر كفراً . فلا تناقض بين العلم والدين بل هما حليفان ولو كره الكافرون . وما يؤيد ذلك ان كلاّ منهما نافع للاخر فالعلم افاد الدين بانه ازال عنه كثيراً من البدع والخرافات التي شوهت محاسنه واثبت كثيراً من حقائقه بالاكتشافات المتعددة . والدين افاد العلم بتشييد معاهده ونشر كتبه ورفع اعلامه باموال المتدينين كما تشهد المدارس القديمة في دمشق وغيرها من البلاد العربية فان الذين اسسوها ووقفوا عليها الاراضي والابنية كانوا من اهل الدين . والمدارس التي اسستها البعثات الاجنبية في انحاء الارض المختلفة انما تأسست باموال الحسنين من اهل الدين ايضاً . فالعلم والدين كنانا ولا يزالان حليفين ينصر احدهما الآخر ويؤيده لا يناقضه ولا يفسده فالاسباب التي يتورك عليها المستخفون بالعلم والخائفون منه كلها باطلة والتحجج التي يوردونها كلها فاسدة . واذا تدأّثبت ان العلم من قومات الحياة العقلية والادبية والاجتماعية والسياسية واوضحت فوائده المعنوية والمادية ومكّنه من الجامعة الانسانية انقدم الان الى بيان الواجب المفروض على الطلاب والعلماء والوالدين والحكومة والامة كافة في هذا الشأن . فاقول على طلاب العلم ان يدخلوا بيوتهم من ابوابها ويأخذوا فروعه من اربابها ويجهّدوا في الدرس والمطالعة والتأمل والمراجعة ويواظبوا على كل ذلك بلا ملال ويحترزوا من الكسل والاهمال متذكّرين قول من قال :

ومن طلب العلوم بغير درس سيدر كها متى شاب الغراب  
وعليهم ان يفهموا ما يقرأونه لئلا يكونوا كالبيغاء ويحفظوا ما يفهمونه لان العلم في  
الصدور لافي السطور . والعرب تقول حرف في قلبك ولا الف في كتبك وما احسن  
قول الشافعي :

علمي معي حيثما نمت ينفعني صدري وعال له لا بطن صندوق  
 ان كنت في البيت كان العلم فيه معي او كنت في السوق كان العلم في السوق  
 وعليهم ان لا يقتصروا على نوع واحد من العلم بل ليشاركوا في فروع كثيرة منه . قال  
 يحيى بن خالد ابنة : « عليك بكل نوع من العلم نخذ منه فأن المرء عدوٌ لما جهل وانا اكره ان  
 تكون عدواً لشيء من العلم » وقال الشاعر :

ما حوى العلم جميعاً احد لا ولو مارسه الف سنة

انما العلم بعيد غوره نخذوا من كل علم احسنه

ويجب عليهم ايضاً ان يعاشروا العلماء و يذاكروهم في المسائل العلمية و يستفيدوا  
 من اختباراتهم الكثيرة « قال الشاعر :

واطل في العلم مذاكرة فحياة العلم مذاكرته

ويحسن بهم ان يدونوا ما يسمعون من الفوائد لان الانسان عرضة للنسيان و يثابروا  
 على ذلك الى نهاية الحياة مذللين كل عقبة في سبيلهم وغالبين كل صعوبة تثبط عزائمهم  
 وغير معتذرين بضيق الوقت او كبر السن فان الانسان يقدر ان يجد وقتاً كافياً للتعلم  
 اذا اراد ان يجد وقتاً كافياً للملاهي المضرة او البطالة والراحة او التلذذ باشباع الشهوات  
 ولا احد يكبر عن العلم ولو بلغ الثمانين من سنه . قيل ان فكتور يا ملكة الانكليز  
 شرعت في درس اللغة الهندية وهي في الثالثة والثمانين من عمرها . ومئات من العلماء المشهورين  
 لم يشرعوا في تحصيل العلم الا بعد ان تجاوزوا العشرين او الثلاثين او الاربعين من  
 اعمارهم كما بي بكر الرازي فقد قيل انه لما مرع في تعلم الطب كان قد تجاوز اربعين سنة من  
 العمر . ومنهم من درسوا العلوم وهم في المعامل او المتاجر او المزارع لعدم تمكنهم من  
 تخصيصها في المدارس ايام الحداثة . وكل من جدَّ وجد فلاتي يمنع المجتهد من اكتساب  
 العلم مهما حال دونه من العقبات . ويجب على العلماء ان يكونوا عاملين بعلمهم باذلين  
 جهدهم في زيادته ونشره ورفع لوائه وتعزيز منزلته لانهم كالمرافي التي تعكس النور فان لم  
 يفيدوا غيرهم او استفيدوا منه كُن عليهم عقياً . والعالم الحقيقي من لا يبخل بالافادة  
 ولا يستكف من الاستفادة . وعليهم ان ينهضوا المهمل الوانية و يقودوا الزائم الواهية  
 و يدعو الناس الى ورود مناهل العرفان و يحببوا اليهم السير في مناهج الفضيلة و يبينوا

لهم مزايا العلم الحميدة ومنافعه العديدة ويحذروا العجب والكبرياء ويحذروا التملق والرياء فان ذلك يتنافى النضل ويدل على الجهل . قال الامام عمر بن الخطاب « تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم » .

ويجب على الوالدين ان يعثروا بثقيف عقول اولادهم وتهذيب احلاقهم كما يعثرون بترهبة اجسادهم ويختاروا لهم افضل المعلمين المقتدرين الامناء المعروفين بطهارة السيرة ويضوهم في ارقى المدارس التي تُنفع في تلاميذها روح الرجولية وتلقنهم المبادئ الشريفة التي توهمهم للحياة النافعة الصالحة . ومن قصر في ذلك كان قاتلاً بل شراً من القاتل لان قتل العقل افطع واضر بالاجتمع من قتل الجسد ولان يهلك الرجل ولده بالسيف اخف جرماً من ان يميت عقله بالجهل فيكون شر الظالمين السفاكين .

ويجب على الحكومة وهي المقامة لصيانة الوطن واعلاء شأنه وننظيم احوال الامة بتوفير اسباب الراحة وتمهيد سبل السعادة ان تعنى عناية عظيمة بنشر العلم الصحيح في كل بلد وقرية بين الذكور والاناث لان الامة لاتيحا سعيدة ولا تجاري الام المتمدنة الا بانتشار المعارف فيها وتمزق غياهب الجهل عنها . ولا بد للوصول الى ذلك من اتفاق الاموال الطائلة لزيادة عدد المدارس الابتدائية بحيث يتسنى لكل ولد ان يجد مدرسة قريبة منه ليتلقى العلم فيها . وحينئذ تتمكن الحكومة من جعل التعليم الزامياً مجانياً فلا يير وقت طويل حتى يصبح افراد الشعب كلهم متعلمين . وجميع ما ينفق من الاموال في هذا السبيل يعود على الدولة بالربح الجزيل لانها تعد بذلك خير الرجال الذين يغزرون شأنها ويشيدون بنيانها . وقد عرفت الحكومات الغربية هذه الحقيقة فخصت مبالغ طائلة من دخلها للاتفاق في سبيل العلم والتعليم . فحكومة الولايات المتحدة تنفق نحو عشرين الف الف ريال في السنة على مدارسها وقد ضمت الى دراوين الزراعة والمساحة اكبر علمائها وقطعت لهم الرواتب الطائلة . وحكومة فرانسه تنفق على التعليم اكثر من الف الف دينار في السنة . وحكومة انكلترة تبذل في سبيل المعارف نحو خمس نفقاتها كلها ومثلها حكومة بلجيكة وامتازت حكومة سويسره باتفاقها نحو ثلث دخلها في هذا السبيل . وفي ما ذكر كفاية لبيان اهتمام دول الغرب بنشر المعارف بين رعاياها وهي تعضد

كل مشروع علمي كالمدراس الاهلية والاندية الادبية والجامع اللغوية وغرف القراءة ونشيط المؤلفين واصحاب المجلات وغيرهم من ذوي الاقلام وتكافئهم بالمعطيات الجزيلة لانها تحسب ذلك من افضل الذرائع الى نشر العلم والآداب في الاوطان ومن امن الدعائم التي بنى عليها العمراة . وقد حذت حكومتنا الرشيدة حذو الحكومات الراقية في الاهتمام بنشر المعارف في هذه الربوع على قدر ما مكنتها الاحوال فاستحقت الثناء الطيب . الا ان البلاد لاتزال في حاجة شديدة الى زيادة عدد المدارس الكفافة بتعميم العلم بين الشعب وانهاضه الى مساواة الشعوب الغربية ولا ريب في ان الحكومة الحاضرة ستبذل جهدها في سد هذه الثلمة في القريب العاجل بمنه تعالى وحسن توفيقه .

اما الامة فيجب عليها ان تستيقظ من غفلتها ونهض من كبوتها وثيقن انه لحياتة لها الا بالعلم وان العلم لا ينال الا بالاجتهاد والمثابرة والسخاء فلا يجوز للشعب ان يتكاسل في هذا الامر الخطير ولا ان يتوقع من الحكومة ان تقوم وحدها باعباء هذا العمل العظيم بل يجب على الافراد والجماعات ان يعاونوا الحكومة على بث المعارف بتأليف الجمعيات العلمية وتأسيس المدارس الاهلية والاندية الادبية التي تنور الازهار ونشر العرفان . وعلى الاغنياء خصوصاً ان يبذلوا شيئاً من اموالهم لمعاوضة المشروعات التي تنفع الاوطان وتضمن لها النجاح وعلو الشأن ذلك خير من بذل اموالهم في سبيل التمتع بلذاتهم او كنزها في الصناديق الحديدية او المصارف التجارية بحيث لا ينفع بها احد في حياتهم بل يستولي عليها الورثة بعد مماتهم وربما بذروها في ارتكاب المعاصي او خزنوها كما فعل اسلافهم الذين ورثوها عنهم فلم ينفعوا هم بها ولا نفعوا غيرهم . ان بعض الاغنياء في بلادنا قد شعروا بوجوب الاتفاق في سبيل العلم ومدوا ايديهم الى مساعدة المشروعات العلمية والاعمال الخيرية فاستحقوا الشكر ولكن باقي الاغنياء لا يزالون مهملين هذا الواجب غافلين عنه وهم يباهون بايلام الولائم الفاخرة وركوب الخيول المطهمة بينما يباهي اغنياء الغرب بوقف اموالهم الطائلة على انشاء المعاهد العلمية ومعاوضة الملاهي الخيرية ولا يقتصرون على معاونة اوطانهم بل يراسلون باموالهم الى غير بلادهم لتأسيس المدارس الابتدائية والعالية والجامعة خدمة للانسانية كما تشهد آثارهم في هذا القطر وغيره من اقطار الارض البعيدة والقريبة فتحيهم اغنياؤنا

بتأسيس مدرسة كلية في وطنهم تشبهان كلية الاميركية او الكلية اليسوعية في بيروت بل متى يهتمون بزيادة عدد المدارس الابتدائية الاهلية في البلدان التي لا يزال الوف من سكانها يجهلون القراءة والكتابة . ربما يعثرون بان ثروتهم قليلة بالنسبة الى ثروة اغنياء الغرب فلا يمكنهم ان يقوموا بمثل اعمالهم ولكن قلة ثروتهم لاتمنعهم من القيام بشيء من الاعمال النافعة لبلادهم والامة لانظالمهم بما هو فوق طاقتهم بل لتوقع منهم ان يتعدوا البذل في سبيل العلم شيئاً فشيئاً الى ان يستطيعوا القيام بعمل كبير نافع وما ذلك عليهم بعسير . فيا أيها السوريون النجباء والاخوان الادباء اجبهوا نداء محب مخلص يدعوكم الى نشر العلوم والمعارف والآداب والفضائل في الوطن العزيز . وسيروا في سبيل التمدن الحقيقي بالجد والنشاط والعزم والتبات تبلغوا ذروة النجاح . وتفوزوا باخير والفلاح . والله المسوؤل ان يوفقكم لكل سعي . مشكور . وبعضدكم في كل عمل مبرر . انه ولي الامر والتدبير . وهو على كل شيء قدير .

عصر القيقر قد مضى واتاكم  
 فدعوا التواني وابذلوا مجهودكم  
 وابذر المدارس وانشر والكتب التي  
 فالجبل ايل ماله من هازم  
 عصر بانوار التقدم ساطع  
 في العلم ان العلم فيه مافع  
 به النهي والفضل فيها يافع  
 الا صباح بالمعارف لافع

انيس سلوم



# الحقوق المدنية

## في العالم القديم ومنابعها الثابتة (١)

الحقوق المدنية عنصر من عناصر المدنية العامة للعالم القديم وحال ملازم له في اول ادوار التجمع البشري وقد اهدت اليها فطرة الانسان قبل ان يعنى بامرها ماوقفنا عليه من الكتب السماوية . ولها منابع ثابتة مطردة عند جميع الامم لا تخرج عن ثلاثة بعد البحث والاستقراء .

### اولها الحاجة

هذا الاصل كما انه من اصول الصناعة والتجارة وغيرهما فهو اصل من اصول الحقوق المدنية وهو اصل ثابت في كل زمان لما هو حاجي من الاحكام المدنية . ولذلك اقرته الشريعة الاسلامية . وقد اشتهر على السنة العموم ان الحاجة اصل الاختراع . ومن هذا الاصل استنبط الناس قديماً مبادلة العروض بالعروض ، ومما يستنبط منه حق الزواج لبقاء النوع الانساني وحق الطلاق لتحصيل الراحة من النزاع العائلي الدائم .

### ثانيها ارشاد الفطرة

ومحصل هذا الاصل اتفاق آراء العالم كافة او اهل محيط بتمامه على الحكم باستحسان الامر الذي يكون وسيلة لتحصيل مقصد من مقاصد الحياة العامة وهو اصل يعم الحاجيات والكليات من الحقوق والارنفاقات وقد استنبط منه قسمة المشترك . او المهابة زماناً او مكاناً على الانتماع به قالوا ومن ذلك توريث الابن مال ابيه . وهذا الاصل هو الذي سمي بلسان الشريعة الاسلامية الاجماع وقد تخصص العمل به فيها بمجاله فقدان النص من الكتاب او السنة اللذين اعتبرهما الاصلين الا ولين لانواع الشرائع والاحكام .

---

(١) المحاضرة التي القاها الشيخ سعيد مراد الغزي استاذ المجلة في المعهد الحقوقي

وذلك في ردهة المجمع العلمي في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٢١ م

### الثالث التجارب والممارسة

ومحصله ان الاجتماع البشري لما كان قديماً اعليه من المعاملات الكيالية ما لا يكون مبرماً مع عدم انفاق الآراء والنظر على تعبين مايقع ملائماً من صورها وكيافياتها لم يروا مندوحة عند طلب الكمال عن الاخذ بآية صورة تحظر لاي محيط من صور تلك المعاملة التي يتصورها العقل وتطبيق اية كيفية يتمكنون من تطبيقها فيما بينهم لتحصيل المقصد الحيوي من تلك المعاملة و ينلب وجود هذا الاصل في المعاملات الاختيارية مثل الزكاة وانواع التجارات والوكالات والمزارعات .

وبعد ان تظهر ملائمة تلك الصور والكيافيات لمصلحة الزريقين المنفقين على ايجاد تلك المعاملة بينها ويتضح انه لا ينشأ منها خلاف في الاغاب تعتبر في ذلك المحيط اصلاً من الاصول لما تدخله من المعاملات المدنية مقبولاً عند جمهورهم يرجعون اليه مرة في تقرير الحق وأخرى في تحصيله من وجب عليه ان هو حق له .

وقد سمي هذا الاصل بلسان التشريع الاسلامي « العرف والعادة » وقد اقرته الشريعة الاسلامية عاملاً في غير المنصوص من الاحكام على ممر الايام وهو من اهم الاصول والقواعد للشرائع الزمنية في كل جيل من الاجيال وعصر من العصور .

### علاقة اصحاب الشرائع السماوية بالحقوق المدنية

مما تقدم يتكون بلا ريب سؤال ملخصه ماهي اذن علاقة الشرائع السماوية بالحقوق المدنية . والجواب عنه حسبما يتضح من اساليب الكتب السماوية المقدسة ان المقصد الاساسي من انزالها ومن ارسال الرسل النظام التي نشرت تعاليمها انما هو تربية النفوس بالاخلاق الفاضلة وتطوير الامم من سحيق الانحطاط الادبي الى ذروة الكمال العقلي ونقوية الروابط القلبية فيما بني البشر وسوقهم من طريق الرغبة وحب الخير الى ارفع الخصال وجعلهم يتركون المساوىء والقبائح باختيارهم بعداً عن اضرارها وعندئذ يستعدون لوضع ما يحتاجون اليه من نافع القوانين .

وقد اقتدر كل واحدٍ من السارعين على ان يطور بنفسه وتلامذته الملايين من

الناس في اقل من ربع قرن مع ان تطوير الامم باصول التربية العامة لا يمكن حصوله قطعاً في ثلاثة امثال هذه المدة كما قرر في علم الاجتماع .  
وهذه هي خاصة الشارعين المشتركة فيما بينهم التي لا يمكن ان يماريهم فيها احد سواهم من اكابر الفلاسفة واناظم نوابغ الامم .

### الحقوق المدنية الشرقية وفي ضمنها العربية قبل الاسلام

مما تقدم علم انه لا بد لاية امة من ان تكون ذات حقوق مدنية حيث لا يمكنها الحياة الاجتماعية بدونها غير ان التماثل بين الامم انما يقع في حسن انتخاب هذه الاصول وايضاً في نبراتها حسب درجة الامة الاخلاقية وصحة احتياجها او فسادها وماوصات اليه من درجة البعد عن التمس واحترام حقوق الافراد والجماعات عندما تريد ان تستخرج بارشاد فطرتها احكام القانون وحسب درجة ما اعتادته من احكام المعاملات في الحسن والقيح .

ثم ان اول ما عرف فيما وصل اليه البحث والاكديتاف من الحقوق المدنية الشرقية شريعة حمورابي الممثلة باسم الملك السادس من ملوك الدولة الاولى من دول بابل المؤسسه قبل الميلاد بالذنين واربعائة وستين سنة والتي هي من اصل عربي عنداكثر المؤرخين فمن هذه الشريعة في حقوق الزواج ان كلاً من الرجل والمرأة انما يقترن بن يساويه في الطبقة الاجتماعية لا بن هو فوقه او انزل منه طبقة .

وقد كان يقع نادراً التحاذ السراري بطريق الملك غير انهم كانوا يستثنون من ذلك عبيد القصر الملكي فيجوزون لهم التزوج بنات الاحرار .

وكان زواجهم بعقديكاتب ويدون كما هو الحال في احدث الشرائع السماوية وعند ارقى الامم اليوم وكانت حقوق الزوجية عندهم متبادلة على نحو قريب مما هو معروف عن التمسرة الاسلامية ومن احكامهم عقوبة الزاني بالقتل ذبحاً ويستثنى من ذلك المرأة التي يغيب زوجها في الاسر ولا تجد من ينفق عليها فيسوغ لها ان تلجأ الى من تتخذة زوجاً فاذا عاد الزوج الاول كان احق بها وان اولادها الثاني اولاداً فهم له وكان الزوج يقدم مبرراً يسمي تمن العروس والزوجة تحضر من بيت ابها ايضاً وكلا المالبين يحفظ للزوجة عند الزوج الحاجة .

ومن احكام هذه الشريعة ان الطلاق بيد الرجل فقط وحينما يستعمله يرجع مهر الزوجة اذا كان محفوظاً عنده ويطاقتها اما هي فيجب عليها تربية الاولاد في مقابل حصة معينة من كسب الاب فلا يحق له طلاقها في حال المرض بل يتزوج سواها ان اراد وتبقى نفقتها عليه طول حياتها .

ثم ان الزوجة اذا كانت متضررة من معاشرة الزوج ترفع امرها للقاضي فيزعمها من الزوج جرأ اذا ظهر صدقها والا طرحت في الماء .

ثم انه يتشكل من الزواج في هذه الشريعة عقد كفالة متبادلة بين الزوجين في جميع الحقوق المدنية . ولا تفرق هذه الشريعة في الارث بين الذكر والانثى وللوالد ان يمنع من اولاده من وقع منه سبب معقول يوجب منعه من الميراث من ارثه ومن احكامها في المعاملات العامة تسعير الحكومة اقيم السلع وتقدير اجور الصناعات حتى من ذوي الحرف الرفيعة مثل الاطباء والمحامين .

وكان عندهم عقود وصكوك للمعاملات العامة .

ثم مضت اعصار وادهار ما بين هذه الدولة صاحبة هذه الشريعة وبين عرب الحجاز الذين ظفر فيهم الشارع الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم وقد كانت حالتهم الحقوقية على درجة من الانضام ارقى بكثير من حالتهم الاجتماعية العامة والادارية وقدورتوا عن هذه الدولة ومن بعدها من الدول الشرقية العربية كثيراً من قواعد الزواج والطلاق غير انهم ساء نظام الطلاق عندهم وصاروا يستعملونه مع عدم شدة الحاجة اليه بل اخترعوا الظهار والايلاء لقهروا واعنات الزوجات وفشا عندهم تعدد الزوجات بدواع وبدونه بسبب توالي الحروب ما بين قبائلهم وما نتج عنها من ازدياد عدد النساء على عدد الرجال في القبيلة الواحدة . من سبباي الحرب اما في قسم الحقوق المدنية العامة فقد كان نظامهم جيداً جداً لا يوجد له نظير عند دول الارض العظيمة في ذلك العهد مثل دولة الفرس والرومان .

ومن ذلك ان اصول القضاء عندهم كانت من اعدل ما يمكن في ذلك العصر وقد كانوا يأخذون عن منابع الحقوق الثلاثة المنقمة ما يحتاجون اليه من الاحكام المدنية

بدن ان يدونوا شيئاً من تلك الاحكام الجزئية وطرق القضاء واثبات الحقوق انحصرت في قول شاعرهم : فان الحق مقطعه ثلاث شهود او يمين او جلاء وقد كان عندهم حكام في الاموال وآخرون في الدماء وحكام في النسب لاثبات من يكون من الابناء متولداً على غير عمود النسب واصول الزواج العامة وحكام في دعاوي التجاوز على العرض .

ومع ذلك فقد كانت حالتهم الادارية ونظام حياتهم الاجتماعي على درجة من البساطة بسبب قلة المقتنيات وضعف الصناعة والتجارة وانحصار الكسب في طرق بسيطة كقليل من النسيج وتربية المواشي وما شاكلها .

### الحقوق المدنية عند الرومان من قبل القرن السادس الميلادي

« لاواسط القرن الحادي عشر »

اما الرومان اصحاب الملك الضخم والمالك الفسيحة فقد كانت الحقوق المدنية وسيء جملتها دلائل القضاء عندهم على اتعس ما يمكن ان يتصوره الانسان . فقد اعتبروا من ادلة القضاء المصارعة ما بين شخصين قوبين من اخفاء المتداعبين وامتحان الحق من الباطل في الدعاوي بالحديد المحمي في النار الذي كان يستعمل للاقرار بالجرائم مرة وبالحقوق اُخرى والطرح في الماء البارد في الشنء حتى بالصاب احياناً وهو ان يقف الشخص على هيئة الصليب ماداً يديه مدة معينة من الزمان لامتحان الصدق من الكذب في دعواه او التهمة او البراءة فيما يدعى عليه من الجرم كما بسطه المؤرخ الشهير موسيم الجرمني في تاريخ الكنيسة .

ولايستراب في ان الرومان اخذوا ذلك عن برايرة افريقيا . وقد بقي القانون الروماني على هذه الحالة لم يتغير في اساسه تغيراً يذكر لاواسط القرن الحادي عشر الميلادي اي بعد ظهور الاسلام باربعة قرون ونصف .

### الحقوق المدنية في الاسلام ومتابعتها الجديدة

سبق القول في ان البحث عن القوانين المدنية ليس لازماً من لوازم الشرائع السماوية ولا مطرداً من كافة الرسل العظام .

ومن الدواعي على انه اوحى للشارع العربي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جملة صالحة في الحقوق المدنية انه قد اكمل عمله الاساسي وبعد التطوير الاخلاقي للمحيط الذي ظهر فيه في الثلاثة عشر سنة التي اقامها بمكة بعد ما بعث رسولاً وعليه وجد عنده من الوقت متسع لان يعلم الناس اصولاً عامة في الحقوق المدنية كما فعل الحكيم سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم لعين السب .

غير ان ما وضعه الشارع العربي من ذلك كان اغزر مادة واطول حياة بنسبة رقي الانسانية المطرد حسب سنة التدرج .

ومن الدواعي ايضاً ما كان عليه جيران محيطه الفرس والرومان من فساد النظام القضائي كما مر التنبيه على بعض ذلك . وعدم تمام استفادة العرب مما كانوا عليه من النظام القضائي بداعي فساد نظامهم الاجتماعي والادبي بما كان قد حمل اليهم عمرو بن لحي الخزاعي حاكم مقاطعة الحجاز قبل بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . بقرنين تقرباً من عادات وعقائد الهنود عندما توجه لطبريا مستطباً من مياها المدنية .

ثم ان الاسلام بعد ما نظر نظرة عامة للشرائع الماضية قبل ما وجده منها ملائماً لمصالح العامة من ذلك المضاربات والشركات والرهون وعقوبة الزناة وقتلة النفوس والبغاة وهذا النوع لا يمحصر كثرة .

وعدل ما يصير نافعاً وصالحاً ببعض تعديل كاليهجات والاجارات التي ادخل عليها من الشروط في المعقود عليه والعاقدين ما يضمن مصلحتها ويرفع النزاع فيما بينهما ومن هذا النوع القسم الاعظم من احكام الشريعة الاسلامية كما يتضح لمن احاط بفروعها ملماً بما كانت عليه حالة العالم القديم في هذا النوع من المعاملات كما انه ابطل ما هو مضر من الاحكام القديمة من ذلك ابطاله حكم تأييد الظهار والايلاء وابداله بايقاع الطلاق على المظاهر والمولى فيما لو بقي مصرراً على قوله ولم يرجع عنه وواجب عليه عند الرجوع كفارة غليظة يقصد منها الزجر عن الدخول في مثل هذا العمل والتجاسر عليه .

وشرع احكاماً جديدةً لاعهد للعالم القديم بها نافعة جداً مثل اللعان ما بين

الزوجين الذي عاقبته الفراق الدائم فيما بينها عندما يرمي الزوج زوجته بتهمة الفاحشة من دون ان يكون له على قوله دليل ثقع به القناعة .

وقد كانت عرب الجاهلية تهرع في مثل هذه الحادثة للكهان يستطلعون رأيهم اعتماداً بان لهم صلة مع الملائ الاعلى في الوقوف على الحقائق العامة التي فقدت الاسباب الظاهرة للوقوف عليها .

وشرع الاخذ بالشفعة وحدود درجات الاهلية والمسؤولية في كافة انواع الحقوق وسائر اصناف الجرائم .

ووسع طرق القضاء ووضح اسبابه على وجه لم يعرف في شرائع العالم القديم. تفصيل ذلك والاحاطة به متيسر لمن وقف على المدونات الحقوقية الاسلامية وعرف ما كان عند العالم قبل الاسلام من ذلك .

ثم ان الاصول والمنايع الحقوقية في نظر الشريعة الاسلامية اربعة اربعة ندمج فيها الاصول الثلاثة العامة المتقدمة لكافة الامم وهذه الاصول هي الكتاب اي القرآن المجيد والسنة اي اقوال الرسول واعماله وتقريره ما يراه من عمل غيره ويعبر عن هذين الاصلين بالنص التشريعي وما في معناه .

والاجماع وهو عبارة عن اتفاق علماء الشرع الواقفين على اصوله على الحكم في الحادثة الغير الواضح حكمها بوجه خاص من النص التشريعي ويعبر عن هؤلاء العلماء ايضاً باهل الاجتهاد القادرين على استنباط احكام الحوادث الجزئية من المنايع العامة والمنبع الرابع القياس المختص الاستنباط منه بهؤلاء العلماء المتقدم بانهم في الاجماع ومن هذا يتضح ان الشريعة الاسلامية اثبتت اصولاً ثابتة للاحكام المدنية يمكن ان يستفاد منها كل ما يحتاج اليه في كل عصر كما ان نصوصها قد صرحت برعاة الاعراف والعادات في التشريع وبمباشرة الحاجات والمصالح المختلفة باختلاف العصور المحددة بتجدد اطوار الحضارة والعمران .

الحقوق المدنية الرومانية من اواسط القرن الحادي عشر الميلادي للآن

في اوائل هذا القرن وجد غريرت اي السلوفستر الثاني الافرنسي الذي جلس

كرسي ماري بطرس لغاية سنة ١٠٢٤ ميلادية وكان مع اخوان له من انصار العلم والحق معاً يتلقون سائر العلوم التي كان سوقها رائجاً في مدارس الاندلس الاسلامية وفي جملتها الفقه الاسلامي المأخوذ من منابعه الاربعه المتقدمة في العنوان قبل هذا بعد ان برعوا في اللغة العربية وكانوا يترجمون دروسهم الى لغتهم فبسبب ذلك وبسبب رداءة حالة القضاء عندهم كما تقدم الاشارة الى بعض ذلك في هذه المقالة .

وعليه فكروا في ان ينقلوا ما يلائمهم ويوافق محيطهم من احكام تلك الحقوق واقتنعوا بضرورة ذلك مالوك الجهة الجنوبية من بلادهم .

وبعد ان انفق رأيهم على ذلك بشرط عدم عزو المأخوذ عن الشرائع الاسلامية لمنبعه الاصلي خوفاً من نفرة العامة من المسيحيين الذين كانوا بواسطة رؤساء الدين ينفرون من كل شيء مصدره الاسلام . ما كان حسناً ونافعاً فاجعوا من اجل ذلك على تسمية ما يأخذونه عن الشريعة الاسلامية بتلك الحقوق (الشرائع الرومانية) او (القانون المدني) وان يعزوه لاجتهادات علماء الحقوق منهم . نتيجة البحث والدرس .

وهذه الحقيقة على هذا الوجه ثابتة من مصدرين احدهما مصدر شرقي اسلامي وهو ما يأتي :

قد جاء في مجموعة رسائل في شوارد المسائل للعالم الباحث المنقب مفضل بن رضى الاسفركاني ما نصه :

كتب ابو العباس الكركري من تلامذة بهمنيار وهذا تلميذ الشيخ الرئيس ابي علي بن سينا في رسالته لمفتي مرو احمد بن عبد الله السرخسي في معنى كمال الفقه ان ابا الوليد محمد بن عبد الله بن خيره نقل في تعليقاته على النهاية شرح الهداية ان طلبه العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم اهتموا كثيراً بنقل فقه الاسلام الى لغتهم لعلهم يستعملونه في بلادهم لرداءة الاحكام فيها خصوصاً في المائة الرابعة والخامسة من الهجرة فقد برعوا في اللغة العربية منهم هربرت والبرت فانها طلبا مساعدة العلماء لابرز مقصدها وقد ساعدتها حتى دونوا النقص كاملاً وحوروه الى ما يوافق بلادهم ولذلك ترى احكام القوانين والقضاء لانزل رديئة وسينة في العدة الشمالية من بلاد

الافرنج اه المقصود نقله من عبارة الاسفرنكافي من علماء الفرس المعبر عنهم بعلماء ماوراء النهر . والمصدر الثاني غربي وغير اسلامي وهو ما يأتي :

قال العلامة المؤرخ الشهير موسيم الجرمني في تاريخ الكنيسة المترجم للعربية بمعرفة العالم هانري جيب الاميركافي المطبوع في بيروت في كلامه عن القرن العاشر الميلادي مانصه : ان هيربرت الفرنسي المعروف بين الاحبار الرومانين بسلفستر الثاني كان مديوناً على بعض معرفته ولا سيما الفاسفة والطب والتعاليم لكتب عرب اسبانيا ومدارسهم لانه مضى الى اسبانيا في طلب العلم وكانت تليذ علماء العرب في قرطبة وسفلا ( اشبيلية ) وربما أثرت سفرته في الاوربيين المتشوقين للعلم وخاصة للطب والحساب والهندسة والفلسفة فكان لهم من ذلك الوقت فصاعداً رغبة عظيمة في ان يقرأوا ويسمعوا علماء العرب الساكنين في اسبانيا وبعض نواحي ايطاليا وترجم كثير من كتبهم الى اللاتينية وذهب كثير من التلاميذ الى اسبانيا ليتعلموا رأساً من خطب علماء العرب . وحق علينا ان نقول ان العرب ولا سيما عرب اسبانيا هم اصل وينبوع كل معرفة من الطب والفلسفة والفلك والتعاليم التي بزغت في اوربا من القرن العاشر فصاعداً اه كلام المؤرخ حرفياً .

ولا يخفى ان علم القوانين هو من أهم التعليقات التي اشتهرت في اوربا في تلك الاوقات وان ما أخذوه من القوانين المدنية والاحكام القضائية هو عين ما لقبوه بالقوانين المدنية الجديدة الرومانية للسبب الذي تقدم بيانه والذي يؤيد صحة هذا الاستنتاج البسيط الواضح من هذين المصدرين التدقيق في احوال وتطورات القانون الروماني الى ما قبل رحلة اولئك العلماء من الافرنج الى اسبانيا وذلك موضع قرناً بعد قرن في كتاب موسيم المحدث عنه وعدم تجوز العقل ما يلفقه بعض مؤرخي الافرنج من مسألة ظهور القانون الروماني فجأة بعد اختفائه مدة اربعة او خمسة قرون فانه من المحال ان تجهل أمة تانونها هذه المدة ثم يظهر فجأة على شكل لا يتفق مع القانون المعروف قديماً بوجه من الوجوه ولولم يدون في صحيفة واحدة فان ذلك لم يعرض لامة من أم الارض القانونية في الغرب والشرق مع ان الحاجة لتطبيق القانون على الحوادث المستمرة داعية لدوام معرفته والوقوف على احكامه . والخلاصة انه لا يوجد سند تاريخي ثابت

بدل على وجود القانون الروماني على الوضع الموجوده الآن او قريب منه قبل رحلة سلفسترو ومن معه من الطلاب لمدارس اسبانيا .

ولا ينظر وجود مصدر من المصادر الافرنجية من صحة قولنا بان القانون الروماني أخذ من الفقه الاسلامي أصرح مما تكلم به المؤرخ موسهيم مع الجزم بانه ما كان من الممكن للاخذين التصريح الواضح بنسبة ماأخذوه لمصدره المأخوذ عنه لانه تقوم عليهم قيامة رؤساء الاكليروس الكبرى وتضطرم ضوضاء الامة المنتقادة اليهم للعدول عما يرونه من انتفع الاعمال لبلادهم ومن أكبر الخدمات لمصلحتها ولو كان في الطب والفلسفة المصرح بانها أخذت من علماء العرب شيء من الصبغة الدينية لما رأينا التصريح بأخذ ذلك عنهم .

كما ان عبارة مفضل الاسفرنكافي المنقولة عن تلميذ تلميذ ابن سينا الذي هو من علماء اراسط القرن الخامس انما دونت لتدوين حقيقة ما كان يختلف فيها اثنان في ذلك العصر الذي لم يقل من ثلاثه احد بخلاف هذه الحقيقة وان علماء الافرنج انما اكتتموها عن قومهم قصداً لمقصد سام لا يعابون في الكتمان من أجله بل يدحون وانما حدث الاصرار على اخفاء هذه الحقيقة من القرون الوسطى فصاعداً تارة بدون قصد لعدم وجود التصريح بها في مأخذعلمائهم وأخرى بقصدلن وقف عليها من المأخذ العربية حباً في الصيت وتدوين المؤرخ الآثار الحسنة لامته ولا يجلو التاريخ من هذه الوصمة على جماله حتى فيما بين الاحزاب المختلفة من أمة واحدة ناهيك بما يكون من ذلك ما بين الشرق والغرب .

وانتي لموقن بانه قد قرب الوقت الذي يعترف فيه الشرق بكل ما للغرب من المزايا ويعترف كذلك الغرب بكل ما للشرق من المزايا ويجلس الفريقان على سرر متقابلين مآخين متحابين بقوة الله وانتشار العلم وحسن المقصد .



# حقائق تاريخية

عن دمشق وحضارتها (١)

توطئة في بلاد الشام وسورية — دمشق — اسماء دمشق واشتقاقها — سكانها  
واجناسهم — حضارتها وعمرانها .



## توطئة في بلاد الشام وسورية

ان قطر الشام العزيز منسوب الى سام « بمعنى اسم (٢) » ابن نوح (راحة) ف قيل  
في اسمه الشام لان السين والشين تتبادلان في اللغات الشرقية الشقائق . ولما اشتهر  
بشغره الذي كان مدينة صور ( صخر ) سمي سورية نسبة اليها . وقيل ان اليونانيين  
افتتحوه فرأوا الاشور بين يتولون سوءونه فنسبوه اليهم وقالوا ( اسورية ) ثم حذفت  
المهزة وأبدلت الشين سيناً ف قيل فيها ( سورية ) واول من ذكرها بهذا الاسم  
هيروdotus المؤرخ اليوناني وبقي الاسمان متعاقبين الى يومنا . على ان الشام اكثر  
استعمالاً عندنا لقدمها والافرنج يستعملون الثاني منها اي ( سورية ) .

وكانت سورية تقسم بحسب موقعها الطبيعي الى ثلاثة أقسام: ( أولها ) سورية  
الشمالية وهي تتدئ من جبال طورس شمالاً وتنتهي عند مدخل حماة جنوباً ومن  
أمهات مدنها الداخلية انطاكية وحلب وحماة . ومن أمهاتها الساحلية اسكندرونه  
ومرسين واللاذقية . و ( ثانيها ) سورية المتوسطة وهي التي أطلق عليها الكتبة  
المؤخرون اسم سورية المجوفة تعريب كلمة ( Cœlé-Syria ) والاولى ان يقال

---

(١) المحاضرة التي ألقاها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف أحد أعضاء مجمعنا

العاملين مساء الجمعة في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ م .

(٢) وضع المحاضر معاني بعض الاسماء بين هالين لئمة للفائدة .

في تعريبها وادي سورية كما قيل وادي النيل في أرض مصر ووادي الرافدين اي الفرات ودجلة في العراق . وهي تبتدى من مدخل حماة شمالاً وانتهي جنوبي صور جنوباً . ومن أمهات مدنها الداخلية دمشق وتدمر وبعبلك وحمص . ومن أمهاتها الساحلية طرابلس وجبل وبيروت وصيداء وصور . و( ثالثها ) سورية الجنوبية وهي ما بقي من سورية و يدخل فيها ما عرف قديماً باسم بلاد كنعان (المنخفض) واليوم فلسطين (المتغربين) وسميت بعد ذلك بارض الميعاد والارض المقدسة . واشهر اسمائها اليوم فلسطين عند العرب والافرنج وتمتد من ميساه الحولة شمالاً الى العريش جنوباً ومن مدنها الداخلية اورشليم اء القدس الشريف وحبرون اي الحليل والناصره وطبرية و نابلس . ومن الساحلية عكا و حيفا و يافا وغزة والعريش .

ومعدل طول هذه البلاد جمعاء من الشمال الى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر وعرضها من الشرق الى الغرب نحو اربعمائة وخمسين فيكون مجموع مساحتها ١٠٩'٥٠٩ — اميال مربعة . وبلغ عدد سكانها في القديم من عشرة لاهين الى خمسة عشر مليوناً واليوم لا يتجاوز المليونين والنصف فمعدل سكانها ٢٥ نفساً في كل ميل مربع . ولقد حددها الشيخ عبد الغني النابلسي قدس سره بقوله :

وحد الشام طولاً من عريش الى ارض الفرات المستجار  
ومن جسر المسج يقال عرضاً الى طرسوس للبلد المراد  
ومن يافا كذلك الى معان فشام كل ذلك من بلاد

وقيل لسكان هذا القطر الآراميون تغليبا نسبة الى آرام (المرتفع) وهو ابن سام ابن نوح الذي اشتهرت فيه قبائله ولا سيما انها كانت آخر سكان القدماء عند فتح اليونانيين فبقي اسمهم متدايلاً . ولكن اليونانيين والرومانيين سمو القسمين سورية . والعرب جاروم بذلك ثم ظابوا اسم الشام . وما يؤثر عن هذا القطر ان الملك هرقل لما غادر انطاكية الى القسطنطينية على اثر فتح العرب في عهد خلافة الامام عمر بن الخطاب (رضه) ودع البلاد بلغته اليونانية قانلاً (سوزه سورية) اي (كوفي بسلام ياسورية) . وكانت عاصمتها منذ القديم دمشق .

## ٢

## دمشق

ان مدينة دمشق هذه موضوع الكلام في هذه المحاضرة هي اقدم مدن سورية لان القبائل التي هاجرت الى هذه البقاع اقامت اولاً في هذه الانحاء لتوفر خصبها بكثرة مياهها ثم تفرقت وسترون في ما يأتي ادلة قاطعة تثبت قدمها . حتى ان استرابون المؤرخ ذكر مغاورها في العصر الظرفي ( الحجري ) ولا تزال آثارها فيها وحولها فلهذا كانت هذه المدينة العريقة في القدم اشهر مدن سوريا وانحطت آثاراً ( ماعدا مدينة بعليك ) واوفرها خصباً واغناداً خيرات واكثرها منزهات واغزرها مياهاً ولقد ذكرت آثار قصر الكرنك المحفورة على جدرانها في مصر منذ القرن السابع عشر لميلاد ثم مراسلات تل العارنة بعد قرنين كذكرتها التوراة وكثير من الكتب التاريخية القديمة . وعلوها عن سطح البحر الرومي الفان ومائتان وستون قدماً وموقعها في مستوى من الارض يشرف عليها جبل قاسيون المعروف بجبل الصالحية نسبة الى الصالحين الذين هم من بني ( جماعة ) من الكنانيين النابلسيين المنتسبين الى مسجد ابي صالح ( ١ ) خارج الباب الشرقي منها لتزولهم فيه ولما انتقلوا الى سفح ذلك الجبل نسب اليهم فقيل له جبل الصالحية والى هذا اشار الشاعر بقوله :

الصالحية جنة والصالحون بها اقاموا

وبقيتهم هي اليوم آل النابلسي عندنا . وعلو قاسيون ٣٧٠٧ اقدام . ويشرف عليها ايضاً من الغرب الجنوبي جبل الثلج او جبل الشيخ المعروف قديماً بجبل حرمون ( القمة العالية ) وعلوه — ٩٤٠٠ — تدم وهو يربط جوها بنداى الليل المحمول

( ١ ) ان مسجد ابي صالح قديم كان يلزمه ابو بكر ابن سيد حمدي الزاهد وقيل انه جدده ثم خلفه فيه ابو صالح صاحبه فنسب اليه ويسمى الآن قبر الشيخ صالح وهو بين الباب الشرقي وباب توما قرب التبخ ارسلا ن خارج السور ولما حوصرت قرية جماعيل النابلسية في ايام الحروب الصليبية ترك آل جماعة هؤلاء بلادهم وهاجروا الى دمشق فزلوا فيه كما ذكرت اعلاه .

على انجحة النسيم وحولها الغوطتان الشرقية والغربية وهما من منزهات الدنيا الاربعة لانها حدائق رائعة وجنان غناء ينساب فيها نهر بردى ( البارداو اللودي ) ( ١ ) و ينضم اليه نهر الفيجة (الينبوع) فيدخل المدينة و يتوزع عليها انهرأ سبعة بهندسة بديدة فيروي جميع الارض التي حوله والمدينة بجميع احيائها ولذلك ساء اليونان بلغتهم مجرى الذهب ( Chrysorrhoas ) لخصب ارضه و به لقب يوحنا الدمشقي من قدماء العلماء الدمشقيين الذين نبغوا في ايام الدولة الاموية لفصاحته فليل له ( مجرى الذهب ) .  
والمدينة مسورة بسور عظيم منيع فيه ابواب حديدية ضخمة و بقي سورها و ابوابها الى زمن ابراهيم باشا المصري ( ١٨٣١ - ١٨٤٠ م ) فسلمه السكان مفايح المدينة عندما فتحها ودخل من ( بوابة الله ) مع حاكم لبنان الامير بشير الشهابي الكبير وولده الامير خليل وامن الاهلين فبقي الآت بعض السور و الابواب وكانت قلعة دمشق قديمة محصنة بابراج ولها سور و حولها خندق يرد عنها الغارات فجددت في العصور المتوسطة و لا تزال ابنيها ماثلة في غربي المدينة .

ولقد جمعت اسماء الموانات في هذه المدينة مما سمي باسمها فكانت اكثر من خمسين و اكبرها تاريخ ابن عساكر المشهور وهو من مخطوطات المكتبة الظاهرية الشهيرة طبع منه خمسة مجلدات مؤخرأ مختصرة و رأيت في كثير من تلك المؤلفات تاريخ الشام ودمشق و عمرائها و حوادثها . ولكن كل واحد نقل عن قبله في الغالب دون تحييص و تحقيق فتكرر الكلام و الخطأ و ضبط الباحثون في تفسير الاعلام و بقي الاشكال غامضاً فبذا لو اعتمدنا على فلسفة التاريخ و درسنا علم الآثار القديمة و العاديات و معارضة اللغات و اشتقاقها فان في ذلك مغناً للمؤرخ يجتق فيه الآراء و يصحح النقول فيعمد الآتون على اقواله . و لله در لوقيان القائل : « من العيب العظيم في التاريخ ان لا تترك بين ما هو حقيقي ثابت و ما هو خيالي واهن » . و ياقوت الحموي الذي عقب على قول من تقول لكلمة اصهبان وجوهاً غريبة في اشتقاقها ( معجم البلدان ١ : ٢٧٠ ) بما نصه : « وما اشبه قوله هذا الا باشتقاق عبد الاعلى القاص حين قيل له : لم سمي العصفور . قال : لانه عصي و فر . قيل له : فالطفشيل . قال : لانه طفا و شال - اه » .

(١) نسبة الى (لود) اخي ارام وهو الذي يسميه المصريون (روت) كما ستري .

فأريت في أول محاضرة اندبنت لالقاءها على منبر هذه الردهة بعد عودتي الى هذا المجمع العلمي ان اتخذ تاريخ دمشق موضوعاً لي محمداً — على قدر ما فسح لي الوقت ووصل اليه الذرع — بعض ما كان مستوراً بحجاب الالهام في تحليل الاسماء والتعليل عن الحوادث . على انني لم اتعرض الا لتحليل الاعلام الاعجمية لاننا ندر كها بلبدها راجياً من لطفكم ايها الكرام الاعضاء عن الهفوات . فليس ما تسمونه الآن من الآراء الحديثة في التاريخ الا نذيبها الى البحث والتنقيب والتحقيق والتمحيص ليكون تاريخنا كاملاً منبياً على الحقائق والراهين الدامغة . فلا تحملوه بارعاً كم الله على غير حسن القصد والله حسبي .

### ٣

#### اسماء دمشق واشتقاقاتها

من الفوائد التاريخية الدالة على تحقيق بعض الآراء في التاريخ الصحيح تحليل الاسماء القديمة ومعرفة معانيها وأصول مبانيها واشتقاقها فهي اشبه بالآثار القديمة في تأييد الحقيقة او التقرب منها على قدر الطاقة وعلى هذا أحلل الآن أسماء هذه المدينة وهي كثيرة ذكر منها القلقشندي المشهور في معلمته ( صبح الاعشى ) المطبوعة حديثاً — دمشق وجلق وحكي في الروض المعطار تسميتها جيرون والخذراء . الخ . اولها الشام = ان هذا الاسم اقدم اسمائها لانه اسم آب الذين احتلوا واخطوها من اللوديين والاراميين كما سترى قروباً . وهو الغالب على السنننا الى اليوم . ولا سيما عند العامة حتى انهم قلما يقولون ( دمشق ) . ومعنى سام بالعبرانية اسم فهو بلا شك اب الاسماء واسم آب الابه الذين تديروها . ولقد ذكره النابغة الجعدي عند فتح هذه المدينة في ايام العرب وتبشير ابي الزهراء القشيري باصابة رجله في مواقعها . فقال النابغة يخاطب المعير :

فان تكن قدم ( بالشام ) نادرة ( ا ) فان بالشام اقدماً واوصالا

وان يكن حاجب ممن نخرت به فلم يكن حاجب عمماً ولا خلا

فتكون تسمية عاصمة الشام باسم بلاد الشام من باب تسمية الجزء باسم الكل مجازاً .  
وقال صاحب مرصدا الاطلاع : مسجد الشام في بخارى العجم . والشام موضع في بلاد  
مراد . والشام محلة في تبريز مشهورة وهو يدل على انتقال هذا الاسم مع سكان  
البلاد الساميين الذين حملوه في هجرتهم وسموا به الا ما كن التي نزلوها تيمناً باسم  
جدهم ( سام ) .

نايهاد دمشق = اقدم أول المؤرخون هذا الاسم تأويل شتى والاقرب في هذه التسمية  
انها لودية اوارامية ( اي كلدانية او سريانية قديمة ) ذكرتها آثار الكرنك وكتابات  
تل العمارنة باسم ( تاسكو ) باللغة الميروغليفية ( اللغة المصرية المقدسة ) ومعنى الكلمة  
المزهرة او المثمرة تسمية بغوطتها الحصينة . ولقد ذكرها كثير من العرب بهذا الاسم  
منهم ابو عبادة الجعفي بقوله .

اما دمشق فقد ابدت محاسنها وقد وفي لك مطربها بما وعدا

اذا اردت ملاأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلادا

ومن هذا الاسم اخذ اليونانيون كلمة ( Damascus ) وعندهم نقل الافرنج تسميتهم  
للمدينة وصناعاتها كما سيأتي .

واما قولنا ( دمشق الشام ) فليس الا تمييزاً لها عن غرناطة الاندلسية المسماة  
( دمشق العرب او الاندلس ) لان سكانها كانوا من طوارى دمشق الذين ذهبوا اليها  
مع من ذهب الى المغرب فاخثاروها سكناً لهم لكثرة مياها وحدائقها ولجبل النخ المثل  
سايها فكانت اسبه بمدينتهم الاصلية . وكان ابن جبير الكنتاني الرحالة فرّق بين  
الدمشقين بقوله :

يا ( دمشق الغرب ) ها تيك لقد زدت عليها

تحتك الانهار تجري ( هي ) نضب إليها

وورد اسمها مؤثناً في شعر عبد الرحمن بن صهيب الحميمي لما حاصر عسكر يزيد  
ابن ابي سفيان هذه المدينة بقوله :

فبلغ ابا سفيان عنا باننا على خير حال كان جيش يكونها

وانا على ابي ( دمشقة نومي ) وقد حان من ابي ( دمشقة ) حينها

الثالث جلق == لقد غمض استنطاق هذه الكلمة عن كثيرين فلم يهتدوا الى اصله والذي اراه (إما انها) يونانية تحريف (Jinic) ومعناها امرأة اذ كان فيها كنيسة بهند الاسم ذكرها ابن عساكر وغيره ولعلها كنيسة باسم مريم ام المسيح (عيسى) وهي غير المرئية الكبرى وقرب الكنيسة باب الجنيق المسدود في زمن ابن عساكر فقيل فيها (جنّيق) ثم بالابدال (جلق) و (إما انها) فارسية من كلمتين هما (كل) اي زهرة او وردة و (لك) بمعنى مائة الف فيكون مجمل معناها مائة الف زهرة اشارة الى غوطتها ثم عدلوا عن الضم في اولها الى الكسر واتبعوا اللام للتخفيف فقالوا (جلق) وعلى هذا الرأي تكون من تسمية الفرس الذين امتلكوها في القرن السادس للميلاد ولذلك كانت شائعة في زمن حسان بن ثابت الانصاري فذكرها بهذا الاسم في قصيدة وصف بها آل جفنة الغساسنة حكام دمشق اذ ذاك منها قوله :

لله درة عصابة نادمهم يوماً (بجلق) في الزمان الاول  
يسقون من ورد (البريص) عليهم بردي يصفق بالرحيق السلسل

واما البريص او البريص الذي ذكره حسان هنا فهو اما منزه او قصر وربما كان محرفاً عن كلمة (Baradisos) اي براذيسوس اليونانية ومعناها المنزه او الفردوس ولعل اسم برزه من هذا وكان البريص يسمى ايضاً المقسلاط (ولعله منحوت من مقام الصلاة) وهو موضع النحاسين الآن. وارى اسم بردي من هذه الكلمة وقال في مرصاد الاطلاع : (جلق) ناحية بسرقسطة بالاندلس يسقي نهرها ٢٠ ميلاً وقيل واد في شرقي الاندلس. ثم قال : (جليقية) ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الاندلس في اقصاه من جهة الغرب. (هـ) وهذا دليل آخر على حمل الدمستقيين لهذا الاسم معهم الى الاندلس تحبياً وحنيناً الى وطنهم الاول.

الرابع جيرون == اطلقه بعضهم على المدينة من باب تسمية الكل باسم الجزء مجازاً لانه من ابواب جامعها الكبير ايام كان هيكلًا لليونانيين فالكلمة يونانية Jiron بمعنى فناء الدار او الهيكل ومنها اسم فناء الكنيسة او سورها عند الافرنج اليوم. وكان اسم جيرون للباب الشرقي من ابواب الهيكل وهو المعروف اليوم بباب (النوفرة) وهي الفوارة المنتاة سنة «١٧٤١ هـ ١٠٢٦ م» ولا تزال آثار السور الذي كان يمدق به

ظاهرة في الزقاق الذي على يمين الداخل الى الجامع من ذلك الباب وهو الموصل الى الظاهرية وقبله زقاق آخر الى يمين الداخل وفيه أعمدة تمتد حتى المدرسة الباذرائية . وفي داخل باب جيرون « محل الجبرونية » كما تسمى الآن . وعلى جانبي باب جيرون عمودان ضخمان بدان على عرض السوق في ذلك العهد وكانت الاروقة قائمة على هذه الاعمدة لسير الناس والسوق بينهما للمجلات والحيوانات . وحوله كابات يونانية على يمين الداخل في موضعين (١) . وعلى اليسار حانوت صغير فيه باب على اسكفته « عتبه العليا » تقوس بدبعة بدل على ان الارض قد ارتفعت عن مساحة ارض الشارع القديمة الى اكثر من نصف الباب علواً . ومثلها الى شرقي الجامع عند باب الريد ثلاثة أعمدة عليها طنف وكثيراً ما ذكر الشعراء باب جيرون فقال بعضهم فيه :

باكر « دمشق » يشق افلام الحيا زهر الرياض مرصعاً ومكلا

واجرد « بجيرون » ذبولك واختص معنى تآزر بالعلی وتسربلا

وقال بعضهم ان اصل جيرون فارسي تعريب « جروند » بمعنى السراج وهو بعيد

كما لا يخفى .

ومن اغرب ما ووصفت به جيرون قول صاحب معرصد الاطلاع : جيرون سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف حولها مدينة تطيف بها وهي بدمشق في وسطها كالحلجة . وقيل جيرون قرية الجبايرة في ارض كنعان « اه » . ولا تزال آثار الاعمدة حولها ظاهرة .

(١) في ربيع سنة ١٩١١ م كنت في دمشق فرأيت كتابة في بيت ابي عثمان

الحوي في القميرية بجوار البئر النهي على يمين الداخل الى الجامع من باب النوفرة « جيرون » طبرت في الجدار العربي عند ترميم البيت وهي يونانية تدل على ان تلك الغرفة بناها مينودورس الان الاصغر لزينوفوس امين صندوق الهيكل . وهناك حروف غير ظاهرة . وفي بيت البردري على يمين الباب في اول بيت كتابة يونانية وراء الدرج الذي يؤدى الى البيت طمست بالبناء فوقها . وكذلك في بيت السمان في القميرية كتابة أخرى يونانية كنت اول من اطالع عليها ونسخها وفيها اشارة الى عبادة المستري « جوتير » وهي على قاعدة عمود من الحجر الابيض .

قلت : واما جيرون فلسطين فلم نر لها اثرًا في ما وصلت اليه يد البحث ولكننا نظن انها تصفحت على المؤلف فالاولى ان تكون هي « حبرون » المسماة قرية اربع بل مدينة اربع وتعرف اليوم باسم « خليل الرحمن » وتصحف حبرون « جيرون » .  
 الخامس اسماؤها الأخر = سميت دمشق باسماء أخر كيرة نستير اليها نتمة للبحث فساها يوليانيوس الروماني « عين الشرق كله » لعمرانها . ومن اسمائها العربية « إرم ذات العماد » وانكر ذلك كثير من المؤرخين وقالوا ان اسم إرم هو لقبه للمدينة والذي أراه ان العرب لما رأوها كثيرة الاعمدة وعرفوا شأن الاراميين فيها سموها « مدينة ارام ذات العماد » ثم حذفت كلمة مدينة وعربت ارام الى إرم . ومنها « ناصمة أرام » و « أرام دمشق » تمييزاً لها عن « أرام صوبية » في وادي سورية المحوفة . و « مدينة العازر » وهو خادم ابراهيم الخليل المنسوب الى دمشق و « مدينة نمان السرياني » وهو احد سكانها . و « بيت رامون » نسبة الى هيكلها الذي كان باسم الاله رامون المودي ومنه اسم برمانه في ظاهر دمشق . و « حاضرة الروم » و « حصن الشام » و « بيت ملكهم » و « باب الكعبة » و « فسطاط المسلمين » و « العذراء » ولعلها نسبة الى حريم العذراء التي فيها كنيسة القديمة المعروفة بالمرميسة . و انها تعرب كلمة جنيق بمعنى العذراء كما مر آنفاً . و « قاعدة وادي سورية » المعروفة بسورية المحوفة في اصطلاح مؤرخينا الآن . ومن القاها « الفيحاء » لتساعها و « الغناء » لالتفاف تجارها الكريمة و « جنة الارض » لكثرة حدائقها و غزارة مياهها .

وفي تسميات احيائها وضواحيها اشتقاقات تكشف القناع عن وجه كبير من الحقائق الغامضة التي يتملحها المؤرخون ويتكهن بها اللغويون . فمن الاءاء باللعنة الفنبقية « دمر » تحريف دامور او تامور وهو عندهم الاله الحامي فكأنهم اتخذوا حسناً له فيه تمثاله للدفاع عن المدينة التي كانت محطة لتجارتهم الشهيرة . و « بلاط » تحريف « بعل باليت » . وفي جبل القلمون قرية « فليطة » وهي من هذا الاشتقاق . والاءاء الآرامية اكثر من غيرها مثل ( بيت لها ) اي بيت الآلهة . و ( المعرة ) بمعنى المغارة . و ( ديرمُرَّان ) اي موران بمعنى سيدنا و ( أبون او قابون ) بمعنى ابنا لدير كان فيها و ( حلبون ) بمعنى الخصبية و ( معربا ) بمعنى المغرب و ( تلتيتا ) اي تل النبي

أكثره غابته • و (معرونة) أي المغارة الصغيرة •  
 ومنها الأسماء الخثية مثل الشاعور (بمعنى الصغير • و (قطننا) تحريف (كننا)  
 وهو اسم الحثيين وكذلك (الغوطه) فإنها تحريف (الكتنة) •  
 والهبوسية مثل (هبوس) و (كفر بوبس) نسبة إلى الهبوسيين من الكنعانيين •  
 و (جديدة الجرش) نسبة إلى الجرجاشيين منهم أيضاً •  
 واليونانية مثل (بلاس) بمعنى قصر • و (بيت اوراس) أي بيت السماء وهي الآن  
 احتلال خربة • و (عين ترما) أي الحمة وهي العين الحارة المياه • و (اقتريس) تحريف  
 (فاراتريس) أي ضارب الأعداء ومبدهم وهو من أساء المشتري • و (النجية) وهي تحريف  
 (نجه) بمعنى اليبوع • و (مقرا) من منزهاتها أصابها يوناني (مكرا) بمعنى المستطيلة •  
 و (نهر تور) أي نهر النظري اليونانية وقيل أنها باسم حكيم اسمه (تورا) أو نسبة  
 إلى تاج الملك (بوري) (١١) •

والرومانية مثل جبل (القلون) بمعنى المساح أي جودة الهواء • و (بانياس) من بان  
 اله العبابات وجو من أساء أنهارها اليوم • •  
 والعراقية (المزة) وهي باسم حفيد عيسو ومعناه «الخوف» أو هي يونانية بمعنى التلد  
 أو الربة وقربها (الريرة) المدينة الحربية الآن بعد حراق الصليبين لها •  
 والنارسية (جوبر) من جو بار بمعنى مسيل النهر الصغير • و (حرسنا) من (خر)  
 معنى الشمس أو حور اسم الله و (روستا) بمعنى سواد وقرى أي قرى الشمس ومنها  
 «عرب الرستاق عندنا» و (منين) فإنها مركبة من (مه) كبير و (نين) زحل فمعناها  
 رحل الكبير أو من امي) بمعنى الحمر فتكون بمعنى باخوس •  
 وذكر أن عساكر كبيراً من أسماء القرى العربية مثل (صعاء) وهي حربة الآن  
 دون المزة مساة باسم (صعا-الين) العربية • ومثلها قرية (الحمر بين) الحربة وفيها مسجد  
 كان مشهوراً وهذا من الأدلة على أن اليمنيين تديروها •

(١) هو زوج زمرد خاتون أم تمس الملوك احت الملك دقاق توفيت سنة ٥٥٧ هـ

(١١٦١ م) وهي مؤسسة المدرسة الخاتونية البرانية في دمشق المسوبة إليها •

## ٤

## سكانها وأجناسهم

كانت قبائل العالقة وفروعها محتلة سورية منذ اوائل الزمن التاريخي . ومنهم الجرجاشيون وغيرهم من ابناء أعمامهم كالبوسبيين . ولما حدثت زلازل شديدة ارتعدت لها فرائص الارض على ضفاف خليج العجم وماليها في القرن العشرين قبل الميلاد علمت قلوب سكانها من القبائل السامية واليافتية والحامية ففرتوا منذعرين من نقويض مساكنهم وتدمير عمرانهم فاساحوا في الارض الى ان رأوا نجعتهم ضواحي دمشق لخصبها واتساعها فاستظفروا على سكانها من الكنعانيين وتولوا شؤونها ومنهم النيبتيون الذين غلبهم اللوديون والآراميون والعبرانيون فتمازجت اصول قدماء السكان في سورية ووثقت اواصر النسابة بينهم المصاهرة ولكنها لم تغنهم قليلاً فنشبت بينهم مشاحنات ونمت ضغائن قضت عليهم بالحروب المستطيلة .

ومن سكت عنهم المؤرخون أو أغفلوهم أو أساروا اليهم من طرف خفي (١) اللودانيون اخوة الآراميين لان سام بن نوح رزق خمسة ابناء هم عيلام وأشور وارفكشاد ولود وأرام .

وبما ان مملكة ارام كانت المملكة الاخيرة من هذه القبائل شاع ذكرها على السنة المؤرخين فأشاروا اليها بالتفصيل وأغفلوا ذكر مملكة لود الذي كان أكبر من ارام قلات قبله واشتهر . وكان لبني لود مواقع حربية عظيمة وآثار عمران كثيرة في شمالي سورية ومتوسطها وجنوبها . فأسسوا مملكتهم الضخمة ونزلوا دمشق قبل اخوتهم الآراميين او معهم وأسسوا حضارتها وشيدوا أبنيتها العظيمة ولا سيما هيكل رامون المنيع الذي حوّل الى هيكل المشتري (جوبيتر) ثم الى كنيسة القديس يوحنا المعمدان ثم الى الجامع الاموي الكبير المشهور بأثار بنائه الفخم وهندسته الرائعة . ولهذا أفرد هذه الصفحة لتحقيق تاريخهم وحسر اللثام عن اصلهم ولم أراحداً تعرض لوصفهم بالتطويل

(١) راجع لزماني ومسبرو المؤرخين الفرنسيين وبعض تواريخ مصر ولا سيما الاترية منها . وكتب السياحة ونحوها .

غيري في مانشرته في مقتطف السنة الماضية بعنوان ( اقدم سكان سورية اللوديون ) وهو بحث مستفيض .

نقرر في هذا العصر تحقيق التاريخ بالآثار القديمة وتحليل الاسماء ونحوها فلماذا اذا استنقنا هيكال الكرنك في مصر أرائنا صفحات جدرانه لنطالعها فنقرأ فيها اخبار غزوات الفراعنة لهذه القبلة التي يسمونها ( روتنو ) لان اللام والذال تبدلان في اللغة الهيروغليفية بالراء والناء فيقال في اللودان الروتان . مما ثبت ان سكان سورية حين غزا تحتموس ( او توطميس ) الاول من الدولة الثامنة عشرة المصرية هذه البلاد سنة ١٦٥٠ ق م كانوا هم اللوديين او الروتين لاغيرهم وان شئت فقل اللودان او الروتان .

وقد شمل اسم اللودان القبائل التي لم تخضع للمصريين . وكانت قبائلهم تقسم الى لودان المغرب او الاسفل وهم سكان دمشق هذه وما اليها وبلاد فلسطين . والى لودان المشرق او الاعلى وهم سكان سورية الشمالية وجزء من غربي ما بين النهرين . فلماذا كانت دمشق عاصمة اللوديين وحصنهم المنيع في ( بلودان ) اي بيت اللوديين وهي مشهورة ببناعتها الطبيعية فارتاعها ٤٥٠٠ قدم . وموقع قلعة الشقيف على علو ٦٨١٠ — اقدم منها فهي تشرف على جميع المضائق والطرق التي تأتي منها جيوش الاعداء ولا سيما المصر بين الذين حاربوهم . وكلمة الشقيف كلدانية بمعنى الصخرة وأرادوا بها الحصن المنيع كالصخر او المشيد على الصخر . ومثلها شقيف تيرون في جنوبي سورية .

ولما استظهر المصريون على اللوديين وملكوا منهم وادي سورية اي سهل بعلبك والبقاع وما يتصل به اقاموا حصناً على مضائق وادي مخنوفنا لدفع غزوات اللوديين لهم من دمشق وضواحيها وسموه ( برتان ) اي بيت الروتين بلغتهم المصرية كما سبق وهي الى اليوم قرية عامرة . وقر بها قرية ( حور تعله ) وهي مركبة من ( حور ) الاله المصري الذي يقابل ( ابلون ) عند اليونان و ( تعله ) بمعنى تعالي . مما يدل على نزول المصر بين فيها واتخاذها هيكلًا لآلهتهم . ومن غريب ما قرأت في تاريخ ابن عساكر ان خربة ( حور تعله ) من ضواحي دمشق كان فيها مسجد ينسب اليها وذلك يدل على ان نقرأ من الروتين جاؤا من بعلبك واستمروها وسموها باسم بلدتهم كما هو الحال في كثير من التسميات مثل ( تريل ) في البقاع . فان سكانها في زمن الايطور بين ( الجلبلين ) الذين غلبهم بومي القائد

الروماني في منتصف القرن الاول للميلاد وكانت حاضرتهم كلثيس او خلقيس ( مدينة النحاس ) اي عنبر اليوم في البقاع . امتد ملكهم الى السواحل فجاء نفر من جمل تربل فوق مدينة طرابلس الشام وسكنوا هذه القرية فسموها باسم موطنهم الاول .

واذا اردنا التوسع قليلاً بامتداد الامة الرومانية في انحاء سورية نرى ان اسم ( بيروت ) بقرب من ( بيت روت ) فكأنها كانت ثغرهم البحري للدفاع عن بلادهم . وهذا اول من تسميتها « بالابار » كما يقول المؤرخون لان معظم المدن الساحلية لا يتابع فيها بل انار فقط ولذا خصت بيروت بذلك الاسم دون غيرها ؟ . واما في الانار المصرية « باروتا » وهو اقرب الى هذا الوجه منه الى الابار .

ومن اوجه ما هنالك ان نير اليطاني الذي نتخلل سهل بعلمك والبقاع ليس الا تعريف كلمة لوداني اوروثاني وان تئت فقل « لوثاني » فهو منسوب الى هذا الشعب القاطن في ذلك السهل الافيج . وكذلك نير الرذوني المتخلل زحلة ونير بردى الذي ينساب في هذه المدينة يترشح انهما من هذا الاستقاق فقبل نير « بيت روده » ثم نحت واندل فصار بروده او بردى وحذفت كلمة النير . و يوجد في سهل بعلمك قرية ( حوش بردى ) ( حوش الذهب ) والاسان من اثناء نير دمشق كما مر . وتوجد قرية برتي في جزين ايضا وهي من هذا القبيل وقس عليها .

والمرجح ان اللوديين هم الذين تيدوا الحصون والمعامل الفخمة في مشارف سورية وفلسطين مثل قلعة كركبس وحلب وسيزرو قدس وحماة وحصن ودمشق وكرك السوبك وغيرها اكثر غزوات مصر بن لهم . وكانت لهم عاصمتان هما ( كركميش ) المركبة من ( كركو ) اي حصن و ( كموش ) الاله القاهر . ومنها قرية ( عمر حوش ) في البقاع قرب زحلة وهي خربة اليوم تعرف بالفيضة . وعرفت كركميش هذه باسم هيرابوليس اي المدينة المقدسة عند اليونان ثم حرف اسمها الى جيرا بوليس فخرابيس كما هم الان .

وعاصمتها الثمانية كانت قادش او قدس بمعنى المقدسة وهي على ضفة بحيرة باسمها تدعى الآن ( قطينة ) نسبة الى الحثيين الذين سمو ( كتهين ) وهي سيف محل النبي مندو

في جوار حمص حيث البعثة الاثرية الفرنسية تحنفر الآثار الدالة على حضارة تلك العصور (١) .

ومن البراهين الدامغة على صحة رأينا في هذه القبائل اللودية او الروتية ان الآثار المصرية لم تدون في مادونته من اخبار غزوات ملوكها الاولين الا اسم الرونتو اسي اللودين . ولم تذكر الحثين والاراميين الا في زمن الدولة التاسعة عشرة . وذلك لان الحثين استظهروا على اللوديين بعد ان دانوا لهم زمناً طويلاً ودفعوا لهم الجزية التي ضربوها عليهم فانتهز الاراميون — الذين امتزج بهم ابناء عمهم اللوديون — الفرصة للاقتصاص من غالبي انسابهم فضربوا الحثين ضربات قاضية واشتهر ذكر الاراميين من القرن الثامن قبل الميلاد الى فتح اليونانيين للبلاد في القرن الرابع قبله . فلذلك نقل الينا اليونان ذكر الاراميين في منازلهم اياهم ولم يذكروا اللوديين لانهم كانوا قد اندغموا بهم وزالت مملكتهم بيد الحثين كما مر .

وكان من تأثير غلبة اليونان للاراميين انهم بدلوا اسم بلادهم (ارام) باسم (سورية) كما سبق لنا لتعليل ذلك في صدر المحاضرة فذكر هيرودوتس البلاد بهذا الاسم الجديد وشاع بيننا .

فلهذا كانت حضارة دمشق القديمة من قبائل العالقة ولاسيما الجرجاشيين والبوسيين كما مر ثم توالى عليها ملوك اللودين والحثين والاراميين واليونانيين والرومانين الى الفتح العربي وتمازجت اصول تلك القبائل بالمصاهرة .

وكانت قبائل اليمن العربية قد اندفعت الى هذه البلاد على اثر اندفاق سيل العرم في بلادها اليمنية فكانت منهم قبائل الضجاعم والغساسنة والقضاعيين والياديين والايطوريين وغيرهم ممثلين حكم تلك الدول بامارتهم وملوكهم .

(١) راجع صفحة ٣١٦ من الجزء العاشر لمجلة المجمع العلمي في سنتها الاولى وهذا تفصيل ما وعدنا به هناك . ولقد جاءت بعثة افرنسية سنة ١٨٩٤ م الى هذا المحل واحفرته ثم عادت في ربيع السنة الماضية . واستأنفت عملها في خريف هذه السنة وستزيد اكتشافاتها كثيراً من الالتياس والاشكال في تاريخ الام اللودية والحثية وغيرهما .

وغزا ملوك اشور و بابل هذه البلاد ولا سيما عاصمتها دمشق هذه وكان تغلب فلاسر ثاني ملوك اشور قد حاصرها وافتتحها سنة ٧٣٢ ق م وحوالا ثمانية آلاف من سكانها الي بلدة قير في العجم وقتل ملكها رصين . ثم حاصرها سلمناصر وضايق اهلبا وقطع استجارها . وكانت الدول العبرانية قد طمعت نفوسها اليها ففتحها داود الملك وحالفته ثم انقضت عليه بارسال نجدة من قومها الي هدد عسر ملك صوبه الذي حاربه داود فاوغر ذلك صدره عليهم وقتل من اراميين دمشق ٢٢ الفاً واستولى على البلاد واقام محافظين في ارام دمشق فاستعبد سكان هذه المدينة الاراميون مدة طويلة للعبرانيين وادوا الجزية لهم .

وكانت دمشق مدة بهد الاشور بين الي سنة ٧٢١ ق م فانفق سكان دمشق مع اليهود على الاشور بين ثم استولى عليها البابلليون والفرس . وقال استرابون: ان دمشق كانت اسهر مدن سورية في الدولة الفارسية . وكنزت الجاليات الي دمشق من البلدان التي لها علاقة بفتحها . وانتقل بعض سكانها الي تاك الاصقاع سنة الله ( وان تجد لسنة الله تبديلا ) .

ولما ملكها اليونان كانت هذه الحاضرة مدينة عظيمة لا يفوقها الا انطاكية . من بعض الوجوه .

وفي عهد استيلاء الدولتين اليونانية والرومانية عليها قدم كثير من رعاياها وامتزحوا سكانها وخفيت اصولهم الا بعض البيوتات التي حفظت انسابها مثل آل سرحون الذين تقدموا عند الدولة الاموية في ديوان الاتشاء ومنهم نشأ القديس يوحنا الدمشقي الفيلسوف الشهير الملقب باسم نهر بردى ( مجرى الذهب ) كما سبق القول آنفاً . ويقال ان بيت هذه الاسرة الوطنية القديمة هو اليوم محل دير الآباء اليسوعيين قرب باب توما وان هذه الاسرة لها بقية في صافيتنا تعرف فيها باسم آل الخوري ككنزة الكهنة الذين تسلسلوا منها والله اعلم .

وكان انقلاب عظيم عند بنصر اليونان والرومان في هذه المدينة ولا سيما في ايام نيودوسيوس الكبير الذي شدد التكبير على الوثنية وابطل عبادة الاصنام وهدم بعض هياكلها ثم هدم ابنه ارКАДيوس بعض هيكل رامون في هذه العاصمة ثم رمه وجعله

كنيسة مار يوحنا المعمدان المعروفة اليوم ( بمقام سيدنا يحيى ) داخل حرم الجامع الاموي  
 وفي وقت قصير ننصر اهلبا كلهم ما عدا اليهود فكثرت بينهم الحصوات .  
 وفي سنة ٤٤٠م فتحها العرس ودمروا معظم ابنتها فزادوا خراباً ثم عادت بعد  
 قليل الى الرومان وعمالمهم العساسنة مجددوا شيطاناً من حضارتها وابنتها .  
 ولما كان الفتح العربي سنة ١٣هـ ( ٦٣٤ م ) حدث انقلاب آخر في الحاصرة فهاجر  
 منها واليها كثير من العرب والامم الاخرى التي فيها فتمازحت اصولهم . ولم يطل الوقت حتى  
 هاجر كثير من سكانها ايضا الى المغرب والاندلس . ثم كسب فيها العباسيون الامويين  
 حروبوا مساكنهم وقتلوا منهم خلقاً كبيراً فازدادت المهاجرة منها الى الاقطار السحيقة .  
 وعند تشييد الجامع الاموي في زمن الدولة الاموية استقدم آلاف من الصناع البيزنطيين  
 اليها وسكنوا فيها بأمرهم ونشروا فيها الصناعات الجليلة .  
 ولما كانت الحروب الصليبية وحوصرت النعمور والمدن رحل كثير من الامم  
 الاسلامية الى دمشق مثل آل النابلسي وبقاياهم فيها الى اليوم وقد سبقت الاشارة اليهم .  
 وفي حلال ثلاث العصور القديمة وما بعدها كثرت الفتن بين اليهود والسور بين  
 الوطنيين . والقاسبين او المصر بين والبنين . والامويين والعباسيين . والمشاركة  
 والمعارفة . والسنة والتسبعة . الى ان كانت حوادث الاكتمار بة والقبببول فاضطرب  
 جبل سكانها وهجرها كثير منهم وحل غيرهم محالهم من امكسة مخلقة .  
 ومن اكدت بكلماتها عروة تيمورلنك ( الاعرج الحديدي ) فضايق الدمشقيين وتدد  
 عليهم وامنهم حتى سلموا وبيئهم ان حلدون المؤرخ المشهور وكان من دهائه انه قال له :  
 دعني اقبل يدك التي اناملها الاقاليم الخمسة . واراد بذلك انه كان قد فتح خمسة اقاليم .  
 فدخل تيمور المدينة ولم يؤذها اولاً . واكنته حاصر القلعة وكتب بوعده . فنكب الاهلين  
 تركة وسلب اموالهم واحرق البيوت وكان يعذب الامراء فيسقتهم الرماد يعطيهم  
 الماء والملح والكلس ويكويهم بالنار ليقروا له باموالهم فاستخرجها منهم استخراج الزيت  
 بالمعاصر . ثم امر بالمهب العام والسبي والفتك والقتل والاحراق والامر على الاطلاق  
 فزق شمل السكان كل ممزق وسبي المحدرات وبقي على هذه الحسالة من الضغط ثلاثة ايام  
 فاحرق المدينة وعادها ملتبه غيظاً ونقل جميع صناع السيوف والزجاج والاواني

الفاخرة والاعيان . ففرّ من بقي من سكانها خوفاً وبعد ان وثقوا بعدم عودته الى البلاد عاد قليل من سكانها القدماء . وجاء المدينة اقوام من المدن الاخرى ولا سيما حماة فان كثيراً من سكان دمشق اصلهم منها منذ ذلك العهد وكذلك من الانحاء الاخرى . وكانت الفتن قد كثرت في حوران ولاسيما بين القيسيين واليمنيين فقصدها كثير من الأُسُر المسيحية فلبثوا فيها مدة و بعضهم غادرها الى حمص وحماة وحلب و عكار والحصن ولبنان وغيرها . وهي اليوم معظم الاسر . وكثرت المهاجرة اليها والى لبنان على اثر الفتح العثماني في اوائل القرن السادس عشر للميلاد . فلها نشأت اصول أُسرهما وسكانها متمازجة في الغالب . فهي مختلفة الاجناس والمذاهب بين عرب وشراكسة واكراد وترك وفرس ويهود وكرج وقبط وسريان وارمن ويونان واوربيين . وبين هذه الاسر المختلفة كثير من ار باب النسب الصحيح واهل البيوتات المعروفة والبيوت العلمية على اختلاف فروعها ولا سيما الطبية فيقال ان آل بختيشوع المسيحيين لهم فيها بقية قليلة في الصالحية اليوم تعرف بالالحكيم قدمت اليها من بلاد العجم . وآل الرحبي من اطبائها المسلمين المشهورين نالوا منزلة رفيعة في خدمة مستشفياتها ومدارسها . واشتهر من غير هاتين الاسرتين كثير من اطبائها وعلماؤها ومؤلفيها ومشاهيرها من الطوائفتين .

اما الصناعات فيها فكانت راقية كما ستري ولذلك ترى معظم اسماء أُسرهما مما يدل على صناعاتها القديمة مثل آل بولاد والسيوفي وجوهرو جوهري ومسابكي وصيقلبي وحداد ونحاس وقزاز ومباردي وقساطلي وساعاتي وهو او يني ومنبر وخوام ومراباتي وجراحي وطرايشي وحفار وطبايع ونحات ومساميري ومشاطي وصباغ ونوبلاتي ومحاري وصانغ وخياط وترزي وبارودي وبنّا وحكيم ومسديّة ودقاق ونقاش وحجار وسمالك وفرا و فراية ونجار وقصار وحائك ومخشن وقباقيب ونشواتي واشباهاها . وكلها مختلفة الاجناس والاصول كثيرة الفروع والاسماء متلبسة احياناً بصناعاتها المتوافقة واصولها المتخالفة مما فصلته في كتابي (الاخبار المروية في تاريخ الاسر الشرقية ) وهو في ثمانية مجلدات كبيرة لاتزال مخطوطة معدة للطبع .

## ٥

## حضارتها وعمرانها

لقد أسس حضارة دمشق اللواديون والروتيون والاراميون والفينيقيون والحثيون والعبرانيون والاشوريون والبابليون والماديون ( الفرس ) والمكدونيون ( اليونان ) والرومانيون والعرب ومن جاء بعدهم من الامم الاخرى .

ومما يدلنا على قدم الممالك الاولى ان اسم دمشق والشام ارامي والتاغور (الصغير) والغوطة وقطا حتى ودمر بمعنى تمار اي الاله القادر فينقي . وهكذا بقية الممالك التي تعاقبت عليها . على ان الدول اليونانية التي بقيت ٢٤٨ سنة والرومانية التي تولت شؤنها ٧٠٠ سنة والعربية التي اتخذت هذه المدينة حاضرتها احدى وتسعين سنة (١) كانت حضارتهم اساسا لمابعدهما لانهم استبحروا في العمران .

ومما لا يرب فيه ان حضارة دمشق القديمة كانت وتدية فشيئت فيها الابنية الضخمة منها « هيكل رامون (٢) » ونحت التماثيل ونقشت الكتابات مما ذكره كثير من مؤرخي العرب وفي مقدمتهم ابن عساكر في تاريخه المطول فانه ذكر وجود تماثيل وكتابات يونانية وكذلك باقوت في معجمه والارمن نازي في تاريخه اذ تعززت حضارتها في عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني . وفيها محل كان يعرف « بصفة بقراط » حيث كان يجلس هذا الفيلسوف فيه كما قيل وهو في غربي الصالحية تحت قبة السيار .

واكن الرومانيين تساهلوا مع سكان سورية ولا سيما الفينيقيين والاراميين بعبادتهم فكرموا هياكلهم اخصها هياكل دمشق وبعليك فامتزجت العبادات الفينيقية باليونانية والرومانية امتزجا نذلا عليه الاساطير القديمة وتحليل اسماء المدن والقرى الباقية الى عهدنا مما فصلته في كتابي « تاريخ سورية المخوفة (٣) » فكان الفينيقيون يعبدون عايدون وهو

(١) من سنة ٤١-١٣٢ هـ الموافقة لسنة ٦٦١-٧٤٩ م

(٢) كان محل الجامع الاموي الكبير .

(٣) هو تاريخ مطول في نحو ٨٠٠ صفحة مخطوطة بقطع كامل يشتمل على تاريخ

وادي العاصي وبردى والليطاني وما اليها بحسب علم الآثار القديمة والاساطير الدينية

زُحل عند اليونان فكرمه هو لاء كما أكرموا مينرفه الهة الحكمة عند اليونان وهي سيميه عند الفينيقيين . وفي اسمي قريتي (علين) قرب زحلة التي منها اسمها و(بسمية) في وادي الزبداني وغيرهما دلالة صريحة على هذا الامتزاج .

ولما انتصر اليونان والرومان نقضوا الحضارة الوثنية وهدموا هيكلها العظيمة وحنموا تماثيلها واستبدلوها بالحضارة المسيحية فعضدتها القبائل المنتصرة ومعظمها كان من غسان وقضاة واباد من السلائل العربية .

ومن آثار النصرانية فيها الكنيسة المريمية الكبرى وهي من بناء اركادبوس قيصر المتوفى سنة ٤٠٨ م ذكرها كثير من المؤرخين مثل ابن عساكر والرحالة ابن جبير ، وخربت مراراً ورمت الى ان احترقت في حادثة سنة ١٨٦٠م فهدم ما بقي من روتقها القديم طعمة للنار فرمت على طراز حديث ولا تزال المحلة القريبة منها تسمى (القميرية) وهي على ما بلوح لي بقية ككتي (ابكوز— ماريا) اليونانيتين اي بيت مريم . وكذلك محلة (الآسية) بقية كلمة (كليسية) اليونانية بمعنى الكنيسة . ومنها كنيسة القديس يوحنا (في الجامع الاموي) ايضاً وقربها محلة (انكلاسة) ولعلها تحريف اكليسية اليونانية بمعنى الكنيسة ايضاً الى غيرها من الديارات (الاديار) والكنائس التي في دمشق وخارجها مما وصفه المؤرخون مثل دير خالد او دير صلبها مقابل باب الفراديس . ودير مران ودير هند ودير ايبا (ولعلها هي اليوم داريا) . ودير قانون ودير مقرن في وادي بردى الغربي .

وفي دمشق من هذه الآثار الباقية مقام (بولس) الرسول حيث تدلى من السور لما سجن في دمشق وهو باب مسدود له مقام . وكذلك محل (حنانيا) الرسول في الزقاق الى يمين الداخل من الباب الشرقي وفيه كنيسة يهد الآباء الفرنسيون وقربها جامع خرب .

واكن الفرس غزوا هذه البلاد ولا سيما نحو سنة ٥٤٠ م فخرّبوا ابنتها وغيروا

ومعارضة اللغات وفيه تراجم العلماء وتفصيل الحوادث على اسلوب عصري في التاريخ والجغرافية والتراجم والمباحث العمرانية وفلسفة التاريخ .

اسماء مدنها (١) بلغتهم وصادروها حتى كاد ذكرها يحجب .  
ولما فتحها العرب سنة ١٤هـ « ٦٣٤ م » اشتهرت حضارتها في عهدهم ولإسمائها في  
زمن الدولة الاموية التي اتحدت دمشق حاضرة لها فصكت فيها اول النقود العربية  
بزمن عبد الملك بن مروان . وانشأ معاوية الاسطول المؤلف من ١٧٠٠ سفينة مجهزة  
بالاسلحة والجنود وزعه في سواحل الشام والمغرب والاندلس . وذكر ابن النديم في  
الفهرست : ان اول من حفل بجمع الكتب من امراء المسلمين خالد بن يزيد الاموي  
فانشأ « مكتبة » في هذه الحاضرة وامر بترجمة كتب الطب والكيمياء من اليونانية  
والقبطية فانشأ ( دار الترجمة ) وكان عنده راهب مسيحي يتولى ذلك . ولقد ظهر في  
قبة الجامع الاموي كتب واوراق قديمة على رقوق بالعربية والسريانية والعبرانية  
والقبطية واليونانية نقلت الى المانية وبعضها في متحفنا السوري في دمشق (٢) . ثم بنى  
الوليد الجامع الاموي الشهير بفخامته ورونقه وانفق عليه خراج مملكته تسع سنوات مما  
تعادل قيمته الف الفدريال من نقودنا اليوم . وذكر ياقوت الحموي وغيره : انه تم عمله  
في تسع سنوات كان يشغل فيها عشرة آلاف رجل كل يوم بقطعون الرخام . ولما  
شكا الناس من انفاقه هذا من بئوت مال المسلمين اجابهم : تقولون وتقولون وفي بيت مالكم  
عطاء ثمانى عشرة سنة اذالم تدخل لكم فيها حبة قمح . فسكت الناس . وقال الجاحظ  
في كتاب البلدان : وهو مبني على الاعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي  
فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفيسفساء والذهب  
الاخضر والاصفر . فاذهب حريق سنة ٤٦١ هـ ورونقه . وقد توالى عليه الحرائق

(١) اقدم مر بنا من تسميات الفرس (جلقى) و(جوير) و(حرساومنين) في صفحة  
١٤٩ و بقيت اسماء كثيرة منها اسم ( الزبداني ) ومن رأي صديقي ورسوبي الاستاذ  
انيس افندي سلوم انه فارسي مركب من كلمتي ( سيب ) بمعنى رائحة التفاح و(ستان)  
او (دان) بمعنى محل اي مغرس التفاح فحرف بالزبداني . ويعضد ذلك قول العرب :  
من زار الزبداني فاحت منه رائحة التفاح . وقيل ان الاسم عبراني بمعنى الهبة مثل  
كفر زبد وزبدل ويزبددين في النحاء سورية ولبنان . وروي غير ذلك ايضا .  
(٢) راجع صفحة ٣٩٥ من المجلد الاول من مجلة المجمع العلمي العربي .

فشوهت محاسنه وفي حريق ماحوله في ٢٦ نيسان سنة ١٩١٢ م ظهر كثير من  
الاعمدة الكبيرة التي كانت حول الهيكل وجدران رومانية كثيرة .  
ولقد شيد الوليد ابنة اخرى فاستقدم الصناع الى دمشق من بزنطية (القسطنطينية)  
ومن العمم وغيرهما فاشتهرت فيها الصناعات النفيسة منذ ذلك العهد ولا سيما الترسيع  
بالفيسفاء . ومن الابنية التي شيدها بيت المال والدار الخضراء الى جنوبي الجامع  
وبلاط معاوية ودار سليمان بن عبد الملك ودار عمر بن عبد العزيز ودار هشام ودار  
ابنه مسيلة وهذه كلها حول الجامع الكبير ايضاً . وعقد الوليد ميداناً لسباق الخيل كما  
هو جار اليوم عند الافرنج ولا يزال ذلك المضمار الى يومنا يعرف ( بالميدان ) وهو من  
احياء المدينة المشهورة في غربها الجنوبي .

وحولت فيها الدواوين من اليونانية الى العربية فرتبت على نمط جديد ووضع ديوان  
الختم وحزم الكتب والبريد وغيرها .

وكان اليمينيون الذين احتلوا دمشق منذ القدم قد نقلوا اليها صناعة السفار والنصال  
اي السيوف وهم مشهورون بها فاقننها دمشقيون على يدهم وذاعوا بها شهرة فكانوا  
يستخرجون حديدهم من ضواحي المدينة ولا سيما من داريا حيث آثار المعامل . ولا تزال  
محلة المسبك في احياء النصارى من شرقي المدينة تدل على سبكه وكذلك اسم بني المسابكي  
من أسرها المسيحية . واشتهر فولاذ دمشق بغرابة سقايته وصلابته ورونقه حتى يقال  
ان بني ( بولاد ) الاسرة المسيحية اشتهرت بصنعه فنسبت اليه ، ولهم حارة باسمهم ولعابها  
كانت معملاً لصنعه .

ولقد كثرت معامل السيوف في دمشق ونسب الى هذه الصناعة بنو السيويني من  
مسلمين ومسيحيين ونقل الصليبيون الى بلادهم سر هذه الصناعة ولا سيما عمل الجوهر .  
وبقي الدمشقيون من فوقين بها على الجميع الى ان سباهم تيمورلنك في اوائل القرن الخامس  
عشر فأمات هذه الصناعة هنا واحياها في العمم .

ومما كان مشهوراً في دمشق القاشاني نسبة الى مدينة قاشان وهي قرب اصفهان  
العمم كان اهلها قد ورثوا عن البابلين هذه الصناعة فاشتهروا بها ونسبت الى مدينتهم  
ولقد دلت الآثار القديمة المحفورة في فلسطين ان الكنعانيين عرفوها ومن هذه الصناعة

بقايا في بعض الجوامع والحمامات وفي متحفنا . وكذلك الفسيفساء وهي نقوش من الزجاج الملون المرصوف على الجدران والسقوف وفي القبة الظاهرة ابداع مثال لها بالوان جميلة واصباغ مزخرفة ورصف يأخذ بمجامع الابصار .

وكذلك الميناء اي جوهر الزجاج والتجربها الدمشقيون من العجم ولها بقايا تدل على انقائها هنا . وتزويق الجدران والسقوف بالنقش والاصباغ وفي دار اسعد باشا العظم امثلة رائعة منه . وكذلك الزجاج الذي وصفه كثير من المؤرخين والرحالة . والخزف المنقوش . وترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة وقد اشتهرت في زمن الملك الظاهر البندقداري في القرن السابع للهجرة . والترصيع بالصدف والقطع الملونة على الخشب . وفي معمل النعسان في الباب الشرقي امثلة رائعة من هذه الصناعة . وعرف الدمشقيون نسج الدباج وغيره وصناعة الورق والصباغ وغيرهما مما له بقية قليلة الآن لها بعض مزايا الاتقان . ولعلي افرد محاضرة خاصة لصناعات دمشق ومزاياها المشهورة بأكثر تفصيل وادق استقراء .

اما تجارة دمشق فانها بعد سقوط تدمر محط رحال القوافل التجارية بين الشرق والغرب تحولت الى هذه الحاضرة ولا سيما تجارة الهند والعجم والعراق وخلفت تدمر ( ملكة البر ) واشتهرت ببناج ارضها الخصبة فتوطدت فيها دعائم العمران واهمها الزراعة والصناعة والتجارة . فقصدتها تجار اوربة وغزرت ثروتها . فضلاً عن انها كانت مجتمعاً للعجاج الذين يذهبون الى القدس الشريف والى مكة المكرمة والمدينة المنورة في طريقها البرية . وبقيت مزهرة في تجارتها الى ان فطحت ترعة السويس في اواسط القرن التاسع عشر الماضي فانحطت تجارتها وقل عدد الحجاج الذين يقصدونها لسهولة الطرق البحرية وتحويل القوافل البرية الى بوخر مجرية .

وكانت للامو بين مجالس ادب مع شعرائهم وعلمائهم ومحاضرات ومساجلات ومكاتب ومتاحف لطرائفهم واشتهر كثير من النساء بادهن الرائع في ذلك العصر وبنهن الخطيبات والشواعر اللواتي جالسن العلماء مثل سكينه ابنة الحسين التي انتقدت الفرزدق وجرياً واثنت على كثير وجميل . وصديقتها ام البنين زوجة الوايد التي ساعدته بتعزير العدل والشفقة على الرعية وشاركته في السياسة والاداب بحصافة عقلاها

مقدمة له الآراء السديدة . و رابعة العدوية المشهورة بزهدا وبرها وادبها الى غير ذلك  
من كانت بهوتهم بمجالس ادب وسوق عكاظ للغة والشعر .

هذه لمعة من الحضارة الاموية في دمشق تشعب منها كلام الى ما بعدها للعلافة  
بها . على انه لما اضطرب جبل الامويين بظهور السفاح العباسي الذي حمل عليهم وخرب  
دورهم وشتت شملهم فجاء كثيراً من آيات حضارتهم التي انقلت الى الاندلس واوربة  
وازهرت طويلاً فيها .

ولقد حل في دمشق المأمون بن هرون الرشيد العباسي مرتين . والخليفة المتوكل  
الذي نوى نقل دواو بنه اليها ثم نقض ما برمه من هذا الرأي لاسباب لا محل لتفصيلها .

ودخلها سيف الدولة بن حمدان يتولى شؤونها سنة ٣٣٤ هـ فحدث له في الغوطة  
ما اوعر عليه صدر الدمشقيين فرفضوه واليك القصة : لما ملك سيف الدولة دمشق  
خرج يتنزه في غوطتها مع الشريف العقيقي (صاحب النار التي هي اليوم المكتبة الظاهرية)  
فقال له الملك : ما تصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد . فقال العقيقي : هي لاقوام  
كثيري العدد . فقال سيف الدولة : لو اخذتها القوازين السلطانية لتبرأ ومنها .  
فاعلم العقيقي الدمشقيين بالخبر . فغيروا على سيف الدولة . وكتبوا كافرأ يستقدمونه  
اليهم فجاء واخرج سيف الدولة منها .

وكانت بغداد في هذه الفترات تنازع دمشق الحضارة ونافسها في التجارة ونقف  
في طريق عمرانها اقتصاصاً من الامو بين الذين سيدوا حضارتها ورفعوا اعلام مجدها  
ففقرت وانحطت مدة طويلة .

فلما صارت شؤونها بيد الدولة الايوبية ورأسها السلطان صلاح الدين الشهير ارتفع  
منار حضارتها وتبسط عمرانها واتسع نطاق مجدها فأسست فيها المدارس الكبيرة  
والمستشفيات والملاجئ واختلف اليها العلماء والاطباء والصيدالة . حتى كان عدد مدارس  
القرآن الشريف سبعمائة والحديث ثمان مائة والشافعية سبعمائة وخمسين والخفية احدى  
وخمسين والحنابلة عشراً والمالكية اربعمائة والطبية ثلاثاً . وكان فيها البيمارستان النوري  
وصيدليته والبيمارستان القيمري . و بين تلك المدارس تسع استسما فاضلات النساء

من المدسكات والاميرات . ذلك فوق ما كان فيها من الربط والحوائق والزوايا والتكيا  
مما له بقايا دراسة واطلال عافية .

وتسببت فيها النور الفخمة والقصور الشائخة . وانشئت الخزائن الفاخرة بالكتب  
المخطوطة النادرة ولا سيما في المدارس المذكورة ونبع منها العلماء والشعراء والادباء  
والمؤلفون على اختلاف ازمانهم ومراتبهم .

واشتهر فيها ملوك وامراء رفعوا اعلام حضارتها بابنية منيعة . مثل الملك الظاهر  
والعادل ونكز والاشرف ومصطفى لالاباشا ومراد باشا وسنان باشا . فكانت دولة  
الماليك المصرين التي اولها الملك الظاهر يهرس البندقداري والجرالكمة الذين اولم  
الظاهر بقوق والتماين الذين اولم السلطان سليم وامراء القيرية كلهم يجمعون  
العمران .

ومن متأخري دولاء الامراء الحكام آل العظم الكرام فانهم ولعوا بالعمارة فشيّدوا  
القصور الباقية وعززوا المدارس وجمعوا خزائن الكتب فكان منهم بضعة عشر والياً  
في الخاء سورية ولا تزال آثارهم تحدث مجدهم الباقي مثل داراسعدباشا وبعض ابنتهم  
وكتب الخزانة الظاهرية المطرزة باسمائهم ووقفهم .

واشتهر بن الموشقيين من ارباب الصناعات الاخرى والحدق من ذاع اسمهم في  
النوارخ وحفظت آثار اعمالهم شاهدة على براعتهم ولا سيما في صناعة الساعات التي تفوقوا  
فيها ومن قدمائهم الذين ذكرهم ابن ابي اصيبعة في كتابه ( الحكماء ) مهذب الدين  
احمد بن الحاجب الموشقي فانه كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات  
عند الجامع . وكذلك نجر الدين الساعاتي الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي  
في دمشق . ومن ذكرهم غير ابن ابي اصيبعة علي بن عريف النحاسين الموشقي النحاس  
الذي ركب مواد انفجارية نسف بها الابراج الصليبية في حصار عكا .

ولقد انابت دمشق الحرائق والزلازل والفنق وغيرها من النكبات فمحت  
كثيراً من آثارها . ودفن معظم عمرائها القديم في الشوارع والبيوت فاذا ارى يداظهاره  
احتجج الى نسف الاماكن وتقويض الابنية لاستئثاره دفائن مجدها القديم ويكفيها  
انها كانت آية البناء الشرفي قائمة على اجمل طراز هندسي اشبه بمدينة تدمر الشهيرة

ايام عمرائها فكانت دمشق بفضية الشكل مستطيلة يحدق بها سور عظيم منيع و يحرقها من الشرق الى الغرب الزقاق المستقيم وهو السوق القائمة من باب الجابية الى الباب الشرقي وطولها نحو ميل وكان على جانبيها رواقان قائمان على الاعمدة الضخمة وبين الواحد والآخر نحو اثنتي عشرة ذراعاً في الرواقين تسير المارة وسيفي الشارع العريض بين الرواقين تسير العجلات والحيوانات ولا تزال بعض هذه الاعمدة بين البيوت الى يومنا ومنها اثنان على جانبي باب جيرون (النوفرة) وعشرات حول الجامع ولا سيما في زقاق الباذرائية على يمين الداخل من باب النوفرة . ولما حفر اساس الثكنة في حي النصارى الممتد الى باب توما سنة ١٨٦٢ ظهرت آثار اعمدها . وكذلك شارع طويل تحت الارض من مأذنة السحيم الى الباب الشرقي باعمده وهندسته . وكان عند مأذنة السحيم ملعب روماني مدرج (امفتياتر) . وكان الجامع الاموي في قلب المدينة وحوله سور له اربعة ابواب معروفة بقي منها باب البريد في غربه و باب جبرين (النوفرة) في شرقيه . وهناك اعمدة ضخمة بدبعة . وكان للمدينة ثمانية ابواب في كل جهة ابان حتى قيل فيها :

دمشق في اوصافها جنة خلد زاهيه

اما ترك ابوابها قد جعلت ثمانية

وكانت سوق باب البريد اجمل اسواق المدينة عمر في وسطها مرادياتا قبة جميلة قائمة على اعمدة عظيمة عليها كتابات واشعار بالعربية والكوفية .  
 ووصف مؤلف (محاسن الشام) ابوالبقاء عبدالله البدرى ابواب المدينة بقوله :  
 وغالب هذه الابواب القديمة بنى عليها نورالدين الشهيد منابر على مساجد وجعل لكل باب باشورة كالسويقة بها حوانيت مملوءة بالبضائع فاذا حصنت المدينة وأُقلت الابواب ، يستغني اهل كل باب من هذه الابواب بما عندهم .

وامام السور في شرقي المدينة بين الباب الشرقي ومقام الشيخ ارسلان بيت (نعان السرياني) وهو مجذمة اليوم (مستشفى للجذام) وفي صدره اربعة ابواب ضخمة منحوتة بالحجارة وبنها قنطرة وفيه مجذومو المسلمين . والمروي في التوراة ان نعان هذا كان ابرص او مجذوماً فقصد ايليا النبي مستشفياً فقال له اغتسل بالاردن . فقال له :  
 عندي ابانة (بردي) وفر فر اي (الاعوج) ومعناه السريع وعاد الى بلده . وفي داخل

الباب الشرقي مجذمة ( قعاظلة ) المسيحيين ايضاً وهم المجذومون الذين تسميهم العامة بهذا الاسم ( مقعلط ) او ( مقلط ) وهي حظيرة المسبك الآن .  
وفي احياء المدينة آثار ابنية مثل الجامع المعلق قرب المناخية وكتابات كثيرة ولاسيما حول الجامع وفيه وعلى ابواب المدينة والمدارس والجوامع . واعمدة ومدافن للصالحين والمشاهير واضرحة للعلماء في الجهات ما عدا غربي المدينة فانه لم يدفن فيه صحابي .

ومن اهم ما فيها هندسة مياهها وتوزيعها على بيوتها واحيائها توزيعاً ذا اصول ضبط واثقان فتدور المياه باثنية وانايب نافذة من دار الى أخرى بنظام معلوم وعند آل الشطي في المدينة اصل قاعدة نضرب المياه وتقسيمها يعتمد عليه من يتولون اصلاحها والمياه منفرعة من سبعة انهر هي اقسام بردى النهر الكبير الذي يتخلل المدينة بفرعه .  
وفي هندسة ساعاتها القديمة ومزاولها وابوابها وتقوشها ما يشهد بعمرائها . وقد وصف بعض المؤرخين ساعة من ساعاتها عليها عصفير من نحاس ووجه حية من نحاس وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصفير ونعب الغراب وسقطت حصاة . وباب الساعات من ابواب الجامع يسمى اليوم باب الزيادة .

وسور المدينة ضخم تظهر بقاياها في بعض ارباض المدينة وحوله خندق عميق للحصار فضلاً عن ابراجها وقلعتها وآثارها ومرصده الفلكي على جبل قاسيون الذي اشار ابن النقطي في تاريخ الحكماء الى الرصد فيه . ثم اتخذ منارة للتخاطب بالنار . ودار العدل التي شيدها نور الدين الشهيد للنظر في ظلم عماله للرعية وكان يجلس فيه لاستئذان المظالم والتكوي وهي الآن قصر المشيرية . وكذلك دار السعادة بجوار القلعة وغيرها . ولقد نقلت الدول التي توالت عليها كثيراً من آثارها وطرانقها ومكاتبها فجمعت تلك البقايا اليوم في متحف هذه المدرسة المعروفة بالعادلية وفي المكتبة الظاهرية ازاءها . وفي اوائل القرن العاشر للهجرة احترقت سوق باب البريد وابواب الجامع الكبير كذكر النجم الغزي في الكواكب السائرة وتوالى الحريق مراراً قبل ذلك الوقت وبعده .

وضربت دمشق ضربات كثيرة منها المظالم التي اجتاحتها سنة ٤٦١هـ ( ١٠٦٨ م ) بزمن ولاية الامير حصن الدولة الكتامي فجلد السكان عنها واقفرت وختل الغوطة من

فلاحيها فلما حكم صلاح الدين ونور الدين ابطالا المكوس والمظالم وخففها عن عائق السكان  
فجدد عمرانها بعودتهم اليها .

اما عمرانها فانها اشتملت على غوطة عدت من منزهات الدنيا الاربعة فكان عدد بسايتها  
في القرن الثامن مائة وواحد وعشرين الف بستان كاذ كشيخ الربوة في كتابه (نخبة الدهر)  
على انها لا تتجاوز اليوم الالفين عدداً . وهي التي وصفها المأمون العباسي بقوله : انها خير  
مغنى على وجه الارض . وفيها المياه الغزيرة والسهول السميحة والخصب الطبيعي فخبذا  
لو اشترك . معه الخصب الصناعي .

ولقد كان خراج دمشق على عهد معاوية اربعمائة الف وخمسين الف دينار . وكان اربناح  
دمشق سنة ٥٢٠ هـ ( ٨١٩ م ) ثلاث مائة الف وستين الف دينار . وفي زمن المأمون كان  
خراجها اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار .

فلهذا كانت المظالم والتضييق على الفلاحين من اسباب تأخر زراعتها . واعراض  
الوطنيين عن معاضدة صناعاتها وحصرها باسر معلومة انقرضت او اهملتها من اهم الضربات  
في تأخر الصناعة ومنافسة المدن والثغور لها بالنحطاط تجارتها . ومعلوم ان التجارة تقوم  
بجحاحها الدين هما الزراعة والصناعة فصارت مهبضة الجناح متأخرة .

ولعلنا نتسابق الى رفع شأن اسباب العمران فنعيد الى هذه المدينة القديمة مجددا  
او شيئاً منه بمعاوضة رجال الدولة المندبة والحكومة الوطنية وارباب النهضة استعادة  
ليجاحها الغابر وتوطيداً للمدينة الحديثة فيها والله ولي التوفيق بمنه وكرمه .

عيسى بكندر  
المدرّس

## أَحِيحَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ (١)

دُعِيَتْ أَيْهَا السَّادَةُ لِاسْتِمَاعِ مَحَاضِرَةٍ فِي مَوْضِعٍ تَارِيخِيٍّ أَدْبِيٍّ . وَسَيَكُونُ الْمُنُورُ الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِ هَذَا الْمَوْضِعُ رَجُلًا مِنْ عِظَمَاءِ عَرَبِ الْجَاهِلِيَةِ اسْمُهُ (أَحِيحَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ) .  
وَإِذَا كُنْتُمْ أَيْهَا الْإِخْوَانُ لَمْ تَسْتَعِذُوا بِهَذَا الْاسْمِ فَانِي أَرْجُو أَنْ تَسْتَعِذُوا بِالسَّمِيِّ .  
وَيُحِبُّكُمْ مَا أَقْصَاهُ عَلَيْكُمْ مِنْ إِخْبَارِهِ . وَمُخْتَلَفِ أَطْوَارِهِ .

نَحْنُ بِصِفَةِ كَوْنِنَا عَرَبِيًّا . وَلَنَا حِرْصٌ عَلَى لُغْنَتِنَا وَأَدَابِنَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَنْصَفَّحَ أَشْعَارَ عَرَبِ الْجَاهِلِيَةِ وَمَا يُوَثِّرُ عَنْهُمْ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَمْثَالِ . وَبِذَلِكَ نَفْقَهُ أَسْرَارَ لُغْنَتِنَا وَأَدَابِنَا—  
وَبِصِفَةِ كَوْنِنَا مُسْلِمِينَ يُجِبُّ أَنْ نَدْرُسَ إِخْبَارَ الْعَرَبِ التَّارِيخِيَّةِ ، وَاحْوَالَهُمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ .  
لِنَعْرِفَ مَاذَا سَمَّخَ الْإِسْلَامُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ . وَمَاذَا أَبْقَى وَقَوَّرَ . وَفِي الْكَلَامِ عَلَى (أَحِيحَةَ) :  
يَكُونُ أَنْ نَسْتَفْرَجَ فَوَائِدَ مِنْ كِلْتَا الْوَجْهَتَيْنِ : الْوَجْهَةِ اللَّغْوِيَّةِ الْإِدْبِيَّةِ ، وَالْوَجْهَةِ التَّارِيخِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ . وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ يُعْطِينَا صُورَةً لِلنَّوَابِغِ الَّذِينَ كَانُوا فِي وَسْعِ ذَلِكَ الْمَحِيطِ الْعَرَبِيِّ الْجَاهِلِيِّ أَنْ يُبْرِزَهُمُ لِلْوُجُودِ .

إِنَّكُمْ سَتَعَلِّمُونَ مِنْ تَرْجَمَةِ هَذَا الرَّجُلِ الْعَرَبِيِّ— أَنْ فِي تَارِيخِ عَرَبِ الْجَاهِلِيَةِ رَجُلًا كَثِيرِينَ ذَوِي أَعْمَالٍ عَظِيمَةٍ وَهَمِّ عَالِيَةٍ كَانُوا جَابِغِينَ أَنْ يَكُونُوا مَشْهُورِينَ بَيْنَنَا . لَكِنْهُمْ لَمْ يُرْزَقُوا السَّعَادَةَ فِي السَّهْرَةِ كَمَا رُزِقَ غَيْرُهُمْ .

يَنْبَغِي أَنْ لَانْقَلَتْ شَهْرَةٌ أُحِيحَةُ عَنْ شَهْرَةِ أَصْحَابِ الْمَعْلَقَاتِ الَّذِينَ تَوَصَّلُوا بِالشَّعْرِ وَخِيَالِهِ إِلَى تَدَاوُلِ إِخْبَارِهِمْ فَاسْتَبْرَأُوا . أَمَا أُحِيحَةُ فَاتَّكَلَّ عَلَى التَّارِيخِ فِي نَقْلِ خَبْرِهِ . وَكَثِيرًا مَا يُبْطِئُ فِي التَّارِيخِ أَوْ يُقْصِّرُ فِي النَّقْلِ . وَإِنْ نَسَبَهُ التَّارِيخُ إِلَى الشَّعْرِ فِي نَقْلِ الْإِخْبَارِ . كَنَسَبِهِ الْأَبْلَ إِلَى الْكَهْرِبَاءِ وَالْبِخَارِ . وَقَدْ مَدَّتِ الْإِسْمَاعُ تَرْدِيدَ ذِكْرِ أَشْخَاصٍ مِنْ رِجَالِ الْجَاهِلِيَةِ كَأَصْحَابِ الْمَعْلَقَاتِ وَقَسِّ بْنِ سَاعِدَةَ وَحَاتِمِ طِيِّ وَالنَّمَانِ ، أَمَا مِثْلُ

(١) مَحَاضِرَةُ الْأَسْتَاذِ (الْمَغْرِبِيِّ) الَّتِي قَامَهَا فِي رَدْهَةِ الْمَجْمَعِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فِي ١٠ تَشْرِينِ

(أحيحة) فاف اخباره لم تزل كعدن ماس ، لم يمسه ماس . ولم يُضرب فيه بفاس .

\*\*\*

### (موطن احيحة ونسبه)

موطن أحيحة مدينة ( يثرب ) في الحجاز ، وهي التي هاجر اليها نبينا محمد (صلم) وعُرفت بعد ذلك بالمدينة المنورة وكان سكانها الاقدمون عمالقة أرسل اليهم موسى (ص) على ما قاله مؤرخو العرب جيشاً وأمرهم ان لا يستبقوا احداً ممن بلغ الحلم الا من دخل في اليهودية . فقاتلهم وقتلهم كلهم . لكنهم ابقوا على ابن ملكهم وكان شاباً من اجمل الناس ، فعادوا به اسيراً . وكان موسى قد قُبض قبل قدومهم ، فقال لهم خليفته يوشع من هذا الفتى ؟ فأخبروه خبره فقال لهم : ان هذه معصية ارجعوا عن ارض الميعاد . فرأوا ان يرجعوا الى البلد الذي فتحوه فعادوا اليه وأوطنوه .

ثم لما حدثت في اليمن حادثة سيل العرم وجلا عنها سكانها الى شمال جزيرة العرب كان فيمن جلا بطون من قبيلة الأزد اليمانية وهم الاوس والخزرج فأموا يثرب ونزلوا فيها ، فقاومهم اليهود في أول الامر . فاستنصر الأوس والخزرج اليمانيين اخوانهم الذين نزحوا معهم الى الشمال . فاعانواهم عليهم ، واصبحت لهم العزة في يثرب لكنه وقع الشقاق اخيراً بين الحبين : الأوس والخزرج ، وما زالوا في حروب وكروب حتى آلف الاسلام بينهم ، وامن القرآن بذلك عليهم .

وكان (أحيحة ابن الجلاح) سيد قومه الأوس ، ولم يُعرف الزمن الذي عاش فيه لكنه كان قبل البعثة بنحو سبعين سنة على الاقل كما سيأتي بيانه . اما اسمه (أحيحة) فهو تصغير (أحة) بمعنى حرارة الغيظ التي يجدها الانسان في صدره . وقد قال ابن دريد في كتابه (الاشنقاق) انه تصغير (أحاح) وعلى هذا ينبغي ان يلفظ (أحيحة) بتشديد الياء . وليس كذلك اذ المشهور في اسمه التخفيف ولاسيما أنه ورد اسمه في الشعر مخففاً كما سيأتي في مدح خالد بن جعفر له . والأح ايضاً مصدر (أح) اذا سعل . ولعل من قال (فح) اي سعل توهم ان همزة (أح) محولة عن (قاف) كما يفعل في لغتنا العامية

مذُتْحوْل القافاَت الِى هَمَزاتٍ . او ان ( فح ) مأخوذة من ( قَعَبَ ) بمعنى سَعَلَ . ومن هنا سُميت القحبة قحبة .

اما ابوه ( الجُلاح ) فهو من الجَدَح ومعناه انحسار الشعر عن مقدّم الرأس ويحتمل ان يكون من الجُلاح بمعنى السيل الجراف وهو الذي يجرف كل شيء بصادفه أمامه .

كان أحيحة زاداً وعقل ، كما كان ذا جدّة وعمل . وقد توصّل باخلاقه هذه الى أن أصبح من نوابغ رجال ذلك العصر : فكان رجل حربٍ وكيدٍ . رجل أدبٍ وشعرا ، رجل مالٍ وانصافٍ ، رجل تنظيمٍ وعمران . ونعني بالعمران الذي يستطيعه بلاد الحجاز في ذلك العهد .

\* \* \*

### ( أحيحةُ رجل حربٍ وكيد )

روى مؤرخوا العرب ان ( تبعاً ) الاخير ملك اليمن واسمه ( ابو كرب بن حسان ) مرّ بيثرب فاصداً الشام والعراق فخذف فيها ابنا له ، ثم بلغه ان اهل يثرب قتلوا ابنه ، فكرّ راجعاً اليهم . مجعاً على استئصالهم . فنزل خارج المدينة في سفح أحد . ودعا اليه أنثرافها من الأوس والخزرج ، فقالوا فيما بينهم انه يريد أن يذكنا على اهل يثرب . أما أحيحة فقال لهم : والله ما دعاكم لخير . فذهب الأشراف اليه واستصحب أحيحة معه خباءً وخمراً وقينة له تسمى ( مليكة ) فضرب الخباء وترك فيه خمرة ومليكة . ثم استأذن على تبع فاذن له . واجلسه معه على زريده ( بساط منقوش بالالوان جمع زرايى ) وجعل يحادثه ويسأله عن امواله بالمدينة . فأخذ أحيحة يخبره عنها . وتبع يقول له : « كلّ ذلك على هذه الزريّة » ففهم أحيحة من قوله هذا أنه يريد قتله فنرج من عنده الى خبائه وقينته . فنظّم لها قصيدةً وداعيةً . وجعل يشرب وهي تفتيه بها . ومن هذه القصيدة قوله :

( يشتا قلمي الى مليكة لو أمست قريباً من يطالها )

( ما أحسن الجيد من مليكة واللبات إذ زانها ترائها )

( باليتني ليلةً اذا جمع النا س ونام الكلاب—صاحبها )  
 ( في ليلة لا يُرْسَى بها أحد يسعى علينا—الاكواكها )

وهذه الايات مما كانت تُغْنِي به القينات في عهد الخلفاء . ولما نام حرس الملك  
 أزمع أحيحةُ الهرب . وعلم قينته مليكة ما تقول لتبع اذا سأها عنه ، ثم انطلق الى  
 حصنه واستعد للدفاع . وبعد أن قتل تبع الاشراف الذين دعاهم اليه أرسل حراًسه  
 في طلب أحيحة ، فلم يأتوا به . وانما اتوا بمليكة . فاخبرته ان سيدها التجأ الى حصنه ،  
 وانه يقول له : « اغدُرْ بقينة اودع » وقد ذهبت كلمته هذه مثلاً في كثير من كتاباته  
 الاخرى . يخاف الملك السبيّة والعار بقتلها فتركها وأرسل كتبة من خيله الى أحيحة  
 لخاصروه ثلاثة أيام كان يرميهم فيها بالنبل والحجارة نهاراً . وبالتمر والزاد ليلاً ، فرجعوا  
 الى الملك وقالوا نحن ما فهمنا معنى هذه الحرب التي يقاتلنا فيها هذا الرجل نهاراً . وضيفنا  
 ليلاً . فامرهم بالكف عنه . واكتفى بتحريق نخله ، وبقي الملك يقاتل عرب المدينة  
 ويهودها اياماً ثم رحل عنها اخيراً عملاً بنصيحة حزين من اليهود أخبراه انها ستكون  
 مهاجر نبيّ يظهر في آخر الزمان . وذهب الى مكة فكسا الكعبة الرود الياينة عملاً  
 باشارة الحزين ايضاً اللذين اخذهما معه الى اليمن . وتهود هو وقومه . ويقال ان  
 هذا هو اصل دخول اليهودية في اليمن .

هذه خلاصة ما رواه مؤرخو العرب عن تبع وحر به في الحجاز . وكيف تخاص  
 أحيحة منه بدعائه وشجاعته . ومن ثم كان قومه يشهدون له بانه اداهم رجلاً .  
 وكانوا يزعمون ان له تابعاً من الجن يعدّحه الخبر ، وذلك لما رأوا من ذكائه وكثرة  
 صوابه . وعمري ليس تابعه سوى عقله ودعائه . والعرب ان كانوا يقولون أن مع من  
 نبغ من رجالهم جنياً فان الافرنج يسمون الفراسة والذكاء والناطقة المنفوق من رجالهم—  
 « جيني Génie » ألا ترون ان بين السككتين او بين التسميتين نسباً واضحاً . واتصلاً  
 ظاهراً ؟ والعرب ايضاً يسمون الذكي الذي يكتر صوابه و يصدق حدسه ( المعياً )  
 وقد قال شاعرهم :

( الالمعي : الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا )

و يسمون الذي يفوق غيره ولا يعلوه شيء — عبقرياً . فيحسن بنا اذاً ان نعرّب

كلمة ( جيني ) الفرنسية بكلمة ( الالمعي ) لقرينها منها أو ( العبقري ) . هذا اذا لم تعجبنا  
كلمة ( نابغة ) .

مامر من حرب أحيحة مع تبع هو من قبيل الحروب الخارجية . أما حروبه الداخلية  
فهي حربه مع بني عمه الخزرج وكيف فهرته السيدة سلمى الخزرجية جدة النبي (صلم) :  
قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ الْأَوْسِ قَوْمَ أُحِيحَةَ رَجُلًا خَزْرَجِيًّا مِنْ بَنِي النَّجَارِ قَوْمِ سَلْمَى  
زَوْجَتِهِ فَتَشَبَّتِ الْحَرْبُ مِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ بَيْنَ الْحَبَشِيِّينَ . وَكَانَ أُحِيحَةَ قَائِدَ قَوْمِهِ فَعَزَمَ عَلَى  
تَبَيُّتِ الْخَزْرَجِ ، وَأَخَذَهُمْ عَلَى غِرَّةٍ . فَشَعَرَتْ بِذَلِكَ زَوْجَتُهُ سَلْمَى بِنْتُ عَمْرِو الْخَزْرَجِيَّةِ  
النَّجَارِيَّةِ . وَكَانَتْ امْرَأَةً شَرِيفَةً لَانْتِخَالَجَ الرِّجَالُ الْأَوْمَرُهَا بِبَدْهَا : إِذَا كَرِهَتْ مِنْ رَجُلٍ شَيْئًا  
تَرَكْتَهُ . فَدَبَّرَتْ حِيلَةً أَنْقَذَتْ بِهَا قَوْمَهَا مِنْ كَيْدِ أُحِيحَةَ : وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ  
الَّتِي أَرْمَعُ فِيهَا زَوْجَهَا تَبَيَّتَ الْخَزْرَجُ قَوْمًا بِطَّتْ ابْنَهَا عَمْرًا مِنْ ذَبْذَبِهِ بِحَيْطٍ . وَكَانَ  
فَطِيماً حَتَّى إِذَا أَوْجَعَتْهُ تَرَكْتَهُ فَبَاتَ يَبْكِي ، وَبَاتَ أَبُوهُ مُؤَرِّقًا يَنْقَلِبُ فِي فِرَاشِهِ . وَيَقُولُ :  
« وَيْحَكَ يَا سَلْمَى ! مَا لِعَمْرٍو لَا يَنَامُ » فَتَقُولُ « مَا أَدْرِي وَاللَّهِ ! » حَتَّى إِذَا ذَهَبَ اللَّيْلُ  
حَلَّتِ الْحَيْطُ عَنْ ابْنِهَا . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكِدْ يَنَامُ زَوْجَهَا حَتَّى صَرَخَتْ سَلْمَى : « وَارَأْسَاهُ » فَقَالَ  
أُحِيحَةَ : « سَرًّا مَا لَقِيتُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ » وَقَامَ إِلَيْهَا فَجَعَلَ يَعْصَبُ رَأْسَهَا وَيُدْلِكُ بِرَاحَتِهِ  
خَظِيرَهَا وَيَقُولُ : مَا بَكَ مِنْ بَأْسٍ . حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا أَقْلُهُ . قَالَتْ لَهُ قَمْ فَنَمْ ،  
فَأَنِي أَجِدُنِي مُسْتَرِيحَةً . وَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَتَّقَلَ رَأْسُهُ . وَيَشْتَدُّ نَوْمُهُ . فَلَمَّا اسْتَعْرَقَ  
فِي الْوَمِ أَحَدَتْ حَبْلًا مَتِينًا وَأَوْثَقَتْهُ بِرَأْسِ الْحِصْنِ ثُمَّ تَدَلَّتْ مِنْهُ إِلَى قَوْمِهَا . وَأَنْدَرْتَهُمْ  
بِالنَّبِيِّ أَجْمَعَ عَلَيْهِ أُحِيحَةَ وَقَوْمَهُ مِنْ تَبَيُّتِهِمْ . فَخَذِرُوا وَتَأَهَّبُوا . وَمَالَجَاهُمْ ( أُحِيحَةَ )  
لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَنَالَ مِنْهُمْ نَيْلًا . فَعَادَ خَائِبًا وَجَعَلَ يَقُولُ : ( آهَ لَكَ يَا سَلْمَى !! خَدَعْنِي حَتَّى  
بَلَغْتَ مَا أَرَدْتَ ) وَسَمَّا قَوْمَهَا مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمُتَدَلِّيَّةِ . وَلَا أُحِيحَةَ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ  
أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ كَانَتْ يَعْتَبَرُ فِيهَا عَلَى سَلْمَى . وَسَيَأْتِي بَعْضُهَا . ثُمَّ إِنَّ سَلْمَى لَمْ تَعُدْ إِلَى أُحِيحَةَ  
كَأَنَّهَا هُوَ شَرُّهَا فِي أَنْ تَخْتَارَ نَفْسَهَا مَتَى شَاءَتْ . وَبَعْدَ ذَلِكَ تَزَوَّجَتْ بِسَيِّدِ قُرَيْشٍ وَإِمَامِ  
الْبَطْحَاءِ ( هَامِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ) فَوُلِدَتْ لَهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ جَدُّ نَبِيِّنَا ( صَلَّمَ ) وَمِنْ هُنَا جَاءَ  
مَا تَرَوْنَهُ فِي كِتَابِ السَّيْرِ مِنْ أَنَّ أَبَا النَّبِيِّ عَبْدِ اللَّهِ مَاتَ فِي الْمَدِينَةِ عِنْدَ إِخْوَالِهِ بَنِي النَّجَارِ  
وَإِنَّ السَّيِّدَةَ أَمَّنَةَ كَانَتْ تَذْهَبُ بِهِ ( صَالِمًا ) وَهُوَ صَغِيرٌ إِلَى الْمَدِينَةِ فَتَرُورُهُ إِخْوَالَهُ بَنِي

النخار — يعنون بذلك احوال جده عبد المطلب من امه (سلي) هذه . واذا كانت سلي جدة عبد المطلب زوجة لأحيحة فيكون قد عاش أحيحة قبل البعثة بنحو سبعين سنة على اقل تقدير .

ومما له علاقة باخبار (أحيحة) الحربية تنافسه في اثناء النزوع واستكثاره من العتاد والسلاح : وقد ذكروا انه لما قتل خالد بن جعفر العامري زهير بن جذيمة سيد بني عبس عزم ابنه قيس على اخذ الثار وجاء المدينة لشراء السلاح والعتاد . فأخبر أن عند أحيحة من ذلك الشيء الكثير وان لديه درعاً لم يكن في يثرب درع تضاهيها فطلبها قيس منه فأبى وقال : كيف أعطيكها وخالد بن جعفر الذي يقول :

اذا ما اردت العز في آل يثرب	فناد بصوت بأحيحة فاسمع )
رأيت أبا عمرو (أحيحة) جاره	يبيت قري العين غير مروع )
(ومن يأتيه من خائف ينس خوفه	ومن يأتيه من جائع البطن يشبع )
فضائل كانت للجلاح قديمة	واكرم بنجر من خصالك الاربع )

\*\*\*

### (أحيحة رجل شعر وأدب)

مر في الكلام على أنه رجل حرب — شيء يدل على منزلته من الشعر والادب . من ذلك قطعته الادبية التي غنمه بها قينته مليكة واولها :

( ما احسن الجيد من مليكة واللابات اذ زانها ترائبها )

وان له كمات سارت في العرب مسيرا لامثال من ذلك قوله للملك حمير بلسان مليكة (أعذر بقينة أودع) . ومن كان مثل أحيحة في اعماله الحربية كما سمعت واعماله العمرانية والزراعية والاقتصادية كما ستمتع — لا يتيسر له ان ينظم الشعر الكثير . على انه ربما كان له شعر كثير لم ينقل الينا كغيره من محول شعراء الجاهلية :

فمن شعره قصيدته المذهبة الممدودة بين المذهبات في كتاب (جمرة اشعار العرب لابن زيد القرشي) وقد عد ابو زيد أحيحة في اصحاب المذهبات وقال انهم كلهم من اهل المدينة المنورة . ومطلعها :

(صحوتُ عن العبا والدمر غُول ونفسُ المرءِ آونةً قَنُول)  
 (ولو أني اشاءَ نَممتُ جالاً وباصكر في صَبوحِ لوشيل)  
 (ولاعبني على الانماطِ لُمسُ على أفواههن الزنجبيل)

ومنها :

(وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل ؟)  
 (وما تدري وإن ألتحت شولاً أتلقح بعد ذلك أم تحيل ؟)  
 (وما تدري وإن أنتجت سقباً لفغيرك أم يكون لك الفصيل ؟)  
 (وما تدري وإن أجمعت أماً بأي الأرض يدركك المقييل ؟)  
 وانشار في هذه القصيدة الى كيد زوجته سئى له واحتيافا عليه فقال :

(اذا ما بتُ أعصبا فباتت عليّ مكانها الحمى النسول)  
 (لعلّ عصاها يبغيك حرباً ويأتهم بعورتك الدليل)

واشار الى حصنه فقال :

(وقد أعدتُ للحدثان حصناً لو ابّ المرء نفعه العقول)  
 (طويل الرأس أبيض مشخراً بلوح كأنه سيفٌ صقيلُ)

\*\*\*

### « أُحِيحَة رجل عمران »

بقي علينا أن نتكلم على أُحِيحَة بصفة أنه رجلُ عمران . ونعني بالمران هنا القدر الذي يطيقه محيط يثرب في ذلك العهد . فلا يعترضن علينا معترض بانه لا يُسبى العمران عمراناً الا اذا كان مثل عمران لندره و باريز اليوم !! على انه لو كان أمثال أُحِيحَة في ذلك العهد كثيرين يسه و نسميه في الزراعة و جمع المال و انشاء القصور لكان للمدينة شأن غير شأنها المعروف .

( الأُطْم ) في لغة العرب بمعنى الحصن والقصر العظيم . و يُجمع على أطام . و تُكنى لهل يثرب قُبيّل الاسلام ببنون أطامهم بالجنادل والحجارة و يتخذونها أحيانا معاقل قلاعٍ دفاع . كما سمعت في خبر أُحِيحَة مع تتبع . وكانت هذه الأطام عن العرب

وَمَنَعَتَهُمْ وَحَصُونَهُمُ الَّتِي بُحْرَزُونَ بِهَا مِنْ عَدُوِّهِمْ . وَمِنْ أَشْهُرِ أَطَامِ الْعَرَبِ وَأَعْظَمِهَا شَأْنًا أَطْمَانٌ كَانَا لِأُحَيْحَةَ . أَحَدًا مِنْ بَنِي الْمَدِينَةِ وَسَمَاهُ ( الْمُسْتَظَلُّ ) وَهُوَ الَّذِي تَحْتَصِنُ فِيهِ حَبِيبٌ قَاتِلُ مَلِكِ الْبَيْنِ وَالْآخِرُ سَمَاهُ ( الْفُضْحِيَانُ ) وَقَدِ بَنَاهُ فِي مَزْرَعَةٍ لَهُ يُقَالُ لَهَا ( الْغَابَةِ ) وَهِيَ عَلَى بَعْدِ نَحْوِ فَرْسَخٍ مِنَ الْمَدِينَةِ . وَكَأَنَّ سَمَاهُ ( الْفُضْحِيَانُ ) لِأَنَّهُ ضَاحٍ بَارِزٌ لِلشَّمْسِ بِخِلَافِ ( الْمُسْتَظَلِّ ) فَقَدْ كَانَ مَبْنِيًّا فِي ظِلِّ الْمَدِينَةِ وَبَيْنَ بَيْتَيْهَا .

وَبَنِي ( أُحَيْحَةَ ) أَطْمُهُ ( الْفُضْحِيَانُ ) بِجِجَارَةٍ سُودَاءٍ ثُمَّ بَنَى فَوْقَهُ نَبْرَةَ نَبْضَاءٍ مِثْلَ الْفِضَّةِ . وَالنَّبْرَةُ كُلُّ شَيْءٍ مَرْتَفِعٍ . ثُمَّ جَعَلَ عَلَى هَذِهِ النَّبْرَةِ نَبْرَةً أُخْرَى مِثْلَهَا بِحَيْثُ يَرَاهَا الرَّابِكُ مِنْ مَسِيرَةِ يَوْمٍ أَوْ نَحْوِهِ قَالُوا : وَمَا شَيْدُ ( أُحَيْحَةَ ) أَطْمُهُ ( الْفُضْحِيَانُ ) عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ أَشْرَفَ مِنْ فَوْقِهِ وَمَعَهُ غُلَامٌ لَهُ وَقَالَ ( لَقَدْ بَنَيْتُ حَصْنًا حَاصِيًّا مَا بَنَى مِثْلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ أَمْنَعُ وَلَا أَكْرَمُ وَلَقَدْ عَرَفْتُ مَوْضِعَ حَبْرٍ مِنْهُ لَوْ نَزَعْتُ لَوْعَ الْمُحَنِّنِ جَمِيْعًا ) فَقَالَ الْغُلَامُ الْمَسْكِينُ أَنَا عَرَفْتُهُ بِأَمُولَائِي . وَأَشَارَ إِلَيْهِ . فَدَفَعَهُ ( أُحَيْحَةَ ) مِنْ رَأْسِ الْأَطْمِ فَوْقَ مَيْتَةٍ . وَأَمَّا قَتْلُهُ إِرَادَةً أَنْ لَا يَعْرِفَ سِرًّا ذَلِكَ الْحَبْرُ غَيْرَهُ . وَهَذَا مَا حَكِي عَنْ سَنَامِ الْمَعَارِ الَّذِي شَيْدَ الْخَوْرَنُقِ لِلنَّعْمَانِ وَجَعَلَ فِيهِ مِثْلَ ذَلِكَ الْحَبْرِ الَّذِي وَضَعَ فِي حِصْنِ ( أُحَيْحَةَ ) فَإِنَّ النَّعْمَانَ رَمَاهُ مِنْ فَوْقِ ذَلِكَ الْقَصْرِ فَمَاتَ لِثَلَاثَةِ يَوْمٍ يَنْكَشِفُ سِرُّ الْحَبْرِ . وَقَدْ ضُرِبَ الْمِثْلُ فَيُقَالُ ( جَزَاهُ جِزَاءَ سَنَامٍ )

وَكَانَ مِنْ عَادَةِ أُحَيْحَةَ أَنْ يَجْلِسَ فِي ظِلِّ أَطْمُهُ الْفُضْحِيَانِ . وَكَانَ فِي إِوْنَاتِ الْحَوْفِ يُرْسَلُ حِوَالِيهِ كَلَابًا لَهُ تَنْبِجُ دُونَهُ عَلَى مَنْ يَأْتِيهِ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ حَذْرًا مِنْ عَدُوِّهِ يَصِيبُ مِنْهُ غُرَّةٌ . وَقَدْ نَجَّحَتْ هَذِهِ الْكَلَابُ مَرَّةً مِنْ خِصْمِهِ ( عَاصِمِ ) الْخَزْرَجِيِّ : فَانْتَدَلَّ إِلَيْهِ لِيَلْبَسَ يَرِيدَ الْفَتْكَ بِهِ وَجَعَلَ يَرْمِي لِلْكَلَابِ تَمْرًا فَوَقَفَتْ سَاكِنَةً فَاحْسٌ ( أُحَيْحَةَ ) بِالشَّرِّ وَاسْرَعَ إِلَى حِصْنِهِ تَحْتِ وَابِلٍ مِنَ السَّهَامِ . وَهَكَذَا نَجَّاهُ مِنَ الْمَوْتِ الزُّوَامِ .

هَذِهِ عُنَايَةُ ( أُحَيْحَةَ ) بِتَشْيِيدِ الْإِبْنِيَّةِ أَمَّا عُنَايَتُهُ بِأَنْشَاءِ الْمَزَارِعِ وَالْبَسَاتِينِ فَعَظِيمَةٌ أَيْضًا : قَالُوا كَانَتْ لَهُ مَزْرَعَةٌ تُسَمَّى ( الزُّوْرَاءُ ) وَأُخْرَى اسْمُهَا ( الْغَابَةُ ) . وَكَانَ لَهُ فِي ( الْجُرُفِ ) وَهُوَ مَوْضِعٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ لِحِبَّةِ الشَّامِ أَصْوَارٌ مِنْ نَخْلِ قَلَّ يَوْمًا يَمْرُ بِهِ إِلَّا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ . وَالْأَصْوَارُ جَمْعُ صُورٍ وَهُوَ النَّخْلُ الصَّغِيرُ . وَمَعْنَى أَنَّهُ صَغِيرَانِ جِنْسِهِ

صغير . وانه فسيل<sup>١</sup> يُزرع ثم يُنقل من منبته الموقوت الى مغرسه الدائم ؟  
ومن شعر ( أحيحة ) في مزرعته ( الزوراء ) :

( كل النداء اذا ناديتُ يخذلني الاندائي اذا ناديت يامالي )

( اني أُقيم على الزوراء اعمرها ان الكريم على الاخوان ذوالمال )

( اسنغن اومت لا يغرك ذو تشب من ابن عم ولا عم ولاخال )

ولما زار الوليد بن عبد الملك المدينة سأل عن الزوراء هذه وانشدا لابيات . فدلوه عليها فقال : ( ان ابا عمرو يراه غيبا ) فغيب الناس من معرفة الوليد باخبار العرب حتى علم ان ( أحيحة ) يكنى ( ابا عمرو )

وكان لأحيحة في مزارعه تسع<sup>٢</sup> وتسعون بعيراً كلها ينضح عليها ي ينقل الماء على ظهورها الى مزارعه وبساتينه . والبعير الذي ينقل الماء يسمى ( ناضحاً ) ويسمى ايضاً ( سانية ) ومنه ( سير السواني سفر لا ينقطع ) . ولم يقنصر أحيحة في الزراعة على غرس النخيل وإنشاء البساتين بل كانت له حقول يزرع فيها الخنطة بكثرة بدليل قوله :  
( قد كنت اغنى الناس شخصاً واحداً ورد المدينة عن زراعة قوم )

ومراد به القوم الخنطة وهي لغة للعرب قديمة أو هي لغة بني هاشم وحكوا قولهم ( قوم موالنا ) اي اجتبزوا لنا خبز خنطة . ولا يمكن ان يريد ( أحيحة ) بالقوم الثوم الذي هو معناه ايضاً ، لان الثوم لا تزرع منه مقادير كبيرة<sup>٣</sup> نغني صاحبها لعدم حاجة الناس اليها . بخلاف الخنطة فان الناس يحتاجون اليها . فيكثر ارباب الزراعة من زراعتها وقوله تعالى عن بني اسرائيل ( واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما نبتت الارض من بقاياها وقتائها وقومها وعدسها وبصلها ) اخلفوا في المراد بالقوم هل هو الثوم او الخنطة ؟ فذهب ابن عباس الى انه الخنطة وان العرب تعرفه بهذا المعنى بدليل قول أحيحة « قد كنت اغنى الناس الخ ولا يعترض على هذا بانه قرئ في الآية ( وثومها ) بالثاء مكان ( قومها ) بالفاء لانا نقول ان الثاء فيها مقلوبة عن الفاء كما قلبت في ( مغافير ) و ( جدف ) فيقال فيها ( مغافير ) و ( جدث ) . تم يقال من جهة ثانية ان القوم<sup>٤</sup> قرن في الذكر بالعدس . فيكون ضرباً من القطاني يعني الحبوب . ولم يقرن بالبصل حتى يكون اخاه الثوم .

## ( أُحَيْجَةُ رَجُلٌ مَالٌ )

قالوا : كان ( أُحَيْجَةُ ) رجلاً صعيماً للمال . شحيحاً عليه . ومعنى قولهم صعيماً انه حاذق بجمعهم ، حر يص على ثمنيته وتكثيره . اذ يقال فلان صنيع اليدين وصناع اليدين يعنون انه حاذق . اما قولهم ( انه كان شحيحاً ) فلم يريدوا انه بخيل لا يجود بالمال . كيف وقد تقدم في خبره مع ( تبع ) انه كان يحارب عسكره في النهار . و يضيفهم بالتمر في الليل : و صر أيضاً قول خالد بن جعفر فيه : ( ومن يأتيه من جائع البطن يشبع ) . فلا جرم ان يكون المراد بكونه شحيحاً على المال انه حر يص عليه فلا يدع شيئاً منه يذهب سدى من دون ان يستثمره و ينفع به . وهذا هو الاقتصاد او التدبير المنزلي . بعينه . و يروى انه دخل جائطاً له فراى تمرة ساقطة فتناولها فعوتب في ذلك فقال : ( التمرة الى التمرة تمر فذهب قوله مثلاً يُضرب في استصلاح المال .

ومما قالوه عن « أُحَيْجَةُ » انه كان يتبع بيع الربا في المدينة حتى كاد يُحيط باموال أهلها . اي انه كاد يستولي على اموالهم بتواتر الفائدة وفائدة الفائدة . ومن هذا تعرفون مقدرة الرجل ومهارته في كسب المال والاحتيال على جمعه . ومثله في ذلك كثير من سادات العرب واثرافهم في المدينة ومكة قبيل البعثة : فقد اكثر من الربا حتى كاد الفقهاء يهلكون . ولم يكن احد يقرض الفقراء قرصاً حسناً لوجه الله . بل كانوا اذا طلبوا قرصاً من غني طلب منهم الفائدة بطريقة الربا . وكانوا اذا حل الاجل وعجزوا عن الاداء يقول المرابون لهم : نؤخر لديمك المال وز يدونا في فائدته . فما كانت تمضي سنون حتى يهيم هؤلاء المساكين عن الاداء فيضع المرابون الاغنياء يدم على عقارهم واموالهم و يستصفونها لانفسهم . حالة مزعجة مخزبة للعرمان . مقوضة لراحة بني الانسان . جاء الاسلام فانكرها على ذريها . ونهى عليهم فعلهم وقسوتهم . وحضهم على الرفق بالفقراء ورحمتهم . وان يُقرضهم القرض الحسن . و بذلك يعادل الميزان . وتهدأ الاحقاد والاضغان .

فالربا في الجاهلية كان مداره انظار الغني طروداً حاجة على الفقير وثروب ضائقه المالية . حتى اذا سئحت له الفرصة اسنغل هذه الحاجة والفقير من دون رحمة ولا شفقة .

ومن العبايب ان يكون الفقر مصدر الغني : فتميز بحتاج فيقصد غنياً يشكو له اوليسنقرض منه فيتميز الغني الفرصة فيدينه بالربا ثم يحل به كل سنة الى ان يُترب ولا يبقى عنده شيء . فما أعدل الاسلام وما أرحمه من حرم الربا . واتقذ هؤلاء المساكين . من برائن اولئك البغاة الظالمين .

ها أيتها السادة نختم القول عن حياة ( أحيمة بن الجلاح ) الذي تبين لكم بحق انه رحل حرب وشعر ومال وعمران في آن واحد .

ومها سمحت لكم ايها السادة ان ننسوا شيئاً من محاضرتي لا أسمح لكم أن ننسوا ( سلى الحزرجية ) التي تدات من شرفات الحصن الشانخ . وخاطرت بنفسها زاهدة في زوجها وابنها والثروة التي كانت تعيش في ظلها . كل ذلك من اجل سلامة قومها . ونفضيل مصلحتهم على مصلحتها . فعليكم ان نقننوا بها في حب وطنكم . لاسيما انها ليست عربية عنكم . بل هي جدة نبيكم .  
( المغربي )



# كيف تحقق الآثار التاريخ (١)؟

## جزئيات المحاضرة

التمهيد — ماهو علم الآثار — ماهي انواع الآثار — كيف قسم العلماء الآثار —  
ما فائدة الآثار — ما علاقة الآثار بالعلوم — هل عرف العرب التماثيل والصور —  
كيف جمعت الآثار — ماهي قيمة الآثار — كيف تحقق الآثار التاريخ — الختام

## تمهيد

تصفُ الدارُ لنا قُطائِها والمعالي والمساوي والنجارا  
واذا لم تدر ما قومُ مضوا فاسأل الآثار راسنِبِ الديارا  
لله در الشريف الرضي في قوله هذا منذ قرون اذ اهاب بالناس ان يقتبسوا  
تاريخ اسلافهم من آثارهم واطلالهم . كما فعل كثير من الشعراء والعلماء والمؤرخين  
والاثر بين من شرقيين وغربيين في الحث على حفظ الآثار . فهل من منكرِ اذن  
فأندتها في تاريخ الامم والممالك والبلدان ؟

وهل يسوغ لنا ان نهمل آثارنا مطروحة في الحقول والبراري والانقاض ليحطمها  
الجبلة . او نقلها غيرنا الى متاحفهم ويستفيدوا منها علماً وعملاً ؟  
وهل يجوز ان نبيعها لغيرنا طمعاً في كسب دراهم تافهة ليزينوهم متاحفهم متجربين  
بها وراغبين اموالاً طائلة ونخسر نحن فوائدها التاريخية ؟

وهل يعد كافتنا بجمع الآثار واحرازها بدعة كما يتوهم بعضهم وتلك آثار مصر  
والمغرب والقدس والاناضول والآستانة تملأ المتاحف وكلهم من جنسنا الشرقي ؟

---

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف في ردهة المجمع

الكبرى يوم الجمعة في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٢٢ الساعة الرابعة مساءً .

وهل يبرّنا التاريخ من هذا التقصير وقد مرّ علينا الدهر باحقابه المتطاولة ونحن مهملون هذا الأمر الخطير ؟

وهل يصحّ لنا تاريخ او يعرف لنا شأن او تذكر لنا حضارة اذا لم تؤيد آثارنا اقوال كتابنا عنها ؟

وهل تبقى سوريا المحبوبة بلا متحف يجمع عاداتها ويسندم اليها السياح والمترجمين وفيها من آثار المدنية ما فيها ؟

وهل ٠٠٠؟ وهل ٠٠٠؟

لا لعمرى لا يسوغ لنا شيء من ذلك لان الآثار تحقق التاريخ وثبت ما كان صحيحاً منه ونقض المكذوب فيه .

### ما هو علم الآثار ؟

الآثار لغة ما بقي من رسم الشيء . والرسم هو اثر الدار ونحوها من الأعيان المتخلفة . فيكون الأثر ما بقي بعد الداهيين . واصطلاحاً هو ما تدرك به شئ من الامم البائدة او القديمة اما من ابيّة سيدها او صناعات انقوتها او تماثيل نحتوها او كتابات نقشوها او نقود صكوها او اختراعات ابتكروها او علوم دونوها او فنون اهدتوا اليها او كتب خطوها ونحو ذلك .

فيدخل تحت الابنية المدن والهياكل والصروح والمدافن . وتحت الصناعات التماثيل والنقوش والاواني والاسلحة . وتحت الكتابات ما على الصخور والغضار ( الأجر ) والصفائح المعدنية او العظمية او الرديّة او الرقبة من الانباء . وتحت النقود ما عرف من انواعها وصورها واجناس معادنها وطرق صكها واساليب طرازها . وتحت الاختراعات ما عرفه من آلات وادوات ونحوها . وتحت العلوم ما دون على الغضار والبردي وفي الكتب من معارف الدارجين . وتحت الفنون ما عرفوا من التصوير والموسيقى ونحوهما . وتحت الكتب ما تركوا لنا من المخطوطات على اختلاف انواعها واساليبها ومباحثها سواء كانت بسيطة الخط او جميلته منقنة التجليد او مهملته .

فعاية علم الآثار اذن معرفة آداب من تقدمنا واستطلاع اخلاقهم وعاداتهم

وصناعاتهم واديانهم وخرافاتهم ومعارفهم . وبالجملة كل ما يعزى اليهم و يتعلق بهم مما يغط النقاب عن الحقائق الغامضة و يبدد غيوم الاوهام والخلط في المباحث التاريخية التي هي صورة الانسان المعنوية فلا يسوغ ان تشوه او تحسن بل يجب ان نقل كما هي لا كما يجب ان تكون . مثلاً ينقل المصور الشمسي صورة الانسان الحي فيمثله . بملاحظته الطبيعية ومميزاته الخلقية حتى لا يشك من براه انه هو هو بعينه وميخصاته والآ ضاعت الاصول وفسدت الحقائق والتبست الاعيان .

فالأ آثار انما هي السنة قوم قد مضوا تصرح بحروف غير مكتوبة احيانا عن عمرانهم وذكائهم وصناعاتهم وما كانوا عليه من بسطة العيش او سطقه والهمران او الانحطاط الى غير ذلك من التطورات .

فلنا بالأ آثار عبر لتقدي بن احسن العمل ونعرض عن اسائه ونسفيد من المجتهدين والمتدنين حضارة نضمها الى ما عندنا ونرأ بانفسنا عن الكسل والاهمال لانهما آفة البشر وعامل التأخر .

وسمي العالم بالأ آثار ( أثرياً ) . وعرف علم الآثار عند الافرنج باسم (Archéologie) اركيولوجي وهي كلمة يونانية مركبة من لفظتين ( أر شيو ) اي الآثار و ( لوجيا ) اي الكلام فالمعنى ( البحث عن الآثار ) ومنها استنقت بقية الصيغ .

اما كلمة ( Antiquité ) اي انتيقيته فهي لاتينية بمعنى شيء قديم فلذلك وضع لها المرحوم الشيخ سعيد الشرتوني كلمة العادي والجمع العاديات نسبة الى قبيلة عاد العربية المنقرضة لانها آثار المنقرضين . وقد سقوا منها الفاظاً في اصطلاحاتهم للتعبير عن هذه الاشياء . كما اخذنا نحن مستنقت مختلفة من تلك الأصول .

### ما هي انواع الآثار ؟

لاخفاء ان من الآثار ما هو معروف وموجود مثل ما اكتشف ويكتشف . وما هو معروف غير موجود كبقود مالوك الرعاة المصر بين المعروفين بالمكسوس . وكنقود

الفينيقيين وكتاب سنكلياتون اقدم مؤرخ مدني في العالم يعاصر موسى النبي . وكتابت العهد الاسرائيلي ونحو ذلك .

ومنها ما هو نادر الوجود كآثار ادوم وموآب وتقودهما وتقود تيطس قيصر النحاسية التي صكها في اورشليم تذكراً لانصاره يوم حاصرها ولم يقف الاثريون الا على بضع قطع منها في متاحف اوربة

ومنها ما هو كثير الوجود كتنقود الاسكندر وهذه اكتشف بعضها الدكتور جول روفيه الزرنسي وكنقود قسطنطين الملك وتقود الرومان والمومياء المصرية واشباهها .

### كيف قسم العلماء الآثار ؟

اقد قسم الاثريون علم العاديات الى قسمين ( احدهما بالنسبة الى القبائل واللغات القديمة ) ( الثاني ) بالنسبة الى الزمان . فمن ( اقسام الاول ) آثار المصريين والفينيقيين والآشوريين والبابليين والكلدانيين والفلسطينيين واليونانيين والرومانيين والعرب والصابيين والبنديقيين والعثمانيين . ومن ( اقسام الثاني ) اقدم العصور المعلومه مثل عصر الحليقة الى زمن موسى النبي في سنة ٢٥٠٠ ق م والعصور القديمة كالفينيقية والآشورية والمادية والعبرانية والهندية واليونانية والرومانية والعربية الجاهلية . والعصور المتوسطة كالقيصرية السريانية والمغولية والغوتية والعربية . وكالعصور المتأخرة كاصليبية والبنديقية والافرنجية والثمانية . وفي كل منها اجات . مستفيضة ونفصيل . افية في الكتب والمجلات والجرائد عند الافرنج .

### ما فائدة الآثار ؟

ان للآثار اليد الطولى في تصحيح التواريخ القديمة وتحيص الآراء المضطربة وكشف الحقائق الغامضة ومعرفة صناعات القدماء وشؤونهم .

فلولاها لما حققت كتابات قدماء المؤرخين مثل هيروdototس اليوناني وسنكلياتون الفينيقي وما نيثون المصري وبيروسوس الكلداني ويوسيفوس العبراني وسالسته الروماني وديودورس الصقلي وفيلون الجبيلي . والتوراة . والتواريخ الاخرى كما سترى .

### ما علامة الآثار بالعلوم ؟

ان البحث عن آثار الانسان القديمة قبل زمان التاريخ يسمى علم الاركيولوجية ويجمع بين الجيولوجية اي علم طبقات الارض وبين التاريخ . والبحث عن الصور والرموز الأثرية يسمى الايكونولوجية . والبحث عن التاريخ والابانارميا يسمى علم الاتروبولوجية اي علم طبائع البشر . والبحث عن الآثار الانسانية الكليونولوجية . وسرد الحوادث بحسب وقوعها الكرونولوجية . والبحث عن النقود وصكها التوميسماتيك . والبحث عن الاحافير وما فيها من الآثار علم البليونولوجية اي علم الرفات . والبحث عن خصائص الشعوب الايتنوغرافية . والبحث عن الديانات والعبادات علم الميتولوجية . وبحسب هذه العلوم والآثار قسمت اعصر التاريخ الى ثلاثة ( الاول ) وهو العصر الطري اي الحجري الصواني و ( الثاني ) النحاسي و ( الثالث ) الحديدي . وعرفت فلسفة التاريخ او التاريخ الفلسفي وهو ربط الاسباب بالنواميس العامة في البتروالطبيعة .

وفرع التاريخ بحسب الشؤون والابحاث والمواضيع الى فروع لا تحصى الان اسردها . ولكن التاريخ كيفما كان لاغنى له عن علم العاديات والاحافير لانها اركنه التي يعتمد عليها .

ومن احسن ما قيل في تأثير التاريخ على الانسان كلام الامام البخاري المؤرخ الشهير : « من حفظ التاريخ زاد عقله . ومن نظر في وقائع الزمان هانت عليه مصيبتة » . فالعلوم المساعدة للتاريخ اذن هي : علم الآثار . والكتابات الخبرية . والمخطوطات القديمة . وعلم الاوقات . والجغرافية . وانتقاد المصادر اي فلسفة التاريخ وغيرها .

### هل عرف العرب التماثيل والصور ؟

عندنا ادلة كثيرة على ان العرب عرفوا التماثيل في اليمن وغيرها ووضعوها في قصورهم من انسان وحيوان . واشتهر بها الفرس والاندلسيون وصوروا النقود ولا سيما في عهد السلاجقة وربما كان اقدمها ماصك سنة ٥٩٧هـ ( ١٢٠٠م ) وعليه صورة فارس ملقنة . وقد ذكر بول كازانوف : ان احد سياح العرب في آخر القرن التاسع للميلاد شاهد في الصين وغيرها صورة النبي محمد ( صلعم ) وكبار رجال الاسلام . وكان التصوير البيزنطي

شائعاً في الدولة الاموية ومنه الفيسفاء . وذكر المقرئزي: الصور الاسلامية بتطويل ولا سيما في زمن الفاطميين وعدد اسماء المصورين ومنهم احمد بن يوسف ومحمد بن محمد الملقب كل منهما بالمصور وابن خرج البلنسي سمي بالذهبي لان جده كتب وصور بالذهب . وذكر ان تجماع الدين بن ضياء صاحب السلطان بپرس قد حمل الى بركة امير المغول لما سار بسفارة اليه ثلاث صور صنع يده تمثل هياة الحج . ومن نقوشهم البديعة المخططات (الخارئات) ونقوش المرايا العربية وصور الافلاك والاسطرلابات وكتب مناسك الحج صوروا فيها الكعبة وغيرها وكذلك المعراج وميزان الشراني ودلائل الخيرات وفي مكتبتي بعضها وفي المكاتب كثير منها .

ومن الدواين العربية (ديوان الصباية للتلساني) رأى منه نسخة فيها صور ابناء الامراء الاستاذ العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري وفي مكتبة باريز (المقامات الحريية) أجنظ يحيى الواسطي سنة ٥٦٣٤هـ (١٢٣٦م) فيها صور بديعة يمثل بعضها جيش العباسيين يحملون العلم الاسود وينفخون بابواق فارسية ضخمة . وبعضها رعييل جمال امامها راع . وبعضها صور نساء ورجال امام قصر نفخ ورسم آخر يمثلهم تحت شجرة وعندى بعض امثاتها منقولة بالتصوير الشمسي عن كتاب الفنون العربية في المدرسة الشرقية في زحلة نشرت بعضها في مجلة الآثار في مقالة (التصوير في الكتب) ومقالة (المرايا عند العرب) والباقي معد للشمس .

وذكر ياقوت في معجم البلدان قصر المتوكل المسمى (المختار) كانت فيه صور بينها صورة بعة فيها رهبان واحسنها صورة شهر البعة حتى قال الواثق يصفها :  
ما رأينا كبهجة المختار لا ولا مثل صورة الشهار  
ووجدت تياب وطنافس قديمة عربية منقوشة عليها رسوم حيوانات وأدميين  
وبعضها قبل الاسلام .

وصوروا في قصورهم الجيوش المتحاربة ونحوها كما في لسان العرب موصوفة بقول شاعرهم :  
فيه الغواة مصورون فاجل منهم وراقص  
والفيل يرتكب الردا في عليه والاسد القصاص  
وقول ابي الصلت امية الاندلسي في وصف قصر (منازل العز) المصري :

و بارجائه مجال طراد ليس ننفك من وغى خيلاء  
تبصر الفارس المدجج فيه ليس تدمى من الطعان قناه  
وترى النابل المواصل للذرع - بعيداً من قرنه مرماه  
وصفوقاً من الوحوش وطير الجوكل مستحسن مرماه  
سكنات تحالها حركات واختلاف كأنه اشباه  
ومما يدل على تقوذهم المصورة قول البيهقي في نقود سيف الدولة المهدي عليه السلام:  
نحن بيجود الامير في حرم نرتع بين السعود والعم  
ابدع من هذه الدنانير لم يجر قديماً في خاطر الكرم  
فقد غدت باسمه وصورته في دهرنا عوذة من العدم  
وفي بعض المتاحف تماثيل من صنع ملوك الاسلام منها في بيزا بايطالية تماثيل بديع  
النقش من صنع الفاطميين في مصر .

وفي معجم البلدان ان اوس بن نعلبة التيمي صاحب قصر اوس في البصرة كان نادماً  
الى الشام فر بتدمر فاعجبته فيها تماثيلها وحرك قريحته تماثلاً جاريتين من حر فقال:  
فتاتي اهل تدمر خرابي الما تسأما طول القيام  
قيامكما على غير الحتايا على جبل اصم من الرخام  
فكم قد مر من عدد الليالي لعصر كما وعام بعد تام  
وانكما على مر الليالي لابقى من فروع ابني بشام  
الى آخر الابيات فلما انشدها يزيد بن معاوية بن ابي سفيان في هذه العاصمة قال:  
يزيد: « الله درُّ اهل العراق هاتان صورتان فيكم يا اهل الشام لم يذكرهما احد منكم  
فربها هذا العراقي مرة فقال ما قال » . ولقد وصفها ابو الحسن العجلي بقوله:

ارى بتدمر تماثيل زانها تأنق الصانع المستغرق الفطن  
هما اللتان يروق العين حسنها يستعطفان قلوب الخلق بالفتن  
وقال الجعفي في وصف صور ابوان كسرى في المدائن من قصيدة بدعية:  
فاذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس  
والمنايا موائل وانوشروان يزجي الصفوف تحت الدرفس

تصف العين انهم جد احيا ء لهم بينهم اشارة خرس  
 يغلي فيهم ارياني حتى نقرأهم يداسي بلس  
 ونال ابو عمران الكردى في شمال ابرويز ملك الفرس ممتطياً فرسه سبديز وقر به  
 حار يته شيرين بالوان بدبعة :

دهم نقرأوا سبديز بالصنر عبرة وراكبه برويز كالبدرد طالع  
 تلاحظه سيرين والحظ فاتن وتعطو بكف حسنتها الاتساع  
 يدوم على كرا الجديدين تنخسه ويأق قويم الجسم واللون ناصع  
 وقال شاعر اندلسي في شمال حجري كان في حمام السطارة في اسبيلية :

ودمية مرمر تزهو بحمد ثناهى فى التورد والبهاض  
 لما ولدت ولم تعرف حليلا ولا أملت باوجاع الخاض  
 ونعلها انها حمرى واكن تيمنا بالحاظ امراض

وقال التطلي الاعمى في اسد بين الماء من فيه في بركة :

اسد ولو انا قسه الحساب لقلت صخره  
 فكأنه اسد السما يمج من فيه الجره

ونال صاعد اللغوي في صورة حاربه في سفينة تجذف :

واعجب منها عادة في سفينة مكاله يهفو اليها المهاتف  
 اذا راعها موج من الماء نقي بسكنها ما اندرته العواصف  
 متى كانت السائر بان مركب تصرف في ينى يديها الجادف  
 ولم تر عيني في البلاد حديقه ننقلها في راحتين الوصائف

وحكى ابن خرداذبه عن فرس نحاس بارض الاندلس باسط يده كأنه يقول :

ليس خلفي مسلكت وقال : ان في مدينة طليطلة تصاور افراس مكتوب عليها : لاتفتح  
 هذه الارض حتى يأتيها قوم يشبهون هذه التصاوير . وكانت تلك التصاوير تمثل  
 العرب على خيولهم بعائمهم وقسيمهم .

ومن صور اعضاء الجسم ما في مجموعة طبية في مداواة العيون في المكتبة التيمورية  
 نسخت سنة ٥٩٢هـ (١١٩٥م) بخط عبد الرحمن بن يونس ابن ابي الحسن الانصاري

في ثمانية رسائل قديمة منها تذكرة الكحالين للموصلي فيها دوائر ورسوم للعين واهمها «السابعة» وهي لحنين بن اسحق في تركيب العين وعللها وعلاجها ذات خمسة رسوم للعين ملونة بديعة رسم بعضها في تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جرجي زيدان .

ومن اغرب الكتب المصورة عندنا نسخة من ( قانون ابن سينا ) شيخ الاطباء في مكتبة السلطان محمود في الاستانة فيها رسوم نباتات واسماك وحيوانات نسبت في القرن الخامس للهجرة . (وعجائب المخلوقات) للقرظوبي رأته منذ بضع عشرة سنة في دمشق في مكتبة آل الايوبي وهو مصور بالوان بديعة وقد طبعت ترجمته بالفارسية على الحجر في طبران بانقان في الرسوم والخط . (مسالك الابصار في سلوك الامصار) لشهاب الدين احمد الكرمانى العمري المعروف بابن فضل الله من اهل القرن الثامن للهجرة وهو جزآن في الحيوان والنبات ووجد منه نسخة منقنة في دمشق بصور ملونة بالوانها الطبيعية كانت عند صديقي جرجس بك صفا في لبنان . (حياة الحيوان الكبرى) للدميري من اهل القرن التاسع للهجرة منه نسخ مصورة تميز الحيوانات وبعض الاديبي وطبع في العجم مصوراً .

وذكر ياقوت الرومي الحموي في معجم الادياء ( اي ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ) مانزه : «وكنت سنة ٦٠٧هـ (١٢١٠م) قد توجهت الى الشام وفي صحبتي كتب من كتب العلم انجز فيها وفي حملتها كتاب (صور الاقاليم) للبلخي نسخة رائعة مليحة الخط والتوير فبعتها من الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب حلب بتمهيد المشتري من غير كسب» اهـ .

وفي مكاتب باريز و بطرسبرج وغيرها كتب عربية ورسوم رجال يرمون النفط وصورهم بانقان وتلوين . ومنها (كتاب الكواكب والصور) لابن الحسن عبدالرحمن الصوفي من اهل القرن الرابع للهجرة وأخه المصورة المنقنة في باريس و بطرسبرج والاسكور يال واكسفورد . وادق نسخة في كونهاغ وهي ملونة الرسوم وكواكب بهيأة ما تمثله من آدميين وحيوانات وطيور بالوانها وطبع في روسيا بدون تلوين ورأيت منه نسخة في المكتبة الاحمدية بحلب سنة ١٩٠٩م وقد كتبت ١٠٠٥هـ (١٥٩٦م)

وفي المكتبة الظاهرية بدمشق قطعة من مخطوط قديم في علم الخيل وفيه صور

بقي منها رسم الحصان بعيوبه وقد كتب مقابل كل عيب اسمه بالعربية وهو رسم جميل دقيق. وفي مكتبة مدرسة (الثلاثة الافكار) الارثوذكسية في بيروت كتب فلكية مصورة. وفي مكتبة بطن الهندية كتاب (التصريف في الجراحة) للشيخ ابي القاسم الزهراوي نسخ سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) وفيه صور الآلات الجراحية بانقان تام (١) ولقد ظبرت آثار قديمة في الابنية تحقق معرفة التصوير عند العرب من ذلك ان الدكتور هرتسفلد من اساتذة جامعة برلين الذي نقب عن آثار الصناعة الاسلامية في العراق سنة ١٩١١ وجد في مدينة سامرا اطلال جامع بناه المتوكل على الله كما ذكر اليعقوبي وعلى جدرانها نقوش وصور ترقية بارزة وغائرة في الجص (الجبصين) وهناك تضاءير ملونة في مواضع الجص المغنلة من النقوش مختلفة الالوان والاشكال بينها صور الآدميين. ملونة جميلة الطراز وكذلك قصور العباسيين المصورة.

### كيف جمعت الآثار ؟

دلع الناس منذ القديم يجمع آثار من تقدمهم من الامم في متاحف وكن اليونانيون اسبق الناس الى ذلك وعدوا هذا من الفنون فسمي المتحف عندهم (Musée) بالغة الافرنسية و (Museum) بالانكليزية منسوبا الى (موزه) إلهة الفنون .  
واقدم متحف انتهى في سورية متحف بيروت بزمن اغربها الثاني الروماني انشأه في القرن الاول للميلاد في هذه المدينة السورية ونقل اليه نقائس التماثيل والنقوش والذنون الصناعية من جميع المدن السورية فاغناط من سكان المدن الاخرى ولاموه على ذلك وانكن سكان بيروت كانوا راضين عنه كل الرضى . والعرب انشأوا في دمشق متحفًا بزمن الامويين لآثار القدماء معنيين بجمع آثار الادب والصناعة والدين سموه (سوق الطرائف) وكذلك كان في بغداد (سوق الطرائف) لبيع النفائس فضلاً عن اسواقهم في عكاظ ومربد البصرة مما كان اتسبه بالمتاحف او المعارض .

واول متحف اعتمدت به حكومة عربية متحف مصر بزمن الشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ ارباب النهضة العلمية في مصر في اوائل القرن الماضي .

(١) وهو الكتاب الذي اهدي اخيراً الى خزنة مجمعنا العلمي .

وفي بلادنا انشئ متحف القدس سنة ١٩٠١ م ومتحف بعلبك نحو سنة ١٩٠٥ م  
ومتحف صيدا في هذه الفترة ومتحفنا هذا في اوائل سنة ١٩١٩ م ومتحف  
بيروت سنة ١٩٢٢ .

### ما هي قيمة الآثار ؟

لا نقدر قيمة الآثار بحسب كبرها او معدنها او نقشها او جمالها او اشكالها وانما بحسب  
فائدتها التاريخية فمن الآثار ما هو نادر جداً فهو ذو قيمة تينة ومنها ما هو مفيد تاريخياً  
ومنها ما هو مفيد صناعياً ومنها ما هو مفيد علمياً الى امثال هذه الفوائد الرائعة ولولا هذه  
القيم لما تبارى الافرنج بنقل الآثار وحشدها في المتاحف والاتفاق على حفرها وجمعها  
وترتيبها وانشاء المجلات لوصفها ووضع المعاجم لتفصيلها وتاريخها وحفظ صورها .

ففي سنة ١٩٠٤ م ظهر في قرية تل المنسلم التابعة قضاء حيفا من بلادنا خاتم  
لي سمع ( اسيه يربعام بن سليمان ) من حجر اليشب نقش عليه صورة سبع فاغرافه  
وعلى اطرافه اسمه بالعربية وهو قبل الميلاد بنحو تسعة قرون فقد رتمه بجمسين الف  
فرنك اي الفين وخمس مائة ليرة افرنسية .

وجمع احد اغنياء سان فرنسيسكو في اميركة الشمالية نقوداً قديمة قدرت قيمتها  
بعشرين الف ليرة انكليزية منها ساقل فضة من ايام داود الملك وهو من نواذر  
الآثار واقدامها .

وسنة ١٨٧٧ م نقل قائم (مسلة) كايو بترة من مصر الى لندن ونصب على ضفة نهر  
التيبس فانفق عليه نحو عشرة آلاف ليرة انكليزية .

وفي المتحف البريطاني آثار منها جثة منكورع المصري باني الهرم الثالث في  
الجزيرة قدرتمتها بخمسة وسبعين الف ليرة انكليزية . وسمير سيدالذي قرئت به الهيروغليفية  
بتمن بعشرة آلاف ليرة . ورخامات الالجن اشتراها اللورد الالجن سفير انكلترة في  
الاستانة بسبعين الف ليرة انكليزية ثم نقلها الى لندن سنة ١٨٠٥ م وباعها الى المتحف  
بنصف القيمة فنسبت اليه مكافأة له .

وفي متحف براين الالمانى نحو سبع عشرة جثة مصرية مخططة أنققت الحكومة

للحصول عليها ثمانمائة الف مارك . وانفق متحف الاستانة سنة ١٨٨٢ م على نقل آثار صيداء اليه نحو عشرة آلاف فرنك .

وبيع نحو سنة ١٩١٧ م كثير من الآثار بأثمان عظيمة مثل تمثال ائنة الذي يرجع انه من نحت فيدياس اليوناني الشهير بسبعة آلاف ومائة واربعين ليرة انكليزية . وتمثال انتينوس يحمل الكاس لاريانوس بقيمة ٥٨٨٠ وتمثال هيجيه الهة الصحة بنحو ٤٢٠٠ ليرة وكأس خزفية كانت للملك هنري الثاني بقيمة ٣٧٨٠ ليرة وتمثال امرأة يونانية مما كان يوضع في المعابد تذكراً بتمن ٣٥٧٠ ليرة .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ م تمت مجموعة النقود القديمة التي كان يجرزها ( دوق ) كليارا بنصف مليون فرنك تقريباً وعدد النقود المجموعة لا يتجاوز ألفاً ومائتي قطعة فقط .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ ايضاً بيع بالمزاد في متحف القس مكروغور تمثة مصرية هي رأس صغير للملك اممات الثالث من الدولة الثانية عشرة وهو من السبع ( الحجر الزجاجي الاسود ) بقيمة عشرة آلاف جنيه .

## كيف تحقق الآثار التاريخ ؟

من اقدم الآثار التي اثبتت العلوم والصناعات والاختراعات ما احنفر من عاديات المصريين والبابليين والاشوريين والفينيقيين تحقق وجودها ان تلك الامم عرفت كثيراً من ذلك مثل الكبريت او العدسيات التي وجدت في اطلال بابل والحطوط الدقيقة التي كتبت على الآجر فانها تدل على اتخاذهم تلك البلورات المكبرة لهذه الغاية وعرفوا الزجاج الشفاف والظليل الملون وانقنوا التطريز والتمويه بالذهب وغيره المعروف في ايامنا بالطلبي وصقلوا الحجارة الكريمة ونقشوها بانقان وحفروا الترع وحنطوا الموتى وبرعوا بعلوم الفلك والرياضيات فقسّموا النهار الى ساعات ودقائق وتوان لا تزال دستور العمل بها الى يومنا . وعرفوا السنة الشمسية والقمريّة وعينوا الكسوف والخسوف واقاموا المراصد واخترعوا المزاول وبرعوا بالطب والكيمياء . والبناء المزخرف بالنقش والحفر والتصوير واقامة التماثيل . واتخاذ المكاتب والنأليف بالعلوم ووجود المعالم المعروفة اليوم

بالانسكلو بدييات او دوائر المعارف والمدارس العالية . ووضع الشرائع او الاشتراع والتدين بصور مختلفة الى كثير من امثال هذا .

وعثر بعض المنقبين في المكسيك ( اميركا ) على كتابات تاريخية تشير احداها الى اكتشاف خمسة من الكهنة البوذيين الصينيين لاميركا في القرن الخامس ليلاد فعول المؤرخون على هذا الرأي وعرفوا ان هؤلاء اكتشفوا اميركة قبل الاخوة المغرورين ( Magrorim ) وهم ثمانية من العرب تركوا لشبونة لاكتشاف اميركة كما صرح بذلك المؤرخ الاسباني كوندري والثريف الادريسي في كتابه نزهة المشتاق وسمي طريقهم في لشبونة ( درب المغرورين ) الى يومنا وذلك قبل كولمبوس بستين سنة . وكشفت كتابة اسكنديناوية على حجر بتاريخ سنة ١٣٦٢م تذكر ان ٣٠ رجلاً من اسوج ونروج وطئوا اميركا ووصلوا الى بلدة ( ميناسوتا ) قبل كولمبوس بمائة وثلاثين سنة ولكن الكتابة الاولى اثبتت ان فضل اكتشاف اميركة كان للصينيين . وربما ظير ما ينقض هذا ايضاً .

ومن اهم ما افادت الآثار التاريخ قراءة الخطوط القديمة بمعارضتها والاطلاع على تاريخ الاقوام التي طمست آثارها فكان اكتشاف بعض الآثار المكتوبة رحماها الى كروئنفند الالماني سنة ١٨٠٢م سبباً حاملاً على قراءة الخطوط السمارية التي كتبت في وادي الرافدين اي دجله والفرات . فقرأت اخبار الامم التي ملأت تلك البقاع وعرف عمرانها وتمدنها . وكان هنري رولنسون الانكليزي قد قرأ خط صخرة بيهستون السماري في كردستان سنة ١٨٣٢ ايضاً .

وهكذا كان الحال في قراءة الخطوط الهيروغليفية اي المصرية القديمة وكشف الاستار عن وجوه تاريخ الامة المصرية ومعرفة درجة حضارتها . والفضل في ذلك عائد لشمبوليون الفرنسي الذي قرأ حجر رشيد الهيروغلبي سنة ١٨٢٢م وهو عمود منقوش بالقلم المصري واليوناني واللاتيني فحققت الانوار الكتشنة وستحقق ايضاً كل ما غمض من تاريخ مصر بين وبلادهم .

وعرف من هذه الآثار وحل رموز اللغنين ان الخط السماري له علامة تدل على الفاظ كثيرة والهيروغلبي له علامة تدل على لفظة واحدة .

واشتهر اوستن ليرد سفير فرنسه في الاستانة باكتشافاته الاشورية سنة ١٨٥٠

ولاسيا صفائح الاجر وهي نحو عشرة آلاف نقلها الى اوربة فتبارى العلماء في حلها و برعوا بقراءة القلم المسماري فاجاز المسيو بولن ناظر المعارف الفرنسية المسيو اوبرت بعشرين الف فرنك لانه نجح بقراءة اللغة المسماية . وهكذا كانت الابحاث متواصلة في تحقيق ما غمض من توار يخ الام القديمة بوجود آثار عمرانهم في الانقاض وعين موضع نينوى انه في محل كونيخ في شرق الموصل الجنوبي . وكالح في محل اخرية نرود في جنوبي الموصل الى جنوبي نينوى .

وجاء في التوراة حادثة الخلق والسقوط والطوفان و برج بابل ويوسف في مصر وتفسيره حلم فرعون وحدوث سبع سني جوع ومثلها سبع وبناء سليمان الملك بلدة ماجدو ( تل المتسلم ) التابعة حيفا وحروب موآب واسرائيل واشور فاكتشف جورج سمث الانكليزي سنة ١٨٦٧ م كتابات على الغضار ثبت التكوين والسقوط والطوفان بنفاصيل اشبه بما دون في التوراة . وسنة ١٩٠٢ م اكتشف دي مبي شيناً عن برج بابل يدل على بقاءه في القرن الرابع بعد الميلاد وان يختصر ملك بابل رمه في القرن السادس قبل الميلاد وانه مبني قبل ذلك العهد بأثنين واربعين قرناً وعرف ان قياسه كان غربياً فطول اساسه من جهة واحدة ١٨٦ متراً وعلوه ٢٢٥ وسأحه التي يصعد عليها اليه ذات ٣٦٥ درجة وعين محله قرب طيسفون ( المدائن ) ووجد الدكتور برغش سنة ١٨٩٠ م قرب الاقصر في مصر عند ثيبة حجراً عليه خطوط هيروغليفية منها كتابة لاحد الكهنة معناها : « ان النيل لم يفيض مأوه سبع سنوات » وذلك يوم كدسني الجوع بزمن يوسف . وسنة ١٩٠٤ م اعاد الحفر الدكتور شوماخر فاظهر في تل المتسلم ( اي مجدو ) اطلال قصر شيده سليمان وذلك يوافق كتابات تل العمارنة في مصر : ان سليمان شيده بلدة مجدو و بنى فيها قصراً .

وسنة ١٨٦٩ م اكتشف المسيو غانو قنصل فرنسه في القدس حجر دهبون ( ذيبان ) قرب مادبا شرقي البحر الميت وهو من الحري ( Beselet — الاسود البركاني ) وعليه كتابة سامية عبرانية بحرف فينيقي من ٢٤ سطراً محفورة لتضمن سرد حروب موآب واسرائيل على عهد يوشافاط ملك يهوذا ويورام ملك اسرائيل ( ٤ مل ٣ : ٤ ) كتبت سنة ٨٩٦ ق م فنقلت الى فرنسة .

وسنة ١٨٦٦ وجد جورج سمث الانكليزي كتابات على الاجر من عهد شلماصر الثاني تؤذن بحزب حربه مع حزائيل ملك الشام .

وسنة ١٨٧٤ م بحث الدكتور شليمان الالماني الاثري عن اطلال طروادة قرب جبل اولبوس في بروسه فوجد مدينة محترقة وعثر على قبر ائامنون في يسينا . وشاهد كثيراً مما يؤيد قول اوميروس في الياذته .

واكتشفوا منذ بضع سنوات قرب بوردو (فرنسه) ناووساً رومانياً من القرن الاول للميلاد ففتحوه ووجدوا هيكل عظام بالية واناة خزفية آسورياً فبحر فاستدلوا منه ان العلاقات التجارية كانت متصلة بين اوروبه وسورية في ذلك العهد .

وسنة ١٨٧٩م — اكتشف الدكتور شليمان في طروادة كاساً مكتوبة تدل على ان التجارة كانت رائجة بين الصين واوروبه قبل الميلاد بالف ومائتي سنة . ووجد ضمن تلك الكاس نسيجاً صينياً .

واكتشف في صيداء منذ سنوات قبر الاسكندر المكدوني ونقل الى المتحف العثاني في الاستانة وبقى العلماء على شك من امره الى ان ظير قبر هذا الفاتح العظيم في ممفيس في القطر المصري فقطعت جبهزة قول كل خطيب وفسد الرأي الاول وتبت الثاني .

ولما اكتشفت اثار تل العمارنة قرب المنية في صعيد مصر سنة ١٨٨٨م وهي سجلات

الدولتين المصرية والسورية ومراسلاتها في ايام امينوفيس الثالث وابنه امينوفيس الرابع قرأ الاثريون اسماء مدن سورية قديمة لاتزال على حالها الى يومنا مثل عمكا

وصيدونا (صيداء) وصورتي (صور) وبيروتا (بيروت) وحجلة (جبل) واروادا (ارواد) ودمسقا (دمشق) وقطنا (قرب دمشق) فضلاً عن الاعلام اللبنانية مثل

البترون وجونيه وشكه والاعلام البقاعية مثل ستوره ومكسه فتبت قدم هذه المدن وسنة ١٨٨٠م ظيرت اثار بواسطة نقب المستر سمبسن المرافق للجيش الانكليزي

الى وادي جلال اباد في افغانستان ذات على انه كان في ذلك الوادي قديماً من المتزهدين البوذيين اكثر من عدد سكانه اليوم .

واستدل هذا الاثري من نقود رومانية وحدها هناك ان بلاد الافغان كانت في القرون الماضية طريقاً للتجارة من اواسط اسيا الى بلاد الهند .

واستخرج الاستاذ سنفنسن اثاراً قديمة من بلاد المكسيك الجديدة في الولايات المتحدة بينها صنان مجنحان مصري الشكل وآثار أخرى تشبه اثار الشرق القديمة . وكلها دلت على شئون تاريخية جديدة كان المؤرخون في ريب منها فمحقق لم امرها . وذكر بروشيوست المؤرخ الكلداني من اهل القرن الرابع قبل الميلاد ان مملكة العالقة العرب في العراق حكمت ٢٤٥ سنة وقام منها تسعة ملوك حكموا بين دولتي الكلدانيين والآشوريين وذلك من سنة ٢٤٦٠ - ٢٠٨١ ق م . فبقي قوله مشكوكاً فيه الى ان كشف دهمرغان الفرنسي سنة ١٩٠١ م آثار سوسة بين النهرين على الأجر فنقلت الى متحف اللوفر في باريس . وظهر منها ان الدولة الساموية العربية خلفت العيلاميين واشتهر منها حامورابي وشريعته وكانت القابه « ملك بابل وسومار وعقاد وملك اربعة الارباع » . فثبت رأي بروشيوست وصح تاريخه . وهكذا قل ان الآثار المصرية حققت اخبار دولها القديمة ومنها الرعاة (الهكسوس) الذين يترجح انهم من عمالقة العرب ايضاً . فصحيح تاريخ مصر بعد اضطرابه . وهكذا كانت آثار فينيقية المكتشفة في الايام الاخيرة ناقصة لكثير من اراء رينان الفرنسي الذي جاء لبنان سنة ١٨٦٠ م ونفق آثاره والف كتابه ( البعثة الفينيقية ) فصححت الاثار المكتشفة ما كتبه في بعض المواضع متكهنًا . ونحو سنة ١٨٩٥ م كان الارثوذكس في قرية مادبا في فلسطين شرقي بحيرة لوط يرمون كنيستهم فظهر عند الحفر فسيفساء كثيرة لم يسالوا بها اولاً فشيّدوا الكنيسة ثم بدأوا ببناء دار ملاصقة لها فظهر لم قطعة فسيفساء جميلة جداً كانت من بلاط الكنيسة القديمة تمثل مخططاً او مصوراً ( خارطة ) لبلادنا من لبنان الى مصر ومن البحر الى ما بين النهرين وفيها المدن والقرى وأسمائها بايديعة التلوين والرصف ولكن بعضها مهشم فبعد ان كانت مساحتها نحو ٢٨٠ متراً لم يبق منها الا ١٨ متراً سائماً تمثل بعض فلسطين وهي من عمل القرنين الرابع والخامس للميلاد . وفيها اسماء مدن مجهولة اليوم يمكن تعيين مواقعها فضلاً عن اسمائها القديمة والحديثة باليونانية مع دقة اشكالها وابعادها واخص آثارها وبيان السهول والرعان والجبال والانهار ملونة بالوانها الطبيعية . فترى جزءاً من نهر الاردن بتمججاته

وتعاريجه الكنيرة وفي مجراه الاسماك مع جسر شمالي اريحا الشرقي . وترى في بحيرة لوط المراكب السراعية ثم تشاهد جزءاً من الغور وفيه غرالة يطاردها اسد الى اشباه هذه المتخصصات البديعة .

وأهم ما بقي منها صورة اورشليم في ذلك العهد وتخطيطها باحيائها وسوارعها وانيتها بالوان تأخذ بمجامع الابصار رواء .

فإعداد هذا المخطط علم رسم الارض ( الجغرافية ) والتاريخ فوائده وصحيح كثيراً من الاوهام في مواقع بعض المدن والقرى واسمائها فهكذا تحقق الآثار التاريخ . وما نراه في غموض التاريخ العربي قبل الاسلام سيجلي باظهار بيان بعد حفر آثار شبه الجزيرة والوقوف على ما هنالك من الكتابات والابنية والنقود وما ساكل من الابنية والآثار والعاديات على اختلافها . كما فعل الاساذ موزل النمساوي سنة ١٩٠٢ م باكتشافه قصر الخلفاء في صحراء البادية وقاعة العمرة وكثيراً من الاخرية والانتقاض القديمة وغيره من الاثرين والحفارين .

وسنة ١٩٠٣ م اكتشف في حوران رسوم اوراق العنب وعناقيد يقال انها من نقش الحيرين العرب قبل اليونان والرومان فدل على صحة حضارتهم ونقوشهم . وسنة ١٩٠٣ م ظير في المدافن المصرية بردي يجوي على قصيدة ( الفرس ) الماطها تيموناوس الشاعر اليوناني يصف فيها لكل دقة معركة سيلاميس الهائله التي اندحر فيها اخسرخوس النارسي من وجه اليونان فثبت بها صحة معركة نارمجا . وسنة ١٩٠٥ م ظيرت اطلال وادي موسى عند حفر الطريق للسكة البخازية وصح تاريخ مدينة الحجر اوترا اوسالع ومن اهم تلك الآثار ( قصر فرعون ) و ( خزنة فرعون ) وغيرها مما وصفه بعضهم .

وسنة ١٩٠٨ م ظير في مدينة جبيل اللبنانية تمثال بديع يمثل ( هرمس ) الذي كان عند اليونانيين اله الطرق والمسافرين والتجارة ورسول سائر الالهة وهو نخب بديع من الحجر الكلسي الصلب وربما كان من عهد خلفاء الاسكندر وهو يؤيد ما ذكره التاريخ من حراسة طريق البحر في القديم نالهة من اشباه هذه ولا سيما عند اليونانيين ولا يزال مضيق نهر الكلب شاهداً على ذلك الى يومنا .

ونحو سنة ١٩١٠ قرى بردي - مكتشف حديثاً في مصر يؤيد ماني كابي عزرا ونحميا من التوراة و يثبت صحة تاريخ العبرانيين في ذلك العهد . ومن عجيب ما رواه الردي المذكور ان ملوك يهوذا كانوا يبعثون رجالهم جنوداً للمصريين و يأخذون ايمانهم خيلاً و ذلك بحالف التريعة الموسوية و يدل على جور الملوك و محالفتهم للشرايع . وفيه اقوال من سفر طوبيا و الامال و اساطير ايزوب و اشعار ديمقراطس . و اغرب من هذا وجود اجزاء فيه من كذاب احيقار المعروف عند العرب و له اقاويص عربية .

ووجد محركات اشوري في نمر ( نبور ) و معه و عا - ابذر الحبوب مما يدل على انه عند الحراثة يهتر الوطا فاستقط منه الحبة اثر الاخرى و تظهر .

ونحو سنة ١٩١٢ م اكتشف هيلدرست الاميركي قطعة اجر كعب عليها حادثة الطوفان تاريخها نحو الي ستة قبل الميلاد فوافق ما فيها بل تم ما رواه الكاهن المالبي باروز و نقله عنه يوسيفوس وغيره .

ونحو ١٩٥٥ م اكتشف الدكتور سالين النموسي في تل تلنك اي مرج ابن عامر اية و اواني من القيسانى و الصدي كانت تصنع في فلسطين و لا سيما في زمن الكنعانيين فت بيها ان القيسانى لم يكن من عمل العجم بل اقدم منهم اتصل بقائمان و نقله الدمشقيون و اشتهروا به .

وسنة ١٩١١ م كانت حكومة اسبانية تبحث عن مدينة عربية خفيت عن الاعين آثارها فوجدوها في جزيرة تحت الارض و اسمها ( الزهراء ) و ضاحتها تسمى ( الزهرة ) او ( نلس ) على بعد قليل من قرطبة . فظهورت اضلالها البديعة و تقوتها الرائعة فب ما رواه التاريخ من انها موجودة لا مكذوب فيها وان فيها مدرسة كانت تمثل الاحياء بالصور و الرسوم و كتب الامير عبد الرحمن يعاضدها و امه المسيحية بنتسطها و تدر عليها المال . و وجدوا هناك كثيراً من انواع الخزف و الخزعات و الزجاج الملون من صناعات العرب في الاندلس .

وسنة ١٩١٣ م ثبت اللاتريين موقع حرانلس او كركميتس عاصمة الحثيين على ضفة الفرات بين حلب و بغداد وهي التي اشار اليها ( سفر الاخبار الثاني ٣٥ : ٢٠ )

بقوله : « وصعد نينغو ملك مصر لقتال كركيش عند الفرات فخرج عليه يوشيا » وكان رولنسن الانكليزي ومسبرو الافرنسي قد ظناها منبج قرب حلب ثم قرر سكان الانكليزي وجورج سميث وطينه انها جرابلس فحققتها الآن البعثة الانكليزية فيها ولو قرئت الكتابة الحثية لظور بهذه الاكتشافات غرائب . وكلمة جرابلس تحريف ( هيرابوليس ) اي المدينة المقدسة . وفي مجلتي الآثار وصف لهذه المدينة وآثارها المثبتة لتاريخها ( ٣ : ١٦١ و ٢٥٣ و ٣٥١ ) .

وسنة ١٩١٨ توفق الدكتور ريزنر الانكليزي في حفرياته في السودان المصري الى تحقيق ملوك ايثوبيه بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد فبعد ان كان المؤرخون لا يعرفون منهم الا ترحانا وخلفه نانوتامون اظهرت الآثار منهم اثنين وعشرين ملكاً حكموا من سنة ٦٦٨ — ٣٠٠ ق م وكشفت قبور كل منهم ومن ملكاتهم وانبائهم فحققت سلسلتهم وعرفت أسرتهن . وكذلك كان المؤرخون في ربية من امر الملك نستسين فتحقق انه وجد بعد كمبيز بقرنين لا انه كان معاصره فكانت الآثار ناقصة للاوهام التي كانت في تاريخ اولئك الملوك فسدت تلة في تاريخهم ومحا اليقين الشك بشأنهم .

وسنة ١٩١٩ م أعلنت المجلات الاثرية خبر اكتشاف مهم في علم الآثار وهو ان الدكتور فردريك هروزني استاذ اللغات السامية في جامعة فين في النمسه قد اهتدي الى قراءة اللغة الحثية التي كانت قراءتها متعذرة كل هذه المدات على العلماء وما ذلك الالعدم وجود كتابة حثية مع كتابة أخرى معروفة ليتمكن مقابلتها وحل رموزها كما جرى في قراءة الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة السمارية الاشورية . فعالج كثير من العلماء حروف الحثية مقابلة ودرسا وتحقيقاً فلم يظفروا منها بطائل الى ان بشرنا الصحف ان هذا الطبيب النمسوي قد قرأ الكتابات الحثية ووضع فيها رسالة بين اصولها وصفاتها مما دل على ان اللغة الحثية هي اخت اليونانية من اللغات الآرية او الهندية الاوربية مثل اليونانية واللاتينية . بعد ان كان العلماء يعدونها من اللغات الحامية . وكانت الحثية مسنقة عن اللغات الهندية الاوربية اي اللغات المشابهة للاتينية والهندية الايرانية والارمنية في القرن الرابع عشر والثالث

عشر قبل الميلاد . وان الحثيين انقسم من سلالة هندية اوربية لاحمية ولكن امتزج بهم دم غير الدم الهندي الاوربي على طول الزمن . وان عميرانهم كان بضاهي العمران البابلي والاشوري . وكان اول ذكر لهذه الامة الحثية سنة ١٩٣٠ ق م . وهم الذين قضوا على دولة السموآبيين التي نبغ منها حمورابي المشرع الشهير فخلصهم في العراق . وبلغت دولتهم اوج مجدها في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد في عهد صيلوليا وخلفائه وقد ملكوا كل أسية الصغرى حتى امتدوا الى سورية وفلسطين واتصلوا بالقطر المصري . وان نجم مجدهم اخذ بالاقول في اول القرن الثاني عشر قبل الميلاد الى كثير من هذه التحقيقات .

وهناك امور كثيرة نحتاج في تفصيلها الى مجلدات اجتزأنا منها بهذا القدر . ويحسن ان نتخّم هذا البحث بملاحظات ذات شأن في الآثار : ان المؤرخين حتى عهد قريب كانوا قد اختلفوا بتسمية اسكندر المكدوني بذية القرنين بعضهم قال انه كان له حصان بقرنين . وقيل كان للاسكندر ذؤابتان مرلفتان تشبهان القرنين . وقيل لتملكه قرني الشمس اي المشرق والمغرب . ولكن الآثار التي ظهرت فيها نقود الاسكندر المسكوكة بعده دلت انه صور نفسه فيها بصورة امون الذي كان يمثّل بقرنين كقرني الكبش فسموه بذية القرنين وهو اظهر الادلة على تلك التسمية . وهكذا تاريخ العرب في شبه الجزيرة ما زال غامضاً ولا سببا في زمن الجاهلية . ومع ذلك فان ما حققه السياح وما اكتشفه الاثريون وقرأوه من الكتابات رفع حجب الوم عن اتياء كثيرة من عميرانها . فاكتشف ارنو سنة ١٨٥٣ خطوطاً واثاراً حقق بها اما كن صنعاء والخرية وحرّم بلبقيس ومأرب فوضع مخططاً ( خارطة ) لآثار سد مأرب الشهير ثم تعقبه كثيرون مثل هاليفي سنة ١٨٦٩ م فاكتشف بلاد الجوف التي مر بها اليوس غالوس الفاتح الروماني . ثم اكتشف في جهات نجران مدينة ( معين ) عاصمة المعينيين من دول اليمن العظيمة . وكما كثرت الابحاث الاثرية زاد تحقيق هذا التاريخ فعرفت الآن تواريخ دولة المعينيين والسبأيين والحمرانيين في اليمن والانباط والتدمريين والغساسنة في شمالي بلاد العرب . والسموآبيين

او الجورابيين واللخميين في العراق . وايدت ما عرف عن القبائل البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وغيرها .  
 . وهاكم الان مثلاً مما حققته الآثار عن سكان بلادنا القدماء فلولا الآثار -- التي ظهرت في مصر ووصفت غزوة توطميس ( تحوتيس ) الاول ملك مصر الذي غزا سورية والعراق حيث نينوى و بابل سنة ١٦٥٠ ق م وهو من الامرة الثامنة عشرة من الاسر المالكة في مصر -- لما عرف المؤرخون ان سكان هذه البلاد القدماء هم اللواديون او الروتيون ويقال اللودانيون او الروتانيون وهؤلاء السكان الذين كانوا في هذه البلاد جميعها هم اخوة الاراميين واقدم منهم في سكنى بلادنا . وايدت الآثار القديمة ما نقس على هيكل الكرنك في مصر ايضاً اذ ذكر ان توطميس المات نحو سنة ١٦٢٥ ق م جاء سورية لندونج الروتان الذين امنعوا عن دفع الجزية اليه ضريباً سلفه توطميس الاول عليهم . وظير في الخيف الريطاني اتر من طيبة المصرية يمثل رجالاً من هؤلاء السكان القدماء يقدهون الهدايا لفرعون او احد خاصنه .

.. فنقض هذا الرأي قول المؤرخين ان سكان سورية القدماء هم الاراميون واثبت انهم هم اللواديون او الروتيون كما سبق في محاضرة ( حقائق تاريخية ) صفحة ١٥٠

### الخاتمة

هذا تم من قطر ونقطة من بحر من فائدة الآثار القديمة في التاريخ لان تفصيل ذلك يحتاج الى مجلدات ضخمة ومراجعات مستمرة على ان زبدة القول ان اسفار التوراة ولا سيما اسفار موسى الخمسة منها وتواريخ المصريين والكلدانيين والاشوريين والبابليين والماديين والحثيين والروتانيين والاراميين والفينيقيين والقرطاجيين والفلسطينيين والعبرانيين والفرس والعرب واليونان والاسرطيين والمكدونيين والسوقيين والبطالسة والمكابيين وممالك آسية الصغرى والرومان والافرنج كها اليوم مصححة بحسب الآثار القديمة والعاديات وور بما ظير اشياء جديدة نقتض بها الآراء القديمة

وكفى بهذه العجالة الآن شاهداً عدلاً وبرهاناً دامغاً على ان الآثار القديمة ليس جمعها من الكليات بل من الضروريات وليس في جمعها والاستفادة من درسها الا تحقيقاً للتاريخ وتجديداً لذكرى الاسلاف . . .

\*\*\*

فاناشدكم الله أيها الكرام ان لا يذهب بعضكم مع الهوى ويرمينا باللوم لعنايتنا بالتحف والمكتبة فان في هذين ارتقاء الوطن وتحقيق تاريخه وترقية معارفه ورفع شأنه بين الامم المتقدمة .

فهبلاً تجاري الامم في حضارتها الراقية وفي شديدة الحرص على ابتياع مثل هذه النفائس ونقلها واذخارها في مناحفها حتى اننا نحتاج الى الوقوف عليها لمعرفة شؤونها .  
فسلام على من اعنى بحفظ اثار بلاده وحرص على بقايا قومه النارجين .  
وسلام على حكومتينا الوطنية والمنتدبة الحرصين على احراز آثار الامة وابقاء ماتركته  
انا الايام منها محفوظاً عندنا مع ان مئات والوفاً منها يجرزها غيرنا وفقها الله وحفظكم  
خير ذخيرة للمدينة .

عيسى كندري  
المحرر



## (١) العمل بالعلم

قال ابن الوردي :

في ازدياد العلم ارغام العدى وجمال العلم اصلاح العمل وقيل في منشور الحكم : « لم ينفع بعلمه من ترك العمل به » . وقال الفيلسوف باكون : « من يقض عمره في درس العلوم فهو البليد الكسول ومن يتخذها زينةً وحلية فهو المتصنع المتكلف فكمال الدرس الاختبار وكمال العلم العمل به لا الاكتفاء بمعرفته » . وكل هذه الاقوال صحيحة لان ثمرة العلم ان يعمل به . والعالم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر او كالفحمة بلا عسل . وكل الفوائد التي جناها المجتمع البشري من حداثق العلم انما جنيت بالعمل لا بالعلم وحده . فالعمل اساس التقدم والارتقاء ووسيلة السعادة والهناء وكل أمة ليس فيها ميل الى العمل والاعتدال على النفس تبقى منخطة شقية ولا بد من سقوطها . ان الخالق عز وجل لم يخلق الانسان للبطالة والكسل بل خلقه للسمي والعمل . فوضعه في جنة عدن ليعملها ثم فرض عليه ان يأكل خبزه بمرق وجهه . فالعمل اول الواجبات وهو ضروري لجميع الناس على اختلاف الطبقات وتباين الاطوار والحسالات . لا يعنى منه الا الذي أثبتته المرض ولا يستغني عنه الا الذي لا حَبْضَ به ولا تَبَضُّ . وذلك للاسباب الآتية :

(١) : انه قوام الحياة وقال بعضهم بل هو الحياة لان الانسان اذا انقطع عن العمل ادركه الاجل . وقيل ان احد الاعيان سأل صديقاً له ما سبب موت أخيه فاجاب انقطاعه عن العمل فقال السائل حقاً ان هذا سبب كافٍ لامانة ابي انسان كان . وقال صولون الحكيم : « من لا يعمل يجب ان يحكم عليه بالموت » وقد أصاب بهذا القول لان الحركة والسمي من علامات الحياة وواقباتها وعدم العمل من

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ انيس افندي سلام القاها في ردهة المجمع العلمي

في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٢١ م .

مفسداتها ومهلكاتها ولنا في عالم الطبيعة امثلة كثيرة توضح هذه الحقيقة . فإلما المنحدر من ينبوعه متدفقاً فوق الصخور او مترقفاً على حصى الاودية كالبلور بقتى صافياً لامعاً عذباً مادام جارياً بقوة ولكنه اذا ركداً جن وأنتن وصار مأوى للعشرات القذرة والافاعي السامة . والهواء المتحرك حركة لطيفة يشرح الصدور وينعش النفوس ولكن اذا سكن فسد وتولدت فيه جراثيم الامراض . والآلات والادوات الحديدية اذا استعملت بقيت صقيلة لامعة واذا أهملت علاها الصدأ وادركها الفناء : وكذلك الانسان اذا قام بالاعمال المطلوبة منه امتلاً نشاطاً وقوة وحفظ رونق شبابه الى طور الشيخوخة واذا ترك العمل خسر صحته وقوته وتسببه وحياته لان اعضاء مخلوقة للاستعمال لا للاهمال والاستعمال يجيها والاهمال يميها فالعمل احسن مقومات الحياة واجمع مقويات الصحة وفضل الواقيات من الامراض المختلفة ولو تمرن عليه المترفون المترفون لقلت تسكياتهم من الوبالة والرهل والسمن الزائد وسوء الهضم وتمتعوا بكال القوة والنشاط .

(٢) : انه غذاء العقل الذي يقويه وحصنه الذي يقيه فان العاكف على عمله يتمكن من زيادة معرفته وترقية ادراكه بما يكتسبه من الدربة والاختبار فيكون اقدر من غيره على تمييز الدقائق وكشف الحقائق ودفع المغارم وجر المغانم . والذي يترك العمل ينفرغ عقله للتفكير بالجرائم والآثام وتعتريه الوسواس والاهوام فيهم في اودية الهموم وتعتلج في صدره الهموم او يسي اسيراً لهواه او يأس من هذه الحياة فيظنر الاختلاط في عقله وورما انتحر وحلب العار على اهله . ان يوماً واحداً من ايام الهواجس والهموم لاسد على النفس من شبر عمل واجتهاد لان الاهتمامات نتهك القوى وتتوش نظام العقل ولا شيء يحفظ ذلك النظام من التسويش غير العمل . قال جانكورت : اننا بواسطة عمل العقل نضمن راحة القلب . وروت احدى الجرائد انه عرض في فينا ذخيرة فاخرة مرصعة بالحواهر الكريمة وفي قلبها اربعة دبابيس عادية ولهذا الدبابيس قصة غريبة وهي ان الكونت لفسكوفي زوج صاحبة هذه الذخيرة اتهمنه الدولة الروسية بكلام قاله في حق القيصر وقائلة الكلام امرأته لا هو فلم يبرر نفسه فألقاه القيصر في سجن مظلم لا يرى فيه شيئاً وابقاه فيه ست سنوات . اما هو فلما

دخل السجن وضع يده على ثوبه فوجد فيه اربعة دبابيس فنزعها منه ورمها في ارض السجن ثم اخذ يتلمسها حتى وجدها فرماها ثانية وعاد يفتش عنها واستمر يرميها ويحدها مدة الست السنوات . وقد قال في سيرة حياته ان هذه الدبابيس شغلتنى كل تلك المدة الطويلة ولولاها لجنت فلا عجب اذا جعلتها زوجتي حيلة من حلالها لانها حفظت عقل زوجها .

(٣) : انه درع الفضائل التي نقي الانسان سهام الرذائل . فان تركه وقضى وقته بالبطالة فتح اوسع الابواب للشر وتورط في احوال البذاءة والاثم ولا سيما اذا كان من الشباب الاغنياء فيجتمع فيه اسباب الفساد الثلاثة التي ذكرها الشاعر في قوله :

ان الشباب والفراغ والجدد مفسدة للمرء ايك مفسده

فيتلف جسده وعقله وماله بما تجره تلك الاسباب من التجارب الشيطانية لاشباع الشهوات الدنية . ولذلك قال بعضهم رأس الكسلان معمل الشيطان . وقال سكوت الروائي المشهور : انه كان يطرد شيطانه ويستعيذ من ابالسته بالعمل المفيد . وحكي عن ربان احد المراكب انه كان لا يدع بحارته بدون عمل لانه وجد ان البطالة تقودهم الى الخصام . فلو كان الناس كلهم يشغلون اوقاتهم بالاعمال النافعة لما بقيت لهم فرصة لارتكاب المنكرات ولفرغت السجون والملاهي والمراقص والحانات وهربت الشياطين وعمت الفضائل العالمين .

(٤) : انه آية الشرف والنبيل وعنوان المروءة والفضل . فلا شرف ولا مروءة للبطال الكسلان ولو كان ابا قابوس او عبد المدان . فالفلاح الواقف على محراثه في حقله اعلى قدراً في نظر العقلاء من الامير الجالس على السرير المتسربل بأثواب من حرير وهو بطل مكسال لا يتفح غيره بعمل من الاعمال . وقد جاء في بعض الامثال قولهم كلب يعمل خير من أسد يكسل .

ان العمل لا يحط شأن الرجل ولا يثلم شرفه كما يتوهم بعض المفرورين بانفسهم المتفاسخين بعلومهم وانسابهم بل يزيده مجداً وكرامة فقد قام من كل أمة رجال استهروا بالعلم ورفعة المقام ومع ذلك كانوا من رجال الاعمال ايضاً . فن اليونان

طاليس رأس الحكماء السبعة وصولون المؤسس الثاني لاثينا وهيراتيس الرياضي وكثيرون غيرهم وكلهم كانوا يشتغلون بالصناعات ليكسبوا رزقهم . وافلاطون الحكيم المشهور كان يبيع الزيت وهو يطوف بلاد مصر وينفق مما يربحه منه .

ومن العرب ابو بكر الصديق كان بزازاً وعمرو بن العاص كان جزازاً وابوحنيفة النعمان كان خزازاً وكثيرون من امرائهم وعلماهم كانوا فلاحين اونجارين او حجارين او قصارين .

ومن الانكليز شكسبير رأس شعرائهم كان يدير الملاعب ويفتخر بادارتها وقيل ان اياه كان جزازاً وانه هون نفسه كان يعمل في صباح على ممشطة الصوف واسحق نيوتن كبير فلاسفتهم كان مستخدماً في مضرب النقود والذالكياوي كان حائكاً . وفكتوريا ملكتهم المعظمة كانت تخط بيدها اقمصة وترسل بها الى الفقراء مع كثرة الشواغل السياسية والاعمال الادارية التي كانت مطلوبة منها .

ومن الروسين بطرس الاكبر ملك روسيا كان يذهب متنكراً الى اوربة ويدخل معاملها تحت اسم الصانع بطرس ويتعلم الصنائع ويرجع الي بلاده ويعلم رعيته اياداً !!!

ومن الامير كيهن ابراهيم لنكن رئيس الولايات المتحدة كان دباعاً والرئيس كليفلند كان محامياً والرئيس ولسن كان استاذاً للتاريخ في جامعة مور بعد ان تعاطى فن الحمامة مدة . فكل هؤلاء العلماء والرؤساء والامراء وكثيرون غيرهم من ذوي النفوس الكبيرة والمراتب الخطيرة لم يستنكفوا من الاعمال اليدوية والاعمال العقلية ولم يحسبوا دون اقدارهم او تالمه شرفهم بل كانوا يسرون بممارستها ويعرفون انها نافعة لهم ولاوطنانهم ويحضون غيرهم على الشعور بواجب العمل والقيام به لانه آية الشرف .

(٥) : انه سلم الارثقاء الى اعلى المراتب والترجع في ارفع المناصب فكم وضع حقير نال باجتهداه في العمل رتبة امير كبير او وزير خطير وحسبنا ثبناً لذلك ان تذكر بعض الذين ارتقوا باعمالهم من اصول وضيعة الى مراتب رفيعة . فمنهم اللورد

لنتردن قاضي القضاة في بلاد الانكليز الذي نبغ من حانوت الحلاق . قيل انه اخذ مرة ابنه بيده وأراه دكاناً صغيراً وقال له انظر الى هذا الدكان فان ابي جدك كان يخلق فيه للناس و يأخذ اجرة على الرأس ما يساوي عشرين بارة وهذا هو فخري العظيم . ولويد جورج رئيس الوزارة الانكليزية المشهور الذي ارتقى من حانوت الاسكاف . واندروجنسن رئيس الولايات المتحدة المشهور بذكاء العقل الذي بلغ مقام الرئاسة من دكان الخياط قيل انه التي خطاباً في مدينة واشنطن واخذ يراجع فيه تاريخ حياته وكيف ارتقى من درحة الى درجة الى ان صار رئيساً للولايات المتحدة ففزع الجمهور بصوت عظيم فائبلين من الخياط فضاءاً . قال مرة يعبرني بعضهم بانني كنت خياطاً ولكنني لا ارى في ذلك شيئاً من العار لانني وانا خياط كنت مشهوراً بالامانة والمهارة في صناعتي وكنت دائماً اخطب الدياب خياطة جيدة متينة وأسلمها الى اصحابها في الاجل المعين . وجيمس غارفيلد رئيس الولايات المتحدة المشهور بتبجاعته ونقاواه الذي كان يتيماً فقيراً ونشأ في مزرعة حقيرة ولكنه ظل يجد في اعماله المختلفة ويرتقي من فلاح الى سائق ومن سائق الى ربان سفينة ومن ربان سفينة الى استاذ مدرسة ومن استاذ مدرسة الى رئيس مدرسة ثم عضو مجلس ثم قائد جيش ثم رئيس جمهورية فتسنى بالعمل المستمر والجد المتواصل عارب العز والمجد وبلغ اعلى ذرى النجاح والسؤدد . وكفى بذكر هؤلاء الرجال العظام دليلاً على ان العمل سبيل الارتفاع من حضيض الفقر والهوان والدناءة الى قمة الغنى والمجد والعظمة ومن تتبع سير الاشراف والعطاء في كل أمة تبين له ان كثيرين منهم نشأوا من اصول وضيعة وناولوا بجدهم في الاعمال المختلفة مراتب رفيعة .

( ٦ ) : انه سر السعادة الحقيقية فالعامل النسيط سعيد وان كان فقيراً والبطال البليد شقي وان كان اميراً . سئل اديسون المخترع الاميركي المشهور ماهي السعادة ففكر قليلاً ثم قال : « هي العمل » وقال رسكن ما معناه : « احسن دواء بوصف للمقبض الصدر الكاسف البال الذي وهن من الهمّ عظمه وذاب من شدة الحزن جسمه ان يعمل من الصباح الى المساء فينجو من شر الحزن ويزول عنه الوهن . قال احد الفلاسفة : « السعادة بثلاثة اشياء — شيء تعمله وشيء تحبه وشيء تأمله » وقال احد الافاضل

بعد ان اختبر احوال البشر: « جبت البلاد وشاهدت صنوف العباد فلم ار اسعد ممن تحسن يده عملا او توجد شيئاً جديداً فهذا الذي يحصل على مقومات الحياة و يفرح بعمله . نعم ان اكثر العملة ليسوا اغنياء لكنهم يسرون كالاغنياء بحصولهم على ما يحتاجون اليه و يفوقونهم مسرة بابتهاجهم . بانقان اعمالهم ولذلك نراهم يواظبون عليها بلا ملال و يودون ان تطول ساعات النهار كي لا يتركوا تلك الاعمال . »  
والخلاصة انه ليس للناس في الشبيبة والشيخوخة احسن من العمل يسلون به آلام هذه الحياة و ارزاءها و يزولون به همومها و شقاءها وقد تبين ان في الاعمال على اختلاف انواعها سلوكى لا توجد في شي من لذات البطالة والكسل وان الكسل يتعب اكثر من العمل بل ان العمل يجدد الشبيبة و بعد الشيخوخة و يطيل العمر بما يشتهه في نفس العامل من المآذة و السرور و به يعرف الانسان معنى الحياة و معنى الراحة و السعادة فلا تكون حياته نافعة و لا صالحة و لا شريفة و لا سعيدة الا اذا انزله عن البطالة و الكسل و قرن علمه بالعمل . ومع ان هذه الحقيقة واضحة كالشمس لسدي عينين نرى الناس يحتفلون في مراعاتها و هم بهذا الاعتبار اربعة اقسام :

الاول -- الجهلاء البطالون و هم الذين لا يعرفون علماً صحيحاً و لا يأتون عملاً مميذاً و انما تنقضى عليهم الاوقات و هم متبولون في الاسواق و الطرقات او منغمسون في السرور و المنكرات او مواظبون على المراقص و الحانات او متفخرون بالمظالم و التعديتات فيعيشون كاضوراي الحائلة في الدراري و ينفقون مما ورتوه عن آباءهم من الاموال او سلوه من غيرهم بالغش و الاحتيال و النهب و الاحتماس و التسول و الاتماس فهم ادنى من الحيوانات الداجنة التي يستخدمها الانسان لركوبه و حمل اتقاله او مساعدته على القيام باعماله لان لهذه الحيوانات منافع حمة و مالاولئك الحملة البطالين سوى الاضرار و لا فائدة لهم من الحياة الا الفضيحة و العار مخير لهم ان يكونوا جثثاً هامدة او خشباً مسندة او قطعاً من طين من ان يكون علقاً او عقارب او افاعي او شياطين .

الثاني -- المتعلمون البطالون و هم الذين يتخرجون في المدارس العالية او الجامعات من فتيان و فتيات و يدرسون العلوم و الفنون المختلفة و لكنهم لا يرغبون في عمل و لا يلتذون الا بالكسل مكثفين بنيل الشهادات مزدريين بالحرف و الصناعات متسربلين

بالكبرياء والخيلاء مترفعين عن طبقة العمال البسطاء مزججين اوقاتهم بالتؤاءب والمطوآء فيتردد الفتيان منهم بلا عمل على بهوت الاغنياء والعظماء ويتوقعون الرزق بلا سعي ولا عناء ويرفلون بلباس العلماء وهم افرغ من حجام سباط وافلس من بن المذآق . و تقتصر الفتيات على التباهي باحراز المعارف العديدة والاستنكاف من الاعمال البيتية المفيدة واتباع الازياء الجديدة ويشغان الاوقات الطويلة بارتداء الاتواب الجميلة ويحملن آباءهن او ازواجهن النفقات الثقيلة وربما كانوا من اهل الصناعات الذين لايفضل دخولهم عن الاقوات . وكل هؤلاء المتعلمين والمنعمات البطالين والبطالات لا تنقل اضرارهم عن اضرار الكسالى الجهلاء بل ربما كانوا اوفر منهم اضراراً راكثر او زاراً لانهم اقدر على الافساد والايذاء واخبر بضرور الحب والدهاء راعرف بوسائل الشر والشقاق واساليب الحماق والنفاق بما كتمسوه من انواع العرفان التي تقوي المدارك وتتخذ الازهان . ولقد صدق من قال سر الفتيان المتعلم المتبطل المتناسف المتعطل .

الثالث — الجهلاء العاملون وهم الذين لا يعرفون شيئاً من العلوم العصرية ولا المسائل الفنية لكنهم يعكفون على الاعمال بهم لا تعرف الملال ليحصلوا رزقهم ورزق العيال وهؤلاء اقل ضرراً من الفريقين الاولين لانهم لا يجربون الكسل ولا يستكفون من العمل ولا يطمعون في اموال الناس ولا يستعملون العش والاختلاس وانما تبقى اعمالهم خالية من الانقان بادية النقصان غير خارجة عن حد التقليد ولا مزينة بطلاوة الجديد لجهلهم الفنون التي تمكنهم من الاحكام والابداع والفتن والاختراع فتمر عليهم السنوات واحوالهم المدنية لا تتغير وطرق معاشهم لا تتحسن ومن قابل بين الفريقين الذين اخترعوا اعجب الآلات الزراعية والصناعية واكبر السفن والقطرات البخارية والسيارات التي تسابق الرياح والطائرات التي تحلق فوق كل ذية جناح — والشرقيين الذين لا تزال آلاتهم وادواتهم الزراعية كالخارث والمناجل والنوارج ومركباتهم التي تجرها الثيران كما كانت عليه من قديم الزمان عرف ان السبب في تأخر الشرقيين انما هو جهلهم وان كانوا عاملين . فالعمل وان كان ضرورياً وشرئفاً لا يغني عن العلم ولا يضمن الترفي للامة ما دامت غارقة في لجة الجهل .

الرابع — المتعلمون العاملون وهم الذين طبقوا حياتهم على المبادئ الشريفة التي تعلموها وبرهنوا على صدق اقوالهم بحسن افعالهم وخدموا شعوبهم واطمانهم بمعارفهم المختلفة وافادوا العالم كله بما توصلوا اليه بعلمهم من الاعمال العظيمة وما الفوه من الكتب النفيسة وما اخترعوه من الآلات النافعة وما اكتشفوه من الاقطار الشاسعة والادوية الناجمة كالفارابي وابن سينا وابن رشد وابن زهر وثابت بن قرة وغيرهم من علماء الشرق وكولمبوس وباستور وكوخ وجنر واديسون وغيرهم من علماء الغرب . هؤلاء هم العلماء الحقيقيون الذين طبقت شهرتهم الآفاق وخلدت اسمائهم واعمالهم في بطون الاوراق وعمّ فضلهم القريب والبعيد واكتسبوا الثناء الطيب والذكر الحميد . الى امثال هؤلاء الرجال العاملين تحتاج الامة السورية في هذا العصر وباعمالهم الجليلة ترتقي وننال العز والفخر . ان الجهلاء البطالين قداً وهنوها وأخروها والعلماء الكسالى قد افسدوها ومزقوها . والجهلاء العاملين لم يستطيعوا ان يرقوها . فلم يبق لها أمل الا في المتعلمين العاملين الذين عليهم يتوقف رفع شأنها وتثبيت أركانها . ان سورية اجود البلاد هواءً واعذبها ماءً واطيبها تراباً واكثرها إخصاباً وقد كانت في ما سلف من الازمان مأهولة بألوف الالوف من السكان الذين سبقوا الى المدينة والعمران . واشتهروا بالفضل والعرفان . وكانوا ذوي عز وسطوة ومجد وثروة لانهم كانوا يعملون بعلمهم في الزراعة والصناعة والتجارة والادارة فكانت ارضهم تفيض لبناً وعسلاً وكانت مصنوعاتهم الذهبية والفضية والنحاسية والحديدية والزجاجية والخشبية والحجرية والخزفية وملابسهم الحريرية والكتانية والصوفية واصباغهم الارجوانية والاسمانجونية مما يتفاخر باقتنائه الشرفاء والاغنياء وتزين به قصور الملوك والعطاء فاناروا بمعارفهم الافكار وعلموا باعمالهم الاقطار . ولكنهم لما اخذوا يهملون العمل بعلمهم أصبحت جبالهم جرداء وسهولهم جدياء وكل غلاتهم لانفي بجاعاتهم وامسى اكثر ما عندهم من حلي وثياب وعطور واطياب واثاث وآلات وامتعة وادوات حتى الاير والمسابير والمنافع وزجاج الشبابيك والساعات والمصابيح من صنعة غيرهم فببطوا من قمة مجدهم الباذخ وعزهم الشامخ الى حضيض النذل والفقر ونسبوا ذلك الى جور الدهر وما الدهر بجائر ولا مسيء . ولكن الهم اذا فترت والبصائر اذا خسرت والايدي اذا قصرت .

فالقوة تُتحول الى الضعف والعزّة يتبدل بالحسف . اننا لا ننكر فضل النهضة العلمية الحديثة في هذه البلاد ولا نياس من تقدمها في سبيل العمران الى ان تسترد مجدها القديم وتجارى الامم الراقية برعاية الدولة المننّدة المعظمة وعناية الحكومة الوطنية الحليمة . ولكننا نشعر بانه وان كانت الحساجة الى تكثير سواد المتعلمين شديدة فالحاجة الى العمل بالعلم أشد . وهذا ماأريد الكلام عليه وتوجيه الافكار اليه وقد جعلت مدار كلامي على ثلاثة امور :

الاول العمل الواجب على المتعلمين ان يقوموا به انفع الافراد والاسر والامة والمجتمع كافةً وهو مختلف باختلاف نوع العلم الذي حصلوه ومقداره فلا يطلب من المرأة المتعلمة ما يطلب من الرجل المتعلم ولا يجب على متعلم الطب ما يجب على متعلم الشرائع ولا يكلف المشارك في بعض العلوم ما يكلف المتبحر فيها بل يجب على كل متعلم ان يعمل بما تعلمه لاجل خير نفسه ونفع ابناء جنسه . واهم الاعمال التي تحتاج اليها الامة وثوقها من رجالها المهذبين ما يأتي :

(١) : الأهتمام بحفظ الصحة العامة وهذا مطلوب من الاطباء والموظفين بدائرة الامور الصحية على الخصوص ومن كل متعلم على العموم فلا يلبق بمن تعلم الطب وانفق في سبيل تحصيله السنين الطوال والمبالغ الطائلة من الاموال ان يترك هذه الصناعات الشريفة الضرورية لخدمة الامة ويتعاضى غيرها كما فعل بعضهم . ولا يجوز لموظف في دائرة الامور الصحية ان يكتفي بالحصول على الوظيفة لكي يتناول مرتبها دون ان يقوم بواجباتها بالامانة والتصرف كأن تلك الوظيفة لم توحد الا لاجل معاشه . ولا يحسن بمن تعلم قوانين حفظ الصحة في المدرسة ان يخالفها بترك الرياضة البدنية او بالسهر المفرط او الشرهه او شرب المسكرات او التدخين او التعرض للامراض الخزية التي تجلب عليه العار وتلف حياته وحياته ذريته بعد ان عرف ان كل ذلك مضر بصحته وصحة المجتمع كله . بل يجب على كل هؤلاء ان يسلكوا بحسب القوانين الصحية بكل تدقيق ويقاوموا الاوثة والامراض بالوسائط الواقية ويعالجوها بالادوية الناجعة فتحفظ صحتهم وصحة الامة وبذلك تسلم العقول ايضاً لان العقول السليمة في الجسوم الصحيحة فان لم يعمل المتعلمون بعلمهم في هذا الشأن

نفتت في الامة الامراض والاسقام وفتك في افرادها الموت الزؤام فقل عدد رجالها وتشوش نظام احوالها وطمع فيها اعداؤها وازف سقوطها وفناؤها .

(٢) : السعي الحثيث لكل ما يرقى العقول وينير الاذهان وهذا مفروض على المرين والعلمين وخصوصاً الآباء والامهات المتعلمين والمتعلقات لان المدرسة الاولى هي مدرسة البيت فلا يجوز للاب المتعلم ان يجعل كل اهتمامه بالدرس والمطالعة والتأليف والمراجعة وبهمل تربية اولاده العقلية والادبية ولا يحق للام المتعلمة ان تلهو بالاجتماعات العلمية والاحاديث الادبية والزيارات الحبية عن تثقيف عقول اولادها بل يجب على الوالدين كليهما ان يهيئا عقول اولادهما لقبول المعرفة باحياء قوة الملاحظة فيهم ونقويتها وتلقيهم مبادئ العلوم منذ الصغر بالطرق المختصرة السهلة لكي يستعدوا لدخول المدارس ويكونوا فيها ناجحين لان التربية البيتية اساس التربية المدرسية ومن لم يتأسس على العلم والادب عند والديه يندران ينبح في المدرسة . ويجب على المعلمين ان يذكروا ان التلاميذ امانة الله عندهم وان يبذلوا جهدهم في تلوين عقولهم بالعلم الصحيح الكافل بتأهيلهم للرجولية الحقة ويجب على الموظفين بدائرة المعارف ان يهتموا بتكثيف عدد المدارس وترقية شؤونها وتعيين المدرسين الاكفيا الوطنيين المهذبين الذين يعتبرون التعليم خدمة وطنية شريفة لا حرفة يقصد منها الارتزاق ومراقبة التدريس وتحسين اساليبه بحيث يكون صالحاً للنشئة رجال قادرين ان يقوموا بمحاجات الامة وينهضوا بها الى مستوى الامم المتمدنة فانه مامن امة ارتقت الا بالمعارف وحسبنا برهاناً على ذلك ارتفاع اليابان السريع فانه لم يتم الا بيت العلوم بواسطة المدارس الوطنية الراقية .

وخلاصة القول انه يطلب من الذين تعلموا ووكّل اليهم امر التعليم ان يهتموا بكل الاهتمام بالقيام بهذا الواجب المقدس باذلين كل قواهم في تثقيف العقول وتلوين الاذهان بالمعارف المختلفة الضرورية لنجاح الامة ادبياً ومادياً . وبذلك يكونون قد عملوا بعلمهم . فان قصروا في هذا الواجب بقي الجبل سائداً والعقول مظلمة وارباب الاعمال عاجزين عن انقاذ اعمالهم فانحطت الافراد والامة جميعاً ولم يبق للتمدن فيها من اثر .

(٣) : اصلاح الآداب العامة وهذا مطلوب من علماء النفس والاخلاق ورؤساء الاديان والخطباء وارباب الصحف والمجلات الادبية فيجب على هؤلاء وامثالهم ان يجتهدوا في ترقية الآداب الصحيحة ورفع منار الفضائل ومكارم الاخلاق لان الامم باخلاقها وآدابها فان قصروا في هذا الواجب انتشر الفساد وعم الكفر والاحاد وانحطت الجماعات والافراد وساءت الاحوال وخربت البلاد والتاريخ اعدل شاهد على صحة ذلك . والآثار القديمة على ضفاف دجلة والفرات والنيل وشواطئ بحر ايجه وجرش وتدمر وبعلبك والبتراء الدالة على ما كان للامم السالفة من المدنية الزاهرة التي اضمحلت لفساد الاخلاق اى عدم العمل بقوانين الآداب الصحيحة وعدم السير في مناهج الفضيلة — تلك الآثار تؤيد شهادة التاريخ وثبت صحة القول ان الآداب الصحيحة والاخلاق الفاضلة والمواظف الشريفة هي اساس تقدم الامم وارثائها وسبب نموها وبقائها . قال احد علماء الجرمان : ان الحكم على مستقبل كل امة يعرف من حالة شبانها العقلية والاخلاقية .

فمن اهم الواجبات سعي المهذبين والواعظين لاصلاح الآداب والاخلاق العامة ومن الضروري ان يكونوا قادرين على اضرام محبة الفضيلة في صدور القوم حائزين اسمى المبادئ والصفات الحسنة سالكين بحسب قوانين التهذيب الصحيح وقواعد الدين القويم لتكون اعمالهم مطابقة لاقوالهم ويكونوا امثلة صالحة للذين يهذبونهم ويعظونهم والا صدق عليهم قول الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم  
تصف الدواء الذي السقام مطبياً كي ما يصح به وانت سقيم  
لأنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

وقول الآخر :

فكم انت نهي ولا تنهي وتسمع وعظاً ولا تسمع  
فيا جحر الشخذ حتى متى تسن الحديد ولا تقطع

(٤) : تحسين الزراعة والصناعة والتجارة وهذا مطلوب من الذين درسوا العلوم والفنون المتعلقة بهذه الامور كالكيميااء والطبيعيين والفنون الجميلة فيجب على هؤلاء

المتعلمين ان يبذلوا جهدهم في اتباع الطرق الحديثة الفنية وتطبيق ماتلقوه في المدارس وما طالعوها في الكتب على اعمالهم المختلفة . اني اعرف بعض الشبان الذين درسوا الفنون المشار اليها في مدارس اوربة وعادوا الى وطنهم وبايديهم الشهادات الناطقة باكمال دروسهم لكنهم لم ينفعوا بلادهم بشيء ابي لم يتبعوا الاصول الفنية الحديثة في زراعة اراضيهم او في صناعاتهم بل بقوا تابعين الطرق القديمة التي كان عليها اسلافهم منذ قرون عديدة اما لانهم لم يتمكنوا من استحضار الآلات الزراعية او الصناعية بسبب غلائها وقلة مالهم او لانهم آثروا الاستخدام في دوائر الحكومة على الاشتغال بالزراعة او الصناعة او التجارة فذهبت اتعابهم واوقاتهم واموالهم التي انفقوها في سبيل تحصيل تلك العلوم سدى لانهم لم يعملوا بها . ولو عملوا لاقتنوا الفلاحة والزرع والفرس والتخصيب والسقي وزادوا الاراضي المزروعة اليوم اضعاف مساحتها فعادت الى ما كانت عليه قديماً من الخصب ووفرة الغلال وتدفقت منها سيول الاموال وتحسنت بذلك جميع الاحوال والاعمال .

(٥) : احياء اللغة القومية وهي اللغة العربية في بلادنا وتحليلها من الالفاظ العامية والشوائب الاجمعية وهذا مطلوب من اساتيدنا وادباؤها وخطابها وكتابها والجامع اللغوية المؤسسة لهذه الغاية فلا يليق بالاستاذ ان يشرح لتلاميذه احكام اللغة الفصحى بالالفاظ السقيمة والتعابير الركيكة ولا يحق للخطيب ان يستعمل اللغة العامية في خطبه العلمية او يلحن في الفاظه فيرفع الجرور ويمجر المنصب او يحرف الكلم عن مواضعه ورواضعه ولا يجوز للكاتب ان يحشور رسائله ومقالاته بالتعابير السوقية والاغلاط اللغوية والنحوية والبيانية ولا لاعضاء الجامع اللغوية ان يتركوا لغتهم متأخر عن مجارة لغات العصر بل يجب على هؤلاء كلهم ان يجتهدوا في مراعاة قواعدنا وسد ثلثها بوضع كلمات جديدة للمستحدثات العصرية اما بالاشتقاق او بالتعريب او بالنحت لكي نحيا وتنمو لان اللغة التي لا تنمو تموت واذا ماتت اللغة ماتت الامة التي تنتسب اليها. اذ لبقاء الامة بدون لغتها واذا قصر علماءها عن السعي لحياتها لم يكونوا معلمين بل نافعين لامتهم .

(٦) : المحافظة على حقوق الافراد والجماعات ونشر العدل والامن في البلاد وهذا

مطلوب من خريجي مدارس الحقوق الذين تبوأوا مناصب الحكومة او تعاطوا الحماة فان العدل اساس الملك والامن علة استتباب الراحة والطمأنينة ودوران دولاب الاعمال المختلفة فان لم يجتهد هؤلاء الرجال في القيام بوظائفهم بالحكمة والرزانة والنزاهة والامانة ضاعت حقوق العباد وكثر الظلم والفساد وعمّ الخراب البلاد وان قاموا هم وغيرهم من المتعلمين بالاعمال المطلوبة منهم حق القيام ارنفع شأن الامة وحسنت احوالها المادية والمنعوية واستطاعت ان تجاري الامم الراقية في سلم المدنية . فان قيل ان كل اهل الصناعات والوظائف الذين مر ذكرهم عاملون بعلمهم وقائمون بوظائفهم قلت لاريب ان كثيرين منهم متممون الواجب فهم مستحقون اطيب الثناء ولكن كثيرين منهم ايضاً مقصرون في اعمالهم فهم مستحقون التقرير واليهيم يساق الكلام ونحوهم تسدد أسنة الملام لعلمهم ينهبون من غفلتهم ويشعرون بخطيئهم فيبادروا الى اصلاح انفسهم باصلاح مبادئهم وغاياتهم فان نتائج الاعمال ننوقف على غايات العمال فان كانت الغايات تحصيل المال او المجد او المدح بطلت الفائدة المنتظرة من اولئك المتعلمين وايضاحاً لذلك اقول ان الطيب الذي لا يهتم الا بقبض الاجرة من عليه والحاكم الذي لا يبالي الا بتعظيم الناس له وتسيبهم بحمده والخطيب الذي لا يهتم الا باظهار ما عنده من البلاغة وحسن الالتقاء وسعة المعرفة ليحمل الناس على الاعجاب به واذاعة فضله على صفحات الجرائد والمجلات — هؤلاء كلهم وامثالهم من المتعلمين لافضل لهم على الامة ولا فائدة منهم لها . ولكن ان كانت غاية الطيب انقاذ المر يض من خطر الموت وغاية الحاكم انصاف المظلوم من الظالم وغاية الخطيب ان يراذهان السامعين وبث روح الفضيلة فيهم وغاية الاستاذ انقاذ تلاميذه من مخالب الجبل وغاية المحامي المدافعة عن الحق الصريح ومقاومة الباطل وغاية الامام او القسيس ارشاد الضالين الى محجة الحق المبين كانت النتائج حسنة مطابقة لحاجات الامة متضافرة على حفظ كيانها ورفع شأنها . قيل ان احد السياح مر بصرح فخم جوله مئات من العملة يشغفون بترميمه ورأى على مسافة قريبة منه مقطعاً للحجارة فيه ثلاثة رجال يعملون فدنا منهم وسأل كلاً منهم قائلاً ماذا تعمل في هذا المكان فقال الاول اني اشغل بنصف دينار كل يوم وقال الثاني اني اقطع حجارة تطابق هذا الرسم الذي تراه امامي وقال الثالث اني أساعد

رفاتي في بناء ذلك الصرح الذي سيكون مجلساً لنواب الامة فسر السائل بالجواب الاخير لانه دل على ان غاية ذلك العامل لم تكن تحصيل المال ولا اطاعة امر المهندس كما كانت غاية رفيقيه بل الاشتراك في خدمة المصلحة العامة . وكل عاقل يجب عليه ان يراعي في عمله هذا المبدأ أو يقصده هذه الغاية ذاكراً ان عمله مرتبط بمصلحة الامة والمجتمع وانه يجب عليه ان يساعد على قدر طاقته في بناء مجد الامة وحضارتها و يبذل جهده في ترقيتها واسعادها والمحافظة على كرامتها .

التاني الاسباب التي توجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم وهي :

(١) : ان العمل هو البرهان القاطع على صحة العلم والوسيلة الوحيدة لتكميل الانسان فمن لم يأت عملاً مفيداً لنفسه ولابناء جنسه لم يكن علمه صحيحاً وقد ثبت بالاختبار ان الانسان لا يكمل بالعلم وحده اي ان عقله ومداركه ومعارفه واخلاقه انما تصلح وتكمل بالاجتهاد في العمل لا بمجرد الدرس والعلم فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم لكي لا تكون دعواهم باطلة ولا سجاياهم ناقصة .

(٢) : ان المتعلمين هم اعرف الناس بوجوب العمل وسد الحاجة اليه ووفرة فوائده واقدرهم على اتمامه واتقانه فيتوقع منهم ان يقوموا به اكثر مما يتوقع من سواهم فان قصروا في ذلك كان ذنبهم اعظم من ذنب المتقصرين من الجهال وكانت خسارة الامة بسبب نقصيرهم اكبر من خسارتها بسبب نقصير غيرهم فيجب عليهم ان يعملوا بعلمهم لئلا يجنوا على انفسهم وعلى وطنهم .

(٣) : ان المتعلمين هم هداة الامة الى الطريق الاقووم وقادة افكارها الى الخير الاعظم بما اقتبسوه من انوار العلم الساطعة وما عرفوه من حقائقه اللامعة وقد اجمع اهل التحقيق على ان الهداية بالاعمال خير من الهداية بالاقوال وقيادة الجيش تستلزم السير معه بل امامه فان اقتصر المرشد على الوعظ والتعليم دون ان يسلك في السبيل المستقيم لم يكن وعظه ناجعاً ولا تعليمه نافعاً وان ترك القائد جيشه يسير وحده ونام عرضة للفتنة والانهزام فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم لتمكنوا من هداية الامة واصلاحها .

(٤) : ان غاية كل تعلم وتهذيب وثقافة وتدريب انما هي الاستعداد للاعمال

المفيدة فان اهل المتعلمون هذه الغاية او تكاسلوا في اتمامها وتحقيقها ذهبت الاوقات والاموال التي انفقوها في تحصيل العلم سدى وخابت فيهم آمال الوالدين والمربين والمعلمين والوطن وكان مثلهم مثل طماع يجذل انفق عمره في جمع المال ثم دفنه في الارض ولم يخبر احداً بوضعه ومات غير مأسوف عليه فذهب ماله ضياعاً لم يتنم هو به في حياته ولا تركه لاحد يسنفد منه بعد مماته . فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعلمهم ليقوموا الغاية التي لاحلها تخرجوا في البيوت والمدارس فيحصل النفع لهم ولغيرهم .

الثالث شروط النجاح في العمل وهي :

(١) : حبه واحترامه والتعور بوجوده فالذي يحقره ولا يراه واجباً عليه ولا ضرورياً خيره وخير شعبه ويعتقد انه في غنى عنه وانه غير مكف ان يخدم وطنه به لا يمكن ان ينجح في عمل من الاعمال اذا اضطر اليه او أرغم عليه ولذلك ترى بعض الذين كانوا اغنياء وبددوا ثروتهم بالعيش المسرف واضاعوا اوقاتهم باللهو واستباح الشهوات الجسدية ثم اضطروا الى عمل يحصلون به قوتهم الضروري فتعاطوا بعض الاعمال ولكنهم لم ينجحوا في شيء لانهم لم يتعودوا الا الازدراء بالاعمال والعمال بخلاف الذين شعروا بوجوب العمل واحترموه وتمرنوا عليه فانهم نجحوا في كل ما تعاطوه . من الحرف والصناعات وأفادوا اوطانهم فوائدهم . ان ملوك الغرب في هذا العصر يبعثون باولادهم وحفدهم الى دوائر الاعمال المختلفة بعد تخرجهم في المدارس العالية والجامعات الكبرى ليتعلموا الحكمة العملية ويتأهبوا للجلوس على عروش الممالك وذلك دليل على احترامهم العمل وسبب نجاحهم فيه . فعلى الوالدين من عامة الناس ان يقتدوا بأولئك الملوك في تربية اولادهم على حب العمل واحترامه والشعور بانه واجب وضروري لكي ينجحوا في أعمالهم المتنوعة وينفعوا انفسهم واطانهم .

(٢) : الاقدام بلا تردد ولا خوف من المصاعب لان الاجسام عن العمل دليل الجبن والجبان لا ينجح ومن يتردد في عمله ولا يقتم كل صعوبة ولا يدوس كل عقبة في سبيل الوصول الى غايته يقدم راسخة تجبط مساعيه ويعود بالخيبة والفشل بخلاف الذي يستسهل كل صعب ويقدم على عمله بعزم شديد وهمة نفري الحديد فلا بكل ولا يمل حتى يكمل سعيه وينال أربه فان نجاحه مؤكداً وما أحسن قول الشاعر :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فان فساد الرأي ان تبردا  
 وان كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً فان فساد العزم ان ينقيدا  
 (٣): عدم التأجيل فالذي يؤجل ما يجب عمله اليوم الى الغد لا ينجح لان  
 التأجيل يلد التهاون والغد مجهول امره وله عمل آخر واذا أُجِّلَ عمل كل يوم الى مابعد  
 تراكت الاعمال وزادت الصعوبات فتعسر القيام بالواجب او تعذر وانقطع أمل  
 النجاح . سئل احد وزراء فرنسا وكان ينجز أعمالاً كثيرة في وقت قصير  
 تستطيع ان لنجز كل هذه الاعمال فقال بعدم تأجيلي الى الغد ما أقدر ان أعمله  
 اليوم . وكتب احد الشبان الى السيد ولترسكوت يطلب نصحه وكان قد دخل في  
 منصب جديد فأناه الجواب بهذه الصورة :

« احترس من البطالة ولا تؤخر عملاً يجب القيام به ولكن أوقات الراحة بعد  
 العمل لا قبله فانه اذا سار جيش واضطربت مقدمته قليلاً حدث اضطراب عظيم في  
 ساقته وهكذا الحال في الاعمال فان لم تعمل عمل كل يوم في يومه فعما قليل تردم  
 عليك الاعمال فتضيق بها ذرعاً فاحذر التأجيل » .

(٤): اعتبار قيمة الوقت والمحافظة عليه فالطبيب او المحامي او الاستاذ او الحاكم  
 او الرئيس الذي يسهر مع رفائه الى ما بعد نصف الليل و يبقى في سريره الى قرب  
 الظهر لا يقدر ان ينجح في عمله لانه اضاع وقته بلا فائدة او في ما يضره وكذلك  
 الذي يقضي ساعات النهار في اماكن اللهو لاعباً بالنرد او الورق او غيره من الملاهي  
 ويقتل وقته بما يضر ولا ينفع هو بعيد عن النجاح . قال الملك لويس الرابع عشر:  
 « المحافظة على الوقت من كالات الملوك » . والحق انها من واجبات الاشراف والعلماء  
 والعمال أيضاً . ولا شيء يساعد على وجود هذه الصفة في الانسان مثل تعوده انجاز  
 كل عمل في حينه فن ارتبط في عمل ولم يأخذ فيه بالوقت المعين عدّ مخلفاً بل مجرماً  
 ما لم يكن له عذر مقبول ومن لا يهتم بالوقت لا يهتم بالعمل ولا يستحق ان يؤتمن على  
 اعمال ذات شأن وبالنتيجة لا ينجح في حياته .

(٥): الامل او توقع النجاح فاليأس او الخائف او الفاتر الهمة الذي يعتقد  
 انه غير قادر ان ينجح وان ليس امامه الا الهبة والفشل لا يمكن ان يفلح في عمل

بخلاف الرجل الواثق بنفسه كل الثقة المتوقع الفوز الواضع الفلاح نصب عينيه المتيقن اقتداره على العمل السائر الي غرضه بجملي ثابتة وقلب كبير ونفس عزيزة وهمة عالية فانه ينجح في مسعاه وينال مناه لان الامل يقويه على اقتحام المساعب واحتمال المتاعب للفوز بالرغائب ونيل المطالب ويدفعه الى السير في سبيل الواجب ولو كان مملوءاً بالاخطار كما يدفع البخار السفينة الى السير في وسط البحار . والامل ينشئ سروراً في النفس والسرور بالعمل يجعله هيناً . قال كارليل احد فلاسفة الانكليز : « أروني رجلاً يتغنى في اثناء عمله وانا اضمن انه يعمل في اليوم ضعفي ما يعمله الغضوب العبوس لان من يسير على نغم موسيقي قلما يشعر بالتعب » . فالمسرور بعمله ينجح والذي يذهب الى العمل حزناً متذمراً منقبض الصدر عابس الوجه كأنه ذاهب الى السجن او الصلب لا يمكن نجاحه .

(٦) الاجتهاد والحد . قال الحكيم : يد المجتهدين تسود فما من احد احرز السيادة او الشرف او التقدم او التبرة الواسعة الا دفع ثمنها كدّاً وجداً عظيمين ولا احد استطاع ان ينجح بالكسل والتواني وما احسن قول الشاعر :

تريدين ادراك المعالي رخيصة ولا بد دون التهد من ابر النحل

وقول الآخر :

تروم العز ثم ننام ليلاً ومن طلب العلى سهر الليالي  
ان الذين بلغوا اعلى ذرى النجاح بكدهم واجتهادهم لا يحصي عددهم فأقنصر على ذكر بعضهم بالاحصار على سبيل التمثيل . فمنهم ابو نصر محمد الفارابي الفيلسوف الشهير الذي اتبع الفلسفة اقصاها وادناها والف فيها كتباً لاتعد لكثرتها مع ما كان عليه من العوز فكان يسهر الليالي للمطالعة والتصنيف ويستضيء بمصباح الحارس وبقى على ذلك الى ان عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه وصار اواحد زمانه كما جاء في ترجمته المذكورة في كتاب عيون الانباء . ومنهم اسحق نيوتن اكر فلاسفة الانكليز فقد قال صريحاً : « ان كنت قد خدمت العالم بشي فباجتهادي وجلدي . ومنهم دزرايلي الذي رقي الى اسمى المناصب بجده وكده . فانه لما كانت مساعيه الاولى تجبط لم يفعل ككثيرين من الشبان الذين اذا خابوا مرة وهدت

قواهم ووقعوا في لجة اليأس بل ظل يجتهد ويجد حتى نجحت اعماله وبلغ مراده ومنهم بروم الذي خدم شعبه اكثر من ستين سنة وتعاطى الفقه والانشاء والسياسة والعلوم المتنوعة واتقن كل ما اشغله به . ومنهم نابوليون الاول والقائد ولتن وسائر الذين اشتهروا في العالم بالسياسة والعلوم والشرائع والصنائع والتأليف وبلغوا اعلى درجات الفوز بمجدهم واجتهادهم فلا يطمعن احد في نجاح اعماله ما لم يجتهد وكل الاجتهاد ابي يصب كل قوته و يضع كل قلبه على كل عمل يأخذ فيه لانه ( على قدر اهل العزم تأتي الدزائم ) . ولا يفيد الانسان علمه ولا ذكاؤه ولا وسائله ولا مساعدات الاصدقاء له اذا هو لم يجد ويجتهد ويتعب عقله وجسده لانه لاشيء ينثر الا بالتعب والحياة جهاد مستمر . غير انه يجب الاحتراز من الافراط في التعب لثلاث نئلف الحياة قبل بلوغ الامل فالاجتهاد غير الاجهاد كما ان الراحة غير الكسل والحكيم من عرف ذلك ولم يفرط في الاجتهاد الى حد الاجهاد ولا في الراحة الى حد الكسل .

( ٧ ) : الامانة والاسقامة وهما من اهم شروط النجاح في كل الاعمال ولا سيما الطب والصيدلة والقضاء والمحاماة والوظائف المالية فالطبيب الامين المستقيم يكتسب ثقة الناس به و ينبجح ولكن الذي يجتدع مرضاه ليستنزف اموالهم لا يمكن ان يكسب ثقة الناس به ولا ينجح الا ريثما ينكشف خداعه . ان بعض الاطباء يضمنون الشفاء للعليل وهم على يقين من ان داءه نعياء غير قابل الشفاء . وبعضهم يوهمون المريض بان مرضه عضال وحالته نذير بالخطر مع علمهم بان مرضه بسيط لاشيء فيه من الخطر وكل ذلك الخداع نائى عن الاطماع . والصيدلي الصادق الذي يركب الدواء بحسب وصف الطبيب بكل تدقيق ولا يستعمل الغش في ادويته هو الذي يأتمنه الناس و ينجح في عمله ولكن الذي يغير المقادير و يبدل العقاقير الغالية بالرخيصة ليتوفر له الربح يظهر غشه و يتعد القوم عنه فيحسروا مادياً وادبياً . والحاكم العادل الذي يراعي في احكامه الشرائع دون محاباة هو الذي يرضي الله والناس و يكتسب المدح و يرثي في معارج الفلاح . ولكن الذي يراعي مصلحته وعواطفه دون الحق والعدل لا يمكن ان ينجح نجاحاً حقيقياً وان اصبح بالرشوة غنياً لان تذييب البري و تبرئة المذنب بغية اتراع الجيوب من اكبر

لا تآم واعظم الذنوب واول دواعي الفشل وموجبات الخزي والخلج والماحي المستقيم الذي لا يدافع الا عن الحق ولا يقبل وكالة المزورين هو الذي يربح الدعوى وينجح في عمله ولكن الماحي الذي يدافع عن الباطل ويعلم الناس التزوير ويقبل وكالات المزورين بغية تحصيل المال بالحرام لا بالحلال لا يمكنه ان ينجح الا ربثا يتكشف امره ويفتضح سره فيسقط قدره ويكره ذكره ويحسبه الناس من اصحاب الجرائم ويمنع من الدخول الى المحاكم والكاتب او المحاسب الامين الذي يحافظ على الصدق في اقواله والاخلاص في اعماله هو الذي ينجح ويرتقي ولكن الكاذب او المختلس لا يمكن نجاحه لانه اذا ظهرت خيانتة او سرقة طرد من وظيفته وحرم حق الاستخدام . قيل ان مدير مال رو كفر المثير الشهير كان في اول امره كاتباً لصيرفي في ولاية كنساس فأمل يوماً عليه رقيماً وامره ان يقدم التاريخ ليخلص من تبعته فابى هذا الكاتب الامثال لامره باسلوب لطيف فأمره ثانية فابى وحسب نتيجة الكذب شر النتائج فأمره ثالثة فابى وتوقع ان يطرده وقال غير مهمم بالنتيجة لا اقدر ان استخدم قلمي للكذب وان ما تأمرني به هو كما مر لي بالسرقة . وكانت النتيجة ان الصيرفي بدلاً من ان يطرد ذلك الكاتب زاد اكرامه وضاعف له مرتبه وائتمنه على كل شيء لانه تحقق صدقه وامانته فالامين في عمله هو الذي ينجح .

(٨) الاكمال فلا يصعب على الانسان ان يقصد الامور السامية وبتدئ الاعمال العظيمة ولكنه يصعب عليه اتمامها اذا لم يكن من ذوي الرزانه والتعقل والدرية والمثابرة والثبات وما اكثر الذين يبدؤون بمشروعات واعمال نافعة ثم يضجرون منها و يتركونها شاهدة عليهم بالطيش والجهل والنقلب والتردد . ان العمل الزهيد المتم باحكام افضل من الاعمال الكبيرة التي شرع فيها قاصدوها ولم يتموها . فالكوخ الخقير التام البناء انفع من القصر الذي وضعت أسسه ورفعت جدرانها ولم يكمل . ان كبيرين اشتبروا بالمقاصد السامية والفصاحة والبلاغة وحسن البيان وقوة الحجة ولكنهم لم يفيدوا جاهلاً ولا اصحوا فاسداً ولا تموا عملاً كبيراً ولا صغيراً فابن هؤلاء من اهل الدأب العقلاء الذين ماشعروا في عمل الاتموا وماقصدوا امراً الا ادر كوه . ان خير الاعمال بالاكمال والحازم من تأمل في العمل قبل الشروع فيه فان يقن انه قادر على اتمامه بدأ به والا

غير له ان لا يبدأ به بل يبدأ بما يقدر عليه و يجتهد في اكماله فلا نجاح في الاعمال  
الا بحسن الاكمال . ولا اجمل من الذين قادم الطمع الى اعمال تستلزم اضعاف  
قدرتهم اقاموا بجزء منها وعجزوا عن اكمالها فتركوها فتولاها غيرهم وانبغ بجعلهم .

(٩) : الاتقان او الاحكام وهو شرط جوهرى للنجاح في كل عمل فكما ان  
التجارين والحدادين والحياطين وغيرهم من اهل الصناعات لا يمكنهم ان ينجحوا  
ما لم ينقنوا مصنوعاتهم كذلك الاطباء والمحامون والكتاب والمنشؤون والمعلمون  
والمهندوبون وسائر المشتغلين بالعلوم والفنون يتعذر عليهم النجاح ما لم يحكموا اعمالهم .  
ان الاتقان يستلزم التأني والثبات لان المحلة نفس العمل وحياتياً نفس الحياة  
ولذلك جاء في الامثال الشرقية قولهم: (في التأني السلامة وفي العجلة الندامة) . فمن شاء  
ان ينقن عمله فعليه ان لا يسرع فيه ولا يتوقف عنه ولا بد من الانتباه التام الى  
مواضع النقص بغية اكماله ومواطن الخلل لاجل اصلاحه حتى يكون العمل كامل الاحكام  
على اجمل ترتيب واحسن نظام فان من بلغ في عمله الاتقان التمام تفوق على اقرانه  
ونال المقام الاول بين اهل صناعته وحصل على المجد والكرامة بين من يعرفون  
فضله ويقدرونه قدره . فالخطيب المنقن صناعة الخطابة اذا ذهب الى لندن والقي  
خطاباً في احد انديتها أعجب به السامعون وتحدث ببلاغته الراوون ورحب به العلماء  
والادباء والخطباء والعظماء وذكرته الجرائد بالحمد والثناء . ودعي الى الخطابة في جميع  
الاندية الادبية وازدحمت عليه الجماهير لتلتقط منه الفوائد العليمة ونشرت خطبه  
المجلات الانكليزية وربما ترجمت الى غيرها من اللغات الاوربية . وما يناله الخطيب  
المنقن صناعته يناله الاديب والكتاب والطبيب والمحامي والاستاذ والمخترع وسائر  
العلماء اذا كان كل منهم منقناً عمله .

(١٠) : التفنن والابداع او التحسين فلا يكفي ان يكون العمل كاملاً منقناً  
بل يجب ان يتحسن على توالي السنين والايام والتحسين يستلزم الابتكار والاختراع  
والا لم يتم الارتفاع فان اكنفى العامل بنقله غيره في عمله ولم يزد عليه شيئاً من  
مبتكراته بقي عمله في آخر حياته كما كانت في اولها بل ربما بات اقل احكاماً في  
الشيخوخة مما كان عليه في الشببة لان مبدأ التقليد والاتباع مبدأ الضعف والتقهقر

وطريقة الابتكار والابداع طريقة القوة والنقد . ان الطبيب الذي لايزيد معرفته بالمطالعة ولا يحسن اعماله الجراحية بالممارسة لا يلبث ان يحسب في عداد الدجالين وقس عليه غيره من العلماء العاملين الواقفين على درجة واحدة فان وقوفهم هو عين التأخر . وكل أمة تفقد قوة التنفن والابتكار في أعمالها لا بد من سقوطها .

ان العصر عصر تجدد فلا يحسن البقاء على القديم الا اذا كان مطابقاً للعقل الصحيح وفائدته محققة . ولا يجوز الاستخفاف بالحديث او رفضه الا اذا كان فاسداً واضراراً ثابتة . ان العقل الصحيح يقضي بوجوب الارتقاء والارتقاء لا يتم الا بتربية قوة التنفن والابتكار لكي نتحسن الاعمال وتصلح الاحوال وحينئذ يتم الفلاح ويزداد النجاح . فعلى المتعلمين ان ينفضوا عنهم غبار الكسل ويجهدوا في زيادة العلم وصلاح العمل شاعرين بالواجب المترتب عليهم للوطن والامة مظهرين كمال النشاط وعلو الهمة مراعين شروط النجاح في كل الاعمال ساعين للتخير في كل حين وحال . والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد . وبهذه التوفيق والاعانة .

لا يرقى البلاد الا علوم      نتجلى بصالح الاعمال  
فاعملوا صالحاً بما قد علمتم      فرجال الاعمال خيرا الرجال

( انيس سلوم )



## ارتباط البلاد على اصول الاتحاد<sup>(١)</sup>



أيها السادة الكرام والاخوان الاعزاء .

دعاني صديقي المحترم رئيس المجمع العلمي الى القاء محاضرة في هذه القاعة والح في الدعوة والطلب حتى لم يترك لي مجالاً للاعتذار وبالرغم من تراخي الزمان بيني وبين منابر الخطابة واستنار الذهن بغشاء من صدى الجمود ضربه عليه الترك المتماذي وجدت نفسي تجاه هذا الطلب المقرون بالحزم والتصميم مضطراً الى الاجابة بالقبول واخام ذاتي الى هذا المأزق الذي اعرف الآن دخولي فيه واجهل كيف يكون خروجي منه فاذا حصلت رغبتى بعدم تبرمكم ورضائكم عني حمدت عقبي امري واذا جاءت النتيجة على خلاف ذلك طلبت عفوكم هذه المرة ووعدتكم ان لا اعود الى مثلها تارة أخرى .

اوقفني هنيهة من الزمن اختيار الموضوع الذي احدثكم به فلم اتعرض لمواضيع اللغة وآدابها ولا للمباحث التاريخية او الاجتماعية لان رفاقي الافاضل اعضاء المجمع لم في هذه الحلبات اشواط رابحة ابعدهم ان تجارى فاخترت موضوعاً ما كنت امل ان يكون مجلبة للرضى والامتع لولا ما حصل له مؤخراً من العلاقة بامورنا الاجتماعية والاقتصادية واعني به الاتحاد . ولست اعني به اتحاد الافراد او اتحاد القلوب وتوحيد المساعي في سبيل النفع المشترك وانما هو بحث اداري حقوقي بشأن ارتباط البلاد على اصول الاتحاد فهو اذن يتعلق بالدولة وليس بالفرد .

قبل الدخول في هذا الموضوع لا بد لنا من ايماء مختصر الى تعريف الدولة والاشكال التي تتألف منها . فقد عرفوا الدولة في الحقوق الاساسية بكونها شعباً متضامناً خاضعاً

---

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ السيد فارس الخوري من اعضاء المجمع المؤازرين

لحكومة واحدة ذات قوانين مشتركة وعرفوها في حقوق الدول انها الشخصية الخارجية لشعب مستقل واهم خواصها في معناها التام :

(١) : الحاكمية الداخلية التامة . وضعا التي تستطيع بها ان تحمل الشعب على حفظ العلاقات مع الدول الاخرى ذات الحاكمية الماثلة لها .

(٢) : الاستقلال التام الذي يجعلها بمعزل عن كل تأثير او سيطرة خارجية .

(٣) : السلطة التامة في اراضي ذات حدود معينة . بيد ان هذه الشروط لم تكن على الدوام تامة في الدول المعروفة وكثيراً ما نقص بعضها واختل واحد منها

وبقي العرف والتعامل جارياً على اطلاق اسم الدولة مع نقصان الشرط كما دخلت مصر وقبرس في الاحتلال البريطاني وبوسنه والمهرسك في الاحتلال النمساوي مع بقائها تابعة للباب العالي زمناً طويلاً فلم تكن سلطة الدولة تامة ضمن الحدود المعينة لها وكما كان الجيش

الترانسفالي بحول في اراضي الغير وتجري معه المفاوضات بصفته دولة وليس له ارض يحكمها . وحالة بلغاريا في عهد اتصاها الاسمي بالباب العالي انقاص لسلطة الدولة العلية ضمن

حدودها بدون اخلال بحقوقها الدولية .

عند الاوربيين لفظة ( Etat ) توسعوا في استعمالها كثيراً فاطلقوها عند ارادة الدولة بالمعنى الذي ذكرناه واستعملوها بمعنى القوة التي نسن القوانين وننفذها فاما ان

تكون تلك القوة مجتمعة بشخص واحد كما قال لويس الرابع عشر ( الدولة انا ) واما ان تكون ممثلة بشخص معدودين يؤلفون القوة الاجرائية والتشريعية كما هي الحال

في بريطانيا . وهذه اللفظة لها في كل بلد من بلاد اوربا مفهومان : احدهما المفهوم الداخلي ويراد به الحق العام الذي تمثله الحكومة . والاخر المفهوم الخارجي وهو

الحاكمية القومية التي تمثل ذلك الشعب في الخارج . وعندما يعرفون اللفظة في معارج اللغة يعرفونها بكونها شعباً مؤلفاً خاضعاً لحكومة واحدة . وهي عند الالمان معناها

مدينة او ناحية من البلاد بدون مراد سياسي او اداري . اما كلمة دولة في العربية فمعناها أضيق من معنى الكلمة الانجليزية ولا يفهم منها العرب الا الدولة المستقلة

استقلالاً سياسياً وادارياً فاذا كانت غير متمتعة بهذا الاستقلال فهي ايبالة او ولاية او مقاطعة او حكومة فان كان عليها امير فهي امارة والافهي ولاية او جمهورية .

وعلى ذلك فترجمة كلمة ( Etat ) بالدولة تكون مصيبة في بعض الاحوال ومخبطة في البعض الآخر وترى المترجمين في كتب اللغات يترجمونها في كل مقام بالمعنى المراد منها في ذلك المقام .

اما اشكال الدول فنندمج في شكلين : احدهما الدول البسيطة او الموحدة او المنفردة . والثاني الدول المركبة . والمراد من الدولة البسيطة الدولة التي فيها حاكمية واحدة تمتد سلطتها المنفردة الى كل فرد من افراد رعيته ولا يعرف اولئك الافراد سلطة ما لغير تلك الدولة وهذا الشكل هو الاصل في تأليف الدولة وعليه جرت اكثر الدول في التاريخ القديم والحديث ويمثله في العصر الحاضر دول فرنسا وايطاليا واسبانيا وتركيا وغيرها من الدول الجارية على هذا النمط من الدول المركزية .

والشكل الثاني هو اجتماع دولتين او اكثر ليكون منها دولة واحدة تختل لها كل دولة من الدول المجتمعة عن بعض حقوق الحاكمية وتؤلف باجتماعها حكومة مركزية تقوم بتلك الوظائف التي تختل لها عنها الحكومات المجتمعة وذلك مع بقاء حق السيادة والحاكمية في كل من تلك الحكومات .

وهذا التركيب الدولي له انواع مختلفة نتنوع بتنوع درجات الارتباط من هذه الدول ودرجة الحقوق الممنوحة للحكومة المركزية ولا يمكن حصر هذه الانواع ضمن قاعدة واحدة لانها تختلف باختلاف مذاهب الدول المركبة من جهة التوسيع والتضييق ولا يوجد دولتان من هذه الدول متشابهتان في قواعد اجتماعها مشابهة تامة وانما يوضع لكل تركيب دولي قواعد خاصة بحسب مصلحة المجتمعين واغراضهم من ذلك الاجتماع .

ليس من شأننا الآن ان نفصل جميع انواع هذا التركيب لان ذلك بطول شرحه وانما مرادنا ان نبحث عن نوع واحد من انواعه الاوسع انتشاراً وهو نوع الحكومات المتحدة الذي هو اقرب انواع الدول المركبة من شكل الدول البسيطة وهذا الشكل يجيء في الغالب بصورتين احدهما الائتاق والاخرى الاتحاد .

اما الائتاق الدولي ( Confederation ) فهو انضمام دول مستقلة ذات سيادة تامة الى بعضها واتحادها بموجب معاهدة لاجل بعض المصالح المشتركة مع بقاء السيادة

الداخلية التامة لكل دولة من الدول المنفقة ضمن بلادها ومن ذلك الاتفاق الجرماني الذي تأسس سنة ١٨١٥ بمعاهدة فينا وبقي الى سنة ١٨٦٦ ومنه اتفاق الرين الذي احده نابوليون واخذ على نفسه حمايته ودام من سنة ١٨٠٦ — ١٨١٣ وكذلك كان اتفاق المقاطعات الاميركية قبل حرب الاستقلال لحد سنة ١٧٨٩ وجرت على القاعدة نفسها الولايات الجنوبية المنشقة في مدة الانشقاق من سنة ١٨٦١ — ١٨٦٣ ومنها اتفاق النمسا والمجر والقساعة الضابطة لاصول الاتفاق ان تكون السلطة الاولى والسيادة العليا الداخلية لكل دولة في اراضيها فلا تضع حكومة الاتفاق قانوناً لها مخالفاً لقانون احدي الدول المنفقة وعلى هذا تكون الروابط التي تجمع البلاد المنفقة ضعيفة وسلطة الدولة المركزية على الحكومات المنفقة محدودة .

والصورة الثانية هي المعروفة بالاتحاد (Fédération) وهي دولة تؤلفها حكومتان او اكثر للقيام بالاعمال التي هي ذات اشتراك دائم بين تلك الحكومات وفيها تحتل حكومات الولايات المتحدة عن بعض حقوق الادارة والحكم وتتركها للدولة الاتحاد التي تقوم بذلك العمل ويمتد تأثيرها وسلطتها ليس على الولايات المتحدة فقط بل على كل فردٍ من سكانها ايضاً . وهذه الصفة تميزها عن صورة الاتفاق التي فيها لا يعرف الفرد سوى سلطة واحدة وهي سلطة حكومته وليس لحكومة الاتفاق المركزية سلطة عليه مطلقاً ولا يشعر بوجودها في حياته الاجتماعية والاقتصادية واما في اصول الاتحاد فيكون السكان خاضعين لسلطتين في وقت واحد ومجبرين على العمل بموجب قوانين حكومة الاتحاد وقوانين مقاطعاتهم المحلية .

والمقاطعات التي تحتد على هذا الوجه اما ان تكون قبل اتحادها دولاً مستقلة ذات كيان وسيادة تامة فتدعوها المصلحة المشتركة الى الاتحاد الاختياري وتسمى عندئذٍ الدول المتحدة . واما ان تكون قبل اتحادها ولايات تابعة لدولة واحدة فننصل عنها لسبب من الاسباب فتتحد معاً وتؤلف حكومة واحدة فتكون الولايات المتحدة . واما ان تكون في الاصل ولايات دولة واحدة جرت في ادارتها على قاعدة توسيع المأذونية وتدرجت الى عدم المركزية حتى صارت ولايات متحدة ايضاً . وفي الحالتين الاخيرتين لا يطلق على مثل هذا الاتحاد عنوان الدول المتحدة لان العناصر المؤلفة

لهذا الاتحاد ليست دولاً مستقلة ذات سيادة تامة لا قبل الاتحاد ولا بعده .  
يشترط لتأليف مثل هذا الاتحاد وامكان انفاذه ونجاحه شروط :  
اولها — المتاخمة وذلك ان تكون هذه الولايات المتحدة متاخمة بعضها البعض لا يفصل  
بينها اراضي دولة غريبة .

ثانيها — البناس الداخلي واهم اركان هذا البناس الوحدة القومية والوحدة  
اللسانية فان لم يكن ذلك حاصلًا كان الاتحاد ضعيفاً وبقى الخذر من تحكّم احد الجنسين  
على الآخر وتوق احد اللسانين على الآخر فينقلب الاتحاد الى الغلبة والحكم .  
ثالثها — سبق الانفصال بحيث لا يتم العهد الاتحادي الا بين قومين يملك كل  
منها قياد تنسه .

رابعها — امتزاج المصالح والمنافع فاذا لم يكن بين البلادين مصلحة مشتركة  
يستهد كل مها بالاتحاد لاحلها لا يكون في ذلك الاتحاد رابطة تجمعهما وتوثق  
اواصر الاتصال بينهما .

قلنا ان الاتحاد يتضمن سلطتين في وقت واحد وقد يكون فيه سلطة ثالثة ايضاً  
وانما هذه السلطة الثالثة عند وجودها يتحصّر تأثيرها على الحكومة الاتحادية المركزية  
فقط ولا يتجاوزها الى حكومات المقاطعات ولا الى الافراد .

مثال ذلك حكومات استراليا المتحدة ففيها مقاطعات ذات استقلال داخلي في  
ادارة شؤونها الخاصة تجمعها حكومة اتحادية ذات وظائف معينة تخت لها المقاطعات  
عنها فيوجد في البلاد سلطتان احدها للحكومات المحلية والاخرى للحكومة الاتحادية  
وهناك سلطة ثالثة للامبراطورية البريطانية بصفتها صاحبة حق السيادة والتمثيل  
الخارجي وانما هذه السلطة لا تمتد الى المقاطعات ولا تؤثر على الافراد . وهذا الشكل  
من تمثيل السلطات انتشر في المستملكات البريطانية وانما امكن تطبيقه بانف الحكومة  
البريطانية عن التدخل في شؤون المقاطعات الداخلية في غير الامور التي احتفظت  
بها هذه الدول لنفسها لتأييد سيادتها .

نظن البشر لهذا النوع من الحكومات قديم جداً ولعله كان منتشرًا في اكثر  
البلاد وانما نصادفه لأول مرة في التاريخ القديم بالشكل المكتوب الواضح عند الامة

اليونانية حين اتحدت حكومات ايتنا او اسبرطا او قورنتيه او ارغوس مع جيرانها لاسباب دفاعية او اقتصادية وكانت هذه الاتحادات تختلف في صميمتها ودرجة التصاقها فبعضها كان شديد الاتصال والبعض الآخر كان شكلاً ظاهرياً فقط لا يلجأ اليه الا عند اقتحام الاخطار الخارجية .

جميع الحكومات في اول عهدها تكون ضيقة النطاق .مقاربة الاطراف ضعيفة المواصلات مع جيرانها فترى نفسها مضطرة للاتحاد مع القرابين منها لاجل نقوية كيائها ثم لا يعم هذا الاتحاد ان ينقلب الى وحدة ماثلة الى التوسع والفتح كما جرى لروما عندما اتحد اللاتين مع جيرانهم حول مدينة روما وكما جرى لانكترا عندما اتحدت مع والس واسكوتلاندا .

الاتحاد يكون اختيارياً وذلك عندما تُتخذ المصلحة منه بين مقاطعة وأخرى فيكون نفعاً محضاً لجميع المقاطعات وفي مثل هذه الحال نضم هذه المقاطعات بعضها الى بعض بدون حاجة الى الاجبار والارهاق .و يكون اجبارياً عندما تكون الصلات شديدة وروابط الاتصال متينة بين المقاطعات ويعسر على الاكثرية منها تحمل ضرر الافتراق فيحملون على المخالف ويكرهونه على الانضمام الى رأي الجماعة كما حدث في حرب الافتراق التي قامت بين الولايات الشمالية والجنوبية في اميركا المتحدة سنة ١٨٦١ حتى تغلب حزب الاتحاد واكره الولايات الجنوبية المنشقة على الانضمام وكما جرى في المانيا عندما تغلبت بروسيا على النمسا وهانوفر وساكس سنة ١٨٦٦ واكرهت الاخيرتين على قبول شرائط الاتحاد الجرمانى الذي رتبته بسمارك .

انتشرت الاصول الاتحادية في الزمن الحاضر وقبلتها حكومات كثيرة من الحكومات المعروفة وبلغت تحت هذا الشكل من الادارة مبلغاً عظيماً من الرقي والنجاح . ووضح الامثلة على هذه الاصول الولايات المتحدة في اميركا الشمالية ودول سويسرا واستراليا وكندا ومكسيكا والبرازيل والارجنتين وغيرها .

جمهورية سويسرا مساحتها نحو ١٦ الف ميل مربع وعدد سكانها نحو ثلاثة ملايين وثلاث مائة وهي مؤلفة من ٢٢ مقاطعة مستقلة استقلالاً داخلياً (Etat) وكل مقاطعة منقسمة الى اضية والاضية الى نواح اودوائر بلدية يزيد عددها او ينقص بالنسبة

الى جسامه المقاطعة وعدد هذه الانسام ١٨٧ قضاءً مقسومة الى ٣١٦٤ دائرة بلدية والوحدات السياسية هي هذه الدوائر البلدية التي ينتخب الشعب اعضاءها وهؤلاء الاعضاء ينتخبون ممثلين للبيئات التشريعية لمراكز مقاطعاتهم وللحكومة الاتحادية في المركز العام. وهذه الحكومة مؤلفة من ثلاث قوى التشريعية والاجرائية والقضائية. فالقوة التشريعية ذات مجلسين احدهما مجلس الشيوخ ويسمونه ايضاً مجلس الدولة وهو مؤلف من نائبين عن كل مقاطعة فيبلغ عدد اعضائه ٤٤ عضواً والثاني مجلس النواب فنتخب كل ولاية نوابها بنسبة عدد سكانها بمعدل نائب واحد عن كل عشرين الفاً من الذنوس لمدة ثلاث سنوات وعند انقضائها يجدد الانتخاب وقد كان عدد هؤلاء النواب في سويسرا قبل الحرب العامة ١٦٧ نائباً وهذا المجلس يجتمعان معاً عند الايجاب فيتألف منها المجلس الوطني الكبير ولا يحق لرئيس الحكومة ان يفسخ هذا المجلس قبل انتهاء دورته فينتحل من نفسه ويعاد الانتخاب مجدداً. جميع القوانين يسنها هذا المجلس ويودعها القوة الاجرائية لاجل انفاذها.

اما القوة الاجرائية فهي مؤلفة من لجنة قوامها سبعة اشخاص تسمى مجلس الاتحاد ينتخبهم المجلس الكبير اي الشيوخ والنواب مجتمعين و يشترط في انتخابهم ان لا يكون من ولاية واحدة اكثر من عضو واحد وعند انتخابهم ينتخب المجلس ايضاً رئيس الاتحاد ونائبه لمدة سنة فقط وهذا الرئيس يرأس مجلس الاتحاد ويتولى اعمال الخارجية المسماة عندهم الشعبة السياسية وسلطته محدودة فليس له ان يفعل شيئاً بدون قرار المجلس. واعضاء المجلس الآخرون يتولون ادارة الشعب الاخرى معتمدين في جميع اعمالهم على قرار المجلس ايضاً فهم المنفذون لهذه القرارات فقط وليس لهم ان يفعلوا شيئاً من عند انفسهم. قسمت حقوق السيادة في سويسرة بين حكومة الاتحاد والحكومات المحلية في الولايات فاختصت الحكومة الاتحادية بوظائف التشريع المتعلقة بقوانين المدنية والجزائية والتجارية والبريد والبرق وضرب النقود والمواصلات والجمارك والخارجية. القوة القضائية في سويسرا مودعة الى ١٩ عضواً وتسعة معاونين وهؤلاء القضاة الذين تتألف منهم المحكمة العليا ينتخبهم البرلمان ايضاً لمدة ست سنوات وينتخب الرئيس ونائبه لمدة سنتين. فيظنر من ذلك ان جميع قوى الحكومة تعود الى نواب

الامة اي المجلس التشريعي فهو الذي ينتخب اعضاء القوة الاجرائية من بين افراده ورجال القوة القضائية ايضاً .

لم يشأ السويسريون ان تكون القوة محتكرة في الحكومة المركزية فحسبوا كل ولاية من ولاياتهم ذات حق بالسيادة والسلطة في الاعمال المختصة بتلك الولاية وجعلوا خضوع سكانها الى حكومة البلاد العامة متعلقاً على منعتهم وتائداً الى اختيارهم فأصبح سكان كل مقاطعة اصحاب السيادة الاولى في بلادهم منفردين بالتشريع والقضاء والحماية في الامور التي تعنيهم وحدهم واشتركوا مع سائر المقاطعات في الامور المشتركة التي تعني الجميع وتؤثر على جيرانهم ويكون الانفاق فيها خيراً من الاقتراق وهذا هو الاساس الاصيل لتأليف الاتحاد خصوصاً اذا كان التماس الداخلي مفقوداً بين المقاطعات المتجاورة فيحصل الاضطراب لتنوع الادارة وتبدل الاحكام بحسب تبدل الاماكن وطبائع السكان .

تختلف الاقوام في تدرج حقوق السيادة بين حكومات الاتحاد وحكومات الولايات فمنهم من يجعل الاصل في حق السيادة للولاية وسكانها وعندما تكون سيادة الاتحاد فرعاً عنها فالحقوق برمتها تعود لحكومة الولاية في الاصل الا ما استثنى منها وحصل التمثيل عنه بالنص الصريح لحكومة الاتحاد فيدرجون في الدستور الاتحادي جميع الوظائف التي انفقت المقاطعات على تركها للحكومة الاتحادية وما سوى ذلك يبقى من حكومة المقاطعات بدون حاجة الى ذكر صريح ومن هذا القسمل الاصول الاميركية والسويسرية والاستراية ومنهم من يجعل حكومة الاتحاد اصلاً سيئاً حق السيادة والسلطان فيعود اليها حق التشريع برتمته ما عدا الجهات التي تذكر بالاص صريح انها عائدة لحكومات المقاطعات ومن هذا القبيل حكومة كندا الاتحادية . وهذا النوع ينطبق على الدول التي تؤسس في ولاياتها عدم المركزية .

ولما كانت الولايات المتحدة الاميركية اعظم حكومة اتحادية في الدنيا ارى من الموافق ان نخصها ببعض التفصيل عن وصف الاصول الجارية فيها فتكون مثلاً واضحاً في هذا الباب خصوصاً وهي أقدم الحكومات الحاضرة من هذا الشكل وعنها اخذت اكثر الدول الاتحادية اصولها ونسجت على منوالها في اكثر جهات الادارة

ومنهم من تجدها حذر القذة: القذة: مثل جمهوريات اميركا الجنوبية واميركا الوسطى .  
 مساحة الولايات المتحدة الاميركية السطحية نحو ٣ ملايين ميل مربع وعدد سكانها  
 نحو مئة مليون نسف وبلغ عدد ولاياتها ( ٤٨ ) ولاية في الوقت الحاضر وقد بدأ  
 بثلاث عشرة ولاية فقط منذ نحو ١٤٠ سنة عندما قامت هذه الولايات وطاربت  
 برطانيا لاجل استقلالها وقد كانت هذه الولايات تابعة لانكلتره وهي من تيمرات  
 لا ارتباط بين الواحدة والاخرى منها الا بواسطة الامبراطورية البريطانية فبعد ان  
 فاز سكانها بهذه الحرب ونقرر لهم الاستقلال لم يوافقوا على الاندماج في دولة  
 واحدة بسيطة وانما احتفظت كل ولاية بحقوقها كما هي لنسبها في ضمن حدودها  
 واكتفوا باحداث اتفاق بينهم لاجل جمع قوتهم وقوتهم في الامور الخارجية وبعض  
 المصالح المشتركة مثل مصلحة الريد والبرق وضرب النقود . وبسبب كثرة المهاجرة  
 الى اميركا انتشر المهاجرون في داخل القارة وضربوا في عرضها وطولها واستعمروها  
 رويداً رويداً وكما عثرت مقاطعة بهم اسسوا فيها حكومة مستقلة بحقوق مساوية  
 لحقوق الولايات الاولى وانضموا الى الاتحاد وهم اليوم باقون على تلك الحالة ولم  
 داتيك الحقوق التي ورثوها عن المقاطعات الاولى .

حكومة الولاية اليوم تمتع بجميع حقوق السيادة المستقلة ما عدا المستنديات  
 التي تحتلها عنها حكومة الاتحاد . وكل ولاية لها قانونها الاساسي الذي يضمن الحقوق  
 العامة لافراد الشعب تجاه الحكومة وكيفية تشكيل الحكومة ومناخ الخزينة  
 والميزانية . ولها مجلسها التشريعي المؤلف من دائرتين احدهما للشيوخ والاخرى  
 للسواب ينتخب اعضاؤها من سكان تلك الولاية بالاقتراع العام وهذا المجلس يسن  
 القوانين ويسيطر على الادارة بجميع اضرافها . ولها حاكمها العام الذي ينتخبه الشعب  
 ايضا لمدة معينة ويتولى رئاسة القوة الاجرائية . ولها محكمة العليا حيث تمنهي  
 درحات القضاء فيها . ولها ضرائبها ورسومها واصولها المالية وديونها العامة . ولها  
 قوانينها الخاصة في الامور المدنية والحزانية واصول المحاكمات . ولها قانونها الخاص  
 في قضية الجنسية حتى انك تجد هذا القانون الذي يقتضي الوحدة في جميع اجزاء  
 الدولة مخالفاً في احدى الولايات عما هو في غيرها فترى الحقوق السياسية مثل حق

التصويت والانتخاب ممنوحاً لواحد في ولاية وممنوعاً عن امثاله في غيرها . فالفرد الاميركي قد يعيش دهره ضمن ولايته بدون ان يشعر بوجود الحكومة الاتحادية الا عندما يقدم شكوى من احدى الادارات الاتحادية كادارة البريد والبرق او عندما يدفع مكساً عن البضائع التي يستوردها من الخارج وجميع دعاويه وقضاياه تحل ضمن ولايته وفقاً لقوانين تلك الولاية . والهيئة التشريعية التي تمثل الشعب تستطيع ان تدخل اي تعديل او تحوير كان على قانونها الاساسي المستمد من ارادة الشعب فقط وليس للسلطة الاتحادية حق المراقبة عليهم مطلقاً حتى في امور التشريع سوى ما كان من جهة النص الوارد في الدستور الاساسي من ان القوانين الاساسية للولايات يجب ان تكون جمهورية فلا تستطيع ولاية ان تجعل حكومتها ملكية او غير جمهورية وفي ما عدا ذلك هي مختارة باتخاذ الشكل الذي تختاره في وضع قانونها الاساسي الذي يتضمن في الغالب اجباتاً معينة أهمها حدود الولاية لحقوق الشعب العامة وتشكيل حكومة الولاية والمجلس التشريعي وبيان كيفية انتخابه ووظائفه وحقوقه وإقامة القوة الاجرائية وكيفية ايجادها ودرجة مسؤوليتها امام نواب الشعب وحق القضاء واصول اجرائه وحرية الانتخاب وشكل حكومة المحققات في الاقضية وكيفية ادارتها والايحاء الى القوانين والانظمة الموضوعة والواجب وضعها وصيانة الامن الداخلي واصول الضرائب ومنايع الخزينة وكيفية الانفاق والسجوف والمستشفيات والاهتمام بالزراعة والمعارف والمواصلات وحقوق العمال وشرائط تعديل القانون الاساسي .

المجلس التشريعي في كل ولاية يتألف من الاعيان والنواب وجميعهم ينتخبهم الشعب بالرأي المشترك فالاعيان ينتخبون لمدة اربع سنوات والنواب لمدة سنتين وقد اخذوا جعل التشريع في مجلسين عن الاصول الانكليزية التي جرى عليها الشعوب الاخرى ايضاً والغرض منه ان يكون احد هذين المجلسين معدلاً للآخر فيكون ذلك ضمن من الخطأ او التسرع في سن القوانين فلا يبق مجال للتمييز او الاستثثار او الغلط الذي يرتكبه احد المجلسين .

واما عدد الممثلين في كل من المجلسين فيختلف بالنسبة لعدد السكان في كل ولاية

ولنصوص القانون الاساسي فيها الذي يعين عدد الافراد لانتخاب النائب الواحد .  
 حاكم الولاية ينتخبه الشعب عندما ينتخبون نواب التشريع ومدته في أكثر الولايات  
 اربع سنوات وفي بعضها ثلاث او سنان او سنة واحدة وهو يراقب انفاذ القوانين  
 واحكام المحاكم وله حق العفو عن الجرائم وقيادة القوات المحلية في حفظ الامن الداخلي  
 وهو يعين كبار الموظفين بعد ان يوافق مجلس الاعيان على تعيينهم ولكن هذا الحق  
 محدود جداً لان أكثر كبار الموظفين ينتخبهم الشعب بالتصويت مثل حكام الاقضية  
 الذين ينتخبهم سكان القضاء وكذلك القضاة فان انتخابهم يعود اما للشعب واما  
 للمحكمة العليا التي ينتخب الشعب أعضاءها . وهو يمثل الولاية في المراسلة مع الحكومة  
 الاتحادية وحكام الولايات الأخر . وللحاكم حق الابطال او حق الرد ( Veto )  
 وهذه صلاحية عظيمة جداً للذين يحسنون استعمالها وهي ان الحاكم يستطيع ان يرد كل  
 قانون يسنه المجلس التشريعي وذلك لان الشعب قد جعل الحاكم معدلاً لحرارة  
 الاحزاب ومبتلاً لنائج التسرع الذي يقع في المجالس في بعض الاحيان فهو ينتخب  
 الحاكم من ذوي الحكمة والاختبار الطويل واصحاب الدم البارد والحزم والروية ليجول  
 دوافع الاسات التي تذهب اليها الاحزاب السياسية . فالحاكم بواسطة هذا الحق  
 الممنوح اليه يسيطر على حركات التشريع ويستعمل هذه الصلاحية معتمداً على  
 ثقة الشعب به .

اما القضاة فينتخبهم الشعب او مجلس النواب او يعينهم الحاكم بموافقة الاعيان  
 وهم في الغالب يقلدون وظائف القضاة لمدة طويلة تبلغ العشرين سنة وانما روايتهم  
 قليلة بالنسبة الى شرف القضاء وغنى الاميركان . والقضاة مستقل في كل ولاية  
 وفيها تنتهي درجات المحاكمة بدون ان يكون لحكومة الاتحاد سيطرة على محاكم الولايات  
 وقوانينها واصولها . الا في الامور العائدة للقانون الاساسي الاتحادي او في  
 القضايا المودعة لحكومة الاتحاد .

في مبدأ الاتحاد الاميركي كانت عواطف الشعب مستقرة في الوطنية الضيقة  
 وكان اهتمام الافراد وتحمسهم منصرفاً نحو مقاطعتهم فلم يكونوا يعبأون كثيراً بالدولة  
 المركزية التي كانت منقطعة عن الشعب انقطاعاً تاماً غير ان هذه الحالة اخذت تتبدل

في غضون القرن التاسع عشر تبديلاً محسوساً وذلك بسبب الترقى الذي احرزته التجارة والعلاقات الخارجية فصارت مصالح كل شعب غير محصورة بالمنطقة الضيقة التي يعيش فيها بل كثرت علائقه مع الخارج وكان غنى الشعب الاميركي واتساع ثروته وانتشار تجارته خادماً لاحداث انقلاب في عواطفه نحو الحكومة الاتحادية التي تمثله في الخارج وتحمي تجارته ومصالحه الواسعة . كما ان انتشار الاحزاب السياسية المؤسسة على اختلاف جهات النظر في الامور السياسية الخارجية والتدابير الاقتصادية العامة جعل كل فرد من السكان مضطراً الى الانتماء لاحد هذه الاحزاب التي جمعت تحت الوترها سكان الولايات كافة ووجدت ميول كل فريق منهم فتكون منها فرق منتشرة في جميع انحاء البلاد وانظارها متجهة الى مقاصد معينة وموحدة بين جملة الافراد المنتسبين الى احدي الفرق فلم يعد للمنطقة الضيقة تأثير على منافع المنطقة الواسعة واصبح الفرد يتساهل في تضييع المصلحة المحدودة في مقاطعته لصيانة مصلحة حزبه وتأيد سياسته الرامية الى المصلحة العامة الواسعة . وكذلك الحرب الاهلية التي احدثها مجبو الانفصال في اواسط القرن التاسع عشر آلت الى الخذلان وانصداع شأنتهم وانتهت بنصرة القائلين بالاتصال والاتحاد فقويت كلمتهم واعتزت مكانتهم وكان هذا من جملة الاسباب لخدمة مصلحة الاتحاد . كما ان الحروب الخارجية التي جرت في آخر القرن الماضي مع اسبانيا وفي القرن الحاضر مع دول اوربا آلت لدخول الاميركان في السياسة الخارجية التي تمثلها حكومة الاتحاد وبما ان هذه الحروب ايضا انتهت بانتصار الاميركان وتعزيز شأنتهم فقد قويت بها كلمة الاتحاد وكاد نفوذه يتتبع النفوذ المحلي .

ليس للحكومة الاتحادية الاميركية اراض تديرها رأساً ضمن الولايات سوى منطقة كولومبيا الصغيرة التي فيها العاصمة واما التوسع السيارى الاخير ألحق بالجمهورية الاميركية جميع اراضي الاسكا الواسعة وجزائر النيلدين التي اقتنصتها من الاسبان وجزائر هاواي وبورتوريكو وترعة ناما فبقيت هذه البلاد تدار من قبل الحكومة الاتحادية رأساً وبقيت الحكومات المؤسسة في هذه المستملكات تأتمر باسم حكومة واشنطنون .

عندما انتقلت الولايات الثلاث عشرة عن بريطانيا اعلنت كل منها استقلالها سنة ١٧٧٦ ارانق بعضهم بعض بروابط ضعيفة جداً واقامت المجلس العمومي (Congrès) الذي لم يكن لديه قوة مطلقة ولم يكن له النفوذ على المقاطعات بشيء فشرع السكان بحاجة بتحاد امن من هذا الانفاق وقام المفكرون منهم يطالبون به حتى اجتمعت لجنة في هذا المجلس ووضعت الدستور الاساسي سنة ١٧٨٧ فقبلته تسع ولايات وانتخب جورج واشنطن اول رئيس للجمهورية المؤلفة بموجب ذلك الدستور ثم لحقتها بقية الولايات تدريجاً وانضمت الى الجمهورية. وكان لهذا الدستور الاميركي الاول تأثير عظيم ليس على سياسة اميركا فقط بل على سياسة الدنيا ايضاً لانه وضع القاعدة القائلة بالخاكية الشعبية وان كل قوة او سلطة او سيادة ليس لها منبع الا الامة و ارادة الشعب فقط وان الامة لا تحكم الا بالصورة التي تريدها. وقد اشتهر هذا الدستور بصراحته وانقائه ومبادئه التشريعية حتى قيل انه افضل دستور من نوعه وضعه البشر الى العهد الحاضر وبموجبه تأسست الجمهورية الاميركية الحاضرة .

اما المبادئ التي أسس عليها فهي :

- (١) : احترام ارادة الشعب .
- (٢) : بقاء السيادة الاصلية للمقاطعات فكل حق من حقوق الخاكية غير مصرح بمنحه لدولة الاتحاد يبقى لحكومة المقاطعة .
- (٣) : اعتبار مجموع المقاطعات الداخلة في الاتحاد دولة واحدة ووطناً واحداً وتأسيس حكومة وطنية اتحادية لمصلحة هذا الوطن الواحد .
- (٤) : تذييل المقاطعات لهذه الحكومة الوطنية عن كل وظيفة واجبة لحياة الامة بصفتها شعباً مجتمعاً وهذا يشمل الامور المتعلقة بصلات الامة مع الدول الخارجية ويشمل الامور الداخلية التي ادارتها من قبل دولة الاتحاد وانفع لمصلحة الامة من ادارتها من قبل حكومات الولايات . وقد فصل الدستور وظائف الدولة المركزية وحصرها بالامور الآتية :

- (١) : تطرح وتجيء التكاليف الواجب اطرادها على نمط واحد في جميع الولايات .
- (٢) : تعقد القروض باسم الولايات المتحدة وتكون عقودها ملزمة لجميع الولايات .

- (٣) : ننظم التجارة الخارجيه والتجارة الداخلية المشتركة بين الولايات .
- (٤) : تضع قواعد مطردة للتابعة وللإفلاس تراعى اصولها في جميع الولايات .
- (٥) : تسك النقود وتضع معياراً للمقاييس والمكاييل والموازين .
- (٦) : تؤسس دوائر البريد ونشئ الطرق البريدية .
- (٧) : ننفرد بصيانة حقوق التأليف والاختراع والعلامم الفارقة والحقوق الصناعية .
- (٨) : تؤسس محاكم تابعة للمحكمة العليا .
- (٩) : تعلن الحرب وتعقد الصلح وتستحوذ على الغنائم الحربية .
- (١٠) : تجمع جيشاً ونشئ اسطولاً حربياً .
- (١١) : تدعو القوى الوطنية المعروفة بالميليس وتجهزها للخدمة اللازمة بحسب ما تقتضيه مصلحة الولايات .
- (١٢) : ننولى الحاكمية المنفردة في البقعة المعينة مقرأً لحكومة الاتحاد والامان المتخذة للاستحكامات الحربية .
- (١٣) : تسن الشرائع اللازمة لانفاذ هذه البنود والقيام بهذه الوظائف .
- (١٤) : تسن القوانين الواجبة لحماية الافراد تجاه اي تشريع كان تصدره مجالس الولايات خلافاً للمقوق العامة المنصوص عنها في الدستور .
- وقد اوجب الدستور على كل ولاية ان توفد مندوبين من قبلها يمثلانها في مجلس الشيوخ العام وان توفد مبعوثين الى مجلس النواب على نسبة عدد سكانها . واوجب عليها ان ننظم القوى الوطنية وتحضرها وتجعلها عند الحاجة رهن امر رئيس الجمهورية ليستخدمها في المصالح الوطنية العامة . ومنح ايضاً للمحكمة العليا التي هي احد اركان دولة الاتحاد حق تفسير مواد الدستور فكل قانون تسنه المقاطعات يعرض على هذه المحكمة حتى اذا رأت فيه مخالفة لروح الدستور تمنع عن اجازته فلا يكون نافذاً . وقد حفظت حقوق الدولة الاتحادية بما لها من حق الحكم المباشر على الافراد فكل مخالفة للدستور ولائظمة الاتحاد يحاكم اربابها ويعاقبون لدى محاكم الاتحاد رأساً كما ان الاموال التي تجبي لحساب خزينة الاتحاد مثل المكوس ورسوم الاستهلاك يجبيها جباة الدولة

المنتشرون في كل بلد من بلاد الاتحاد الاميركي فلانحتاج الدولة المركزية الى مراسلة حكومة الولاية وطلب انفاذ قوانينها منها وانما تراسل موظفيها الذين يجرون وظائفهم بدون حاجة لمناصرة من الحكومة المحلية . وقد اباح الدستور للحكومة المحلية ان تطلب المعونة من الدولة عند وقوع عصيان في الولاية او حصول تعدي خارجي عليها والدولة تلي طلبها وتضمن لها ادارة جمهورية حرة مصونة من العصيان الداخلي والعزو الخارجي .

فلنا ان المجلس التشريعي له دائرتان احدهما الاعيان او الشيوخ والثانية النواب فالشيوخ توفدهم الولايات بمعدل اثنين لكل ولاية مها كانت عدد سكانها فولاية نيويورك مثلاً التي سكانها نحو عشرة ملايين توفد اثنين وولاية نيفادا التي سكانها ٨٢٠٠٠ توفد اثنين ايضاً واما النواب فينتخبون بالنسبة لعدد السكان وهم مخيرون اما بانتخابهم على اساس الناحية بنائب واحد او على اساس الولاية دفعة واحدة وانما جميعهم الآن الا واحدة اختاروا الشكل الاول وقد كان عدد النواب عند تأسيس الاتحاد ٩٥ حتى صار الآن نحو ٤٠٠ نائب .

رئيس الولايات المتحدة تنتخبه لمدة اربع سنوات هيئة خاصة تنتخبها الولايات لهذه الغاية فكل ولاية تنتخب عدداً من الناخبين بقدر مالها اعضاء في المجلس الكبير ( Congrès ) من اعيان ونواب وهؤلاء الناخبون يجتمعون في كل ولاية يوم الاثنين الاول من شهر كانون الثاني من سنة الانتخاب وينتخبون الرئيس ونائبه بالرأي الخفي ويرسلون غلافات الانتخاب الى العاصمة فيفتحها رئيس الاعيان بحضور المجلس العمومي ونتم الاكثرية من العدد المرتب فاذا لم تتم هذه الاكثرية لاحد ينتخب النواب الرئيس والاعيان نائبه . والرئيس هو رأس القوى الاجرائية في البلاد وله حقوق معادلة لحقوق الملوك في البلاد النيابية ومجموع مخصصاته مئة الف ريال في السنة . وحقوقه تزيد في زمن الحرب حين يصبح مسيطراً على جميع القوى الوطنية وصاحب الامر المطاع في سبيل الدفاع الوطني وصيانة شرف البلاد ومجدها . والاجراء محصور فيه وليس هناك وزراء بل رؤساء الشعب الخارجية والحزينة والحربية والنائب العام والبحرية ورئيس البريد العام في الداخلية والزراعة و ( التجارة والعمل ) .

القضاء في اميركا مستقل عن سائر القوى وقوامه المحكمة العليا التي تقابل محكمة

التميز مؤلفة من تسعة قضاة يعينهم الرئيس بموافقة الاعيان لمدة الحياة ويوجد محاكم استئناف وبداية في الولايات لاجل رؤية القضايا المتعلقة بالاتحاد فقط وهي القضايا المتعلقة بالدستور او بالسفراء والوزراء والقناصل او بالبحرية والقضاء البحري والتي تكون الدولة فيها احداً الحصمين او تكون احدى الولايات خصماً مع ولاية أخرى او مع احد سكان ولاية أخرى . والمحكمة العليا لها تفسير معاني الدستور الاساسي وانما لانفعل ذلك الا في معرض الخصومة والقرار الذي تصدره يسري على تلك القضية المحكوم بها . وقد نجحت الدولة الامبركية ضمن هذا الاتحاد وحاًء موافقاً لمصالحها الداخلية والخارجية وسبباً لازدياد ثروتها وارتقاء عمرانها وان كان الفضل الاول في ذلك لاخلاق الشعب وخصب البلاد .

فارس الحوري



## طرفة ادب من آداب العرب (١)



أيها الاخوان !

إذا قرأتم مقامات الحريري ستمتموه بقول في فاتحة كل مقامة « حكي الحارت ابن همام » راوياً أخباره عن « ابي زيد السروجي » . واذا قرأتم مقامات « بديع الزمان الهمذاني » ألفتتموه بقول « حدثنا عيسى بن هشام » مخبراً عن « ابي الفتح الاسكندري » وها أنا ذا اليوم أسمعكم مقامة لم يروها الحارث بن همام . ولم يحدث بها عيسى بن هشام . وانما حدث بها « ابو المطهر الازدي » — عن « ابي القاسم البغدادي » .

فوضع محاضرتي هذه مقامة من مقامات الادب . ابتدعها أحد كتاب العرب . وافرغها في اسلوب عجب . وقد أعثرنا عليها الدهر المكثي ابا العجب .

\* \* \*

المقامة في اللغة معناها المجلس يقوم فيه الناس . ثم أطلقت مجازاً على الخطبة او الموعظة التي تلقى في المجلس . وبعد ان ألف ( البديع ) و ( الحريري ) مقاماتها اصبح للمقامة معنى خاص مراعى فيه الوضع والاختراع . فمن ثم يصح ان يُقال « فن المقامات » في آدابنا العربية بـ « فن الروايات » في الآداب الافرنجية : من حيث أن كلاً منها يُفرغ في قالب قصة ذات وقائع خيالية . واتخاص او أبطال خياليين . لكن « فن المقامات » عندنا ذوى واضمحل . اما فن الروايات عند الافرنج فقد أخصب ونما . واصبح شجرة باسقة : اصلها ثابت وفرعها في السماء . والذي دعا البديع والحريري الى انشاء مقاماتها . وافرغها في هذا القالب المفكّه

(١) هي المحاضرة التي القاها الاستاذ ( المغربي ) في ردهة الجمع في ٢٠ تشرين

الاول سنة ١٩٢١ .

السائي هو ملل أهل عصرهما من حالة الأدب القديمة . ومن طريقة المؤلفين والمنشئين في إيراد الحكم . وسرد الوقائع . ورواية الاخبار المختلفة .

وإذا تأملنا في كل تجديد أو نهضة تحدث في الكون سواء أكانت دينية أو سياسية أو اجتماعية أو أدبية نرى معظم السبب المؤثر في حدوثها هو ملل الناس . فيحملهم هذا الملل على تطالب شيء جديد يناسب حالتهم الاجتماعية والفكرية التي وصلوا أو ارتقوا إليها : واذذاك يظهر النابغون والمصلحون والمجددون وزعماء النهضات . خذوا مثلاً النهضات المتوالية في آدابنا العربية : فان العرب قبل الاسلام بنحو نصف قرن ملأوا سماع أساليب فصحاءهم الكلامية الأولى التي ربما كانت موروثه لهم من عهد حمورابي فنهض ( قس بن ساعدة ) و ( امرئ القيس ) و ( الأعمش ) الذي كانوا يسمونه صناجة العرب فشقوا الكلام وذهبوا فيه مذاهب أطربت العرب . واستهوت أفئدتهم .

ثم بعد نحو مئة سنة عاد الناس فملأوا طريقة أصحاب المعانيات وأجموها . ومما يروى في ذلك قول بعض العرب يعبر بنو تغلب :

( ألهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم )

( يروونها أبداً مذكات أو لهم يا للرجال لشعر غير مسئوم )

فكان من أثر هذا الملل أن نهض في دولة الامويين ( عبد الحميد الكاتب ) و ( جرير ) و ( الفرزدق ) فأحدثوا طريقة غضة كانت أشد التحاماً بمجاله العرب وأدواقهم وهم في طورهم الاجتماعي الاسلامي الجديد .

ثم كثر على ذلك قرابة مئة سنة وكانت قامت دولة بني العباس بخلفائها . ومجالس غنائها وندمائها . وقد مل الناس طريقة ( جرير ) و ( الفرزدق ) و مناقضتهما . ويروى من آثار هذا الملل أن الشاعر كان إذا وقف بين يدي جعفر البرمكي للانشاد قال له : « قل ولا تطيل فاني أمل الأطلالة » . وكان المؤمن لا يحب أن يسمع سوى البيتين أو الثلاثة في مدحه وشيء من التشبيب والوصف .

فنهض ( عبد الله بن المقفع ) و ( ابو نواس ) و ( بشير بن برد ) الذي سماه بعضهم « ابا التجدد » فأسمعوا الناس عجباً . وأوسعهم طرباً .

ثم بعد مئة سنة ملّ الناس وضجروا من تكرير المُهاد فنهض (ابو تمام) و (البحراني) و (الجاحظ) الذي يدعى (ملك الانشاء) . ويكفي ان اذكر اسماء هؤلاء الثلاثة لتعلموا أيها السادة مبلغ تأثيرهم في تجديد الآداب العربية .

وقد أصبح الناس بتأثير حضارة هذا الزمن يميلون الى الغلو في النقد والتفنن في الوصف . وذكر أخبار الناس . وما يقع للخلفاء والامراء في مجالس لهوهم . وكل مستمتع من الحديث . ومفكر من الشعر . حتى قال الجاحظ : إن الناس في عهده ما كانوا يأتون من إنشاد أغاني المعتوهين وأهازيج اللصوص وأشعار اليهود .

ثم انتقل الناس من القرن الثالث الى القرن الرابع الذي نضجت فيه الحضارة العربية اتمّ نضج . وبلغ الناس من الترف حداً تطأبوا معه أقصى ضروب المفكّهات والمسليات . بعد أن كانوا ملأوا ترديد أقوال أدبائهم السابقين . وأحبوا ان يسمعوا غيرها الى حدّ ان كان يلذّ لهم سماع أشعار السقايين الذين يحملون القرب . والمارّين على جسر بغداد . والمسخّرين في رمضان . وأخبار سياحات البرّ والبحر . التي كثرت في ذلك الزمن . وسماع عجائب الهند . وجزائر واق الواق . وما وراء جبل قاف . وكان حاملوا هذه التجدد أو النهضة التي انظرها الناس (المنبي) و (بديع الزمان الهمداني) فكان أسلوبيهما في الشعر والنثر ونفثتهما فيها عهداً جديداً في الأدب العربي . والشعر العربي . والتأليف العربي .

وامتدت هذه النهضة الى القرن الخامس الذي مات في أواسطه (أبو العلاء المعري) و بها ختمت نهضات الادب الخمس . ثم كررت بعدها ثمانية قرون . أخذت تضعف فيها حياتنا الاجتماعية بالتدرّج . وفي آخر الامر لم نعد نشعر بملل بل ولا ألم . حتى كانت هذه العصور المتأخّرة فأخذ يدبّ فينا ديبّ الحياة . وعاد الينا الشعور بالملل من أدبنا القديم . ونهض شباننا يتلمسون أدباً عربياً جديداً . يناسب مدنية القرن العشرين . ويتنم مع آداب الامم الراقية التي تعيش فيه .

\*\*\*

وفي النهضة الادبية العربية الخامسة التي قلنا إنها هي الأخيرة عمد الأدباء والكتاب الى وضع تأليف تُحدث في النفوس تسليّةً ونشاطاً . موافاةً لرغبة الناس

وسدّاً لحاجاتهم كما ذكرنا . كذلك فعَل البديع الهمداني في مقاماته المشهورة . والاصفهاني في كتابه الاغانى . وأبو العلاء المعري في رسالته «الغفران» .  
 لكنّ بعض المؤلفين والشعراء في هذا الدور تجاوزوا حدود الأدب الى الجون والهزلُ و يسمونه ( إجماضاً ) . وكانوا يعتدرون عنه أحيانا كما اعتذر الحريري في مقاماته عن بيتي كافات الشتاء مذ قال «وما قصدت بالإجماض فيه . الا لتشيط نارئيه . وتكثير سواد طالبيه » .

والجوف في أدبيات الام أثر من آثار حضارتها وانعاسها في الترف . فليست الامة العربية بدعاً من سائر الامم : فإنها كلها — قديمها وحديثها — لها في آدابها من ضروب السخف والجون واختراع وسائل للشهوات ما كان ليخطر ببال العرب .  
 ومن لطيف المصادفات أنني بعد أن وصلت في كتابة المحاضرة الى هنا اطلعت على مقالة في مجلة (Lise Annales) الفرنسية يشكو فيها كاتبها من كسب الجون والخلاعة التي طفا طوفانها على الباريزيين . ولفت الكاتب أنظار الحكومة الى ملافة هذا الشر . فخلت سيفه نفسي ها إن ( باريز ) التي هي عروس الحضارة الاوربية اليوم قامت تشكو مما كانت تشكو منه اختها بغداد عروس الحضارة العربية أمس . ولشد ما كان التاريخ يعيد نفسه .

\* \* \*

في هذا السور الاخير من حضارة بغداد كُتبت مقامة ( ابي المطير الازدي ) التي جعلناها موضوع محاضرتنا هذه . وهي من الكتب التي تعجبن فيها كاتبها وتخالع . وأودعها من القول ما لا يحسن ذكره . لكنه والحق يقال كتبها بأسلوب لانظير له في كل ما كُتِب واطلّعنا عليه من نوعه . حتى أعجب به المستشرقون اربا إعجاب . وليس إعجابهم به من حيث بلاغة أسلوبه . وتجو يد سبك عبارته فقط . بل من حيث أنفذه في وصف شؤون كثيرة من حضارة العرب . وطرق معاشهم في القرن الثالث الى أواسط الخامس .

وهذا ما نحب ان نُصغي اليه نحن من هذا الكتاب العجيب . ونعرض عما فيه من الجون الذي لا يحسن ولا يطيب .

وفي الكتاب كلمات وأساليب لا يمكن ان نوقئها حقها من البحث الآن. فنجتزى  
بالإشارة إليها :

من ذلك كلمات استعملها المؤلف منذ ألف سنة ونحن نظن أنها أحدث عهداً: نحو  
كلمة ( نفضَل ) في الدعوة الى الطعام و ( بقَّال ) لبائع الجبن والزيتون ونحوها  
و ( شوربا ) لنوع من الطعام أظنه غير الحساء المعروف اليوم و ( ألخَان شَجِيَّة ) أي  
مطربة و ( له فرد كم ) أي كم واحد و ( كَأْس خمر يدوِّخ ) أي يورث الدوار  
و ( ماء الليمو و سَمَاض الليمو ) يعني الليمون ولما حذف النون يا ترى ؟ ويظهر ان  
الليمون كان معروفاً في ذلك العهد كاللارج والنارنج . و ( بن ) لكنهم كانوا يريدون  
به ضرباً من الكواخج لا بدناً الاسود المعروف ثم استعاروا كلمة ( بن ) لهذا الذي نعرفه  
كما استعاروا له كلمة القهوة وهو من اسماء الحمرة . وكلمة ( أَفِيه ) للدلالة على التقزز  
من الرائحة الحبيثة و ( أشه ) للدلالة على صوت العطاس .

ومن أغرب كلماته كلمة ( شير ) وأنتها فقال ( شيرة ) والشير نسمعا في لبنان  
ويعنون بها الصخرة المشرفة من جبل . هذه الكلمة لم يذكرها علماء اللغة فهي عامية  
أي موأدة . ولعلها سريانية عرفها العلماء في زمن العباسيين كما عرفناها بعد الف  
سنة مذشمعانا من اللبنانيين . وربما كانت من جملة الكلمات السريانية الباقية في كلامهم  
وقد فسرها في ( الفرائد الدرية ) بقوله : ( الشير — Roc près de tomper ) .

ومن الكلمات المفصية التي كانوا يستعملونها في القرن الرابع ومات بعد ذلك — كلمة  
( نفاط ) للسراج الذي يُستضاء به بواسطة زيت النفط أي زيت البترول غير  
المصفى . فنصلح لان نسميَ بها مصابيح البترول اليوم . وكلمة ( جذور ) جمع جذر  
وهي أجور المغنيات وكلمة ( مفردات ) في وصف الاشياء إذا كانت لانظير لها  
فيقولون مثلاً ( مفردات الاخبار ) أي عيونها ونوادرها . وكلمة ( متخلف ) و ( مدبر )  
يصفون بها من كان مشغولاً بشيء الحظ غير موفق في أمور حياته . ويجمعون  
( مدبر ) على ( مدابير ) .

ومن غريب ما رأته فيه من الكلمات جمعه ( الني ) بالتين قياساً على الذين

وابن مالك يقول : ( بالآلات واللائي التي قد جمعا ) وأغرب منه استعماله ( تا ) بمعنى ( حتى ) فقال من بيت شعر :

( لم يزل يفعل كذا تا تهورت الخ )

اي حتى تهورت . و ( تا ) اداة تركيبة كما لا يخفى . ولعل وزن الشعر هو الذي اضطره الى استعمالها ؟

\* \* \*

ولنضرب صفحا عن تحليل الكتاب لغويا ولنعمد الى الكلام على مضامينه اجتماعياً :

قلنا ان الكتاب مقامة اي رواية عربية . وأن بطلها اسمه ( ابو القاسم البغدادي ) وهو خيالي كما بي زيد السروجي وعيسى بن هشام نظلي مقامات البديع والحري . اما ( ابو المطير الازدي ) الذي كتب هذه المقامة فهو — وان لم نظفر بترجمته فيما بين أيدينا من كتب التراجم — أديب من أدباء القرن الرابع . وربما امتدَّ عمره الى أواسط القرن الخامس : بيان ذلك ان أبا المطير المذكور من اصحاب ( ابي عبدالله ابن الحجاج ) الشاعر المشهور يُفهم ذلك من مقدمة الكتاب التي كتبها ابو المطير نفسه . وابن الحجاج المذكور مات سنة ( ٣٩١ ) فيكون ابو المطير ولد في أواخر القرن الرابع . ثم ان ابا المطير ذكر في كتابه بين الأدباء الذين روى سينا عنهم ( ابن غيلان البرزاز ) . وقال المستشرق ناشر كتاب ابي القاسم في المقدمة التي وضعها له — ان ( ابن غيلان ) مات سنة ( ٤٤٠ ) فهذا يدل على ان ابا المطير عاش الى اواسط القرن الخامس . ولم يمكننا ان نعرف عن الزمن الذي وُلد فيه ابو المطير ومات فيه أكثر مما ذكرنا .

وابو المطير عاش في زمن البديع الهمداني صاحب المقامات الذي مات سنة ( ٣٩٨ ) فيكون قد عرفه وعرف مقاماته . كما عرف ابا عبد الله ابن الحجاج وعاشره وسمع مجانته . و ( البديع ) هو واضع فن المقامات كما شهد له بذلك الحري مذ قال : ( انه جرى في بعض أندية الادب ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلامة همدان ) ويعني بقوله ابتدعها اخترعها وسبق غيره الي تصنيفها . وكما أن

البيديع كانت في ذلك الزمن ( نابغة المقامات ) كان عبد الله بن الحجاج ( نابغة الخلاعات أو المجانات ) . وقد عاشرها ( ابو المطهر ) كليهما . فلا جرم ان يكون في مقامته التي سماها ( حكاية ابي قاسم البغدادي ) قد جمع بين ما استفاده من النابتين : التفتن في سبك وقايح المقامة وتأليف اجزائها وهو أمر استفاده من البيديع — والتفتن في السقف والمجون والخلاعة وهو ما استفاده من ابن الحجاج . فجاءت مقامته في البلاغة آية . وفي المجون نهاية .

ومما يُستعرب ان ( ابا المطهر الازدي ) لم يسم مقامته ( مقامة ) بل سماها حكاية مع انه استعمل كلمة ( المقامة ) في مقدمتها التي كتبها لها فقال : ( أشعار لنفسي دوتنها . ورسائل سيرتها . ومقامات حضرتها ) .

و يُستغرب أيضاً أن احداً من المؤلفين لاسيما كآب الفهارس والتراجم وشراح المقامات لم يذكر ( حكاية ابي القاسم ) التي ابتدعها ابو المطهر مع أنها أعجب أسلوباً . واغزر شؤبوا . من كل ما كتبه ( المقساماتيون ) . وليس ذلك في غالب الظن إلا لما حوته من السقف والمجون . فلم نلداؤها أيدي النسّاخ ولم يكتب منها سوى النسخة التي ربما كانت نسخة المؤلف نفسه فعلمت بها أيدي المستشرقين فرأوا فيها من وصف الحضارة الاسلامية في القرن الرابع والخامس ما حملهم على طبعها ونشرها .

( وكنا كتبنا الى العلامة احمد تيمور باتنا نسأله رأيه في حكاية ( ابي القاسم ) مجا . نأمنه الجواب فبيل إلقاء المحاضرة في ( ردهة الجمع ) فتلونا ما كتبه على الجمهور وهذا نص ما قاله : )

( حكاية أبي القاسم البغدادي ) تحتوي على أحاديث مضحكة وضعها مؤلفها على رجل يقال له ابوالقاسم البغدادي وقد جاء في ( ص ٣ ) ان اسمه أحمد بن علي التيمي لكن في ( ص ١٤٥ ) انه علي بن محمد التيمي وفي ( ص ٨٧ ) انه كان موجوداً في سنة ٣٠٦ . والظاهر انه تخصص وهمي جعل وسيلة لوصف الحالة الاجتماعية ببغداد في ذلك العهد . وقد ضمن المؤلف هذه الاحاديث اشياء من وصف الخليل والبنغال والحمير والأطعمة وأنواع الفساقهة والرياحين والأعطار وأسماء السفن وذكر ألفاظاً

من لغة الملاحين والعيّارين وغير ذلك . وذكر من كان ببغداد من القينات حوالى السنة المتقدم ذكرها باسمائهن واسماء من كانت يعاشرهن وكثيراً ما يستشهد بايات لابن حجاج : بعضها نسبها اليه وبعضها أغفل نسبتها . أما زمن المؤلف فلم نقف عليه غير اننا رأيناه ينقل في ( ص ٨٠ ) أبياتاً لابن نباتة السعدي ( المتوفى سنة ٤٠٥ ) فهو اما أن يكون عصره او بعده بقليل لان ما أتى به من الوصف في القصة يدل على انه لم يكن بعيداً عن ذلك العصر ه .

\* \* \*

وموضوع مقامة ( ابي المطهر ) أن رجلاً يدعى ( أبا القاسم البغدادي ) كان في اصفهان فزار مجلساً لبعض كبرائها وكان في المجلس طائفة من أهل الفضل والادب فأخذوا يداعبونه . ويستنبسون دفاثته وهو يطرفهم بكل مستلح عجيب من نكته ونوادره . لا سيما نفضيل ( بغداد ) على بلدهم ( أصفهان ) وانها كانت أرفع شأنًا . وأنصر عمرانا . وأكثر استجماعاً لمرافق الحياة . وبلية العيش .

وكان ابو القاسم هذا أدبياً عجيباً في بلاغته . وقوة تارضته . عزيز المادة سيفه اللغة والادب والتعر وصناعة الانشاء والنفنن في صوغ الكلام وحوكه . ولكنه وبالا لسف كان ماجناً خليعاً مفرطاً في السخف . فلم يكن يتحاشى ذكر شيء منه في ذلك المجلس . وكان يدور الكلام بينه وبين القوم بشكل المحاورة والسؤال والجواب . ولقد طالع ذلك الحديث بينهم وامتدّ النفس فيه فكان كتاباً استغرق نحو مئة وخمسين صفحة متوسطة القطع .

\* \* \*

اراكم أيها السادة قد ظمتم الى سماع شيء من تلك المقامة . فدونكم منها ما يسمع الوقت . ويليق بمجلسكم الكريم .  
نذهب اولاً الى أصفهان وندخل مجلس ذلك العظيم الاصفهاني . لكننا نقعد في معزل عن الجماعة كي لا تقع علينا عين ذلك الماजन البغدادي فيرشقنا بخصاته . ويصينا شيء من أذاته التي كانت تصيب الحاضرين . ولم يسلم منها ربُّ الدار المسكين .

يجري ذكر أصفهان . فيذمها ( ابو القاسم البغدادي ) فيقول له : الآخرون  
( يا ابا القاسم ! قد أسرفت . بعض هذا !! ) فيقول لهم :  
أحاكمكم الى شاهد منصف : الى السمع . فأتكلم أولاً في الأسماء . إلى أن  
نصير إلى حقائق المعاني . فنتكلم فيها .

ثم يشرع يذكر لهم أسماء أماكن في بغداد . مثل ( الرصافة ) ( درب الريحان )  
( سوق العروس ) الخ . ثم يقارنها بأسماء أماكن في أصفهان : مثل ( كورسان )  
أي المقابر ( موشكاياذ ) أي موضع الفار . ( كوي كدائي ) ( درب الصم ) . ( كوي  
كوران ) ( درب العمي الخ :

ثم يهيج شوقه الى بغداد فيقول : هل أرى والله دجلة مشحونة بالمرائب  
والزوارق . محفوفة بالقصور والجواسق . يرتفع ما بينها أصوات الاغاني . وخفقان  
النسايات والسواني . واصوات الملاحين . وزعقات المؤذنين . إن رأيت تر والله  
جمالاً وكلاً . وتسمع من ألحانها الشجيرة مبحراً حلالاً :

( اممري لقد فارقتهم غير طائع ولا طيباً نفساً بذاك ولا مقرراً )  
( أو قائله ما ذا نأى بك عنهم ؟ فقلت لها : لا علم لي . فأسألي القدر )  
ثم يصف خيل بغداد فيقول وفيه المبالغة :

( مشتركف الهادي كأن أذنه تصغي الى سر حديث السماء )  
( فلم يكن يشرج الا اذا وضعت في حاركة سلماً )

ثم يصف النرس من خيل أصفهان فيقول : قد تفخ التبن بطنه : فهو كالغرارة .  
نسبه عند الركض الحماره . و يفزعه صوت الفارة . وإما مهزول كالألف محجة آ .  
او كالشن البالي دنفاً . يعثر بالبعرة . وثقيده الشعرة . قدأ كل الجرب جلدته .  
وحص ذنبه وناصيته .

( عظامه قد ظبرت كأنها كأنها من حطب يابس )

ووصف الحمار من حميرهم فقال : أسود مثل النقس . كالقربة البالية او زرق  
الديس . إن وقفه راكمه على جماعه أدلى . وان تركه أدبر وتولّى . وإن امسكه

أَتعب يديه . وان حرَّ كَه خلع رجليه . من مَعْرَزٍ نغذيه . وان غفل عنه قام .  
وان سلَّم على مستقبِلٍ جثا تحته ونام .

ثم قارن بين الدور والاثاث والحصُر والثياب والطيب في البلدين . فقسال عن  
أصبيان : وفتيانكم بالابرد وعمائم القطن الكحلّية . تُتَلَق في أهدابها خيوط خضر  
وحمر . واهل السوق : لو عُصر قميص أحدهم يخرج منه جرّة دهن .  
ووصف الخِرْوَانِ وِصحافه فقال لأهل اصفهان :

ولا أرى بين يدي أحدكم خوّاناً قوائمه من خلنج<sup>(١)</sup> خراساني . بلا وصل  
ولا كسر . كأنه طبق منشور . او قطعة بذور . او ثوب ونبي . يستغل الانسان  
بالنظر اليه . عن الاكل عليه . فوَقَه رُغْمان مخبوزة من دقيق ( فانق الهو يدي )  
و ( الطنسييري ) طحن ( العروب ) . أبيض فيه صفرة . يغمينه مثل الكمك : يمتد مثل  
الكنْدُر<sup>(٢)</sup> . و يلتزق بالاصابع . يشرب الكؤوك منه دبلّة . حرّو بصير تحت الاضراس .  
و يتعلّك حتى يوحع الفك عند مضغه . النظر اليه يُشبع . والقمّة منه تبلغ القلب —  
وسكاريج<sup>(٣)</sup> : فيها الجبن الدينوري الحرّ يف الذي يفتق الشهوة . ويحرك المعدة .  
وز يتوب دقوقي<sup>(٤)</sup> مدخن . مخلوط باللوز المقشّر والصعتر . تنتطر الزيتونة على  
الرغيف فتملؤه زيتا . ويتدحرج كأنه بسادق عنبر . وجبن رومي مقلوّ . تدمع  
عين آكله من حرافته . حتى كأنه فارق أحبابه . ابيض . مُشْرَبُ صُفْرَة . أملس .  
حديث . تأكل القالب منه برغيف . لا ينفُخ ولا يُعطش . ولا تتم له .  
سهوكة<sup>(٥)</sup> . ينقي المعدة . ويلحس البلغم لحسا . و باذنجان محمّل بماء حب الرمان .  
يصرع بمحوضته الطير من جو السماء . ويقلع من المعدة الصفراء . وأُشْم رانحتسه  
من فرسخ . يُضرس قبل أن يؤكل . وصدور البط بماء التفاح . وماء حب الرمان  
والتوت الشامي . وارز بلبن حليب . قد ترك فيه الزعفران . ورُصّع بالحمص .  
وذُرَّ عليه سكر مدقوق . . . . . وقطائف لطايف . مقلوّة مغرّقة في الجلاب . منضوذة  
في جامات البلور المخروط . والصحون الصيني الملوّنة .

(١) ضرب من الشجر (٢) هو الحصالبان (٣) صحاف المتشبهات (٤) نسبة الى

(دقوقا) وهي بلدة بين ايربل وبغداد (٥) رائحة كريهة .

و يُرفع الطعام و يأتي بعده فرّاش مهتلل الوجه • نظيف الثياب • حسن الشائل • خفيف الروح • يده خلال سلطاني مقوّم • كأنه مداري <sup>(١)</sup> الفضة • من عمل (نجاح الاسود) • فيناول الجماعة منه بتلطّف •

ثم وصف الطست والابريق والمنديل الذي يتمسّح به وصفا عجيبا ثم قال :  
هذه أوصاف موائد العراق التي ما أرى والله شيئا منها عندكم : انما ارى مائدة بلا خلّ ولا بقل • كشيخ بلا فهم ولا عقل • مبسوطة على سفرة رُو يد شتية • بساطُ الارض أنظف منها • عليها عوض البوارد <sup>(٢)</sup> باذنجان بسته • شلجم بسته • خيار بسته قذا بسته • زعرور بسته • أحرق الله بسته • فكم بسته ؟ ! أما الشواء في مائدتكم فهو والله قلوب الحاضرين •

وأرى قدورا تُطبخ بلحم البقر الغلاظ • لا ينفخ لحمها باليدين • يأخذ أحداكم قطعة اللحم بيده • و يجذبها باسنانه • فترشش على وجهه وحيته وثيابه • مزوج ذلك اللحم بمرق • يجري عليه الزورق • نغوص يد الانسان فيه الى المرفق • حتى يجعد اللحم •• مما يأكله الوقادون والزبالون • مخنوماً ذلك كله بالعنب الاسود • و بجلاوة • مدلوكة باليد • يأتي بعد ذلك قروي سوادى <sup>(٣)</sup> كهبل • بي قدّ الجمل • بلحية شماء كثة • وحالة رزية رتة • بيده أقطاع حطب • يناولهم للتخلّل • ثم يسوقهم الى صحن الدار • و يجمعهم لغسل الايدي • على بالوعة تُختتم والله الأتوف من روائح القاذوريات المجموعة فيها الخ •

ولا أرى في فواكهكم عنبا رازقيا كأنه مجازن البلور • او ظروف النور •  
( ورازقي مُخطف الحصور كأنه مخازن البلوثر )  
( قد مُلئت مسكا الى الشطور وفي الاعالي ماء ورد جورى )  
( لو أنه ببقى على الدهور قرط آذان الحور )  
ولا رمان مرمر • كأنه صرر • قد مُلئت بالجواهر • أو الياقوت الأحمر •

(١) جمع مدرى سن من عاج او فضة يتخلّص به الشعر وهو غير المشط ذي الاسنان الكثيرة (٢) المشيمات والمقبلات • (٣) منسوب الى السواد اي بلاد الفلاحين •

ولا ممششاً كأنه زقاق ذهب . قد حُشيت عَسَلًا . ولا الكهثرى الشامى . والسلطاني .  
والزرجون والنهوندي الخ .

إنما أرى ساف أمرود . وبهم رود . ونار مرود . وسلم رود . قد أوجعني  
والله الرود . مما أكل التمرد الخ .

ثم ذكر مجلس الشراب . فقال : ما أرى والله لكم مجلساً مسجوراً بالند : فروأخه  
تبلغ الهوآء . وتعب إلى دور الجيران . ولا منارة ملوكية . يَزْهَرُ سراجها بخمسة  
فتايل . بزيت شدي . لا تُشَمُّ فيه زعارة ولا مرارة . يصلح للقدور المطجنات .  
والقلايا المحرقات .

ثم وصف الندامى والحمور . فقال عن نبيذ أصفهان : إنمأرى نبيذاً أسود كالديس .  
أو النقس : ( في لون زنجبي ونكهة أبنجر ) .

( إذا صُبَّ مسودَه في الزجا ج فكأس النديمِ يدِ مَحْبَرَة )  
ثم وصف الساقى فقال :

( يُديرها ساقٍ له رُكبة كأنه مِخْلَاج نَدَاف )

( في يده باطيةٌ ضخمة كأنها مِغْرَاة إِسْكَاف )

وربما كان الساقى شيخاً أبيض الرأس والحية . كأنه بعض المؤذنين أو احد  
الحجاجين . طَعْمُ الكَأْس من يده طَعْمُ الزَّقوم . والحفاه ! سقى الله ديارات كَسْكَر<sup>(١)</sup>  
ومنازل كسرى وقيصر :

( وسلامٌ على مواخير بصرى وأواناوالقُنْص والبردان<sup>(٢)</sup> )

( ليت شعري مذغبت عنها على كم قرّر البائعون سعر الدنان ؟ )

قال : ولا أرى في جلسائكم رجلاً ظريفاً . مستطاب النوادر . حلواً في القلوب

(١) كورة بين البصرة والكوفة (٢) الثلاثة أساء دساكر ومواطن هو في

ضواحي بغداد ويشبه تشوقه هذا تشوق ذلك الذي قال :

( ليت شعري متى تخبّ بي الذ ساقه بين العذيب فالصديبون )

( مُحَقَّباً ذِكْرَةً وخبز رفاق وحباقاً وقطعة من نون )

و ( الحباق ) جزرة البقل .

وانما أرى طَفِيسًا<sup>(١)</sup> باردًا • منفيهاً منقترًا يشقّى الكلام : إنما في عويص اللغة •  
 او يتبظوم بعلل النحو • ساط الله عليه العلل • ولا أقاله منها • تتبى في الحلق •  
 وشوك بين الأخص والنعل •  
 ثم ذكر المغنّين : فقال لاهل أصفهان : لا أرى والله في شبالسكم مطربا معربا :  
 يقول الشعر الفصيح • ويكسوه اللحن الصحيح • مثل قوله :

( يانسيم الشمال من نحو بصرى      بأبي أنت لانسيم الجنوب )  
 ( انت لما اعتلت داويت جرحي      يانسيم الصبا بعرف الحبيب )  
 ( فتماثلت من ضنى كان بيكي      كل يوم علي منه طيبي )  
 ( يا فتاة شباها أمتع الله به حسنبا عدو مشيبي )  
 ( انما أنت ظبية في كاس      ليس ترعى سوى ثمار القلوب )  
 ( انما انت شمس دجن على طا      قة آس مغروسة في كئيب )  
 ( انبي الله وارحمي ضرب صب      ورث الضرب فيك عن أيوب )  
 ( وعمي بالبكافيا يوسف الحسن      أما تشنفين من يعقوب ؟ )

ثم وصف مغنّيات بغداد ثم قال : هذه أحوال لا أراها باصفهان • انما أرى  
 قردة كأنها مسورة<sup>(٢)</sup> عرضية • أو غول طاع من بربة • شعر كالعنب  
 المنفوش • ووجه كمليت المنبوش • شعرها فضة • وثمرها ذهب • كأنها  
 طاقة نرجس !!!

فيقال له يا ابا القاسم ! أين يذهب بك ؟ فيقول أخطأت أو أصبت ؟ فيقال وكيف  
 أصبت ؟ فيقول نعم : رأسها أبيض • ووجهها أصفر • وساقها أخضر • أمعجبكم  
 هذا ؟ ما من شيء والله حسن محمود • إلا وفيها منه شبه أو معنى موجود : لها من  
 البدر كافتة • ومن الورد شوكتة • ومن الحمار نهقته • ومن الطاووس زعقته •  
 ( ولا تستطيع الكحل من ضيق عينها وإن عاجلته كان فوق المهاجر )

تحت حاجبين يسبح منها غرائر • ويعقد شعرهما ضفائر •

(١) اي قدراً نجساً (٢) اي مخدة طولها وعرضها سواء •

( ترى شبيهاً تحت القناع كأنه جدابيل ليف في هدية 'حجاج )  
 ثم قارن بين غلمان الخدمة هنا وهناك فقال : في غلمان أصفهان : وإنما ارى والله  
 دُبًّا في طول المنارة . وعرض الفرارة . قد خرج عن حد الاعتدال . وذهب  
 ذات اليمين وذات الشمال . بارد ثقيل . كأنه روثة فيل . عابس كأنه عض على  
 بصلة . أو أكل فجلمة . بوجه قطير . كأنه أسعط بالخردل . جهم كأنما نُضح  
 وجهه بالخل . له وجه كأنما تبرقع بالخناس . أو كُسي قشور الخنافس . أو حش  
 والله من أيام المصائب . وليالي النوائب . وسوء العواقب .  
 ( خلقتهم حجة اهل الزندقة صارت به اقوالهم محققة ) الخ

( ذو صورةٍ شوهاء ان لم تكن قرداً ففي قلبه مفرغة )  
 ( ثلاثة ليس لها رابع هذا الفتي والحش والمدبغة )  
 انتن والله من هدهد ميت . في جورب عفن . أتقل من هم الدين . وامر  
 من وجع العين . كأنه صورة على باب حمام ؟ سطل دمشقي عروته منه ؟ الخ .  
 ثم عاد الى وصف مغنيات بغداد . وذكر طرف من نوادرهن . وحسن اجوبتهن .  
 فقالوا يا ابا القاسم ! لو نفضت بعض تلك النوادر لكنت قد أتممت الانس  
 باحاديثك . فيذكر لهم على سبيل المثال ( زادمهر <sup>(١)</sup> ) جارية ( ابي علي بن جمهور )  
 وكان ابن جمهور هذا متزوجاً بابنة عم له . فكان منها بين جمرتين : تحرقه هذه نارها .  
 وتلدعه تلك بأوارها . فأسكن ابنة عمه واسط . وجاريتته داره في البصرة . وذهب  
 هو الى بغداد . وبغداد جنة المومس . وعذاب المعسر . وأقبل على اللهب ومواصلة  
 السرور . فضجرت زادمهر . وكتبت اليه كتباً من البصرة : وهاكم نموذجاً منها :  
 اخبرني على من تركتني في دارك المشؤومة بالبصرة ؟ . عولت بي على ضياعك  
 الخراب . او على وكلائك السفل . والله ما أشبهه دارك الا بدير هرقل <sup>(٢)</sup> وانا

(١) اي بنت الشمس وهي كلمة فارسية . (٢) وهو الذي قال فيه الشاعر ايضاً :

( أولى الامور بضيعة وفساد امر يدبّره ابو عبّاد )  
 ( وكانه من دير هرقل مُغلت شرس يجرُّ سلاسل الاقياد )

محبوسة فيه كبعض الجانين . لا يرجع عليّ شيء الا من أجرة دورك . خمسة وثلاثون درهماً في الشهر . لو ضربت بها فؤة أعاماً ما كفتني : يا ابن جمهور! عليك بفلانة وفلانة اللواتي يشبهنك . ويفخرن بك و يقلن : كذا عند (ابي علي) تاجر السلطان العظيم الجليل . أنت يصلح لك مثل الحمارة البلهاء ابنة عمك : تكسر الجوز على رأسها ولا تجسر تسبكك . فهي تظن انك الوزير ابن الزيات . و ابراهيم ابن المدبر . فأما ( زاد مهر ) التي تدعك دق الكشك . و تهينك هوان اکتان . فليست من امثالك .  
خأصني الله من ذنوبي كما خأصني منك ومن رؤيتك :

( انا في نعمة ببعدهك عني أكد الله نعمتي بالدوام )

وحياة أنفك المعوج . وكللك المذنب . وشوابيرك<sup>(١)</sup> المخذقة . لأ كافيئك صاعاً بصاع : فلا تمضي شهور حتى يجيء مقموطاً مدهوناً . أضع يده في زعفران على الكتاب وارجته بالكتاب اليك . ويحك يا ابن جمهور كأن لمحك على ركبك<sup>(٢)</sup> . نسيتني واشتغلت عني . ابعت استك العزيرة نفقة . واحملها اليك الى بغداد . حتى لا يضيق صدرها . واشترلي بجياتي عوداً بحاشية ساج . منقوشاً بعاج . ويكون ظهره دهباج . حتى اجيء أغني به . . . الخ .

ثم جعل يسمي جواري بغداد المشهورات واحدةً واحدةً . ويذكر شيئاً مما كنّ يغدين به من الشعر . فيطرب لسماعن شعراء بغداد وادباؤها . مثل ( ابن الحجاج ) و ( ابن نباتة ) وغيرها . ثم يقول : فلو ترون كيف كان يطرب ( ابن غيلان البزاز ) على ترجيعات ( ربحانة ) جارية ( ابن اليزيدي ) اذا غنّت :

(١) مقلوب شوارب وهي لغة عامة بغداد في ذلك الحين . وعامتنا اليوم يتلاعبون بالالفاظ كذلك فيقولون : تحشّر به واصله تحرش به و يقولون : ريقان مكان ريقان . و ( رقعته كفف ) مكن ( قرعه كفف ) ومعلقة مكان معلقة وهكذا .

(٢) كناية عن قلة الوفاء فان الركبة لا تمسك الملح ومنه قوله الآخر :

( لا تلها إنها من نسوة ملحها موضوعة فوق الركب )

( أعط الشباب نصيبه مادمت مُتَعَذِّر بالشباب )

( وَأَنْعَمَ بِأَيَّامِ الصَّبَاِ وَاخْلَعْ عِنْدَ رِكَ فِي التَّصَابِي )

فيقول له قائل : أيش كان يعمل ابن غيلان اذا سمع هذا الغناء فيقول : نثقل  
حماليق عينيه . ويسقط بثياباً عليه . وهات الكافور . وماء الورد . ومن يقرأ في  
أذنه آية الكرسي . والمعوذتين . ويرقيه بشراهما مراهياً . أيش يعمل ؟ هكذا يعمل  
يا بارد ؟

أو لورأبتم طرب ( ابن غسان النصراني ) اذا سمع حباية جارية ابي تمام الرنيني  
وهي تغني :

( وحياء من أهوى لاني لم أكن أبداً لأحلف كذباً بجمياته )

( لاخافن عواذلي في لذتي ولاأسعدن أخي على لذاته )

فيقولون له : هذا ابن غسان زيادة !! اي رجل كان يا ابا القاسم ؟ فيقول :  
هذا ابن غسان كان فتىً مليحاً . ظريفاً . حسن الادب . محذناً فيما بين الاطباء .  
وهو الذي يقول في ابي مضر العاقل . وقد عالجته من علة فلم يقض حقه :

( هب الشعراء تعطيهم رقاعاً منورة كلاماً في كلام )

( فلم صفة<sup>(١)</sup> الطبيب تكون زوراً وقد أهدى الشفاء من السقام )

وكان آخر امر المسكين أنه غرق نفسه في ( كُرداب كلواذا ) وذلك لاسباب  
اجتمعت عليه : من صفة اليد . وسوء الحال . وجربٍ أكل بدنه . وعشق  
حرق قلبه . حتى جرى الى نفسه حينها بما اقدم عليه .

ولا يزال ابو القاسم يذكر المعتين . ويعدد الادباء الذين كانوا يطربون بغنائهم  
حتى يثتم هذا بقوله :

ولو ذكرت هذه الاطراب من المستمعين . والاغاني من الرجال والصبيان  
والجواري والحرائر لطل و ملّ و كنت كالمزاحم ابن صنف ( كتاب الغناء والالحان ) .  
ولهدي بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة وقد أحصيت انا وجماعة في الكرخ  
اربعمائة وستين جارية في جانبي دجلة . وعشر حرائر . وخمسة وسبعين من الصبيان .

(١) يريد بصفة الطبيب ما نسميه اليوم ( وصفة ) أو ( راسته )

يجمعون من الحدق والظرف . ما يفوت حدود الوصف . هذا سوى من كنا لانظرهم . ولا نصل اليهم لعزيمتهم وحرسهم ورفبائهم . وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب الا اذا نشط في بعض الاوقات (١) .

ثم يطلب ابو القاسم من صاحب الدار ان يعي له طعاماً . وقبل القيام اليه يلعب بالشطرنج مع بعض الحاضرين فيجري بينهما وهما يلعبان كلاماً لا يمكن أن نفهمه نحن اليوم لانه يتعلق بكيفية لعب الشطرنج في ذلك العهد . وقد استغرق وصف ذلك نحو ست صفحات من الكتاب .

ثم يقومون الى المائدة فتقدم اليهم ألوان الطعام واحداً واحداً . وهو يصف كل ذلك . ويورد ما شاء وشاءت براءته من النكت والنوادر . وفي خلال ذلك يذكر الطبائح . وما يجب ان يجمعه من الاوصاف فيقول :

والله لقد رأيت ببغداد في دور بني معن طبائخاً حبشياً اسمه ( نارنج ) ما اظن أني تاعدت مثله : كان والله عنوان النعم . وترجمان المروءة . وطبيب الشهوة . أحذق من رؤي من اهل صناعته . واردهم سكيناً . واعدلم تقطيعاً . واذكاهم ناراً . واطيبهم أزاراً . كانت الموائد التي يعتيها . والثرائد التي يتنوق فيها . رياض مزخرقة . او برود مفوفة . كانت لا يجمع بين لوزين . ولا يوالي بين طعمين . يخالف بين طعام العداء والعشاء . ويباعد بين ألوان الصيف والشتاء . يكنفي باللحظة . ويفهم بالاشارة . كأنه مطامع على ضمير الضيف والمضيف . كان والله يطبخ ما يوقظ شهوة النعسان والثكلان والمغموم . وكان إذا فرغ من إعداد الطعام يقال له ( يانارنج الى أي شيء تحتاج ؟ ) فيقول : الى قوم جياع .

ويجري على المائدة ذكر اثنين من فضلاء بغداد . فيُسأل عن رأيه فيها وأيهما

(١) وذكر القاضي ابو علي المحسن النوخى المتوفى سنة ٣٨٤ في كتابه (النشوار) كلاماً عن عمران بغداد فقال : أحصي ما يزرع وينفق على أهلها من صنف الخس فوجد بخمسين الف دينار . فما ظنك ببلد يؤكل فيه في فصل من فصول السنة صنف واحد من صنوف البقل بخمسين الف دينار !!! .

أفضل ؟ فيقول : بينهما من العباد . ما بين النجاد والوهاد . ما بين الناهق والصاله .  
والناقص والفاضل . ما بين اللؤلؤ والمرجان . واللفت والباذنجان . من إُسوي بين  
رجل اغزر من البحر . ووضح من الفجر . وبين آخر أبيض من القفر . وأوحش من  
القبر . ذا والله أخف من النسيم . وذا أتقل من منة اللثيم . ذا أخشن من الحناجر  
على المناخر . وذا أحسن من المحاجر في المعاجر . ذا سعد السعود . وذا سعد النابج  
ذا والله أندى من القطر . وذا أجد من الصخر . ذا أعز من النبر . وذا أذل من  
البعر . ذا عود . شق مواضع السجود . وذا عود . نُجَيْرَ لِحُسِّ اليهود .  
ثم يقومون إلى مجلس الشراب . فتصف الرياحين . ثم الفواكه . ثم القنابي .  
فيسأله واحد يا أبا القاسم ! وهل تعرف شيئاً من السباحة ؟ فيقول يا أحق ! وسوادي  
لا يحسن أن يركب البقر ! وتركبي لا يحسن أن يزرع في القوس ! إنا والله استخ من  
الضفدع . ومن الننين أعرف من السباحة أنواعاً لم يحسنها قط سمك ولا بط :  
اعرف منها الشق والموزون والمقرقص والذرع والغمر والاستلقا . والشكابي .  
والطاووسي والعقربي . وكن أستاذي في جميعها ببغداد ( ابن الطوا )  
( الزنابري ) .

ثم يسألونه عن السفن والملاحين . فيعدد لهم أنواعها . ويصف لهم ملاحاً سمعه يوماً  
يحاطب رجاله أثناء الاستعداد للسفر : فذكر من ملبسه وأدوات سفينته واصطلاحات  
مهنته ما لا يتسع الوقت لذكره بل لانفحه لوسمعه .  
ثم سأله سائل عن داره فأجابته : ويحك ! أيتس تعمل بداري ! هي في سكة الجوهرى .  
دار أسست على غير التقوى بحمد الله .

( فان ترد دار الخنا والحبوب ومعدن العصيان والذنوب )

( وموطن العادات والعيوب فاعدل اليها تحط بالمطوب )

ثم يأخذ في فنون من الحديث . ويسلك منه مذاهب مختلفة . حتى يسمع حديثاً  
لبعض الحاضرين فيعجبه ويقول : ذا كلام كرد التراب . وُبرد الشباب . قطع  
الزهر . وعقد السحر . حسن الدهباجة . صافي الزجاجة . هو كالبشرى بالولد الكريم .  
إلى سماع الشيخ القيم .

ويلتفت الى آخر يتكلم . فيذم كلامه قائلاً : ذا كلام أثقل من الجندل . وامرًا  
من الحنظل هذيان المحموم . وسوداء المهوموم . بمثله يتسلى الاخرس عن كلامه .  
ويفرح الاصم بصممه . كلام تُعذّر الاسماع من حزونته : وتُخبر الاوهام  
من وعورته .

ثم يمدح بعض الحاضرين فيقول : شجرة طيبة أصلها في الماء . وفرعها في السماء .  
احلى والله من الربل . في زمن المحل . الخلق وضيء . والخلق رضي . والفضل  
مضيء . محاسن انا والله منها في روضة وغدير . بل في الجنة وحرير .

ثم يلتفت الى آخر فيذمه قائلاً : كالكأمة لا اصل لها تابت . ولا فرع تابت .  
لو قُذِفَ والله الليل بلؤمه . لطفتت أنوار نجومه . هو في العين قذاة . وبين النعل  
والانخص حصاة . الخمس يُطلعُ من جهته . والحلُّ يقطر من وجنته . ثم يخاطبه  
قائلاً ( رجزاً ) :

( يا رفسة البنل على الطحال ياصفقة بالنعل في القذال )

( يا لسعة الزنبور سيفي المآقي باعدوة البين على العشاق )

( يا جمعة الحرة بالطلاق يانهشة الافعى بلا تريباق )

( يا فبح شيب لاح في نصول يا كل شيء وحش مهول )

( يا شوكة في قدم رخصة ليس الى اخراجها من سبيل )

( يا حيرة المكروب في امره ويا صعود السعر عند المعيل )

( يا نهضة المحبوب في غفلة يؤذن فيها باقتراب الرحيل )

( يا رجعة المحروم من سفرة لم يحظ فيها بنوال المنيل )

( بل يا كتاباً جاء من مخاف للوعد متحوناً بعذر طويل )

( يا دبله في الفؤاد قد نعلت من أسف قاتل ومن كمد )

( يا ورمًا في المعى يدلى على برد مزاج الطحال والكبيد )

- ( يا قرحة في ناظره غلطوا عليها بالذرور )  
 ( فتسلخت مع ما يليها في الجفون من البثور )  
 ( يا غمة الكناس من شم الزرائر<sup>(١)</sup> والصبير )  
 ( يا سفرة في دجلة والريح تلعب بالجسور )  
 ( يا جلسة في شمس آب على الصخور بلا حصير )  
 ( تحت السا والشمس تو قد نارها حرّ الهجير )  
 ( يا كل شيء متعب متعقد صعب عسير )  
 ( يا شؤم بخت شقية قد عمّرت عمر النور )  
 ( شقّ القوابل صدعها عن تسعة مثل البدر )  
 ( حتى إذا شَبُوا لها وتلاحقوا مثل الصقور )  
 ( وقعت عليهم شيرة<sup>(٢)</sup> بالطول في يوم مطير )  
 ( فرأتهم ولحومهم في الدار تجرف بالمرور )

يا أول ليلة الغريب . اذا بعد الحبيب . يا يوم الاربعاء في آخر صفر . يا ثقل الكابوس في وقت السحر . يا وجه المستفزع<sup>(٣)</sup> في يوم السبت . يا إفطار الصائم على الحبز البحت . يا أثقل من طفيلي يعربد على الندماء . يا يقترح انواع الغناء . ويتشهى بعد أكل الغداء . طالباً الوان الصيف في الشتاء . يا أشد على الاحرار من جفاء الحجاب . وعبوس البواب . وسوء المنقلب والاياب . يا أشد من كربة صاحب المتاع الكاسد . وضجرة المستمع الى المغنى البارد . يا أكره من هجران الصديق . ومن النظر الى زوج الأم على الريق :

- ( حويت الشؤم حتى الك - ف عن صنعك قد ننبو )  
 ( وحتى السحب ان جاور تها لم تمطر السحب )  
 ( وحتى لو صحبت الوح - ش لم ينبت له عشب )  
 ( متى سميت إنسانا فان الناس قد سبوا )

(١) الذرائر الطيبوب والعطور . (٢) اي صحرة وقد تقدم القول على هذه الكلمة

في فاتحة المحاضرة . (٣) هو المحصل اي الجاني وبالتركيب ( التمهيد ) .

و يذكر أبو القاسم أصدقاءه فيسأله أحد الحاضرين كالمستهزئ: ومن هم أصدقاؤك؟ فيقول --- وقد جنّ جنونه . وتوقدت بالغضب عيونه : « واليك ! أصدقاؤي أكثر من خوص البصرة . و بلوط الجبل . و خردل مصر . و عدس الشام . و حصا الجزيرة . و شوك القاطول و حنطة الموصل . و نبق الاهواز . و زيتون فلسطين . و اللك ! أصدقاؤي » سخطة ابن ابي البغل « و « موسى ابن سلحة » و « جعيفر بن الكلبة » و « كردويه بن وردان » و « عاقول الارمني » الخ الخ .

ولك ! أتعرفني ام لا ! انا الموج الكدر . انا القفل العسر . انا الباقعة الشاطر . انا قلاع القناطر . والله اني اضحك في جيبي وانساك حتى تعفن . أقطع رأسك واجعله زرّ قميصي . استشفك فلا اعطسك الا في الجحيم . و ابلعك فلا انظفك إلا على الصراط المستقيم .

عندما ضحك الحاضرون ضحكاً عالياً . ثم خافوا ان يغضب ابو القاسم و يبادرهم بالسباب . فضلوا الرحيل . وابتدروا الابواب .

\* \* \*

انتهى ايها السادة . ما استحسنتم عرضه عليكم من عبارات هذه المقامة . و مختلف اساليبها في الانشاء و حسن التصرف و البراعة في التفنن . و أرى ان هذا التفنن في النقد هو الذي أجاد فيه من المعاصرين العلامة احمد فارس في كتاباته لاسيما كتابه ( الفارياق ) وكذلك ابراهيم بك المويلحي في كتاباته لاسيما كتابه ( ما هنالك ) وهو ابو محمد بك المويلحي صاحب الكتاب الخليالي المشهور الذي ساه ( عيسى بن هشام ) و ربما سبقهم في هذا المضمار الفاضل احمد فؤاد المصري صاحب ( جريدة الساعة ) و لا يصح ان ننقل هنا ايضاً ذكر الكتاب المصري المعروف في دمشق ( محمود بك زكي ) فان هؤلاء في عصرنا الحاضر يشبهون في طريقتهم في النقد — ابا المطير الازدي صاحب هذا الكتاب . وهذه الطريقة و صنفوا بها ( ابا محمد الاعرابي ) المعروف بالاسود الذي تصدر في القرن الخامس للرد على العلماء و الاخذ على القدماء قال ياقوت عنه : كان علامة نسابة عارفاً بايام العرب و اشعارها لا يقنعه أن يرد على اهل العلم رداً جميلاً انما يحمله من باب السخرية و التهكم و ضرب الامثال . فالكتاب على هذه الطريقة يستعمل الكتابيات و الامثال

والنفنن في الوصف والتشقيق في الكلام مفرغاً كل ذلك في قالب التهمك بخصمه والتخجيل له .

وللمعري في رسالة الغفران أسلوب في النقد التهمكي يشبه أسلوب (حكاية ابي القاسم) . من ذلك قوله يصف كتاب (التاج) الذي وضعه ابن الراوندي معارضاً به القرآن —  
 واما تاجه فلا يصلح ان يكون نعلًا . ثم قال : ( وهل تاجه الا كما قالت الكاهنة :  
 أف وتف . وجورب وخف . قيل وما جورب وخف ؟ قالت : واديان في جهنم اه .  
 ويعني المعري ان ما ذكره ابن الراوندي في كتابه التاج مختلق وصرف للحقائق عن  
 وجهها كما فعلت الكاهنة مذ زعمت ان ( الجورب والخف ) هما واديان في جهنم .  
 وزعمها كذب صراح .  
 ( المغربي )



## الكتب والمطالعة (١)

اتي على الانسان حين الدهر لم يكن فيه يعرف الكنبابة ولا يفنقر اليها لاقنصاره على بساطة العيش واكتفائه ببعض اشارات والفاظ للدلالة على ما يريد من المعاني . ثم لما تحسنت احوال معيشته وارنقت شؤونه الاجتماعية شعر باحتياجه الى نقل معانيه من مكان الى آخر وتدوين افكاره واعماله وحوادث حياته ليطلع عليها من يأتي بعده واشتدت به الحاجة والحاجة ام الاختراع فاخترع الكتابة في زمن مجهول لم يستطع العلماء ان يتوصلوا الى معرفته مع كثرة البحث والتنقيب .

وكانت الكتابة في اول امرها صورية اي قائمة بصور تدل على المعاني ثم تحولت على توالي العصور الى صوتية اي قائمة بعلامات تدل على الصوت البشري . اما الصورية فكانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها الصور تشابه مصوراتها مشابهة حقيقية كصور الرجل والمرأة والطفل والحمل والكلب والذئب والزهرة والشجرة والسكين والفاوس وغيرها للدلالة على هذه المذكورات بعينها .

والثانية ما كانت فيه الصور تشابه مصوراتها مشابهة مجازية كصورة رأس رجل على بدن اسد للدلالة على التجماعة . وصورة امرأة حاملة يدها حمامة للدلالة على الوداعة . وصورة ريش الطاووس في الخط الهيروغليفي للدلالة على الصدق .

والثالثة ما كانت فيها الصور غير مشابهة لمصوراتها وانما هي كتابات عن المعاني التي يراد التعبير عنها كصورة الطائر صاعداً او نازلاً للدلالة على الصعود او النزول . وصورة الساقين للدلالة على المشي او الركض وصورة العين والماء بقربها للدلالة على البكاء . فهذه الصور الحقيقية والمجازية والرمزية توصل الناس الى التعبير عن الذوات والمعاني والعلاقات التي بينها . ولكنهم وجدوا ان هذا التعبير قاصر كثير

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ السيد انيس سلوم القاها في ردهة المجمع العلمي في ٢٧

تشرين الاول سنة ١٩٢٢ م .

الغموض والالتياس محاولوا ان يجدوا طريقة اسهل واوضح منه وما زالوا يعملون افكارهم حتي تيسر لهم الانتقال الى الكتابة الصوتية او اللفظية . وهذه ايضا كانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها كل صورة او علامة تدل على كلمة كاملة فاستلزمت ان تكون العلامات فيها كثيرة على قدر كلمات اللغة كما في الخط الصيني والخط المكسيكي .

والثانية ما كانت فيها كل علامة تدل على مقطع واحد كما في الخط الحبشي والمراد بالمقطع حرف متحرك او حرفان اولهما متحرك والثاني ساكن فقل فيها عدد العلامات بحيث لم يتجاوز خمس مئة علامة كانوا يكتبون بها كل كلمات اللغة كما تبين من كتابات قدماء الاشور بين والبابليين .

والثالثة ما كانت فيها العلامات تدل على ابسط الاصوات البشرية لاعلى المقاطع وهذه العلامات صارت حروفاً سمي مجموعها بحروف الهجاء او حروف المباني وهي التي نستعملها اليوم . وبواسطة الكتابة الصوتية وتسطير الحوادث واسماء محدثيها وزمن حدوثها ابتداء عصر التاريخ البشري الحقيقي وكان لهذا النوع من الكتابة شأن عظيم في تمدن الجنس السامي مدة اربعين قرناً . اما الحروف الهجائية فلا يعلم بالتحقيق اسي الشعوب اخترعها فقد قيل ان مخترعها المصريون وقد عثر من عهد قريب على كتابات ترجع هذا الرأي وقيل الكلدانيون وقيل الهنود وقيل العرب وقيل الفينيقيون والقول الاخير هو المرجح عند الاكثرين لان الفينيقيين هم الذين شروها في الشرق والغرب فانهم كانوا اشير امة باتساع متاجرهم وطول اسفارهم فانتاعوا استعمال هذه الحروف بين العرانيين والعرب والهنود ثم حملوها الى اليونانيين فشاعت عندهم ثم انتقلت الى الرومانيين والاسبانيين والسلاف القدماء والجرمانيين وغيرهم وكان لها شأن عظيم في تمدن الجنس الآري مدة ثلاث آلاف سنة .

اما المواد التي كانت القدماء يكتبون عليها فكانت مختلفة باختلاف الشعوب والازمنة والامكنة والاحوال فالمصريون كانوا يكتبون الحوادث على صفحات الجبال وحجارة الاهرام وغيرها ولما انتدت حاجتهم الى الكتابة وشعروا بصعوبة النقش في الحجارة اخذوا البردي المعروف بالبايروس ( وهو نبات كان يكثر في المستنقعات

على صفتي النيل وفروعه ) وعالجوه بما يجعله صالحاً للكتابة وكتبوا عليه ما سألوا .  
والاشوريون كانوا يكتبون حوادثهم على الواح من خزف قبل ان يشوى ثم يشوونه  
لبقى متيناً على ممر الادهار . واهل الهند كانوا يكتبون شؤونهم واغراضهم على نسج  
من حرير . والصينيون كانوا يطبعون كتبهم على قطع كبيرة من الخشب يصورون على  
اوجها الحروف بالنقر . واهل المكسيك كانوا يحفظون تاريخ بلادهم ومعارفها على  
منسوجات قطنية مصبوغة بالوان مختلفة مرسوم عليها احرف وعلامات غريبة . قال  
احد المؤرخين « لما فتح الاسبانيون بلاد المكسيك وجدوا فيها كتباً قديمة وكتابات  
ورسوماً وصوراً في المنسوجات وحلود الحيوانات وقشور الشجر وسمحات قديمة فانلفوها  
غير مبقين على شيء منها و يظن انه لو كانت هذه الآثار باقية الآن لتوصل العلماء الى  
حل رموزها وعرفوا اصل الامة المكسيكية وتاريخها وكيف وصلت الى العالم الجديد » .  
واليونانيون والرومانيون والعبرانيون كانوا يكتبون الحوادث على الرقوق المتخذة  
من حلود الحيوانات وبقيت الرقوق تستعمل للكتابة بعد ظهور الورق النبأى بقرون  
عديدة وفي مكاتب اربعة سمحات وعقود واحكام وغيرها كتبت على الرق بعد القرن  
العاشر لئلا يد . ويقال ان رق الغزال لا يزال مستعملاً عند بعض الفقهاء لهذا العهد .  
اما العرب فكانوا يكتبون على عسب النخل والواح العظام وبعض انواع الحجارة  
المصقولة التي كانوا يجدونها في بواديهم ( وعرب وادي الفرات وبلاد اليمن كانوا  
يكتبون على الحجارة الصلبة ايضاً ) . ولما انتشروا في البلاد في عهد الخلفاء الراشدين  
اخذوا عن اهلها اساليب الحضارة واحتاجوا الى التبسط في الكتابة فكاتبوا في بغداد  
على الحريري ومصر على البردي ثم استخدموا الجلود بعد ترقيتها ثم لما طابح التاليف  
والتدوين وكثر ترسيل السلطان و صكوكه وضافت الرقوق عن ذلك اتسار الفضل  
ان يحيى بصناعة الورق وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان و صكوكه واتخذها الناس  
من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت  
وكانوا يسمونه بالكاغد على ما ذكره ابن خلدون ثم سمي بالقرطاس ثم شاع اسمه  
المستعمل اليوم وهو الورق وما الورق في الاصل الاسم لما يخرج غالباً على الاغصان  
ويكون للنبات بمنزلة الزئمة للانسان .

قال احد علماء العرب : « الورق لم يوجد في الكلام القديم بل هو اسم لجلود رفاق يكتب فيها وهو مستعار من ورق الشجر » . وقد كثر استعماله وانتشنت له معامل في سمرقند وبغداد والقاهرة ودمياط ثم انتشرت صناعته في الشام وشمالى افريقية وانقلت منها الى بلاد الغرب فضررت فيها اطنابها وارثقت فيها ارتقاءً باهراً لهذا العهد . وقد نظر بعضهم في معامل ورق الارض فوجدوا نحو اربعة آلاف معمل يصنع فيها كل سنة نحو الف الف وسق انكايزي من ورق الخرق وورق التبن او ببس العشب وغيره و ينفق نحو نصف ذلك في المطابع و ينفق من هذا النصف نحو ثلاثمائة الف وسق مطبوعاً جرائد مختلفة والنصف الآخر ينفق في اعمال ارباب الحكومة والمدارس والتجارة وغيرها الا ان الفضل في ادخال هذه الصناعة الى بلاد الغرب راجع الى مستنطبيها الاولين وهم العرب كما كان الفضل في ادخال الحروف الهجائية اليها راجعاً الى الفينيقيين سكان هذه البلاد الاقدمين .

واول قلم كتب القدماء به هو الازميل الذي كانوا ينقشون به ما يريدون كتابته نقشاً في صفائح الحجر والحزف والمعادن ثم استعملوا اقلاماً محددة الرؤوس من الحديد والنحاس والفضة والعاج وكانوا يكتبون بها على صفائح الرصاص والخشب والشمع ولما أبدلت تلك الصفائح بالرقوق المصنوعة من جلود الحيوانات والقراطيس المصنوعة من البردي واوراق الشجر أبدلت اقلام المعدن باقلام القصب ولم تزال مستعملة في الشرق الى هذا اليوم . اما اهل الغرب فأبدلوها باقلام من ريش الاوز ثم باقلام معدنية ثم نفضوا فيها نفضاً بديعاً حتى اخترعوا آخر اقلام الحر وهي التي يوضع الحبر فيها فيستغنى بها عن الدواة وقد ساهم بعضهم الاقلام المدادة اي ذات المداد وهو الحبر . وكان حبر القدماء ماء الصمغ والفحم او الكائن وهو (الظخ الدخان) قيل ان كتبة اليونانيين والرومانيين كفرجيل وزنيفون كانوا يكتبون رواياتهم وقصائدهم بذلك الحبر .

وكانت الكتابة شائعة بين الامم الشرقية القديمة في وادي النيل وادي الفرات وسورية وبلاد العرب والصين والهند وغيرها وذكرت في اقدم اسفار التوراة وهي

اسفار موسى الكايم وسفر ابوب الصديق باسلوب يدل على انها كانت معروفة منذ زمان قديم .

واقدم الخطوط التي اكتشفها علماء الآثار الخط المصري المعروف بالهيريوليفي والخط الكلداني المعروف بالاسفيني او السماري والخط الحميري المعروف بالمسند اما الخط الحثي فهو من نوع الهيريوليفي الا ان معناه لم يكشف الى الآن .

واول من عني بجمع الكتب سرجون الاول الذي انشأ مملكة بابل القوية قبل المسيح بنحو اربعين قرناً وكنظهيراً للعلم فجمع كتب العصور الخالية ونقحها ووضعها في المكتاب العظيمة التي سادها او كبرها وهي اقدم المكتاب واثمنها . وذكر ديودورس المؤرخ الصقلي ان احد ملوك المصريين من الاسر الاولى انشأ مكتبة في قصره بمدينة طيبة عاصمة ملكه وكتب فوق بابها « ههنا دواء النفوس » .

وفي عهد ملوك الاسرة السادسة في مصر قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف سنة كان احد كتاب الدولة يفتخر بانه تولى ادارة الكتب في المكتبة الملكية وطلب الى ذويه ان ينقشوا ذلك على قبره لتوحيهاً بفضلهم واحياءً لذكورهم . وقد عمت العناية بالكتب اكثر الشعوب القديمة كالاثوريين والفينيقيين والحثيين والعبرانيين والعرب والفرس والهنود واليونانيين والرومانين وغيرهم وبواسطتها حفظت اقوال الفلاسفة في كل العصور فمن المكتاب القديمة المشهورة عند اليونان مكتبة اثينا التي احرقها دارا ملك الفرس حينما اجتاحت بلادهم وقيل انه نقل كتبها الى بلاد فارس .

ومكتبة جزيرة ساموس التي انشأها بوليكرات . ومكتبة اريسطوطاليس التي التي استولى عليها تيوفرستس واستراها بطليموس فيلادلفوس ونقلها الى الاسكندرية عاصمة ملكه . وكانت مكتبة الاسكندرية اشهر مكتاب العالم بلغ عدد مجلداتها سبعمائة الف مجلد على رواية وتسعمائة الف مجلد على رواية أخرى .

ومن عجيب ما روي عن بطالسة مصر انهم كانوا ينتسخون كل كتاب يصل اليهم على نفقتهم يأخذون من كل اجنبي يدخل مصر كتبه وينسخونها بكل ضبط ويعطونها نسخها ويضعون الكتب الاصلية في مكتبة الاسكندرية المارذكرها ويدفعون الى صاحبها مالا يرضيه . وكان العرب من اشد الامم الشرقية ولوعاً

بالكتابة وجمع الكتب فتركوا آثاراً كثيرة من كتاباتهم في ارض بابل كشرائع حمورابي الذي انشأ الامبراطورية البابلية القديمة ( نحو ٢٢٥٠ ق م ) وكانت هذه الشرائع منقوشة بالحرف السامري على مسلة من الحجر الاسود الصاب وهي من اقدم الكتابات التي وصلت اليها واقدم الشرائع المعروفة لهذا العهد . وكذلك تركوا آثاراً من كتاباتهم في بلاد اليمن وغيرها مما لا نطيل باسنيافته .

ولما توفرت لديهم الاسباب المادية والعقائمية ابدعوا في التصنيف واغروا في التأليف واولعوا بجمع الكتب وتطلبها من كل حذب وصب واول من اعتنى بذلك الخلفاء الامويون بدمشق فأنشأوا المكاتب وانفقوا عليها الاموال الطائلة ووقفوا لها الاوقاف الكثيرة فانصب اهلها على العلم فافلحوا ونبغ منهم عدد وافر من العلماء الاعلام . ثم جاء بعدهم الخلفاء العباسيون فبلاوا بعدد بجزائن الكتب النفيسة ونقلوا الى اللغة العربية كثيراً من كتب اليونانيين والهنود والفرس وغيرهم فازهرت فيها اشجار التمدن وايضت اثمار الحضارة . ولولا عنايتهم بجمع مصنفات اليونان والسريان وترجمتها لما بقي منها بقية في الشرق كله الا ما كذب في كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق من الكتب اليونانية والسريانية فان المسلمين لم يمسوها عند فتحهم المدينة . ولما حول عبد الملك بن مروان الكنيسة الى جامع جعل هذه الكتب في قبة مقام النبي يحيى ( يوحنا ) فبقيت محفوظة لم يفقد منها شيء الى ان فتحها الالمان باذن السلطان عبد الحميد وقيل انهم نقلوا كثيراً من كتبها الى برلين .

ولم يكن الخلفاء بالاندلس اقل عناية بجمع الكتب من العباسيين بل جمعوا منها مئات الالوف . قيل ان عبد الرحمن الاموي حشد في قرطبة من افريقية وبلاد فارس ومصر والآفاق العربية نحو اربعمائة الف مجلد وقيل ستمائة الف مجلد كتبت اسمائها في اربعين مجلداً وكان بالاندلس عدا هذه المكتبة سبعون مكتبة عامة وكان فيها ايضاً مكاتب خاصة بعضها كبيرة جداً . قيل ان احد علماء الاندلس رفض دعوة سلطان بجزارة له لان حمل كتبه كان يقتضي اربعمائة حمل ولعل في ذلك مبالغة غير ان فيه دليلاً على كثرة كتب ذلك العالم واتساع مكتبته وهو رجل واحد فقط ما اكثر عدد الكتب التي كانت عند باقي الناس في قرطبة وغيرها من بلاد الاندلس .

وكان في مكتبة الفاطميين بالقاهرة مئة الف مجلد وقيل مئتا الف مجلد وفي قصر الخلافة اربعون خزانة فيها من الكتب انفس النوادر واثمن الذخائر وكانت الخليفة الفاطمي يتردد على المكتبة العامة فيجيب اليها راكباً ثم يترجل عندها ويدخل غرفها فيطالع ما يشاء ويجول بين المطالعين ينقد شؤونهم ويلطفهم فكان احسن متجع على مطالعة الكتب باقواله ومثاله . وكان بين بغداد والقاهرة مسابقة علمية اديبة اذ كانوا يتباريان الى العلم وتنافسان في اقتناء الكتب المفيدة استئثارا بالفضل . وما يروى ان ابناء العراق اوفدوا رجلاً الى مصر فانفق مع احد علمائها على اتياع عشرة آلاف مجلد من نفائس كتبه العربية وهي ثلث مجموعته . واتصل الخبر بوزير مصر الافضل فاستكبر الخطب واستنكره وقال كيف تحرم مصر ذخايرها وهل يصح انتقال كنوزها الى غيرها ونحن احق بها واهلها اعرف الناس بقدرها ثم بعث من ماله الخاص الى العالم المصري بجملة الثمن الذي ساومه عليه رسول العراق ونقل الكتب الى خزائنه وكتب عليها القابه . وكان في مكتبة ابي الفداء المؤرخ الشهير سلطان حماه مالا يزيد عليه من الكتب المختلفة النفيسة وكان في خدمته نحو مئتي عالم وفقه واديب وفيلسوف وكاتب . وكان في مكتبة آل عمار في طرابلس نحو مئة الف مجلد وقيل ثلاثة آلاف الف مجلد ولكن ذلك مما لا يصدق . وبالجملة كان في كل البلاد الشرقية والعربية العربية مكاتب عامة ومكاتب خاصة حوت الوف الاولف من الكتب النفيسة ايام كان اقتناء الكتب يستلزم النفقات الطائلة لصعوبة نسخها قبل اختراع فن الطباعة فابن ذهبت تلك النفاس ! . يجوزنا ان نقول ان اكثرها ذهب طعمة للنار وان كثيراً منها نقل الى مكاتب اوربة وبعضها لانطم اسماءها ولم يبق في بلادنا الا العدد القليل . ومن ذلك ما في دار الكتب في مصر ودار الكتب بالاسنانة ودار الكتب بدمشق وما في بعض المكاتب الخاصة كمكتبة احمد تيمور باشا ومكتبة احمد زكي باشا بمصر ومكتبة الاستاذ السيد محمد كرد علي بدمشق ومكتبة الاستاذ السيد عيسى المعلوف بزحلة وبعض مكاتب في بيروت وحلب وغيرهما من مدن سورية .

اما الغربون فعنائتهم اليوم بتأليف الكتب وجمعها اوضح من ان توضح في فرسه فقط ثلاثون الف مكتبة وقلما تخلو مدينة فيها من مكتبة او مكتبتين وفي مدينة

باريس وحدها عدد الكتب اربعة اضعاف عدد السكان . وعدد الكتب في برلين مضاعف عدد سكانها وعدد الكتب في لندن مساو لعدد سكانها او يزيد قليلاً . وقد عم الولوج بجمع الكتب كل الاقطار الغربية فلا مملكة فيها ولا مدينة ولا قرية خالية من الكتب وقد اصبح جمع الكتب فرضاً على كل مهذب والمكاتب من لزوميات القصور الفخمة فكل قصر لا توجد فيه مكتبة كبيرة يحسب ناقصاً اهم الرياش والذخائر والنفائس ولم يقتصر الغربيون على العناية بجمع الكتب الغربية بل عنوا ايضاً بجمع الكتب الشرقية ولا سيما العربية فقد زينوا بها مكاتبهم وطبعوا كتباً من نفائسها النادرة وحرصوا عليها اكثر من حرص العرب في هذا العصر على ما عندهم من آثار اجدادهم . ولم يزل اغنياؤهم يهبون الاموال الطائلة لنشر الكتب وتأسيس المكاتب في اوطانهم وغيرها تعميماً للعلم . ان كارنيجي وحده أسس في سنة واحدة باميركا ٧٥٠ مكتبة وزاد عليها مثل هذا العدد في السنين التالية لها .

واعظم مكاتب الدنيا اليوم مكاتب لندن وفيينا ورومية وبرلين وبطرسبرج وستوكهولم والاسكوريال في مدريد . واغنى المكاتب بالمخطوطات القديمة مكتبة الفاتيكان في رومية ثم مكتبتا باريس ولندن .

والذي ساعد الغربيين على زيادة نشر الكتب فن الطباعة التي بواسطتها امكنهم ان يطبعوا في ساعة واحدة ما لا يمكن نسخه في شهر بل في سنة . ومن يقدر ان يحصي الكتب التي تطبع كل سنة في انحاء العالم . في بلاد الانكبيز وحدها طبع في سنة واحدة اكثر من مئة الف الف مجلد . واذا كان نشر الكتب والمجلات والجرائد هو مقياس العمران فالبعد بين عمراتهم وعمراننا شاسع جداً ولكن العمران لا يقاس بكثرة المطبوعات وان كانت احدى مقوماته بل بمقومات أخرى تفوقها شأنها اهمها التربية التي تثقف العقول وتهذب الاخلاق .

وهنا لا بد لنا من السؤال لماذا عني العلماء في الشرق والغرب قديماً وحديثاً بتأليف الكتب وجمعها في المكاتب الخاصة والعامة وظهرت هذه العناية من ملوك الارض وعظماؤها ورجالها ونسائها كبنيت الملك العادل وغيرها ممن لايسعنا ذكرهن في هذا المقام . والجواب لانهم عرفوا قيمتها وشدة الاحتياج اليها فانها هي الاساس الذي

تشاد عليه قواعد الصلاح والركن الذي به ثبوت دعائم الاصلاح والسبيل المؤدي الى الخير والنجاح والمرقاة الموصلة الى ذروة الفوز والفلاح والمصايح التي تُنضح بها الرموز والآثار والمنافع التي تُنتج بها الكنوز والاسرار بل هي مخنطات عقول الحكماء ومرآتي تصورات الشعراء وخزائن آراء العلماء وسجلات اقوال الخطباء واثمار افكار العقلاء وحافطة احكام الدنيا والدين وعلوم الاولين والآخريين .

فلا غرو ان اولع بها اهل الذكاء والفضل وآثروها على كل قنية فاخرة وحلية ثمينة .

قال كنفوشيوس الحكيم الصيني كنت لفرط رغبتني في طلب المعرفة بالدرس والمطالعة انسى جسمي فلا اطلب له طعاماً ولشدة سروري بالوصول اليها اسلو احزاني فلا احسبها موجودة بل اني ادركني الكبر وحلّ في الهرم ولم احسب لها حساباً . وقال شيشرون الخطيب الروماني ( غرفة بلا كتب جسم بلا روح ) وقال المنذبي الشاعر المشهور :

اعز مكان في الدنيا ظير سايج وخير جليس في الزمان كتاب  
وقال آخر :

حبيبي من الدنيا كتابي فيليس بي الى غيره ما بي اليه من النقر  
وقال آخر :

اذا غاص في بحر التفكير خاطري على درّة من معضلات المطالب  
خففت ملوك الارض في نيل شهرتي ونلت المنى بالكتب لابلكتائب  
وقال آخر :

لما جلسة ما نمل حديثهم الباء مأمونون غيباً ومشهدا  
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا  
فان قلت اموات فلم تعد امرهم وان قلت احياء فلست مفندا

وقال الجاحظ : من كلام طويل في وصف الكتاب « هو الجليس الذي لا يطرئك والجار الذي لا يستبطنك والصديق الذي لا يقلبك والمستريح الذي لا يؤذيك والرفيق الذي لا يملك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق

ولا يملك بالكر ولا يمددك بالنفاق بطيئك في الليل طاعته في النهار وفي السفر طاعته في الحضر . وهو المعلم الذي ان افقرت اليه لم يحقرك وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة . ولا اعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص تمنه . يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن اثمان العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والامثال السائرة والام البائدة ما يجمعه كتاب . ولولا الحكم المخطوطة والكتب المدونة لبطل اكثر العلم واغلب سلطان النسيان سلطان الذكر» .

وقال فنلون : « لو وصعت تيجان ملوك اربعة كلها عند قدمي بدلاً من كتبي لرفضتها » .

وقال كارليل الكاتب المشهور : « اهم ما يصنعه الانسان في الدنيا وابقاه وانمته هو الكتاب » .

وقال مكولي الكاتب الانتقادي المعروف : « أفضل ان اكون فقيراً في كوخ وعندي كثير من الكتب على ان اكون ملكاً في قصر بلا كتب » .  
وقال ادورد كبن المؤرخ : « أفضل كتبي على كل كنوز الهند لان التلذذ بها بهجة حياتي وتاج مجدي » .

وقال ملتن الشاعر : « الكتاب ليست حماداً بل اجسام ذات حياة . فانها حياة مؤلفيها والمذكورين فيها فمن يتلف كتاباً كمن يقتل نفساً بل قد يكون اعظم اثمناً لان من الناس من في قتلهم راحة للعالم ولكن اتلاف الكتاب المفيد فيه ضرر للعالم » .  
وقال تيلر : « الكتاب دليل الشباب الى سبيل الصواب وسلوة الشيخوخة عن قوة الشباب » .

وقال هرشل الفلكي ما معناه : « ان غاية ما أتمناه في هذه الحياة واطلبه من ربي في الصلاة ليكون لي ينبوع سرورٍ وهناء وترساً يقيني سهام البلاء وسيقاً اغلب به جيوش الارزاء كتابٌ ينفعني في السراء والضراء ويرافقني حيث اشاء » .  
وقد شبه بعضهم الكاتب بالاسانذة وشبهها بعضهم بالاصدقاء والحق انها افضل

من الاساتذة والاصدقاء باعتبارات كثيرة لا يتسع الوقت لبيانها وهي افضل من كل ما يقنيه الانسان من التحف والطرائف والجواهر والنفائس حتى قال بعضهم انها الغنى كله وتمتاز على كل ما يخدغه الانسان من الآثار الدالة على عظمته وقدرته كالحياكل الجميلة والمدن الحصينة والقلاع المنيعة وغيرها مما يبقى قروناً عديدة شاهداً بمجد من بنوه ولكنه يفقد رونقه الاصلي على تمادي السنين بل قد يزول ولا يبقى له اثر . وكم من مدينة تهدمت وقلعة دُكّت وهيكل اصبح ركاماً مر كوماً .

اما الكتب النفيسة فاذا لم تمسها يد الانسان بالاذى بقيت قروناً عديدة برونقها وجمالها وفائدتها وتأثيرها في نفوس قارئها . وهي خير ميراث يتركه العلماء للجنس البشري وافضل واسطة لاحياء الذكر الى الابد .

ان هوميروس وارسطو وافلاطون وسقراط والمتبي وابن سينا والفارابي وغيرهم من الشعراء والحكام يبقى ذكرهم حياً ما دامت كتبهم بين ايدي الناس . والملوك والعظماء الذين لم يتركوا اثرًا نافعاً قد باد ذكرهم . ان الكتب تتجدد وتعدد بالنسخ والطبع على توالي العصور كما تقدمت نسخها الاصلية ومع ذلك تبقى قيمتها وفائدتها كما كانت في عصر مؤلفيها بخلاف الآثار القديمة فان قيمتها تزول بتجديدها فتحسب مزورة وكفى بذلك دليلاً على عظمة شأن الكتب وامتيازها على كل مصنوعات الانسان .

وهنا وصلنا الى القسم الثاني من موضوعنا وهو المطالعة التي هي الغاية العظمى من تأليف الكتب وجمعها . ان كثيرين يرغبون في اقتناء الكتب وجمعها اما بقصد المتاجرة او بقصد المعاصرة فهؤلاء لا يستفيدون منها علماً ولا اداً فلا ينالون الغاية من وضعها مثلهم الا كمثل من يملك مزرعة واسعة ولا يذوق شيئاً من غلاتها او يجمع مالاً كثيراً ولا ينفق منه فلساً على قوته فيموت جوعاً واهراؤه مملوءة فحماً وصناديقه طائفة ذهباً . ان المطالعة ضرورية لتغذية العقل كما ان الخبز ضروري لتغذية الجسد فكل الناس منفقون الى المطالعة لانماء عقولهم بالعلم واحياء نفوسهم بالادب والفضيلة فالذي لم يتيسر له التخرج في المدارس في صغره يستطيع ان يكتب بالمطالعة ما خسره من الفوائد بعدم دخوله المدارس . ومن الحماقة ان يتخذ عدم درسه في الصفر حجة لعدم المطالعة في الشباب وما بعده من اطوار الحياة بل احرى بذلك ان

يكون حجة للمطالعة لتدارك ما فات . والذي وفق الى دخول المدارس في صغره ونال حظاً صالحاً من العلم لم يزل محتاجاً الى زيادة المعرفة والحكمة وتوسيع المدارك ومن الخطأ الواضح بل الغرور الفاضح ان يكتبني الكتاب والخطباء والمحامون والاطباء وغيرهم من ارباب الصناعات والفنون بما حصلوه في المدارس ويحملوا المطالعة النافعة بحجة انهم قد اكملوا دروسهم ونالوا شهادتهم فلم يبق بهم حاجة الى المراجعة او الدرس ولذلك يميلون الكتب ويستخفون بالمجلات ولا يبالون بتوسيع معارفهم حتى تتناقص رويداً رويداً وتضمحل في النهاية فيعجزون عن القياس بوظائفهم ويخسرون كرامتهم ومنزلتهم بين العلماء ويفقدون ثقة الناس بهم لان الطيب الذي لا يكتسب في كل يوم معارف جديدة ولا يقف على سير الطب الاكتشافات المتعلقة به لا يلبث ان يصبح دجالاً والمحامي الذي لا يطالع المجلات الحقوقية ولا يطلع على القوانين والزيادات والتفاسير الجديدة لا يلبث ان يصبح محتالاً لانه لا يكون له غرض سوى كسب المال فيقبل كل دعوى وهو يجهل نتيجتها . والجهل قد يكون سبباً للاحتيال على الرزق لان من جهل صناعةً وادعى العلم بها واتخذها وسيلة للكسب كان خليقاً بان يسمى محتالاً . اما العالم بصناعته الذي يأخذ اجرتة بحق علمه فلا لوم عليه .

ان الذين اشتهروا بالعلوم والفنون وحازوا قصب السبق في ميادين الفضل لم يبلغوا ما بلغوه من الشهرة والنفوق الا بكثرة المطالعة وتكرار المراجعة لا بما حصلوه في المدارس فقط ولا بمجرد الذكاء الفطري .

قال احد الخطباء : « ينسب الناس الي ذكاءً ممتازاً والحقيقة اني لست اوفر ذكاءً من غيري وانما انا رجل مجتهد في انقسان صناعتي فاذا أردت ان اخطب في موضوع ما طالعت كل ما وصلت اليه يدي من الكتب المتعلقة به وملأت ذهني بكل حقائقه واحطت علماً بكل تفاصيله فأتيت خطابي محكماً . فما يسميه الناس ذكاءً ممتازاً وحذفاً عظيماً انما هو ثمر درسي ونتيجة تعبي واجتهادي .

وقال الشيخ ناصيف البازجي في خاتمة مقساماته : « اني قد تلقيت هذه الصناعة من باب التطفل والهجوم اذ لم أقف على استاذ قط في علم من العلوم وانما تلقيت ما تلقيته بمجرد المطالعة وادركت ما ادركته بتكرار المراجعة .

وقال الاستاذ ابراهيم الحوراني في آخر حياته : « ما زلت منذ حداتي أطلع واتعلم الى هذه الساعة فاستفدت من تعليم نفسي اضعاف ما استفدته من معلمي » .  
 وينتج من ذلك ان المطالعة ضرورية لانماء القوى العقلية وتهذيب الاخلاق  
 الغريزية واكتساب الفضائل النفسية ومعرفة الحقوق الاجتماعية والتأهب لاعمال  
 الحياة الجوهرية . ولا تكون المطالعة نافعة الا اذا روعيت شروطها وهي :

(١) : الرغبة الشديدة في الحصول على المعرفة الصحيحة والارادة الثابتة في طلب الوصول اليها فمن لم يرغب في المطالعة ولم يقصد الاستفادة بكل قواه لم يمكنه الحصول على العلم ولا النجاح في طلبه لان الرغبة القلبية هي سر النجاح في كل عمل يعمل المرء عقلياً كان او يدوياً وكل الذين نجحوا في العالم وبلغوا درجة سامية في الصناعة او العلم كانوا من الراغبين في ما اشتبهوا به . ان الرغبة في الشيء تهون الصعوبات الشديدة وتقرب المسافات البعيدة وتجعل المستحيل عند بعض الناس ممكناً عند غيرهم . فمن اراد ان يتعلم لغة تعلمها ولو كان شيخاً طاعماً في السن ومن رغب في اتقان علم اتقنه ولو كان فقيراً سيئ الحال .

اما الذين لا يرغبون في المطالعة فلا يمكنهم ان يسفيدوا شيئاً ولو قرأوا الوقتاً من الكتب ودخلوا أعظم المدارس .

(٢) : الاقتصار على الكتب الصالحة المفيدة لان مطالعة الكتب الرديئة ليست عديمة النفع فقط بل هي كثيرة الضرر ويجزنا ان نقول ان هذه الكتب منشورة انتشاراً تصعب ازالته ومنها الكتب الكفرية التي تفسد الايمان وتقود الى التعطيل . والكتب المحمونية التي تفسد الاخلاق وتعلم الخلاعة والسفاهة والكلام البذيء . والكتب الخرافية التي لا تتضمن غير الاوهام والخزعبلات والسفاسف والحكايات الكاذبة التي لا يسلم بها عقل . والروايات الغرامية الخيالية التي تضع الاوقات بتلاوتها ويكتسب مطالعوها منها العادات السيئة والاخلاق الذميمة كالاحتيال والمبارزة والاتحار وطلب المحال وغير ذلك من الامور التي يكثر ورودها في تلك القصص . فكل هذه الكتب وامثالها لا تجوز مطالعتها لانها تفسد المبادئ وتحشو الدماغ بالاوهام وتقود الى أعظم الرذائل والخسائر المادية والمعنوية فيجب على

العامل ان يتعد عنها ولا يسمح بدخولها البيت ووضعها بين ايدي الصغار ولا يقرأها ولا يسمعها بل يترقها او يحرقها .

ويا ليت الحكومة تهتم بهذا الامر كما تهتم بامر الصحة فتمنع طبع هذه الكتب ونشرها وبمعها وتعاقب مؤلفيها وناشريها وبائعها كما تمنع الدجالين من ممارسة الطب والطارئين من بيع السموم وتعاقب بائعيها .

ان اختيار الكتب النافعة لا يقل خطورة عن اختيار الاصدقاء الصادقين فكما انه لا يحسن الاعتماد على صديق الا بعد اختباره وتحقق صدقه ووفائه كذلك لا يحسن الاعتماد على كتاب الا بعد تحقق نفاسته وفائدته . ان انفع الكتب هو الذي يترك في نفوس قارئيه افضل تأثير صالح ويفعل في الحياة العقلية ما يفعله نور الشمس في الحياة النباتية والحيوانية فينبه القوي والمدارك وينمي العواطف والنجايا ويحسن الاخلاق والمبادئ .

اننا في عصر كثر فيه الكتب المفيدة المزلفة باللغة العربية والمترجمة من اللغات الغربية فضلاً عما كان عندنا من الكتب الادبية والعلمية القديمة فلا يصعب علينا وجدان ما نحتاج اليه من المواضيع المختلفة واختيار احسن الكتب التي تبحث عنها . وما نفيد مطالعته المجلات العلمية كالمثقف والملاح وغيرهما ومن كان ضليعاً من لغة اجنبية كالفرنسية والانكليزية والالمانية استطاع ان يجد ما لا يحصى من الكتب والمجلات النافعة التي تشمل على احدث الاكتشافات العلمية وافضل الاختراعات المعاصرة . ويحسن بالارغب في المطالعة ان يستشير اهل الفضل ليرشده الى الكتب والمجلات الغزيرة الفوائد فيكون على بينة من نفعها قبل ان يقرأها ولا يادر الى قراءة اي كتاب كان لبدته وحسن ظاهره فما كل جديد حسن الظاهر بنافع . وما اكثر الذين تحددعهم الكتب بحسن ورقها وجمال تجليدها وطول عناوينها فيضيعون اوقاتهم بتلاوتها وبتناولون السم من دسمها وهم لا يشعرون .

(٣) : مراعاة الميل الخاص والذوق والحال والسن في ما يختار من الكتب النافعة فبعضهم يميل الى التاريخ ولا يستفيد من العلوم الرياضية وبعضهم يحب الرياضيات ولا يميل الى العلوم الطبيعية . وما يناسب البسطاء لا يناسب الاذكياء

وما يفهمه الكبار لا يفهمه الصغار فيجب على كل راغب في المطالعة ان يختار من الكتب الجيدة ما يلائم ذوقه ويناسب حاله ودرجة فهمه لان الكتب كالأطعمة منها ما هو لذيق العظم سهل الهضم كثير الغذاء ومنها ما هو نافع عسر الهضم قليل الغذاء وكذلك العقول كالمعد منها ما هو قوي بهضم كل نوع من الطعام ومنها ما هو ضعيف لا بهضم سوى اللبن والحكيم من اختار لنفسه ولأولاده الاطعمة التي تناسب اذواقهم وتلائم معددهم ومن فعل خلاف ذلك خسر الفائدة المطلوبة وعرض نفسه وأولاده للأمراض الفتالة .

(٤) : عدم الاقتصار على نوع واحد من الكتب لان الانسان يحتاج الى معرفة اشياء كثيرة لاشيء واحد فقط فيجب على المطالع ان يمتد في معرفة كل ما يمكنه من العلوم وبعبارة أخرى ان يعرف شيئاً من كل علم فيطالع كتب الفلسفة العقلية لمعرفة حاجات العقل ومرقياته وكتب الفلسفة الطبيعية لمعرفة سنن الكون ونواميس الطبيعة وكتب التاريخ لمعرفة احوال البشر وكتب حفظ الصحة لمعرفة قوانين المعيشة الصحية وتجنب اسباب الامراض وكتب المنطق والبيان ليحسن التعبير عن افكاره بجلاء وقوة وبالجملة يجب ان يلم بما يمكن الالمام به من المعارف المتنوعة وان كان اختصاصياً بنوع واحد منها .

(٥) : تخصيص وقت كاف للمطالعة ولو ساعة كل يوم وهذا لا يصعب على من يريد ان يجد وقتاً وان كانت أعماله كثيرة تستغرق معظم أوقاته لانه اذا اراد تخصيص ساعة للقراءة استطاع ان يختلسها من وقت فراغه او وقت راحته او وقت زيارته او وقت نومه او وقت طعامه او من مجموع هذه الاوقات كلها . والغرض من تخصيص وقت كاف كل يوم للمطالعة المتواصلة عليها لكي ترسخ فوائدها في العقل فاذا قرأ الانسان خمس ساعات في يوم واحد ثم أهمل القراءة شهراً او اسبوعاً سي ما قرأ وأضاع فائدته ولكن اذا اعتاد ان يطالع كل يوم صباحاً قبل ان يذهب الى عمله فصلاً من كتاب علي او ادبي او اجتماعي او تاريخي استنار عقله ونهت افكاره واغذت نفسه وأصبح قادراً على القيام بأعماله بكل نشاط وترتيب ونجاح لانه قد استمد من معاني ذلك الفصل ومن روح مؤلفه الشريفة قوة معنوية عجيبة ترافقه كل ذلك

النهار . فكما انه لا يجوز للمرء ان يخرج من بيته باكراً بدون ان يتناول طعاماً يقوي جسده كذلك لا يجوز له ان يخرج من بيته بدون ان يتناول طعاماً عقلياً يقوي نفسه .

(٦) : قصد الاستفادة فلا فائدة من المطالعة بقصد التسلي او النوم او الجدل او الانتقاد او الاعتراض ولا بقصد التسليم الاعمى بكل ما يطالع ولست اعني بذلك انه لا تجوز المطالعة بقصد التسلية على الاطلاق فان في التسلية احياناً فائدة ولكنها اذا كانت هي الغاية من المطالعة انشأت البلادة ومنعت من الاستفادة ولا انه لا يجوز الانتقاد بناتاً لانه اذا روعيت قواعده افاد فائدة عظيمة وانما اعني ان تكون غاية المطلاع الاولى ان يستفيد مما يطالعها علماً او أدباً او تاريخاً او غير ذلك من الفوائد الجوهرية فان لم تكن غايته الاستفادة أضع وقته سدى او ربما اضر بنفسه وبغيره اذ يتمرن على المماحكة والمجادلة ويقوده الغرور الى مجادلة من هم أوسع منه علماً واغزر فضلاً تبيحاً بما توهمه في نفسه من قوة الحجة وبلاغة المنطق وبراعة الانشاء .

(٧) اتباع الترتيب اذ لا فائدة من المطالعة بدونها ونعني بالترتيب ان يقرأ المطالع الكتاب الذي يختاره من أوله الى آخره على التوالي فصلاً فصلاً ويقرأ الفصل من أوله الى آخره سطرّاً سطرّاً بالنأمل والانتباه فيجد لذة عظيمة وفائدة جسيمة . اما الذين يقرأون بضعة كتب في وقت واحد قراءة بلا ترتيب مقنصرين على بضع صفحات من كل كتاب وبضعة اسطر من كل صفحة فلا يجدون فائدة ولا لذة لانهم لا يفقهون شيئاً مما يقرأونه لعدم ارتباط المعاني التي يقفون عليها بعضهم بعض وما مثابهم الا كمثل من يحبط في الظلماء خبط عشواء فلا يروى السداد ولا يهتدون الى المراد .

(٨) : فهم الالفاظ والمعاني التي يعثرون عليها في الكتب التي يطالعونها لان فائدة المطالعة لا تتوقف على كثرة الكتب التي تقرأ بل على فهم ما يقرأ منها كما ان فائدة الطعام لا تتوقف على كثرة ما يؤكل منه بل على ما يهضم منه وربما حصل ضرر من كثرة القراءة بدون فهم كما يحصل ضرر من كثرة الأكل بدون هضم . فغير للانسان ان يقرأ قليلاً ويفهم من ان يقرأ كثيراً وينسى لعدم الفهم .

(٩) : وعي الفوائد التي يفهمها المطالع في ذهنه او كتابتها في دفتر خاص حتى يرجع اليها عند الحاجة لان الذهن قد لايسع كل ما يعثر عليه القارئ في اثناء مطالعته فاذا لم يدونه في مذكرة تحفظ عنده اضاع تبعه بالمطالعة وتعسر عليه التفتيش عما يريد في الكتب التي كان قد قرأها . الا ان الاعتماد الكثير على المذكرات يضعف الذاكرة فلا يحسن الاكفاء بها بل يجب الاعتماد التام على الذاكرة لانها هبة مينة تقوى بالاستعمال كسائر المواهب فلا يجوز اهمالها ولا عدم الثقة بها الا اذا كانت المواد المطلوب حفظها فوق طاقتها فحينئذ يحسن استعمال المذكرات . ومما يفيد المطالع ان يدون ايضاً كل كلمة او عبارة لم يفهمها لكي يبحث عنها في مظانها ويقف على تفسيرها فتمت بذلك الفائدة التي يتوخاها .

(١٠) : استيفاء البحث عن الموضوع المراد العلم به في الكتب المختصة به وذلك بالابتداء من النقطة المركزية فيه وتنع كل الفروع المتصلة به والاحاطة بجميع اطرافه فاذا اراد المطالع ان يبحث عن قطر من الاقطار كسورية مثلاً وجب عليه ان يطلع على مصورها (خرائطها) وقرأ تاريخها في كتب متنوعة بحيث يحيط علماً بمدنها وقرائها وسهولها وجبالها ووديتها وانهارها واجناس سكانها والدول التي تعاقبت عليها ومذاهب اهلها ونوع حكومتها والنهضة العلمية فيها وآثارها القديمة وصادراتها وغلاتها وسائر ما يتعلق بها واثامها وشعوبها القديمة والحديثة وعددهم واديانهم وعاداتهم وعلومهم وصناعاتهم لغاتهم في كل الادوار التاريخية وحينئذ يستطيع ان يكتب مقالة وافية عن سوريته او يلقي محاضرة متممة في تاريخها واذا اراد ان يعرف ترجمة احد العظماء او الشعراء كآبي اللؤلؤ المعري مثلاً وجب ان يبحث عنها في تراجم الشعراء الموجودة بين يديه وينتج اقوال المؤرخين وغيرهم ممن ذكروا هذا النابغة العربي المشهور في كتاباتهم ويقابل بين تلك الاقوال ويحصيها ثم يستخرج منها ترجمة صحيحة لذلك الشاعر الحكيم . وجملة القول انه يجب على الباحث عن المسائل التاريخية او العلمية او اللغوية او غيرها ان يستوفي بحثه وينتج كل التفاصيل المتعلقة بموضوعه بالتدقيق والتحقيق الى ان يئلى عقله به فيحصل على الفائدة التي يتوخاها . ولا بد من الاعتدال في المطالعة وتجنب الافراط فيها الى حد نسيان الطعام واهمال نسروط

الصحة كما كان كنفوشيوس يفعل . فان اجهاد العقل وتحميله فوق طاقته وعدم الاعناء بالجسد مما تضع به فائدة الدرس فيجذر طلاب العلم ومحبو المطالعة من ارتكاب هذا الخطأ .

اما الفوائد الناشئة عن المطالعة القانونية فكثيرة اذكر بعضها :

(١) : تسهيل الوصول الى معرفة الحقائق المتنوعة من كل المباحث والتدرج في مراتب الحضارة واجتناء ثمار العلوم بدون مشقة فلا يحتاج الانسان في هذه الايام الى السياحة حول الارض لمعرفة احوال الاقاليم والممالك والبلدان وغيرها ولا الى بناء المراصد واقنناء المراقب ومراقبة النجوم لمعرفة علم الفلك ولا الى بناء السفن وقطع البحار لمعرفة علم الملاحة ولا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة التي تسفرق السنين الطوال لمعرفة العلوم الاخرى بل يمكنه ان يجد كل مايريد من هذه المباحث وغيرها في الكتب المختصة بها فيقف على افكار الحكماء المتقدمين والمتأخرين والعلماء المحققين والشعراء المقلقين والنوابع المبتدعين والسياح المكتشفين وهو جالس في غرفته لا يرح مكانه فيكون كل يوم من حياته بمثابة اعوام وكل عام بمثابة قرون كأنه وجد منذ وجود الانسان الاول ولم يزل حياً لهذا العهد وكأنه خالط كل الامم ورأى كل البلدان وجالس كل العلماء وسمع كل الخطباء وعاش في كل عصر وسكن في كل مصر وكل ذلك بتعب يسير ووقت قصير فما اعظم فائدة المطالعة وما اجمل من يستخف بها ويهملها .

(٢) : تثقيف العقل وتهذيبه وتمرينه وشحنه لان القوى العقلية كالنباتات التي تحتاج الى التشذيب لزيادة نموها وامرارها ولا شيء يهذبها مثل المطالعة فالتاريخ يملأ العقل حكمة ودربة واختباراً والرياضيات تقوي الادراك والاستدلال والحجة والطبيعات ترقى الافكار والشعر يرقق التعور والمنطق والبيان يعصمان عن الخطأ في الذهن واللسان .

تحسين الاخلاق فلا شيء يمنع الانسان من فساد الاخلاق بعشرة الارباء ويصون فيه الفضيلة مثل المطالعة لانها تزجره عما ينهك القوي وتشغله عن البطالة والملاهي التي هي اصل المعاصي وتمنعه من التهافت على اللذات المحرمة والاعمال المنكرة

وتكسبه الفائدة واللذة معاً فيعيش مبتعداً عن الرذائل متمسكاً بالفضائل طيب السيرة  
مدوح السيرة .

(٤) : توفير المال لان الانصباب على المطالعة يمنع الانسان من اتفاق دراهمه في  
غير وجهها و يعلمه قيمة الوقت وطرق الافئصاد و يبعده عن المبذرين اخوان الشياطين .  
قال احدهم : « ان لم يكن اشغالي بالعلم قد زاد دخلي فانه لاشك قد ساعدني على  
الافئصاد في نفقاتي لان انصبابي على المطالعة منعي من تبذير دراهمي بما لاخير فيه » .  
(٥) : الابهاج في حالة الحزن او المرض او التعب او الشيخوخة لاشي يعزي  
الانسان ويحفف عند الآلام و يعينه على احتمال الاسقام و يسليه في بلائه و يسعده  
في شقائه مثل المطالعة فانها الوسيلة الوحيدة التي بها يذخر الشاب كنوز العلم الثمينة  
الى زمن الشيخوخة ولاشي يحسبه الشيخ اكبر داع الى الشكر مثل تعوده المطالعة  
واعظم موجب للاسف خسارة الشيخ هذه النعمة .

(٦) انشاء محبة الوطن وجعل ابنائه اكثر استعداداً لخدمته فالذي يطالع اخبار  
المخلصين لاوطانهم الباذلين نفوسهم في سبيل تعزيزها وترقيتها يتولد في قلبه الحب  
لوطه و يتأهب لخدمته بما يذخره من المعرفة التي ملأت عقله و أثرت في نفسه وهاجت  
خاطره و نهته الى الواجب ودعته الى العمل فما اعظم الفوائد الناجمة عن المطالعة الحقة  
وما جهل الذين يهملونها مع كثرة انتشار الكتب ورخص اثمانها وسهولة الحصول عليها  
وخفة حملها بالنسبة الى ما كانت عليه في الازمنة السالفة . ان الشاب يقدر اليوم ان  
يشترى كتاباً يقضي بمطالعته شهراً بثمن علبه لفائف للتدخين او ثمن (اوقية شكولات)  
وهذه نعمة لم يعرفها المتقدمون فقد كانت الكتب في اول امرها باهظة الاثمان ونادرة  
كل النادر . قيل ان الملك الفرد بذل ولاية عظيمة في مجلد واحد . وبعث مقالة  
واحدة بمئتي غنمة واربعين مد حنطة . وبعث نسخة من الكتاب المقدس بربع مئة  
ليرة انكليزية فليعتبر المستحقون بالكتب والمطالعة من شبان هذا العصر الذين يؤثرون  
زجاجة من الراح على لسان العرب والمصباح ولا بدلي في الختام من ذكر بعض مبادئ  
عملية وهي :

(١) : على الآباء ان ينفقوا جزءاً من دخلهم في ابتياع الكتب والمجلات

والجرائد المفيدة ويضعوها بين ايدي اولادهم ليعتادوا التلذذ بقرائتها من الصغر وتصبح ملكة فيهم زمن الشيخوخة وقسماً كبيراً من مطالب حياتهم . ان اكثر الآباء مقصرون في هذا الواجب فاذا دخلنا بيوت اهل دمشق ولاسيما الاغنياء وجدنا فيها ريشاً فاخراً وتحفاً ونقائس متنوعة ولم نجد في اكثرها كتاباً مفيداً وندر ان يوجد فيها مكتبة على حين ان الكتب من لوازم البيت الضرورية كالطعام والاثاث .

(٢) : على رؤساء المدارس ومعلميها ان يحببوا المطالعة الى تلاميذهم ويربوا فيهم الميل الشديد اليها ويشجعوم عليها ويساعدوم على فهم ما لم يفهموه مما يطالعونه ويسهلوا لهم الحصول على الكتب النافعة ويهتموا بانشاء مكتبة كافية في كل مدرسة . ان اكثر معلمي المدارس لا يهتمهم سوى قبض الرواتب وقضاء ساعات الدروس بالحكايات التافهة وربما تدمروا بحضور التلاميذ من قلة الرواتب وعدم فائدة العلم فبغضوا اليهم الدرس والتحصيل وولدوا فيهم الكسل والاهمال .

(٣) : على العلماء والاغنياء ان يتعاونوا على تأسيس مكاتب جديدة وجمع كتب مفيدة لكل الطبقات في احياء المدينة ليبنى فوائدها العامل والتاجر والموظف والتاب والشيخ في اوقات فراغهم بدلاً من ان يدخلوا بيوت القهوة ويقنلوا اوقاتهم بلعب النرد وغيره . ان الحانات والملاهي وبيوت القهوة في دمشق تعد بالمئات ولكن المكاتب تعد على الاصابع . واللوم في ذلك على العلماء والاغنياء الذين ينفقون الاموال الطائلة على لذاتهم ولا يوجدون بالقليل من ثروتهم لعمل مفيد للجمهور . ان بعض الشبان الاغنياء النجباء اظهروا رغبة في معاضدة العلماء ونشيط الكتاب فليت الباقين يقنطون بهم فتصبح دمشق زاوية بعلومها كما هي زاوية بمجذائقها .

(٤) : على الحكومة ان تشجع الشعب على هذه الاعمال وتمدله يد المساعدة كما فعلت الحكومة المنندبة اذوهنت مبلغاً كبيراً من المال لمكتبة بيروت الكبرى وكافعت الحكومة الوطنية بامدادها المجمع العلمي بشيء من المال لاقتناء ما يحتاج اليه من الكتب لفائدة الذين يقصدون المطالعة في المكتبة العامة وهذا مما استحققت عليه الثناء الطيب . الا اننا نرجو منها ان تزيد الاهتمام بهذا الامر الحيوي لكي نعدد المكاتب العامة وغرف

القراءة في البلاد السورية فان في تنوير الازهان وتعليم الجهال ترقية للبلاد وثقليلاً  
للجرائم واسعاداً للامة .

(٥) على الشبان الذين لم تمكنهم الاحوال من دخول المدارس والطلاب الذين  
نالوا حظاً صالحاً من العلم ان يثابروا على المطالعة في بهوتهم وفي المكاتب العامة وغرف  
القراءة كما سنجت لهم فرصة لكي ينشأوا رجال فضل وادب ويخدموا بلادهم وامتهم  
احسن خدمة ويعيدوا الى وطنهم ما كان له في سالف الازمان من العز والعمران بفضل  
انتشار العلم والعرفان والله المسؤول ان يهديهم واياتنا أقوم سبيل وهو حسبنا ونعم  
الوكيل .

بني العرب زبدوا علمكم ما اسنطعتم  
ولا تهملوا الكتب التي جلّ نفعها  
لكي ترجعوا مجد الاثيل الى العرب  
فافضل ما يعني مطالعة الكتب

انيس سلوم



## صناعات دمشق القديمة (١)

تمهيد — ما هي الصناعة ؟ — الصناعة عند القدماء — كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟ — صناعة السيوف — القبالة وسبك الحديد والفولاذ — القاشاني — الميناء — الفيسفساء — الترصيع او النزيرل في المعدن والخشب — نقش البهوت والجدران — النسيج او الحياكة — الزجاج — البناء — الوراقة وما يتعلق بها — الصناعات الأخر — الختام .



### تمهيد

بزراعة وصناعة وتجارة تجدد البلاد تقدماً وفلاحاً  
اركان عمران فشيده صرحها وخذ العلوم لنيلها مفناحا  
لاخفاء ان اسباب المعاش او العمران هي الامارة والزراعة والصناعة والتجارة  
وقد افاض كثير من مؤلفي الافرنج والعرب في اخص تلك الاسباب التي هي بعد  
الامارة وكان ابن خلدون الملقب ( سينسر العرب ) بمباحثه الفلسفية والعمرانية  
والتاريخية في مقدمة الذين حضوا على انقاذ هذه الاركان وتوطيد دعائمها لرفع شأن  
البلاد مما لا يحل الآن لتفصيله .

على انني افردت الصناعة من بين تلك الاسباب الآت لما كان لها من الشأن  
العظيم والقدر الجليل في هذه المدينة العريقة في القدم والشهرة . فكانت اعمالها  
ذائعة في الخاقين واتصلت بالاندلس واوربة والعجم حتى اغنتها بنفائسها . وملأت  
خزائن متاحفها بذخايرها فضعف شأنها عندنا على اثر ما انبأنا من التكببات والغزوات

---

(١) محاضرة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف التي القاها في ردهة المجمع في ٢٢

والفواجم الطبيعية الى ان جدد بعضها في القرن الماضي وبقي الآخر منمخطًا عن درجته الأولى ولكنه يبشر باستعادة النهضة في ظل الحكومة وعنايتها ان شاء الله .

### ماهي الصناعة ؟

الصناعة هي كل ما اشغل به الانسان ومارسه حتى صار ملكة فيه . فالصناعة هي العلم المتعلق بكيفية العمل . والملكة هي الكيفية الراسخة في الذهن . ومن اسمائها الحرفة لان الانسان بنحرف اليها اي يميل . ولقد فرق بعضهم بينها . فقال الصناعة ما حصلت بالممارسة والتمرن فهي اخص من الحرفة التي لا تحتاج اليها . وقيل ان الصناعة ما كانت بالاعمال اليدوية حتى قيل فلان صناع اليردين بخلاف الحرفة فانها تكون بدون ذلك . اما المهنة فهي الخدمة .

واسم الصناعة عند الاوربيين مشتق من كلمة ( Industria ) اللاتينية ومعناها ( العمل مطلقاً ) ثم خصصت ومنها اخذت اسمائها في لغاتهم .  
فالصناعة والعلم متلازمان لا ينفك احدهما عن الآخر والصناعات التي أسست على مبادئ علمية اشتهرت بدقتها وفوائدها .

ولقد قسمت الصناعات الى ضرورية وغير ضرورية فالضرورية قسمان منها ماهي عامة الفوائد كالزراعة والبناء والخياطة والحياكة والنجارة . ومنها ماهي شريفة بموضوعها وخاصة بفوائدها كالتوليد والكتابة والوراقة والطب والغناء والموسيقى . ومنها ماهي ممتنة كبعض المهن التي يضطر اليها بعضهم ليرتزق منها ولا يأنف من ممارستها . وكلها في نظر العمران ضرورية له ونافعة وبدونها تكون الاعمال ناقصة وما احسن قول الشاعر :

وليس على عبد نقي تقيصة اذا صحح التقوى وان حاكوا حجم

### الصناعة عند القدماء

لقد نظر القدماء الى الصناعة نظرة غريبة فألهوها واعتقدوا انها هبطت عليهم من العالم الآخر فأله المصريون الحراثة وعبدوا العجل ايبس . وفعل كثير من الامم التي عاصرتهم او جاءت بعدهم مثلهم بتكريمها وعدها من مواهب الآلهة . ولاسيما

اليونانيون فانهم عدوها موهبة من ائينة او ميرفه الهة الحكمة فاشتهروا بالصناعات والفنون . بخلاف الاسبرطيين الذين شغلتهم الحروب عنها فلذلك كان فلاسفة اليونان مشهورين بصناعات وفنون بديعة وكذلك حكماء الرومان فوضع كل من سولون اليوناني ونوما الروماني المشترعين دستوراً لامتيتها بشأن الصناعات وانظمتها . فارثقت في ايامها الى عصر الاسكندر المكدوني بنحو ثلاثة قرون قبل الميلاد المسيحي .

وكان الفرق بين اليونانيين والرومانيين ان الاولين اعنوا بالفنون فارثقت في عهدهم . ولكن الرومانيين اشغلوا بالحروب مئات قرون كان الازراء فيها هم الصناعات فلم يبقوا إلا الحروب آفة الصناعات فاحتاجوا الى صناعات الشرق النفيسة . ولا سيما صناعات الصين والهند وما اتصل بها وانتقل عنها الى بقية الاقطار الشرقية وعرف العرب كثيراً منها ولا سيما في هذه الحاضرة العريقة في القدم وعنها نقل أسرى الصليبيين وتجار سواحل البحر الرومي الاوربيون كثيراً منها الى بلادهم . فاشتهر من القدماء المصريين بفن الحراثة ونسج القطن والكتان للكهنه وغيره لغيرهم والنقش وعمل الزجاج والبناء والتعدين والادوات الخرفية والمعدنية وهندسة المياه وفتح الترع والتخنيط وجرا الاثقال وغيرها .

وعرف البابليون بالنسج والتطريز والحفر والصبغة والحجارة الكريمة والمائيل والنقش على الغضار ( الأجر ) .

والفينيقيون بالنقش والحفر وعمل الطنافس ونسج الحرير والابنية العظيمة المتينة والتعدين وصنع الارجوان وبناء السفن وعمل الزجاج والنجارة .  
والصينيون بالخزف المنسوب اليهم وترتبة دودالحرير والوراقة والتعدين والاسلحة وعمل الحجارة الكريمة والبناء وكفى بسورهم العظيم شاهداً على براعتهم به .  
والهنود بالانسجة الرقيقة والصناعات المتقنة ولا سيما الاسلحة والقولاذ المشهورين الى اليوم باسمهم ولا يزال فولاذ بنجوب من بلادهم متميزاً على غيره ولا سيما نوابض ( زنبلكات ) الساعات .

فانتقلت هذه الصناعات الى الامم الأخرى فاقتبس اليونان من صناعات المصريين البناء والنحت والنقش ومن الفينيقيين الزجاج والملاحة والارجوان . واخذ العرب

عن الصينيين الايرة المغناطيسية وعن العجم الورق والقاشاني الى غير ذلك مما استراه مفصلاً في ما يأتي :

وكل من طالع الياذة هوميروس كبير شعراء اليونان المنقولة الى العربية يجد فيها وصف المناضد المتحركة . والحداد هيغتت اله النار . ومعادن قبرس الحديدية . والحداة . وكوب نسطور والخراطة وصبغ العاج والبرفير . وصياغة الفضة في صيداء والنجارة وعمل المركبات والصيقله والغزل والنسج الفينبقي وبناء السفن واشباهها حتى انه صورها بقله العسال وصفاً كأنه يمثلها بمنقاش المصور . فن ذلك قوله يصف هيلانة تطرز بابرتها :

وجدتها بالصرح ننسج ثوبا بحواشي البرفير والارجوان  
وبرأس الحياط ترسم فيه واقعات ابلت بها الفتان  
ومن ابداع اوصافه تصويره لترس اخيل من موشحة قال فيها :

اودعه نقشاً به تحارُ لحسنه الانظارُ والافكارُ  
فالارضُ والسما والبخارُ منهن لاحت فوقه الآثارُ  
وساطع الشمس وثم البدرُ

فذكرني جمال هذا الوصف بقول المعتمد بن عباد ملك الاندلس يصف مجناً اسيه ترساً فيه كواكب فضة وقد امره ابوه المعتضد بذلك فابعد وهو :

مجنّ حكي صانعهو السما لتقصر عنه طوال الرماح  
وقد صوروا فيه شبه الثريا كواكب تقضي له بالنجاح  
ولو انفسح لي الوقت لسردت كثيراً من اوصاف الصناعات عند الافرنج والعرب .

كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟

لما احتك العرب بمجاورهم ومحاربيهم من الامم استفادوا منهم صناعات كثيرة برعوا بانقانها فوق ما كان عندهم من الصناعات الوطنية في العراق وبلاد العرب والاقطار الاخرى التي تفوقوا فيها ومن أقدمها بناء السدود مثل سد العرم وطبع السيوف

الهيانة وبناء القصور وعمل الاسلحة والخزف والقاشاني والزجاج وبناء السفن والنسج والحفر والنقش وعمل الورق واشباه ذلك مما لا يدخل تحت حصر فشير الى اهمه .

ولما كانت دمشق وما يجاورها من ايام الجاهلية وما بعدها قطباً لرحلات الاقوام ومحطاً لرحلم ومقرأ لهم اجتمعت فيها الصناعات المختلفة وترقت بحسب الحاجة اليها بل تفوقت بها على غيرها لاسباب كثيرة أهمها رواج سوقها وانقان آدابها ووضع انظمة لها وروابط وثيقة العرى . وانحصر كثير منها في أسر خاصة كتمت أسرارها واحتكرت آثارها فألف بعض العلماء في كشف تلك الاسرار كتباً بينوا فيها غش الصناعات وحيل اربابها على اختلاف عملهم وتزويرهم وتقليدهم للشيء الطبيعي بالصناعي ونلاعهم بالموازين ونحو ذلك . منها كتاب ( كشف الدك وايضاح الشك ) لابن شهيد المغربي . و ( ارخاء الستور والكل في كشف الدكات والحيل ) لسعيد النيسابوري وهما مخطوطان . و ( المختار في كشف الاسرار ) للشيخ عبد الرحيم الجوبري الدمشقي وهذا طبع في دمشق منذ اربعين سنة وغيرها .

وللصناعات الدمشقية اصول تعرف بالشهد لها آداب وانظمة وموظفون بقواعد معلومة عندهم يتناقلها الخلف عن السلف . وقفت على وصف اهمها في بعض التعاليق والمخطوطات الموجودة في خزائني وغيرها وطالعت مقالة فيها لرصيفي الياس بك القديسي الدمشقي مطبوعة في اعمال مؤتمر ليدن ( هولندا ) الذي عقده المستشرقون سنة ١٨٨٣ .

فمن كل هذه المصادر استفدت انه كان للصناعات رئيس أعظم يسمى شيخ المشايخ وكان هذا المنصب يتوارثه سادة بني العجلاني<sup>(١)</sup> الحسينيون من آل البيت النبوي الكريم خلفاً عن سلف وصاحبه يعين المشايخ لاكثر من مائتي حرفه في المدينة ويفصل الخلافات ويحسم المشاكل التي تقع بين ارباب الحرف أمراً وناهيماً ومقاصداً للمخالفين . وبالجملة فانه الحاكم العام الذي لا ينتخب بل يتأل منصبه

(١) قال المحبي في ( خلاصة الاثر ٤ : ١٥٤ ) : « السيد محمد العجلاني شيخ مشايخ الحرف الذي يعقد الشد والعهد لأهل الصنائع . وكان صاحب هذا المنصب قديماً يعرف ( بسليمان الحرافيش ) ثم كني احتشاماً بشيخ المشايخ » اه .

بالآثار عن اسلافه ولا يعزل ولا يترك منصبه الا بالموت او الاستقالة وبقيت سلطته هذه مرعية الجانب الى ان اعلان السلطان عبد المجيد العثماني التنظيمات الحيرية فبقي له من وظيفته التصديق على نصيب شيخ الحرفة الذي ينتخبه معلوما واحترام نسبه الشريف وشخصه الجليل . و يتشارك شيخ المسايخ النقيب و ينوب عنه . والجاو يش ينفذ الاوامر . و آدابهم مع آداب المعلم والصانع والمبتدئ و شد الصانع حتى يصير معلماً هي آداب مرعية تقال فيها ادعية وتؤخذ عهود غريبة الاسرار كثيرة التفصيل لا يسمح المقام باكثر من الاشارة اليها ولكنها تدل على احترام الصناعة كما احترمها القدماء وترقيها بهذه الاصول المتبعة .

فأهملت بكساد الصناعات وكثرة المصادر وبقيت بعض آثارها في قليل من الاسر مثل بني القصار الذين يبيضون الثياب قبل صبغها فلهم آداب خاصة بهم يحافظون عليها الى يومنا . وبني الحصري الذين يصفرون الحصر وبني المنجد ونحوهم .

### صناعة السيوف

افق ذكر اليميين بصناعة الشنار والنصال . وكذلك الهنود فليل سيف يمان وحسام هندي وهندواني او مهند . فلما قدمت قبائل اليمن الى مشارف الشام نقلت معها تلك الصناعة فانتشرت وانقنت فليل لسيوفها المشرفة والتامة . ولما كثر الحديد في سورية وجبال لبنان كداريا والفرزل ودوما والشوير ومتفرقة عمل منها الفولاذ وطبعت منه السيوف المحددة والشنار المجوهرة . وكان الفولاذ الهندي الذي فيه قليل من الالومين والسلكا ينقل من الهند الى بلاد الشام منذ زمن بعيد فيتمخذ للشنار والنصال والجوارح .

فاشتهرت مصانع دمشق بمثل القواطع كالشنار والنصال والسهام والحرايب والمدى وكانت هذه تخرج من بين أيدي الصياغلة شديدة الصلابة مرهنة الغرار كثيفة مرنة ذات فرند او جوهر بديع التلوين والرسوم يغطي سطوحها الصقيلة بخطوط دقيقة كأنها عروق سوداء وبهضاء فضية اللون متحاذية او مقاطعة ذات اشكال مختلفة . فمنها ما هو كالالياف المتعارضة في زوايا كثيرة . او كالعقود

المنظمة او كالعناقيد المنضدة . ولقد اكتشف الدمشقيون اسرار هذه الصناعة بمفوقين فيها حتى أغلقت عن سواهم فلم يهتدوا اليها حتى يومنا مع كثرة نفنهم وتجارهم ومهارتهم .

واما هذا الجوهر الدمشقي او الفرند او الاثرفو طرائق السيف التي هي على سطحه شبه الغبار او كدب الرمل . وقد امتاز على الجوهرين العجمي والهندي بروائعه وتموجاته وعدم تطرق الصدا اليه ولينه . فلذلك لا تقبل السيوف الدمشقية الكسر عند الضرب بها مثل غيرها . وسمي جوهرها الحناوي او الحنوب . واتخذ الدمشقيون لكل فصل كتلة واحدة من الفولاذ . واما الاعاجم فيتخذون له اكثر من كتلة . فتميز النصل الدمشقي بثبات جوهره وتحسينه عند تخضيره اي احماه بالنار . او عند تطريقه . وبالتحليل عرف ان فولاذه كان مزوجاً بمعدن آخر يسمى التبتان او الحزوم وهو موجود الآن في نواحي روما . ومنه اخذ ابراهيم باشا المصري كميات لمعمل الاسلحة عندما استولى على البلاد سنة ١٨٣٠ .

فلذلك اشتهرت السيوف الدمشقية بجودة صقلها ومرورتها ومناة فولاذها . وكانت صناعتها مشهورة بزمان الرومانين وفي عهد العرب . ومنها انتقلت الى طليطلة في الاندلس ومن هذه الى ميلانو في ايطاليا . وفي المتحف البريطاني وغيره سيوف دمشقية بديعة الصنع وفي متحفنا بعضها ايضاً .

وصارت الناس تنغالى بالسيوف وبقيه الاسلحة كالنصال والحراوب والسهام والمدى والدروع والخوذ والبنادق الدمشقية حتى ان السلطان بيبرس البندقداري لما اراد تقديم هدايا سياسية لباراق سلطان المغول في تركستان اختار الاسلحة الدمشقية لنفسيتها وروقتها وندرتها .

وقال الجوالقي في المغرب : وبصرى موضع بالشام وقد تكلمت به العرب واحسبه دخيلاً ونسبوا اليه السيوف فقالوا : سيف بصروي . وقال الحصين بن الحمام :

صفاخ بصري اخلصتها قيونها ومطررداً من نسج داوود محكما

ومن آثار هذه الصناعة النفيسة اسلحة وادوات وصفها بريس دافين

( Prisse d'Avannes ) في كتابه الافرنسي ( الفن العربي ) ( L'art Arabe )  
صفحة ٢٨٠ بما مر به :

« اسلحة طومان باي الاشرف اعني خوذته ونبله وخيجه وفاسه وجوكانه (اسي  
عصاه المعوج ) ودبوسه بتاريخ سنة ٩١٧ هـ و٩٢١ هـ مصنوعة من الفولاذ الخراساني  
ومرصعة بالذهب ترصيعاً دمشقياً بدوق لطيف جداً . فالخوذة شكلها شرقي اسي  
مستديرة وهي من الفولاذ الدمشقي ضاربة الى السواد ومرصعة بالذهب ترصيع دمشق  
وأطال في وصف اجزائها وسلاسلها وشعارها والآيات القرآنية والعبارات الدينية التي  
على عصابتها مثل : لا اله الا الله . وعظمة عرشه تمتد على كل الكائنات ولا يمكن  
لحكومة ان تغيرها . ثم ادعية أخرى مثل امنح النصر للمؤمنين الحقيقيين الخ . والدبوس  
كانت قبضته موشاة بالخمل القرمزي وعلاقتها فولاذية مرصعة بالذهب بالصناعة  
الدمشقية . ثم تطرق الى وصف درع لرأس الحصان مصنوعة من فولاذ دمشقي مرصع  
بالذهب بالصناعة الدمشقية . » اهـ

وبقيت هذه الصناعة رائجة الاسواق بديعة الطراز الى ان غزا تيمورلنك ( الاعرج  
الحديدي ) سورية ودخل دمشق سنة ٨٠٣ هـ ( ١٤٠٠ م ) فسي كثيرأ من صناعاتها  
والمهنيين في غيرها فتصوحت ازهارها وذوت نضارتها منتقلة الى بلاد فارس مزهرة  
فيها . ويقال انه اسر مائة وخمسين الفا من دمشق بينهم الاطباء والصناع والبنائون  
والحاكة والتجار وارباب الصناعات الاخر ولا سيما الصياغة المشهورين الى سمرقند  
فبنوا في بلادهم مصانع خراسان الشهيرة واشتهرت بصناعاتها .

ومن الصناعات التي تحفظ اليوم اسم دمشق « صناعة السيوف الدمشقية » في  
مدينة فاس المرراكشية في المغرب .

اما اصناف السيوف الجيدة الفولاذ المشهورة فمنها الينية والهندية والسلمانية  
والدمشقية والخراسانية وتتميز سيوف الين بجنفها وثقوبها ونقوشها ولكنها لينة الفرار  
لثقل سريماً بخلاف الدمشقية فانها صلبة المضارب لينة الشفار حتى يمكن لها بسهولة  
دون ان تنكسر ولا تزال آثار صناعة السيوف باقية في اسماء بعض الاسر الدمشقية

مثل بني السيوفي والصيقلّي والسكاكيني وجوهري وبولاد . وفي مجلة المشرق مقالته مفيدة في السيوف الشرقية المجهورة ( ٥٧٧:٣ و ٧٠٠ )

ويظهر ان القدماء القوا في الجوهر والصيقلّة فذكر ابن ابي اصيبعة في تاريخ الاطباء رسالتين للفيلسوف الكندي الشهير ( الاولي ) في المعادن والخواهر وانواع الحديد والسيوف وجدها وموضع انتسابها . و ( الثانية ) في ما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تنقل ولا تكمل . ولا نعلم محل وجودهما الان . ومن الطف ما وصف به العرب جوهر السيف ما نظمه اسحاق بن خلف كما قال المبرد :

التي بجانب خصره امضى من الاجل المتاح -  
وكأثما ذر الهباء — عليه انقاس الرياح -

ومثل ذلك قول عبد الله بن المعتز العباسي .

وجرد من اغماده كل مرهف اذا ما نفضته الكف كاديسيل  
جرى فوق متنيه فرند كأثما ننفس فيه القين وهو صقيل

### القيانة وسبك الحديد وعمل الفولاذ

القين الحداد الذي يشغل بالمبرد ويعرف عند عامتنا بالبندقجي والقرديجي والقرداجي وصنعتة القيانة المعروفة عندهم بالقردحة .

ولقد اشتهر الدمشقيون بهذه الصناعات واستخرجوا المعادن الحديدية من جوار دمشق كما مر ومن مشارف حوران ولبنان والقلون . ولا تزال آثار خبث الحديد الذي تسميه العامة ( الكشته ) تدل على اماكن المسابك وكذلك اسم المسبكين الجواني والبراني في دمشق . وكانت تقطع اشجار السنديان لتذوب الحديد واستخراج الفولاذ فتعرت الجبال من حلالها النباتية وبقيت جرداء الى يومنا ومن التسميات بهذه الصناعات اسماء بيت بولاد وابي حديد والحداد . ولعل اسم قرية حلبون قرب دمشق من اليونانية بمعنى الفولاذ لاستخراجه منها .

ومما يروى ان أسرة الحدادين التي كانت مشهورة في اذرع ( حوران ) منذ القديم بهذه الصناعة نبت بها حوران فتفرقت في مطاوي القرن السادس عشر في

بلاد الشام وقلت صناعتها اليها وفي دمشق اشغل ابناءؤها بعمل البنادق او البواريد فصادرتهم الحكومة وفروا الى جبل القلمون ولهم بقية في ديرعطيه وپرود وكان احدهم المسمي عبوداً قد اشتهر بعمل البنادق المنقنة فنسبت اليه وقيل لها (العبودية) وكذلك اشتهر بعمل الاجراس الحديدية فنسبت اليه ايضاً وقيل لها (الاجراس العبودية) وبقى حدادو ديرعطيه يشغلون البنادق سرّاً بعقود تحت الارض الى زمن قريب .

ومما يتعلق بالحدادة عمل ادوات كثيرة كان لها في دمشق شأن كبير مثل عمل الاير والمسلات والقبايين ولا تزال سوق الابارين خارج باب الفرج تدل على ذلك ومثلها سوق المرادنية لعمل المرادن وهي قضبان حديدية لدواليب الردن المتخذ للنسج . وسوق الحدادين ايضاً .

على انه لما جلب الحديد السويدي من اسوج واشتهر استعماله بطل استخراج الحديد لوطني الذي كان شائعاً هنا وفي انحاء سورية ولبنان ولهم في اعداده طرق جميلة ونفثات عديدة لا محل لتفصيلها الآن .

### القاشاني

وهو نوع من الخزف الصلب المموه بالوان واصباغ بدیعة ونقوش رائعة منسوب الى بلدة قاشان على ثلاث مراحل من اصفهان في بلاد فارس . قال ياقوت في معجم البلدان : منها تجلب غضائر القاشاني والعامّة تقول القاشاني اه . وعامتنا اليوم نقول القاشاني .

وهذه الصناعة انتقلت اليه البابليون وعرفها الكنعانيون كما دلت الآثار وتناولها الفرس واليونان والرومان واتصلت بالعرب في صدر الاسلام وتدرجوا بها فانقوتها في بلاد فارس وزين الملوك الاخمينيون قصورهم بنقوشها الرائعة التي توجد بعض قطع منها في متحف اللوفر الباريسي . وابدعها في بلاد فارس ابنة اصفهان ولاسيما في زمن الشاه عباس الاول . وفي قونية وبورصة آثار القاشاني السلجوقية . وبتحف الاستانة ناووس بابلي مطلي بميناء اخضر . وانتقلت هذه الصناعة الى دمشق

وعرفت فيها بصناعة ( الغضائر القاشانية ) ومن الواحها المؤرخة قبرية في بيت انطون افندي ميخائيل السيوفي في دمشق بتاريخ ١٢٦٠ هـ ( ١٢٦٠ م ) .

والقاشاني صنفان صنفت بسيط من الحزف المزوج بالحديد يحمر عند تسيه ويموه بمركب قصديري ابيض سميك . وصنف من مواد انقى اذا شوي ابيض وصلح لصبغه بالوان شفافة رائمة تأخذ بمجامع الابصار .

ولقد كانت في دمشق معامل كبيرة لهذه الصناعة النفيسة منها ما اكتشف امام الباب الشرقي خارج السور سنة ١٨٨٢ م اذ حفر هناك الطبيب النمساوي اورديتيانو قبلاً واستاش دي لوري الاثري الافرنسي نزيل دمشق الآت اخيراً فوحدا معامل له وآتاراً منه .

وما عرف من هذه المعامل مصنع بين آخر القبرية واول الجورة من احياء دمشق فيه اجران حجرية لسحق الزجاج . التويه به ولد نوافذ خروج الدخان عند ايقاد النار للتدوير والتسي . وقد بقيت فيه قطع قاشانية بعث منذ ربع قرن او اكثر وكذلك ظهرت آثار معامل في محل بيت المرحوم جبران اسرحب الآن مشغل - يفة الآسية بجوار الكنيسة المرمية والدار البطريركية الارثوذكسية .

وقرأت في ديوان العلامة الشيخ عبد العني النابلسي الهمستي المخطوط انه ارنح عمارة مدرسة في القسطنطينية بناها الوزير ابراهيم باشا لاجاء من قبله رجب آغا القهجي الى دمشق ليأخذ منها معلمين يصنعون له القاشاني وطلب من النابلسي عمل تاريخ يكتب على القاشاني لسنة ١٠٩٢ هـ ( ١٦٨١ م ) فظفمه واخذوه معهم وهذا يدل على بقاء هذه الصناعة في ذلك العهد مشهورة .

وقد فقدت هذه الصناعة منذ قرن ونصف . وفي المعامل التي اكتشفت امام الباب الشرقي في حديقة الطبيب النمساوي ما يدل على ترك العمال استغلام فجأة وتخريب أتاين الشبي بجدات لجأئ لعله بالزلزلة العظيمة التي ارنحفت منها اعطاف دمشق مرارا في سنة ١٧٥٩ م و ( ١١٧٣ هـ ) فهدمت . آذنها وقوضت كثيراً من ابنتها فترك العمال اعمالهم وطمر المحل .

ومن اسباب انقراض تلك الصناعة ايضاً انحصارها بأسر خاصة فنقص ظلمها

بها . وفي حلب الى اليوم اسرة القاشاني التي يقال انها انحصرت فيها هذه الصناعة ثم انقرضت الصناعة وبقيت الاسرة جاهلة اسرارها منسوبة اليها بالاسم فقط . وربما كانت منسوبة الى بلدة قاشان المذكورة او الى الاتجار بالقاشاني .

ولطالما نفاس الدمشقيون باقتناء هذه الآثار الفاخرة فعملت منها الصهاريج والسلسبيلات والبازهنجات والقماة والزهريات والقلل<sup>(١)</sup> واتسبأها . ورصفت بصفاؤها جدران البيوت ومرافقها حتى انها بعد حادثة سنة ١٨٦٠ م صار السكان يتزعمونها من البيوت ويستعيضون عنها بالرخام فانقلت تلك الالواح النفيسة الى اوربة وقل وجودها عندنا ولا سيما بعد تكرار الحرائق والتدمير .

وكان اشهر قاشاني في الجامع الاموي في دمشق وفي جامع المسجد الاقصى في القدس الشريف . فتمتده الاموي بالحرائق المتوالية عليه . وتجد في بعض المساحد والحمامات والبيوت آثارا تبينة منه اهمها ما في جامع الشيخ يحيى الدين بن العربي الذي جدده السلطان سليم الفاتح العثماني وفي حمام القاشاني المصفحة حدرانه بالواحه وقد حول الآن الى سوق . وفي الكمين السليمية والسليمانية . وفي قاعة القاشاني التي بناها البطريرك مكاريوس ان الزعيم في دار البطريركية الارثوذكسية فاحترقت سنة ١٨٦٠ م . وفي ساسنبل جامع الدرويسية المؤرخ في سنة ٩٨٢ هـ ( ١٥٧٢ م ) وفي جامع سنان آغا في المناحية . وفي دار اسعد باشا العظم . وما في متحف الوطن من بقاياها المختلفة الاشكال وبعضها نفيس عليه كتابات ومنها ادوات كالمرايا وغيرها . وكلها بدبعة الالوان والنقوش والطرز .

ومن قبرا وصف الرحالة المؤرخين للجامع الاموي الكبير قبل ان نكس بالحرائق الكثرية ولا سيما الاخيرة منها . عرف ما كان عليه من الرواء النادر والزخرف النفيس .

( ١ ) الصهاريج الركب والحمرات في وسط الدور . والسلسبيلات هي المياه التي تحصر بانبوب الاستقاء . والبازهنجات هي انايب كآنبوب المدخنة او البخيري تستعمل للتبوية . والقماة آنية لرش ماء الورد في الحفلات ونحوها . والزهريات اوان لزراع الزهور او وضعها فيها . والقلل جمع قلد وهي الجرة العظيمة .

واشتهر الاندلسيون بمعاملهم القاشانية في مدينة مالقة سنة ١٣٥٠م ومنها نقلت الصناعة الى ايطالية فعرفت اولاً في فلورنسة ثم اشتهرت بها مدينة فاينسة فنسبت القطع القاشانية اليها فقيل المائلي (Mayolca) والفاينسي (Faiences) واقتبسها منهم الفرنسيون ونفوقوا في معامل مدينة (روان) ثم ائقنى اثرهم الالمان والانكايذ .

ووصف ابن بطوطة وغيره من المؤلفين والسياح هذه الصناعة وذكر الادريسي خزف دمشق المطلي بالبناء .

ومما عرف من آخر اسرار هذه الصناعة انه كان يعمل آجر مختلف الاشكال والحجوم والزوايا مجبول من الزمل الابيض والحص مفرغ بقوال حسب الحاجة فيكتب على سطوحها آيات واشعار وترقم نقوش معدنية وصور بمواد ثابتة . وبعدان تجفف يذر عليها مسحوق الزجاج الدقيق جداً او تطلّى به ممدوداً عليها بسائل غروي وتشوى في وطيذ (نور) معد لها فيذوب الزجاج ويغشي تلك السطوح بطبقة رقيقة مناسبة لماعة تشف عما تحتها من الالوان والاصباغ .

### الميناء

الميناء كلمة فارسياتها ( مينه ) اي جوهر الزجاج وهي ( أكاسيد ) معدنية تصور بمادة زجاجية وتطلّى بها الاواني المعدنية والادوات لاطهار رونق نقوشها وجمال رسوما . فهي في المعدن كالقاشاني في الخزف ولذلك يسمى القاشاني بالميناء أحياناً .

وصناعة الميناء عرفها الطورانويون ونفوقوا فيها واشتهرت في اشور ومصر وفتيقية ثم في الصين والهند قبل الميلاد بقرون . ثم عرفها الفرس ونقلها عنهم البنزطيون والدمشقيون والتجروا بها من فارس ثم ائقنوا عملها ولكنها لم تكن من صناعاتهم الوطنية الشائعة مثل غيرها ونقلها الصليبيون في القرن الحادي عشر للميلاد الى اوربة فبلغت كمالها عندهم في القرن السادس عشر المسيحي .

ولا يزال اهل الهند وفارس والارناؤوط ولا سينا الشركس منفوقين فيها الى

يومنا حتى يقسال ( ميناء شركسية ) وهي من الطبقة الاولى من الصناعات الاخرى عند غيرهم .

وكان الفرنسيون يتغالون باقنائها فذكرها المؤرخون كثيراً في زمن الصليبيين .  
وقال المؤرخ راي : ان المسيو ( بيو ) وجد سنة ١٨٧٢ م اتقاض معمل لهذه الآنية قرب مدفن اللاتين في دمشق .

واشتهرت معامل جزيرة ميورقة في الاندلس بهذه الصناعة قبل اشتهار اوربة بها . وعنها وعمما عرفه الصليبيون منها تعلقوا صناعاتها الي بلادهم وانقوها .

### الفسيفساء

ان كلمة فسيفساء يونانية اما تعريب ( بسيسوس — Psipsos ) او من كلمتين هما ( بسيفي — Psifi ) اي قطع و ( ذوتو — Zoto ) بمعنى مرتبطة . فيكوب معناها قطع صغيرة مرتبط بعضها ببعض وقد عبرتها العرب بلفظ ( الفسفس ) . قال ايمن بن خزيم في بشر بن مروان :

وبنيت عند مقام ربك قبة خضراء كالأمل تاجها بالفسفس  
فسماؤها ذهب واسفل ارضها ورق تلاً في البهم الخندسي  
ومنها كلمة ( الفص ) و ( الفصوص ) للقطع الصغيرة العظمية ونحوها . وتعرف ايضاً بالزليج ومنها قال الاسبانيون ( Azulejo ) ويرى دوزي في تكملة المعجمات العربية انها محرفة عن لازورد الفارسية ومنها الواح القيشاني ( فاينس ) وهي ملونة ومطلية بالرونق ( الفرينش ) . والخزفيون كانوا يعملونها الواحاً مطلية اسمها ( Zelis ) تتخذ خشية الجدران الداخلية ذات لونين ابيض واسود<sup>(١)</sup> ( ٥١ ) .

اما الافرنج فيسمونها موزاييك ( Mosaïque ) نسبة الى ( موزه ) إله الفنون ومنها اسمها في اللغات الاوربية .

والفسيفساء افلاذ مربعة غالباً من الزجاج الملون او الذهب او الحجارة الرخامية ونحوها ترصف على الجدران والسموك ( السقوف الداخلية او الطوانات ) وارض

(١) راجع تكملة المعجمات للدوزي ( ١ : ٥٩٨ ) .

البوت ونحوها بطبقة من الجبس ( الجفصين ) فتؤلف اشكالا هندسية رائعة من نقوش ورسوم وكتابات .

ولقد عرف هذه الصناعة الاثوريون والبابليون والفينيقيون وزينوا بها قصورهم ومعابدهم ثم عرفها اليونان والرومان فنفوقوا بها ورفضوا بها جدرانهم وارض قصورهم . واشتهر بها البزنطيون وهم الروم الذين كانوا في الأستانة فلا عجب اذا سموها بلغتهم . ولقد عملوا الفسيفساء البلورية مثل القاشاني وهي نقوش من الزجاج الملون والمذهب ترصف على طبقة من الجبس

ونقلوها الى دمشق ايام اسنقدم الوليد بن عبد الملك الاموي اتني عشر الف صانع منهم لبناء هيكل راموث او المشتري بعد تقضه وتحويله الى كنيسة تم الى الجامع الكبير المنسوب اليهم فزينوا بأنواعها جدران الجامع وسموكة حتى كان آية في الابداع والالاقان وبقيت الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد . مع ما ساءها من الحرائق مرارا كثيرة . ولقد وصف ابو الفداء ملك حماة المؤرخ تانير حريق سنة ( ٤٦١ هـ ١٠٦٨ م ) في الجامع فقال : « فأتى الحريق على الجامع فدترت بحاسنه وزال ما كان فيه من الاعمال النفيسة » . ووصفه ابن جبير الكنعاني الرحالة بقوله : « وانزلت جدره كلها بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء وخلطت بها انواع من الاصبغة الغربية قد ملئت أستجاراً وفرعت أغصانا منظومة بالفصوص ببديع التنعمة المعجزة وصف كل واصف بجاء يغتبي العيون ويغيا وبصيصاً » .

وقال الحاحظ في وصفه : « وهو مبني على أعمدة الرخام طبقتين التختابية اعمدة كبار والتي فوقها صغار في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر وفي قلبه القبة المعروفة ( بقبة السر ) ايس سيه دمشق شي: اعلى ولا أبهى منظراً منها » .

وقال الرحالة ابن بطوطة : « انه زين بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تحالطها انواع الاصبغة الغربية الحسن » .

وانفق على الجامع أموال كثيرة لعمل هذه الفسيفساء وغيرها من الزخارف والبدائع والروائع فقال الامام عمر بن عبد العزيز : « اني ارى في اموال مسجد

دمشق كثيرة أنفقت في غير حقها فلو استدركت ما انا مستدرك منها فبفرد الى بيت المال اكننت انزع الرخام والفسيفساء وانزع هذه السلاسل واعيد بدلها جبالاً» .  
فلما جاء وفد ملك الروم ودهش من محاسن الجامع ونقوشه قال عمر : « اني ارى مسجدكم هذا غيظاً على اعدائكم وترك ما هم به » .

وبعض الفسيفساء باقية في قبة الجامع الاقصى في القدس الشريف وفي كنيسة بيت لحم الكبرى وفي قصر الحمراء في الاندلس لان عبد الرحمن الاموي ملكها أخذ صناعات من الروم الى قرطبة لتزين مسجدها وهو من الانقان بـمكان سام . ومنها مخطوط ( خارطة ) مادبا في فلسطين ونقوش قصر جرش . ومساجد القاهرة وفارس والهند وسوربه وفلسطين .

ومما بقي من الفسيفساء بعض قطع في الجدار الشمالي من حرم الجامع الاموي في دمشق وبعضها غشي بالكس . وانفس ما هو باق منها برونقه القديم ما ازدادت به قبة الملك الظاهر بـبيرس البندقاري من الداخل ومعظمها من الحجارة المذهبة الملونة البديعة الاشكال والهندام تتنل أشجاراً وأبنية وأشكالاً هندسية ورواقاً رائعة .

قال المسيو غوستاف ليون الفرنسي ( Gustave le bon ) في كتابه ( حضارة العرب ) ما مر به محصلاً : « فضل العرب النقوش القاشانية على الفسيفساء في اول عهدهم بالزخارف . فاستعملوا نوعين من الفسيفساء . ( الاول ) ما كانوا يرضفون به ارض الغرف واسافل الجدران الرخامية والآجرية بالوان كثيرة وحجوم مختلفة . و ( الثاني ) ما كانوا يغشون به الجدران ولا سيما جدران المحاريب وهذا من الطرز الزنطبي الذي اقبله العرب عن صانعيه » اه .

وعلى عهد السلطان سليمان القانوني العثماني استعيض عن قطع الفسيفساء باقشاشي المحلى بالمبهاء . وبقيت هذه الصناعة في دمشق الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد . وكتب المستشرق رينو الفرنسي ( Reinaud ) المتوفى سنة ١٨٦٧ م رسالة في ( فن الفسيفساء عند العرب ) ضمنها فوائد جديدة بالمطالعة .

وقد اندثرت هذه الصناعة في سورية واستعوض عنها بالفسيفساء المعدنية او الخشبية المعروفة بالتطعيم والترصيع . وهي مشهورة بـفنن فيها صنعوها .

## الترصيع او النزيل في المعدن والخشب

روى المؤرخ هيرودوتوس ان مخترع هذه الصناعة غلوسهوس من ساقص وقيل اصلها من الموصل انتقلت الى سورية لكثرة نجاسها القديم واشتهرت بها دمشق . حتى اوصلها الدمشقيون الى اقصى درجة من الكمال .

وصناعة الترصيع او النزيل هي نقش الحديد او الفولاذ بالذهب او الفضة او معدن آخر واسمها الا فرنجي ( Damasquiné ) والاطالي ( Damascina ) الى يومنا . وهي نسبة الى دمشق لانهم اخذوها منها لتزيين ادواتهم واوانيتهم والاحتيمهم . وطريقة عملها : ان تحفر اثلام عميقة او اخاديد في المعدن ثم تحشى باسلاك ذهبية او فضية وهذا انحر انواع الترصيع وأجودها .

و يوجد ترصيع آخر بسيط يكون سطحياً اذ يحمي المعدن الى ان يزرق ثم تحفر فيه خطوط دقيقة بسكين و يرسم الشكل المطلوب بنقش حاد يعرف بقلم الحفر ثم يمد خيط ذهبي او فضي و يثبت في الثلم باعناء بالة نحاسية . واما النقش فيتم بنقش حاد يحفر اشكالاً هندسية ورسوماً وصوراً تبقى فارغة الاثلام ومعظمه على النحاس

وكانت صناعة النحاس والترصيع بالغة حد الانقار في زمن الملك الظاهر بيبرس البندقداري في تضاعيف القرن السابع للهجرة والرابع عشر ليلاد فنسبت اليه وقيل لها ( الصناعة الظاهرة ) وفي متحفنا العربي الدمشقي قنديلان عليها تاريخ سنة ٧٢٥ هـ ( ١٣٢٤ م ) من هذا النوع البديع مع الاغطية المنحومة المعروفة ( بكسر جفت ) ومع الزجاج الذي يستصح به وكلها من الصناعات الدمشقية المنقنة .

ولقد وصف المسيو بريس دافن ( Prisse d'Avennes ) الفرنسي في كتابه ( الفن العربي ) الذي مر ذكره بعض ادوات من هذه الصناعات مثل كاسات الصغراي النحاس الاصفر وآنية الشبه اي البرونز المشاة بالنقوش الرائعة والكتابات العربية . وقال : ان أسراً خاصة كانت هذه الصناعات منحصرة بها فنشغل عملها للخلفاء والسلاطين والامراء في دمشق ومصر والموصل . وكانوا يصنعون الاباريق والطسوت والاقداح والمصابيح مزينة بالرسوم واوراق الشجر والدوائر الهندسية

المتشابكة التي يسميها الافرنج باسم ( الصناعة الدمشقية ) اي ديماسكينه ٠٠٠ وقال انهم كانوا يحفرون اسماءهم على صناعاتهم في القرن الثالث عشر للميلاد ٠٠٠ ونقلت هذه الصناعة الى ايطالية في القرون المتوسطة .

وذكر ترصيع الاواني ببحيوط ذهبية وفضية وتنغية الخشب البسيط بخشب نفيس كالجوز وغيره مما يعرف لعهدنا « بالتليس » او « التنغية » عند ارباب هذه الصناعات .

ثم قال : ولقد رحلت أسردمشقية الى ايطالية وتديرت بيزه وفلورنسه وجنوى والبندقية . واشتهرت فيها معاملها حتى تفوقت بها على معامل بغداد وصقلية ( Sicili ) . الى ان قال : ان اتخذت تلك الاكواب المنقوشة في الحفلات كان للننافس بهذه الصناعة الرائعة ٠٠٠ ولكنه انتقد الكتابات المتشابكة التي كانت كلها ادعية لا يمكن حل الغازما » انتهى قول دافن .

ومن الآثار الباقية من هذه الصناعة الدمشقية ما في كاتدرائية بايو ( Bayeux ) وهو قنديل مرصع ومنزل بالفضة . وعلى قبر السلطان بيبرس الثاني قنديل شبيهي اي بروزي مذهب مزين وهو بغاية الاثقان عمله احد خاصة ذلك السلطان تذكراً له . وفي بعض الجوامع الصناعية في اوربة جام من الشبه « البرونز » الدمشقي المرصع بديع الصنع والنقش .

وبما ان هذه الصناعة تعلق بالنحاس ايضاً رأيت ان اقول كلمة في تعدينه من مناجم كثيرة حول دمشق . منها مدينة كاشيس او خلكيس وهو اسم يوناني بمعنى مدينة النحاس وتسمى اليوم « عنجر » في اول وادي الحرير المؤدي الى مدينة دمشق هذه بطريق الشام القديم وقرب عنجر قرية « جرن النحاس » . وكذلك في محال أخرى آثار معادن نحاسية عدت قديماً .

وفي دمشق سوق النحاسين المسعي قديماً ( البريص ) التي ربما كانت تحريف ( باراديسوس ) اي الفردوس . ولعل اسم برزه منها ايضاً . وتوجد اسماء أسركتيرة منسوبة اليه منها بيت النحاس على اختلاف مذاهبها ومواطنها واصولها .

وبما رواه المؤرخون : أن علي بن عريف النحاسين الدمشقي طيغ ادوية مع

النفط في قدور من النحاس حتى صارت كأنها جمره نار وخرّب بها الابراج التي صنعها الصليبيون من خشب وحديد مغطاة بجلود مطلية بالخل حتى لا تنفذها النيران . وكان كل منها يسع نحو خمسمائة من الزراقين والنفاطين وذلك في خصار عكاء سنة (٥٨٦هـ ١١٩٠م) .

وكان النحاس يصنع سكباً او طرقاً وتعمل منه ادوات كثيرة لا يزال بعضها في المتاحف والبيوت والجوامع والكنائس . وفي متحفنا الدمسقي امثلة كثيرة منها . ومن معامل النحاس ما اكتشف في بيت سكر في محلة باب توما عند ترميمه اخيراً .

### نقش البيوت والجدران

هي صناعة شرقية قديمة اشتهر بها الفرس والبنزنطيون فشاعت في مصر وسورية ونقلها السلجوقيون الى بلاد أخرى . ولكن الدمشقيين تفوقوا فيها فزخرفوا بيوتهم باصباغ والوان ورسوم دقيقة يدعية واشتهر بها الاندلسيون في قصورهم المشهورة . وكانت تحتاج الى الذهب فاشتغلت به أسرة خاصة في دمشق تعرف ببني الذهبي الى يومنا لانها كانت تنجز بالذهب وانواعه من محلول ومسحوق مما يصلح للدهان والنقش لتزيين الجدران والاشخاش بالنقوش والكتابات وكانت صنعتهم ايضاً التذهيب به .

ولقد فقدت هذه الصناعة منذ اقل من قرن ولها بقية صالحة عندنا وعرف بعض الذين مارسوها بالقباب الدهان والنقاش والمراش والذهبي والرسام والمصور ومن بقاياها الماثلة لنا اليوم ما في الدار العظيمة في البزورية . وغرفة حمة العظيمة ايضاً . وفي بعض البيوت مثل الغرفة التي يبدآل مردم بك قرب سوق الحميدية في زقاق الفخر الرازي المسماة ( خركاه ) وهي لفظة فارسية بمعنى المثلثة سميت بذلك لثلاثيتها ومثل بيت القوتلي وشمعايا الاسرائيلي وبيوت أخرى معروفة وبعضها مرت عليه ثلاثة قرون وهي لا تزال برونقها وروائها الجميل . ومن هذا النوع نقوش سقف الجامع الاموي الحديثة بعد تجديده على اثر احراقه الاخير فبعضها قديم الطراز

والآخر عجميته واحدها ما في موقف ( محطة ) السكة الحجازية في آخر شارع جمال  
باشا الى جنوبي المرجة الغربي .

ومما يتعلق بهذه الصناعة التجارة لعمل الابواب والنوافذ والخزائن وما شاكلها  
مما يدهن و ينقش و يخصص بزخرف نفيس . ولقد اشتهر بها كبرون فمسبوا اليها  
وقيل لهم بنو النجار وهم من طوائف واصول مختلفة حتى لا يكون احدها من انساب  
الآخر .

واشتهر منهم بدر الدين بن حسام الدين التبريزي المعروف بالحسن الجوهري  
الذي صنع القاري الثلاث العظيمة التي فوق محراب الجامع الاموي الكبير بالمقصورة .  
كان في زمن السلطان سليم العثماني الفاتح ومن اسنقبله عند دخوله هذه الحاضرة .  
وهو من سلالة المنلا محمد الشهير بشيخ زاده الذي جاء من جهة اصفهان الى دمشق  
سنة ( ٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م ) وحمل معه جواهر ومعادن فلعب بالجوهري وبقي الاسم  
متعاقباً في سلالة كما ذكر الشيخ حسن البوريني في تاريخه من مخطوطات خزنة مجمعنا  
العلمي الدمشقي .

وتسأ بين المسيحين أسرة بني النجار واصلها من بني البلدي فنسبت الى صناعتها  
النفيسة واشتهر منها وهبه النجار والد المرحوم صفرونيوس مطران طرابلس للروم  
الارثوذكس وله اعمال في القواطع ( الايقونسطاسات ) الكنسية منها قاطع  
كاندراية الروم الارثوذكس في بيروت وهو من خشب بديع ونقش رائع وتلوين  
ياخذ بمجامع القلوب وهندسة انيقة وقد كتب عليه اسمه بتاريخ سنة ١٧٨٣ م .  
ومثل ذلك نابرو وقواطع كثيرة في كنائس لبنان ودمشق وسورية وفلسطين ومصر  
ونحوها .

ولا تزال بعض الدور الدمشقية عند جميع الطوائف من هذه الصناعات الانيقة  
التي اُهمت منذ نصف قرن . وفي متحفنا اشياء منها . ومن ذلك التغطية بصفايح الجوز  
الخشبية وللمدشقيين فننات بديعة فيه وفي نقوشه .

## النسيج او الحياكة

اشتهرت دمشق قديماً بالنسيج الى ان فتحها العرب فحاكوا اقتشتم على طراز ساساني فارسي اوقبطي او رومي فكانت ترقم عليه صور الطرائد والوقائع والفرسان والقناص وما يتعلق بها و يضاف اليها من الرسوم البديعة والرقوم الجميلة . واشتهرت بلاد فارس بعد ذلك بالاطلس والقطيفة ( المخمل ) والدباج الحريري الموشى فصار يرقم بصور الاثمار والازهار والحقول المدبجة بالالوان والحيوانات السارحة في الغابات والحدائق وكلها من المشجر الغريب الهندسة والاشتبك فسماه الايطاليون ( Damasco ) لانهم اول من تناولوه عن الدمشقيين فسموه باسمهم ( الدمشقي ) ومنه اسمه الافرنسي ( Damas ) والانكليزي ( Damask ) .

اما كلمة ( ديماس ) للنسيج القطني المعروف فارجح انها مأخوذة من هذه الكلمة . او انها يونانية من ( انديما ) بمعنى كساء او ثوب . واول من اخذها الى اوروبا الهولنديون ونقلت الى انكلترة سنة ١٥٧٢ م من هولندة .

وارى ان كلمة دمشق ودمقس ودمقاس ودمقس التي اطلقت على الحرير المنسوج ربما كانت محرفة عن كلمة دمشق هذه . وقيل انها معرب ( دمسه ) اي الحرير الابيض بالفارسية . ومن الالفاظ التي قال البرنقاليون انها عربية الاصل ( Adereçar ) وهي تقرب من كلمة طرز او درز ومعناها عندهم الوشي .

ولقد اشتهر الوشي والدباج في زمن الدولة الاموية وثفاخر به ملوكهم حتى روي انه كان عند هشام بن عبد الملك اثنا عشر الف قميص موشى واتخذ معاوية بن ابي سفيان ( دار الطراز )<sup>(١)</sup> في قصره المعروف بالخضراء<sup>(٢)</sup> لنسيج الحرير

(١) كان ( ديوان الطراز ) و ( صاحب الطراز ) المسمايان بزمن الفاطميين ( دار الكسوة ) و ( صاحب الكسوة ) من شعار الملوك لعمل اثواب الخلفاء .

(٢) لا يزال محل هذا القصر اي دار الخلفاء الامويين في جنوبي الجامع الاموي الى الشرق يعرف بمصبغة الخضراء الى يومنا وكان فسيحاً تحديق به ابنة الامويين التي ادخل بعضها في دار اسعد باشا العظم عند تشييدها .

المطرز ووشي الثياب الملكية المذهبة وبقيت دكاكين البزازين الى زمن ابن بطوطة وما بعده فذكرها في شوارع دمشق . وكانت على عهد الصليبيين حافلة بالانوال التي تنسج الحرير وانواعه البديعة . ولقد ذكر الشريف الادريسي رواجه في البلدان البعيدة في ايامه وما كان له من المقام الرفيع والحاسن الرائعة .

ووصف بر يس دافن الافرنسي الآنف ذكره هذه الصناعة في كتابه ( الفن العربي ) بما ملخصه معرباً فقال : ان النسيج المديني باقية آثار روائه وبدائع زخرفه في المتاحف فصنع اولاً على اطرزة مختلفة مزركشاً بصور الطرائد والحروب ولكن الفرس تطرقوا الى رسم الاشخاص فيه اه .

وذكر كبير من مؤرحي العرب وكتبة التراجم ما كان للنسيج من المنزلة . فقالوا : ان العنايات اسم قماش حريري نسب اليه بعض العلماء لاشتغالهم به وكذلك الحرير فقيل العناياتي والحريري . وذكروا ان بني الفلافنسي في دمشق منسوبون الى بلدة فلافنس من نواحي حمص اذ جاء حدهم السيد محمود منها الى محلة القيمرية ينسج الآلاجه واشتهرت فيها صنعته ونشأ من حفدته السيد احمد الكاتب الشاعر في القرن الثاني عشر للهجرة . واشتهر كثير من العلماء بنسج هذا القماش ومنهم احد الامراء الحرافشه في دمشق فلقب بالحريري .

وكانت الامر الكثيرة تنسب الى صناعات النسيج وما يتعلق بها مثل الفتال والرباط والطباع والرسام والمطرز والطرز والعقاد والغزال والغزولي والقطان والحلاج والكتابة والحائك والكتاني والمنير ومسديه والحوام والطوا . وبعضها ينسب الى آلات النسيج مثل النوبلاني والمكوكجي والمشاطي .

ولقد جلب معهم كثير من الوزراء العثمانيين الذين تولوا دمشق خياطهم وخدمتهم وارباب بعض الصناعات التي كانوا يحتاجون اليها وتديروا دمشق ونشروا فيها صناعات حديدية تركية او وطنية نسب بعضهم اليها مثل الترزوي والفرايه وكركر وكركجي والزنانيري والكبراني .

ومما يتعلق بالنسج الصباغة ولقد اشتهرت بها هذه الحاضرة منذ القديم ومن اشهر مصابغها مصبغة الخضر محل دار معاوية الاموي كما سبق . والى الصباغة نسب بنو

الصباغ . ومنها القصارة واليها نسب بنو القصار . ومنها طبع القماش او الطباعة واليها نسب بنو الطباغ والبصجي .

ومما ضربت به هذه الصناعة سبي تيمورلنك لكثير من ساجيها ومع ذلك فقد بقيت الى عهد قريب بغاية الاثقان ولطالما كانت شائعة في أنحاء سورية حتى ان كثيراً من تماثيل التدمريات في دار التحف العربية عندنا نرى في ايديها المغازل والغزل وما شارة هذه الصناعة عند النساء الشرقيات .

### الزجاج

نقلت هذه الصناعة من صور الفينيقية الى دمشق الارامية فأنشئت فيها المعامل واشتهر الزجاج الدمشقي مثل غيره من الصناعات الدمشقية ولاسيما في زمن الصليبيين ولقد قال ابن بطوطة لما نزل دمشق مانصه : « وفيها سوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع اواني الزجاج العجيبة » . وقال الرحالة بوجيبومي سنة ١٣٤٦ م : « انه رأى معامل الزجاج في دمشق تشتغل على طول الجامع الاموي » . ومن ذلك الزجاج الملون المتخذ للقاري وله بقايا في بعض الدور القديمة . ونقلت هذه الصناعة الى الاندلس مع الدمشقيين واشتهرت بها مرسية ومالقة والمريّة .

ومن اشتهر في دمشق من الزجاجيين ابو اسحق ابراهيم بن محمد النحوي الملقب بالزجاج لانه كان في اول امره يخرط الزجاج فنسب اليه واشتهر بالادب وتوفي سنة ٣١٦ هـ ولما صحبه ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق النحوي البعادي نسب اليه لا الى الصناعة فقبل له ( الزجاجي ) فتأمل الفرق في التسمية .

ولقد ضعف شأن هذه الصناعة فجددت منذ نحو اربعة قرون بعض التجديد اذ جاء نفر من ( بني الدالي ) من خليل الرحمن في فلسطين المشهورة بزجاجها فجددوا معالم الصناعة وهم المعروفون اليوم باسم بني ( القزاز على لغة العامة في لفظ الزجاج ) في محلة الشاغور .

### البناء

اشتهر الشرقيون بالبناء وهندسته فتميزت كل أمة فيه بمزايا خاصة منها الطراز

الساساني واليوناني باشكاله الثلاثة الدوري واليوني والكورني . ثم وجد في بزنييه الشكل البزني . واخذ العرب طرازاً من الساساني والبزني اشتهروا به فجاءت ابنتهم بينهما وتميزت القناطر العربية بشكل نصف قوسين والقوطية بنصف دائرة . وعرف العرب بعقودهم المستطيلة وتزيين القباب باشكال هندسية مجسمة فبنوا قبابهم مئنة الاضلاع ثم مربعها ثم ذات ست عشرة ضلعاً فانقلوا تدريجاً من المربع الى المدور وكانوا لا يحفلون بالتزيين الخارجي ثم مالوا اليه بعد زمن ومن مميزات الشكل ( المقرنص ) مثل ما هو فوق مدخل الظاهرية في دمشق وغيرها من الابنية القديمة . واما الكتابات على جدران الابنية فكانت بالكوفي والنسخي والشبكي على ابواب المدينة والسور والقلعة وابرأجها والابنية الأخرى كالمساجد والمدارس فمنها ما هو آيات قرآنية كريمة ومنه وصف اوقاف كانت للجوامع والمدارس فنقشت اسمائها واما كتبها ومقاديرها لتحتفظ من عبث الايدي بها . وذكر ابن طولون الصالح في ( رسالة المزة ) المخطوطة : انه عندما يبطل الحاكم طرح ضربية على الناس ينقش ذلك في الجامع والقلعة ودارالسعادة اه . وكانت تنقش اسماء البانين ايضاً والمهندسين ونحو ذلك وقد جمعت كثيراً من هذه الكتابات لانشرها . وقد نشر كثير منها في كتب الافرنج ورحلاتهم ولا سيما بالالمانية ولكنها لا تخلو من مزالتق وبغامز ولم في هندسة ابنتهم اشكال كثيرة مختلفة (١) .

ولما امتزج السوريون بالعثمانيين اقتبسوا شيئاً من طرازهم . وشاع في اربعة الطراز القوطي مقبباً من الطراز العربي في الاندلس .

ومن أعجب الهندسة القديمة هيكل رمون ( محل الجامع الاموي الآن ) بزمنا الاراميين ثم الرومانيين واسواق دمشق بزمنا الرومانيين والكنيسة المريمية بزمنا اليونانيين والجامع الاموي ودور الامو بين والمدارس والقلعة وبعض القصور بزمنا العرب وعلى بعضها اسماء مهندسيها مثل ابراهيم بن غنائم المهندس على باب الظاهرية وهو دمشقي . وكان لبعض ملوك دمشق شعار ( رنك ) خاص مثل ( صورة الاسد )

(١) بين المسيو غايه في كتابه ( صناعات الغرب ) اختلاف هذه الاشكال بين

دمشق وبغداد وحلب والبصرة وغيرها .

لملك الظاهر بيبرس البندقداري - وزهرة الزنبق بين اسدين لنور الدين الشهيد وغير ذلك مما نراه في خارج الابنية الباقية وفي داخلها . والآخـر ذهب بذهاب المباني منذ عهد العباسيين الى ايامنا بالتخريب والاحراق والزلازل والاممال .

وكان نحت التماثيل معروفاً لان مؤرخي الروم ذكروا تماثيل كثيرة بديعة النحت والرواء في قصور الخلفاء بدمشق والعراق ومصر والاندلس ولقد اشتهر الدهشقيون بنحت الحجارة ونقشها وتصويرها ولم سوق تدعى ( سوق التخنين ) الى عهدنا .

ومن بديع الابنية المتأخرة طراز التكتيتين السليلية والسلمانية وفيهما القاشاني النفيس والنقوش الرائعة . وكذلك ابنية سنان باشا ومراد باشا من حكام هذه المدينة ومنها قبة باب البريد . والقاعة المنحكية التي وصفها الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط في خزانه مجمعنا العلمي العربي الدمشقي بقوله : انها ليس لها نظير بناها امير الامراء محمد المنجكي في دارهم لصيق الجامع الاموي من الشرق .

وفي الصالحية ( بسفح جبل قاسيون ) في باب السوق المواجهة لجامع الثابتية محلة ( بين المدارس ) وعلى ابوابها نقوش عربية بالحجر ذات رونق وانقاف وداخلها غرفتان الى الشرق وفيهما مدفن . وقبة مخصصة بنقوش رائعة . واما التي على يسار الداخل فهي بديعة النقوش والكتابات مخصصة الجدران قد اقتلع من جدرانها كثير من قطع القاشاني الثمينة ونقوشها على علو نحو مترين وهي من أهم آثار دمشق الداخلية في نحو سنة ( ١٣٩٧ هـ ١٨٠٠ م ) وقد زرتها مع رصفائي اعضاء المجمع العلمي اول مرة ( في شهر حزيران سنة ١٩١٩ م ) وحرصنا الحكومة على تنظيفها وحفظها لتكون مباءة للسياح وروام الآثار . ومن تلك المباني دار اسعد باشا العظم قرب الدار الخضراء التي كانت قصر الخلفاء الامويين وكان الراز فيها اي رئيس البنائين والعملة معظمهم من مسيحي دمشق . قال الشيخ احمد البديري الحلاق في تاريخه المخطوط ما حصله ببلغته الاصلية : جاء محصل من قبل السلطان لتحصيل المالك من سليمان باشا العظم . فأرسل خلف المعامرية ( اي البنائين ) الذين عمروا السرايا وكانوا نصارى وكان معلم نصراني يقال له ابن سياج فأمر القبيجي اي المحصل بتعديهم ٠٠٠ الخ وكان المعلم يطلق على رئيس البنائين . وفي ذيل القرماني من

مخطوطات خزانة مجمعنا : ان بانيه انفق عليه ار بعائة كيس والكيس خمسمائة غرش اجرة العمال . واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من بساينه وارزاقه . وبقى العمال يشتغلون في دار الحریم سنين وما كملت . وعدد العمال من غير ضبط ثمانمائة . وحاصل الامر نقلوا عمن ساح في البلاد ورأى ابنتها ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراية الملك المعظم اه .

واخبرني احد المعمرين من بضع عشرة سنة اخباراً غريبة عن بناء هذه الدار وما جرى للبنائين الحلبين الذين اسقدموا لمساعدة الدمشقيين وغلبة الدمشقيين ايام بن المهندسة البنائية . . . وان اجرة المعلم اليومية كانت نحو عشرة قروش واجرة الفاعل نحو ثلاثة . وهذه الدار جامعة لاخر فنون الهندسة والصناعات الدمشقية فهي احسن مثال لها وعندني وصف لها قبل خرابها الاخير . وكذلك كانت القيسارية العظمية المعروفة ( بخان العظم ) .

ومن محاسن الابنية الدمشقية ايضاً قاعة في زقاق الفخر الرازي من دور آل مردم بك الآن بديعة الهندسة والنقوش في السمك والجدران من نوع ( الخركاه ) اي المثلثة واصحابها آل الكيلاني المشهورين في دمشق وحماه . الم كثير من امثلة البناء الدمشقي في بعض الدور الباقية على رونقها القديم واكثرها روم فقد طرازه . وعندنا امر باسم البناء والنحات والحفار والدهان والرسام والنقاش تدل على صناعات البناء وما يتعلق بها .

ومما يدخل في صناعة البناء هندسة المياه وتوزيعها في الافنية الحاوة والمالحة الى الطوالع ( اي محل توزيع مياه القنوات ) والبيوت والمجاري بطرق فنية ولها مخططات ( خارتات ) لمعرفتها وتوزيعها واصلاحها . ولقد ذكر التاج السبكي في كتابه ( معيد النعم ) شروط صاحبها . والذي يقسمها يعرف بالفرضي واشتهرت اخيراً أسرة آل الشطي الدمشقية بتقسيمها وعندهم اصول توزيعها والذين يتعاطون امرها يقال لهم القنباطي ( واراها تخريف القنباي ) والشاوي .

## الوراقة وما يتعلق بها

إن صناعة الورق تناولها العرب عن الفرس كما يظهر من أسماء كثير منها مثل الكاغد والمهرق . فعرفوها أولاً واتخذوا الورق من الحرير ثم من القطن وانشأوا له المعامل الكبيرة في هذه المدينة وعنها نقلت الى الأندلس واورب . ولقد كان عند المؤلفين وراقون وهم الذين يستحضرون الورق ويصقلونه بمصاقل من العاج ويقطعونها اذا لم يتخذوه مدرجات صفحات صفحات ثم يعدونه للنسخ ويصنعون الخبز بالوانه الثابتة الجميلة ولا سيما الاحمر والاسود والصفدي وهو اكثرها شيوعاً وقد يكتبون بالاصفر الزعفراني . وبيرون الاقلام ويرسمون النقوش فينسخون الكتب بخطوط مختلفة اهمها النسخي وهو المعروف عند النصارى بالكنسي لأن كتب الكنائس تنسخ به ويجلدونها بانقان ويبيعونها . فالوراقون هم الكتبة اليوم . ولهم بهذه الصناعة اعمال بديعة تدل على حسن ذوق ودقة تفكير . وكثير من اعمالهم في دور الكتب ولا سيما الظاهرية :

ومن الكتب المؤلفة بهذا الفن ( نظم تدبير التسفير ) في صناعة الكتب اي تجليدها و ( عمدة الكتاب ) في صنعة الخبز والاقلام والخط للامير المعز بن باديس المتوفى سنة ٤٥٤ هـ وقيل انه الف باسمه فقط و ( رسالة في صناعة الاحبار ) و ( النجوم الشارقات في عمل اللقيات ) لمحمد بن ابي الخير الحسيني و ( رسالة في الخط وبريعة الاقلام ) لابن الصائغ و ( الاقلام القديمة ) لابن الدالي وصف فيه مائة وخمسين قلماً اي نوعاً من الخط و ( شرح ابن وحيد على منظومة ابن البواب ) في صناعة الخط و ( مقدمة في صناعة الخط ) لابي علي بن مقلة مخرومة الآخر و ( ارجوزة لمحمد بن حسن البخاري ) في الخط ايضاً وكلها في الخزانة التيمورية في القاهرة عدا رسائل أخرى فيها وفي غيرها ومنها ( تنويق النطاقة في علم الوراقة ) لابن مسك السجاي من اهل القرن الحادي عشر للهجرة .

ووصف مؤرخو اليونان الورق الدمشقي البقطني المعروف عند الافرنج باسم كرتاداماسينا ( Carta Damascena ) وانتقلت صناعته الى شاطبة وبلنسية ووظيفة

في الاندلس ومن معاملها المتهورة انتقلت الى اوربة كما ذكر سيديليو . ووصف ابن بطوطة الرحالة سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد في دمشق .

وكان اسرى الصليبيين يؤتى بهم الى دمشق فيشتغلون في معاملها الصناعية . وقد نشرت جريدة الف باء بتاريخ ١٥ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م . ان جد الجنرال غوابه الافرنسي نقل الصناعة من دمشق الى فرنسه في ذلك العهد على اثر اطلاقه من اسره في الحروب الصليبية سنة ١١٤٧ م واسس لها معامل في بلاده وفتنن الافرنسيون بالورق .

وسنة ١٣٣٩ م احترق في شرقي الجامع الاموي سوق اللبادين وسوق الوراقين . وقال ابن طولون الصالح مؤرخ دمشق في رسالته في ( المزه ) مانصه « وكانت سوق الكتب في دمشق تحت سبائك المدرسة الفاضلية بالكلاسة » اه وقوله يدل على ان اسواق الوراثة كانت حول الجامع الكبير .

واقدمت اشهرت دمشق بدور كتبها الكثيرة ومخطوطاتها النفيسة وخطاطيها المقتنين ووراقيها البارعين ولن تزال اثار الوراثة عندنا ولا سيما في كتب الظاهرية فضلاً عما نقل منها الى مكاتب اوربة والاستانة ومصر .

ومن اشهر من الخطاطين المتأخرين المقدسيون ذكرهم الشيخ حسن البوريني في تاريخه بقوله : « منهم الشيخ ابراهيم المقدسي كاتب المصاحف التي ينفالي بثمنها الناس لاسيما اهل دمشق وذلك لحسن الخط ودقة الضبط وقد كتب منها ما يزيد على مائة مصحف . ومنهم الشيخ خليل وعندى مصحف مسيع كتبه بخطه سنة ٨٠٩ هـ » انتهى قول البوريني .

ومن عرفناهم من الخطاطين بين المسلمين بنو الحموي وفي مكتبي نسخة من المقامات الحريزية بديعة الخط والضبط والنقش والتذهيب صغيرة الحجم كتبها احمد بن محمد بن عبد الله الحموي الدمشقي سنة ١١٤٨ ( ١٧٣٥ م ) .

ومن الخطاطين المسيحيين في دمشق بنو عطايا الاطباء وفي الظاهرية كتاب ( تذكرة داود البصير ) نسخه ميخائيل بن يوحنا بن عطايا الطبيب الشامي سنة ١٠٨٢ هـ

في ١٨٠ صفحة بقطع نصف كبير . ومنهم بنو صروف وجبارة واليازجي والميداني وغيرهم ولم مخطوطات بديعة في خزائن مختلفة احرزت بعضها .

### الصناعات الأخر

وهناك صناعات احتاج في وصفها الى مجلد كبير فاجتزئ بالاشارة اليها :  
 منها ( السباق والروسية والمراحة والمسايه ) = اشتهرت هذه الالاعاب منذالقديم واولع بها الامويون حتى ان هشام بن عبد الملك كان في مرطه اربعة آلاف فرس اشتهر كثير منها بالسباق الذي كان يقوم في الميدان الباقي اسمه الى عهدنا في الغرب الجنوبي من مدينة دمشق ومن خيوله المشهورة بالسباق ( الزائد ) وذكر المسعودي : « ان رصافة الشام كانت مضمار السباق وكانوا يخرجون الى الحلبة باوقات معينة و يميزون السابق ولا سيما في زمن الحليفة معاوية ان ابني سنيان » وما الطف قول المعري في السباق :

اذا وفي الانسان لم يخش حادثاً وان قيل هجم على الحرب اهوج  
 وان بلغ المقدار لم ينخ سايج ولوانه في كبة<sup>(١)</sup> الخيل اعوج<sup>(٢)</sup>  
 فلا تشهرن سيقاً لتطلب دولة فافضل ما نلت اليسير المروج

واشتهروا بترويض الحيول والروسية وعمل السروج وما يتعلق بها وصانعيها السراج والعمامة نقول السروجي والبكديبي لما تحت السرج . وفي التواريخ أمثلة كثيرة تدل على عنايتهم بها . وكذلك التمرن بفنون الحرب والمسايه ( اللعب بالسيف ) والمراحة ( اللعب بالرمح ) والمتافسة ( لعب الحكيم ) . وما يحضرن في من ذلك ما رواه الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط وهو : « ان الحافظ الثاني امر جميع العسكر الدمشقي بالخروج الى الميدان الاخضر في الجانب الغربي منها وان يحمل كل منهم بندقية المكحلة لانها سلاح ممالك آل عثمان . وان يرموا البندق على الغرض

(١) الكبة بالضم جماعة من الخيل . والكبة بالفتح افلات الخيل على المقوس  
 ( خيط السباق ) للجري او للحملة والصدمة بين الخيلين (٢) هو الفرس المطهّم المعروف عندنا بالكحيلان .

فأحرز الجائزة كنعان بلوكباشي الجركسي وهي عشرة دنانير من الذهب . فلما تم ضرب البندق امر بلعب الخيل في الميدان فاصطفت الخيل فريقين فكان كل من يصيب بضرب الجريدة يعطيه الوزير ملء كفه دراهم» اه .

وقال احمد البديري الخلاق في وصف احدى الحفلات : « وركب أهل الملاعب والاغوات والشربجية والاكابر والانكشارية ومثلوا شجعان العرب بملاعهم وحركاتهم » وكذلك وصف شمس الدين بن طولون الصالحى مثل هذه التمارين والاعاب مفضلاً في الجري على الخيل ورمي النشاب من على ظهورها وما اشبه ذلك <sup>(١)</sup> . والواجب من يتولى ركوب الخيل للتسبير والرياضة عند العرب .

ومنها ( عمل الآلات الفلكية ) = مثل المزاويل اي الساعات الشمسية والساعات الاخرى والارباع الفلكية والاسطرلابات ونحوها . فاشتهرت دمشق بساعاتها وبنكوماتها وبقية هذه الآلات التي صنعها كثير من سكانها . ومن ساعاتها القديمة واحدة عليها عصفير من نحاس ووجه حية وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصفير وصاح الغراب وسقطت حصة ثم تعجد تلك الحركات على هذا النمط كما تعجدت الاوقات .

ومن تلك الساعات ما وصفه الرحالة والمؤرخون ولا يزال ( باب الساعات ) في الجامع او باب الزيادة دالاً على ذلك وهو الذي ذكر ابن بطوطة انه عن يمين الخارج من باب حيرون محدثاً عنها وكذلك ابن جبير فانه وصفها بدقة . وذكر ابن ابي اصيبعة : ان مهذب الدين احمد بن الحاصب الدمشقي كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع في دمشق . وقال : ان نجر الدين الساعاتي هو الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي في دمشق وفي متحفنا بعض آلات منها صنعت في دمشق . الى غير ذلك من الاعمال الهندسية . وفي الخزانة التيمورية بالقاهرة ( كتاب علم الساعات والعمل بها ) وهو في الساعات المائية وفيه رسوم ألفه في القرن السادس للهجرة الشيخ رضوان بن محمد الخراساني وعندي مؤلفات فيها .

(١) راجع هذا الوصف في مجلة مجمعنا العلمي العربي « ٢ : ١٤٩ » .

ومنها ( صك النقود ) = وهو قديم وعرفه العرب في زمن الامويين . وذكر ابن عساکر ان رجلاً اسمه دواس رثى يده التي قطعت لضربه دراهم زغلاً . وآخر ما عرفنا من امر صك النقود ما رواه احمد البديري انه سنة ١١٥٧ هـ بطات الفلوس الرملية التي كانت ضرب الشام . وقال في محل آخر : ان كل ٢١ فلساً رملياً بمصرية . وذكر ايضاً تشهير بعض الذين زيفوا الفلوس الرملية .

ومن النقود المضروبة في دمشق ما هو محفوظ في متحفنا العربي : مثل قطعة فضية باسم المعتصم بن هرون الرشيد صكت سنة ٢٢٦ هـ وقطع فضية ونحاسية مختلفة منها ما صك باسم محمود بن زنكي سنة ٥٧٠ هـ وصلاح الدين يوسف بن ايوب سنة ٥٨٦ هـ والملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل محمود زنكي سنة ٥٩٦ هـ وقطع أخرى كثيرة في زمن الدولة الاتابكية وغيرها .

ومنها ( الغناء والموسيقى والضرب على الآلات ) - - لقد عرفت هذه الفنون منذ القديم في دمشق كما تذكر التواريخ اخبارها من ذلك ما ذكره الکتبي في ( فوات الوفيات ) من ان ابن المسجف الدمشقي قال يصف ( الكمال ) وضربه على القانون :

لوانت أبصرت الكمال وجسه أوتار قانون له في المجلس  
لرايت مفتاح السرور بكفه - اليسرى وفي اليمنى حياة الأتفس

وقال الشيخ حسن البوريني في تاريخه : انه حضر بعض المجالس وكان فيها عواد يقال له ( سالم ) وله عبد اسمه ( سرور ) يضرب بالدف . وروي عن جمال الدين ابن فرفور انه كان موسيقياً خطاطاً . وقال عن نسبه عبد الرحمن بن فرفور : انه كان عارفاً بالنعمة باصطلاح الموسيقى حتى انه كان يحلو بنفسه ويدفع عنه الوحشة بصوته الرخيم .

ومنها ( استنطار العطور ) = وهي صناعة قديمة لكثرة ما في دمشق وغوطتها من الياحين والنباتات . ولقد وصف شيخ الربوة الدمشقي <sup>(١)</sup> : طرق استنطارها في قرية ( المزة ) قرب دمشق حيث كثرت معاملها وصور المقاطر ( الكركات ) والانابت والقرعات . وأطال في ذكر طرق الاستنطار بها في عصره اي القرن

(١) راجع ( نخبة الدهر ) طبع اربعة صفحة ١٩٤ .

لثامن للهجرة ووصف الرياحين وانواعها . ومما قاله عنها : « ويحمل الورد المستخرج بالآلة الى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك . ويسمى هناك الزهر »  
ومما ارجوه : انه كان لقاضي قضاة الحنفية ولاخيه الحريري قطعة بارض تسمى ( شور الزهر ) طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة : باع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين الف درهم . وذلك سنة خمس وستين وستائة وهذا لم يسمع به .

ومن اسماء المشتغلين بهذه الصناعة الى الآن بنو الزهر او الزهرواتي والعطري اما بائع العطور والتجرب بها فيسمى المطار .

قلت هذا وصف اهم صناعات دمشق وقد بقيت هناك صناعات أخر كإدارة المطاحن المائية والحمامات والمدارس والمستشفيات والتعليم والجراحة والطب والكحالة والصيدلة والديباغة وعمل الادوات والحلويات . الخ مما يملأ مجلدات فاجتازت عن وصفه الآن لضيق المقام .

ولا تزال اسماء أسر كثيرة تدل على هذه الصناعات الى يومنا لانها اشتهرت بها مثل الطحان والبرآك والحامي والمدرس والمعلم والجراثمي والحكيم والطبيب والكحال والصيدلي والديباغ والحلواني والسكري او السكاكري . وفي كثير من الصناعات مؤلفات ورسائل احرزت بعضها لا محل الآن لوصفها .

### الختام

لقد راجت مصنوعات دمشق كما رأيت في مطاوي هذا البحث رواجاً غربياً وكانت دور الخلفاء الامويين مصانع لها وكذلك دور من جاء بعدهم من الملوك والامراء والاعيان الى ان ضربت الصناعات بالكساد فكثرت عليها الضرائب ونافستها المدد الأخرى ولا سيما تدمر وصور وحلب . وانتقل صناعتها الى بلاد أخرى وسي الحاذقون منهم الى اقطار بعيدة . وتشتت شمل الاسر في النكبات الطبيعية كالزلازل . وفي الحروب الداخلية . والمصادرات والمهاجرة والتجارة الخ . وبالتالي كان انحصار بعضها في أسر خاصة وكنم اسرارها بين عمال معروفين

غير متجاوزة الى غيرهم من اهم اسباب انقراضها كما كانت هذه الشؤون في القديم من اهم ذرائع ارتقاؤها .  
 فسبحان من يبدل الاحوال ولا يتبدل . على ان النهضة الحديثة سبغت استعادة بعضها وانشاء معامل لها منذ نحو قرن قد بشرت باستئناف تجديدها .  
 وارجى ذلك البحث الى محاضرة ثانية في ( صناعات دمشق الحديثة ) ألقيا عليكم في فرصة قريبة وفيها التفصيل الكافي عن اصولها وطرق تجديدها وتحسينها . ولا سيما الشد الذي هو من أهم اسباب نجاحها . والسلام خير ختام .

عيسى بكندر  
المطرف



# صفحة من تاريخنا الاجتماعي<sup>(١)</sup>



أيها السادة !

موضوع محاضرتي اليوم ( صفحة من تاريخنا الاجتماعي ) . وقد أردتُ بقولي ( صفحة ) ان البحث فيها يقتصر على وصف حالنا الاجتماعية في بعض أزمنة التاريخ اي في خلال السنة الواقعة بين ( ٢٥٠ ) و ( ٣٥٠ ) للهجرة اعني قبل الف سنة من وقتنا الحاضر .

و اردت بقولي ( تاريخنا ) أموراً وحوادث كانت تقع في بغداد بين رجال الطبقة العالية من وزراء وقضاة وعلماء واعيان .

اما قولي ( الاجتماعي ) بعد قولي تاريخنا فلاجل صرف الذهن من اول الأمر عن تاريخنا السياسي اندي انما يتضمن ذكر اخبار الملوك وقيام الدول والمنازعات حول العروش . وما يثور بسبب ذلك من الحروب .

وهنا موضع العتب على كتابنا او مؤرخينا العرب الذين كانوا اذا كتبوا في التاريخ شخنوا المجلدات بما ذكرنا من اخبار الحروب والملوك . حتى كأن الملوك هم البشر . واما الأمم فقطعان بقر .

فكيتاب تاريخنا لم يصفوا لنا كيف كانت أصول الادارة في الدول الاسلامية ولا طرائق تأليف مجالس الحكم . وضبط الأمن . وجباية الاموال . ولا أنماط التربية والتعليم في المدارس . ولا طُرُز المعيشة العائلية والتدبير المنزلي . ولا طُرُق المعاملات المالية وتوزيع الثروة واساليب التجارة والزراعة . ولا غير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية التي يتألف منها تاريخنا الاجتماعي .

---

(١) للاستاذ المغربي الفاهما في ردهة المجمع العلمي في ١٥ كانون الاول

سنة ١٩٢٢ م .

واسمك نعلمون ان هذه الابحاث والموضوعات هي المادة التي نتألف منها كتب المطالعة ثم تُعطى الأحداث والطلاب فيدرسونها ويستفيدون منها عقلاً وتجربة . وان مكتبتنا العربية لني حاجة الى أمثال هذه الكتب المنوعة في قالب كتب المطالعة الاخرنجية المعروفة باسم ( Lecture ) .

ومن مواضع الاسف اننا نرى المتعلمين من شباننا ملين بالتسؤون الاجتماعية عند الاوربيين وبسيرها في كل دور من أدوارهم التاريخية أكثر من معرفتهم ذلك عن أمنهم العربية :

فهم يعرفون ان اهل المملكة الفلانية الادريية في عهد ملكها الفلاني في قرننا الرابع عشر متلا -- كانوا يفعلون كذا . أو كانت عاداتهم كذا . او حالتهم العالمية او المعاشية كذا . بينما هم اذا سئلوا عن الخانة الاجتماعية في أحد عصورنا التاريخية قالوا ان السُلطة فيه كانت بيد الدولة الفلانية . أو الأبرة الفلانية . وقد جرى من الحروب في ذلك العصر كيت وكيت .

وليس هذا وحده كل ما يلزم من التاريخ لاسائنا وطلاب مدارسنا كما لايجب . وقد يستنى من كتب التاريخ عندنا ما كسبه ان حلدون في مقدمته . والمقريري في خططه . والتاقتندي في كتابه ( صبح الاعشى ) . وعبد اللطيف الغدادي فيما وصف من الآثار . ومواطن الاعتبار .

بل ما بدرينا أن يكون عالما السالفين اشباه هذه المصنفات المتبعة في وصف احوالنا الاجتماعية ثم أبادها التعصبات البديية . والحروب الطائفية . وما بقي منها انتقل الى مكيبات اوربا . وخزائن بلاتها المستشرقين .

وقد اتتبه هؤلاء العلماء المستشرقون في المدّة الاخيرة الى ما ينقص مطبوعانا العربية الحديثة من المصنفات في تاريخنا الاجتماعي فأخذوا ينبتون تلك المصنفات من مكائنها ويطبعونها ويلمقون ناليها نبروحا وهوامس متمعة جدا . وقد حاب جمعنا العلمي الى مكتبته طائفة من هذه الكتب . أذُر منها عجائب الهند للراهب رمزي دنسوار اخاضرة للقاضي ابي نلي الحسن النوحى وطلوق الحمامة لان حزم والموشى لأبي الطيب محمد بن اسحق وكتاب الولاة والقضاة لابي عمر الكندي

ولأنهم سوا ( مقامة ابي الفاهم البغدادي ) لابي المطهر الازدي التي كانت موضوع محاضرتي السابقة .

اذن يحسن بنا ان نحذف لطفة اللوم والعتاب على أسلافنا : فانهم رحمهم الله تركوا لنا تروة عظيمة من المؤلفات في كل فن من فنون العلم والادب . لكننا نحن أحماد . أضعنا التروة . وقصرنا في حفظ التركة .

قلت ان موضوع محاضرتي البارحة الاجتماعي تكن لانتسبوا أبي سأخوض من هذا التاريخ في قواعده التي وضعها علماء الاجتماع . ولا سيّ في نظرياته اذقيقة التي أكثر الخصام حولها بين أفلاطون وأريسطو وشيخرون في التاريخ القديم . وبين مونتسكيو وسنسر ونيتشه وشونهور في التاريخ الحديث . لا أخوض في ذلك كتابا اذ هو من دروس طلاب الجامعات العالية . وليس هو من مواضيع المحاضرات العامة . وإنما سأتحطى تلك الدوائد والنظريات العقلية الى وفاع وجريات تاريخية جديدة لم تتأقها الافواه بعد : يلمذ بها محب التاريخ - وككلم ايها السادة خبثون التاريخ - فقارنون بينها وبين ما يقع من استباهاها في زمننا الحاضر . كما يستفيد منها اخواننا الصحافيون والكتّاب الاجتماعيون وطلاب المكتبة العامة من حيث يرون فيها مادة لتفالاتهم . وموضحات اجنبية ساستهدون بها في محادثهم ومناظراتهم .

هذه الاخبار والخوات التي أروها لكم منسقة على هذه الصورة هي مفهوم كلمة « المحاضرة » اي هو معاها الذي كان يفهمه علماء الادب . عندنا معتر العرب : محاضرات الراغب الاصفهاني . وحسين المحاضرة للسيوطي . ونسوار المحاضرة للقاضي ابن علي الحسني النوحى - لم تتم كذلك الا لأنها جمعت أخباراً مختلفة فييد القارئ . وتلد السامعين . وها انا في محاضرتي هذه أخذت حذوهم . واسلك طريقتهم .

ومعظم ما أرويه لكم فيها مقتبس من كتاب ( نسوار المحاضرة ) للقاضي النوحى المذكور مع تصرف قليل أو كبير حسب ما يستدعيه المقام . طالت المقدمة فلنجزى بما مر . ولنقبل على الموضوع فقول :

يؤلفون اليوم كتباً في وصف أحوال المدن وإحصاء ما فيها من آثار الحضارة ومقومات العمران لتكون دليلاً للسياح ومحبي الاستطلاع . ومن ذلك الكتب التي يصدرها (محل بيدركر) عند الأوربيين . وقد قلدتم فيها كتاب العرب وسموها (دليلاً) فيقولون : دليل الاستانة ودليل القاهرة . ويظهر ان العرب في العهد العباسي ألفوا مثل هذه الكتب : فان (احمد بن الطيب) ألف كتاباً عن بغداد وما فيها . وقد توفي أحمد هذا سنة (٢٨٦) هـ . وكذلك (يزدجرد الكسروي) فانه ألف كتاباً بأمر ركن الدولة ابن بويه وصف فيه (بغداد) في عهد الحليفة المقتدر المتوفى سنة (٣٢٠) وقد أحصى ما فيها من الابنية والتسوارع والدروب والحمامات والسكان والسفن والملاحين وما يُنفق فيها من الخنطة والتعمير وسائر الاقوات .

ومما ذكره على سبيل النموذج ان اصحاب المعابر كانوا يأخذون من التلاجين في كل يوم ثلاثين أو اربعين الف درهم وهي تبلغ من نقود زماننا نحو مائتي الف قرش . والظاهر ان مرادهم باصحاب المعابر ارباب المكس الذين يقعدون على فوهات الطرق فيأخذون (مروريه) على الثلج الوارد الى بغداد .

وقد روا ما يأكله أهل بغداد من صنف الحس في زمن موسمه بنحو خمسين الف دينار اي نحو عشرين الف ليره من نقودنا .

وأحصوا ما ينفقونه من سويق الحمص في كل سنة فبلغ نحو (٨٤٠٠) قفيز والقفيز اربعة ارطال او اكثر . فمجموع ذلك بالقناطر نحو (٣٣٦) قنطاراً . من الحمص السويق .

والسويق دقيق الخنطة والشعير ولكن بعد تحميصها على النار : يضعه المسافر في جرابه فيسفه سفةً او يجدهه (يخلطه) بالماء او اللبن فيشربه أو يأكله . قال أعرابي : «السويق» عدة المسافر وطعام العجلان وبُلغة المريض .

ويظهر ان اهل بغداد في ذلك العهد اتخذوا سويقاً من الحمص كما سمعتم : فكانوا يحمصون الحمص ويطنونه و يأكلون طحينه سفةً أو بصورة أخرى .

ونحن اليوم ليس عندنا من سويق الخنطة والشعير . ولكن عندنا من سويق الحمص كما كان يصنع اهل بغداد : فاننا نحمص الحمص ونسميه (قضامة) ثم نطحن

القضامة حتى تصبح ناعمة ونزجها بالسكر وهذا هو السويق بعينه كما لا يخفى .  
 وجرى في بعض مجالس بغداد ذكر دخل دولة الخلافة العباسية وخرجها  
 والنقصان الذي طرأ عليها . فحدثهم القاضي ابو الحسن علي بن بهلول قال : اختبأ  
 في دارنا الوزير ابو الفتح المعروف بابن حنزابه وكنيت يومئذ حدثاً صغير السن  
 فكان يناديني فتحدث ونلعب بالشطرنج . فجرى يوماً بيني وبينه ذكر الخليفة المقنن  
 ونقصان دخله عن خروجه بسبب كثرة أسرافه وتبذيره . فشرح لي ذلك شرحاً  
 وافياً ( على أصول البودجه ) . ثم قال : ان مزارع عمي ومزارعنا كان دخلها يوم  
 صادرونا فيها مبلغ كذا وكذا ثم أخذ بالنقصان حتى بلغ ثلث ذلك المبلغ . قال ولو  
 مكنتوني من إدارة ضياعا وحدها لعمرتها وعاد دخلها الى ما كان عليه . وان فرق  
 ما بين دخلها الآن ودخلها اذا سلوني اياها يعجز الدنيا كلها . وليست أملا كنا سوى  
 شقص يسير من الارض . فكيف لو كان للدنيا من يهتم بعمارتها كلها ؟ هـ .

هذا ما قاله الوزير وهو مخبئ خائف من الخليفة . وباليتة يحجي اليوم فيرى بعينه  
 كيف تستثمر الدنيا وتستعمر . فيخف أسفه قليلاً على ما فاته من أمر عمارتها واستثمارها  
 بحسب طريقتة الاقتصادية المدهشة .

وكانوا يحتفلون في أيام المواسم و يُقيمون الزين والمورجانات لاسيما يوم النيروز .  
 واصل النيروز عيد للفرس قادم العباسيون والمصريون في الاحتفال له . وكانوا  
 يهدون فيه للخليفة النفائس والطرف كما يهدي بعضهم الى بعض . ويتعلون  
 النيران . ويضعون على شرفات الدور والقصور مجامر طين . ويأتون بحب القطن  
 ( اي جوزة ) فيستربونه دهن البلسان وغيره من الادهان الطبية الفاخرة . ويشعلون  
 هذه الحبات فنفوح رائحتها . وثلاً في الظلمة أنوارها .

ولما حان زمن النيروز في بعض السنين أرسلت السيدة أم الخليفة المقنن الى  
 عميها التاجر ابن اسحق الشيرازي أن يشتري لها من الافاق ألف شقة زهرية  
 خفاف جداً . وبعد طويل عناء في البحث عنها جلبت . فاستدعت الخياطين  
 الى القصر وأمرت ان يفتلوا من هذه الشقة أزراراً على هيئة حبات القطن

و يحشونها خرقاً و يخيطونها و يُشربونها دهن البلسان و يشعلونها مكان حبات القطن و بحامر الطين .

و من جملة لهوهم في موسم النيروز اتخاذهم أعباً بطول الصبيات يزينونها بالحلي و فاخر الثياب . و يسمي المصريون اليوم لعبهم هذه عرائس و يصنعونها من سكر . و يسمون في بغداد هذه اللعبة ( دوباركة ) و هي كلمة فارسية . و اظن انها مركبة من ( دوباره ) حيلة مكر . و ( ككه ) من ككيمك وهو اللبس اي حيلة مستترة مغطاة بالثياب . و يُخرجون ( الدوباركة ) و أمامها متاعل النيران و الطبول و الزمور . و من اللطائف ان ( عائدة بنت محمد الجبئية ) نظمت أباتنا هجت بها الوزير أبا جعفر الكرخي فشبته بالدوباركة قصره و جمال ثيابه فقالت :

( ساورني الكرخي لما أقي النيروز . و السن زه ضاحك )

( فقال ما نهندي لسلطاننا من خيره الكف له بالك )

( قلت له : كل الهدايا سوى مسورتي ضائعة هالكه )

( أهد له نفك حتى اذا أشعل ناراً كنت دوباركة )

و هكذا كان اهل المناصب في ذلك العهد ينازقون في الثياب و يقننون فاخر اللباس و الرياش و الاتاث و يسمون ذلك مروءة .

و بالغ أحداهل الانبار في اتخاذ الثياب فكأن يضع كل ضرب من ضروب الثياب في صندوق : دراربع الذهباج في صندوق و الدراربع الذهبية (١) كذلك و القمص و السراويلات و الجباب و الطيالس و العائم - كل ضرب في صندوق خاص . و كانت للانباري سرية تزوجها فلما تله . و كان له أبناء عم فلما مرض و أشرف على الموت أسرعت فأخرجت من الدار جميع أمتعته و صناديقه سوى قليل منها تركته . لكنها نسيت صناديق السراويلات فلم تخرجها . ثم مات زوجها و جاء اناء عمه فحتموا خزائن الدار بواسطة المحكمة . و لما انقضى العزاء فتحوها فوجدوها ( أفرغ من فؤاد أم موسى ) و لم يجدوا سوى صندوق السراويلات فرفعوا أمرهم الى القاضي ( ابي جعفر الهلول ) فأحضر الجارية ( و افتتحت الجلسته ) فقالوا له : انت تعرف مبلغ عناية ابن

(١) نسبة الى دبيق قرية في مصر .

عمننا بالاناث والرياس واللبوس فأين ذهبت كآبها ؟ ولما ذا لم يوجد من ثيابه الالهذه السراويلات الكثيرة ؟ ولما ذا لم يوجد على نسبتها من الدراريع والجباب والطيالس ؟ قال فأقبلت الجارية على القاضي محتدة كأنها أعدت الجواب وقالت : ( أعز الله مولانا القاضي ! أما سمعت ماحكاه الجاحظ من ان رجلاً كان يعشق الهواوين فجمع منها مائتي هاون . وابن عمهم كان يعشق السراويلات مثله ) فضحك القاضي وانفض المجلس من غير شيء . وكسبت الحاربية الدعوى لقراءتها كتب الجاحظ .

اما الوزير ( علي بن عيسى ) فكان يتخذ من الملابس الأليق بالوقار والنقشف وكان يجب ان يبين فضله في ذلك على كل احد . فدخل عليه يوماً القاضي ابو عمر وعليه قميص دهبقي فاخر . فأراد الوزير ان يحججه فقال له : ( يا مولانا بكم اشتريت شقة هذا القميص ) قال بمائتي دينار . فقال الوزير : ولكنني اشتريت شقة هذه الدراعة والقميص الذي تحتمها بعشرين ديناراً . فأجابه القاضي على الفور : الوزير أعزته الله يُجعل التياب ولا يحتاج الى التأتق فيها . اما نحن فنجعل ثيابنا . ونأتق فيها . والفرق بيننا اننا نخالط العامة وغيرهم من يلزم ان نقيم الهيبة لنا في نفوسهم . والوزير لا يدخل عليه العوام . وانما يخدمه الخواص الذين يعلمون انه يترك التأتق بالتياب عن قدرة . فسكت الوزير مغلوباً .

هكذا كان شأن قضاتهم من حيث التجمل ومراعاة اخلاق العامة والمحافظة على الوقار والسمت : فقد حدث ابو الحسن ابن البهلول قال كنت وانا صبي اجي لألعب بقرب جدي القاضي ( ابي جعفر ابن البهلول ) فيصبح علي . والسبب في ذلك انني كنت اذا دخلت عليه وهو مكشوف الرأس أخذ قلنسوته من خلفه ولبسها وجلس متوقراً علي . وسني اذ ذاك نحو عشر سنين . وبقى على تلك الجلسة الى ان انصرف . فأراه اذا بعدت عنه رفع القلنسوة عن رأسه ووضعها حيث كانت .

سمعتهم وقار هذا القاضي ( ابي جعفر ابن البهلول ) فاسمعوا مراتته في الحق : دعتهم السيدام المقدر يوماً اليها . وكلفته احضار بعض سجلات المحكمة وحك احد الصكوك فابى عليها وقال : هذا والله لا طريق اليه أبداً ولو عرضت على السيف : انا خازن المسلمين على

ديوان الحكم : فإما مكنتموني من خزنه والا فاعزلوني وغيروا وبدلوا ما شئتم . واخذ السجل وانصرف وهو لايشك انه معزول . فشكته السيدة الى ابنها الخليفة المقنذر : ففي يوم الموكب سأله عن الخبر . فحكى له الواقعة وانه يفضل ان يُعزل على ان يرتكب مثل هذا العمل . فقال المقنذر ( مثلك يا ابا جعفر من يُقدِّد القضاء . أمم على مائت عليه . بارك الله فيك . ولا تخف ان ينلم ذلك عرضك عندنا ) ثم عادت السيدة فتذمرت امام ابنها من القاضي فقال لها : ( الاحكام مالا طريق الي اللعاب . وابن البهلول مأمون عندنا محب لدولتنا . وهو شيخ دين مستجاب الدعوة . ولو كان ماطلبت منه شيء يجوز ما منعك اياه ) فسكتت على مضض لكنها عادت فحدثت به رئيس كتابها وكان شيخاً صالحاً . فلما سمع منها ما فعله القاضي بكى . وقال لها ( الآن علمت ان دولتكم تدوم اذا كان فيها مثل هذا القاضي الصالح الذي يُقيم الحق على السيدة أم الخليفة ولا يخاف لومة لائم <sup>(١)</sup> .

وبقدر اتساع دائرة الحضارة في ذلك الدور كانت دائرة الحرية الفكرية والدينية متسعة : فكان اهل كل مذهب يناضون عن مذهبهم . ويعقدون المجالس في المساجد لنصرتهم وتأبيده . وكانت تكثر بسبب ذلك المنازعات بينهم . وتتحول الى فتن أحياناً كمثل ما كان يقع بين الحنابلة والشيعة : فان الشيعة كانوا يجتمعون في الحاير لندب الحسين فكان الحنابلة يثورون ويمنعون الناس عن المضي الى الحاير .

وكان قوم يعتصبون لسيدنا علي وآخرون لسيدنا معاوية . فاغتنم الفرصة صديقان أعميان من الشنآذين فكانا يقعدان على جسر بغداد : هذا في طرف . وذاك في طرف . ويتسولان ويتوسلان باسم الصحابين الجليلين علي ومعاوية . فكان يتعصب لكل واحد منهما فريقه . وتساقط عليهما الدراهم . وفي المساء يجتمعان ويقسمان غلة يومها وهكذا .

اما المعتزلة فكان لهم شأن ونفوذ يومئذ : منهم وزراء وقضاة وأمراء وكانوا يشتمون على القصاص لكثرة ما يروون من الاساطير . كما يشنعون على الذين يصدقون

(١) وفي تمام الخبر ان السيدة ام المقنذر كانت تجمل أن ما كلفت به القاضي من تغيير الصك وحكمه حرام حتى أخبرها كاتبها بذلك فكفت وارعوت .

بكل شيء مما لا يدخل تحت العقل . ويفتخرون بانهم هم لا يصدقون الا ما يؤيده العقل الصحيح . وكانوا يعيرون السادة الصوفية واهل السنة لكونهم يصدقون بالكرامات التي كانوا يسمونها ( المعونات ) : فإما لانهم يدخلون عليها باسم ( الكرامة ) او لان كلمة ( الكرامة ) لم تكن تولدت في أوائل القرن الرابع . وكانوا يفخرون بان فرقتهم لاتعول على شيء من ذلك جميعه حتى قال أحدهم : ( إن من بركة مذهبنا أن صبياننا لا يمافون الجن ) وتباهوا بعجز منهم كثيرة الصلاة والصيام وقيام الليل : كان لها ابن مسرف على نفسه في الليل و يتعاطى الكسب في النهار فكان يأتي مساء كل يوم بكيس دراهمه فيسلبه الى امه ثم ينصرف الى لهوه . وكانت أمه تقوم طول الليل تُهجد في الغرفة التي فيها الكيس . فعلم بقضية الكيس والصبي احد اللصوص فطرق العجوز ليلاً وانظرها لتنام فلم تفعل . ثم اعياه الامر فعمد الى الحيلة وفتش في البيت عما يساعده على حياته . فالتحف بازار ابيض وأوقد جمرة بخور ونزل في السلم وهو يتكلم بصوت أجش موهما العجوز انه ملك سماوي . قال المعتزلي راوي الخبر . ولكن العجوز كانت معتزلية جادة ففطنت للحيلة فظاهرت بالخوف وسألته من انت ؟ قال : ملك وقد جئت انتم من ابنك لهصيانه . فتضرعت اليه أن يرفق بوحيدها . فقال لا بد من تأديبه : فانا اكني بأخذ دراهمه ليتوب قالت : لك ذلك ونُحِت له . عن الباب حتى اذا دخل الحجرة اوصدت بابها عليه فانسفت بها فلم تجبه وقالت انت ملك يمكنك ان تنفذ من السقف . واقبلت على صلاتها . وجعل طول الليل يستعطفها وهي لاترق ولا ترحم حتى سلمته في الصباح الى الشرطة .

ولكن المعتزلة ما كانوا اهل جلادة في عقولهم الى هذا الحد كما كانوا يدعون : فانهم كانوا يعتقدون بالتنجيم والطالع . وقد نهى عنهما الشارع . وكان عالمهم ابو علي الجبائي يصدق المتجمنين ويمارس التنجيم بنفسه . ومن الغريب ان احد<sup>(١)</sup> قضاتهم أخذ طالع مولده فعين سنة وفاته و يومها . وتنبأ للموت فنص عيش اهله واصدقائه وتعبوا في صرفه عن هذه الفكرة الملعونة فلم يطعمهم حتى مات — كما رووا — في نفس اليوم . لكن من تأثير الوهم . لامن روحانية النجم . واعتقاد ذلك كفر لانه دين الصابئة عباد النجوم .

(١) هو القاضي علي بن محمد النونخي والد القاضي ابي علي المحسن النونخي مؤلف

كتاب ( نشوار المحاضرة ) الذي نلخصنا منه هذه الاخبار .

وكان المسلمون في ذلك العصر يعنونون فضل عناية بطلاب العلم : فكانوا يوازرونهم بأغداق الرزق عليهم ثم لما اشتدت الضائقة المالية أخيراً في بغداد وطلب الجهل على أهلها وتجارها حتى ان بعضهم كان يسمي الجهل ( احتياطياً ) وبعضهم يسميه ( اصلاًحاً ) وكانوا يتواصون به . و يخذر بعضهم بعضاً من الاتفاق — أمسكوا عن الاحسان الا قليلاً . وكانوا قبل ذلك اذا جاءهم أحد من اهل العلم ينصحونه بالالف درهم معونة له على التحصيل .

قال احمد بن يوسف : قدم على بغداد شاب أردنا ان نرتبطه لیتعلم لحودة قريحتة <sup>(١)</sup> وكان يحتاج الى مئة درهم في الشهر . فكلمت ابن خفيف صاحب ديوان النفقات ورجلاً آخر من اصحابنا . فاحر يا عليه مئة <sup>(٢)</sup> درهم في الشهر . فبقي يأخذها الى ان خرج من بغداد . قال : وشكنا الى بعض الفقهاء ان الطلاب الذين نحو : رون حلقه ابني الحسن الكرخي احتاجوا الى اكسية اذ قد فرس الرد . فكلمت فمن اقتصد ثم اجتزت في طريقي بدار . فقال لي بعض من كان معي : هذه دار تاجر . وسر من اهل الخير نشاطه . ولم اكن اعرفه . فدخلت عليه فقام واكرم وسألني حاجتي فذكرتها له فقال كم كساء تريدون ؟ قلت خمسين شملها معي في الخال . ففرقها على الطلبة . قال ثم نقابت الاحوال . وشحت النفوس بالاموال . حتى حان في رحل من اهل البهوات فتسكا من حاجته ما أبكاني . وقال ان صلاح امره في نحو ثلاثين درهما . فكلمت فما عرفت احداً يعطينها اذا سأله اياداً . قال ولعل السبب في ذلك التسك كلب الزمان وقلة المال : فقد حسبت يوماً ما يمكنه سكان ( درب مبره به ) فبلغ اربعة آلاف <sup>(٣)</sup> الف دينار . أما سكان هذا الدرب اليوم فلا يوجد فيهم احد يملك وحده اربعة آلاف درهم اللهم الا ( ابو العريان )

وكما كانوا يهتمون بطلاب العلوم وإدراك الرزق عليهم كانوا يهتمون بالاسارى الذين يقعون في بلاد الروم من وقت الى آخر . ومن طريق ما حكاه أسير مسلم عن

(١) يعني انه كان ناعمة في الطلاب لكنه فقير . ومثله يجب الاتفاق عليه لئلا يمتنع بأبوغه (٢) نحو خمسين ريالاً مجيدياً من نقود زماننا (٣) اي اربعة ملايين دينار نحو مليون ونصف او مليوني ليرة .

نفسه قال : لما حمأ الى بلاد الروم مرت بنا شدائد واهوال فكنا لا نقدر ان ننام من شدة البرد حتى كدنا نثلث . ثم دخلنا قرية فجاءنا راهب باكسية وقطف ( حرامات ) نقيلة دفيئة فغطى جميع الاسارى . كل واحد بكساء . فسألنا عن السبب فقالوا ان رجلاً من تجار بغداد اسمه ( ان رزق الله ) أرسل هذه الاكسية الى الراهب وسأله ان يغطي بها من يصل الى قريته من أسارى المسلمين . وضمن له في مقابل ذلك ان يفتن من ماله على كنيسة معينة في بغداد مادامت الاكسية محفوظة للاسارى فالراهب يعنى بالاسارى كما وصلوا الى القرية كما رأيت . قال الاسير فكنا نتمنى لو نصادف في كل قرية ما صادفناه في تلك القرية على يد ذلك الراهب . وكان كما الفخنا الرد تذكرنا ( ان رزق الله ) واحسانه ودعونا له ونحن لانعرفه .

لا حرم ان هذا التاجر المسلم والكاهن المسيحي كانا متالين حسنين لابناء ملتبيها في عمل الرأ والتساع وحسن التفاهم .

وحدثت القاضي ان مكرم قال : دخلت على الوزير ( علي بن عيسى ) فرأيت مغموماً . قلت : مالك ؟ نالت ما تكره من الخليفة ؟ قال الامر أشد : كتب عامل التنوير اليما يقول : ان أسراناً في القسطنطينية كانوا على احسن حال حتى تولى مملكة الروم سابط طائس فاضطدهم وأجاعهم وأعرأهم . ولقد أحببت ان أجهز جيشاً ينقدهم فيل يبطأ عني الخليفة المقتدر .

فقلت أصلح الله الوزير . هنا رأي أحسن من هذا . قال وما هو يا مبارك ؟ قلت ان البطريرك الانطاكي وبطريرك القدس محترمان ادى ملك ازوم وقولها نافذ عليه بحيث يجرمه . وبخلافه ولا يمكن ان يجلس على العرش من دون موافقتهما والبطريرك كن في عهدنا . بلادنا . فعرفها الخبر . وانظر ما يكون من جوابها . فقال قد سررت عن قلبي قليلاً جزيت حيرا . ثم افترقنا وبعد شهرين طلبني بجئته وقد اسبى . خذ الاسارى . فوجدته مسروراً فقال يا هذا أحسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعني . قلت : وما الخبر ؟ قال كان رأيك في الاسارى أبرك رأي . وهذا رسوانا تاد من القسطنطينية . وأسار الى رحل في المجلس ثم أمره أن يتحدثنا بما وقع : فقال احدث رسالة البطريركين الى ملك الروم وقد كتب له : « انك خرجت

عن ملة المسيح بما فعلته بأسارى المسلمين . فإما ان تكفَّ عن الظلم والالعناسك  
وحرمناك » . فلما قرأ الملك الكتاب حجبني اياماً ثم دناي وقال ما بلغ ملككم من أمر  
الاسارى كذب . وها هم أدخل عليهم في دار البلاط وشاهد حسن حالهم . قال  
فدخلت فاذا عليهم ثياب جدد لكن وجوههم كآنها وجوه أموات . فقالوا نحن  
للك شاكرون . جزاه الله خيراً . ثم أشاروا لي برموز من حواجبهم ان الامر على  
العكس . وانني إنما أخرجت عن الاجتماع بهم ليرفخوا من حالهم . وسألوني من أين  
علمت خبرنا؟ فذكرت لهم ما كان من اهتمام الوزير ( علي بن عيسى ) فضجوا بالدعاء له .  
وقالت امرأة كانت بين الاسارى ( امض يا علي بن عيسى لانسي الله لك هذا  
الفضل ) فلما سمع الوزير قول الرسول أجش بالبكا . وسجد لله شكراً .

\* \* \*

وكان المرشحون للوزارات والوظائف الكبرى يجتهدون في الحصول عليها ولكنهم  
كانوا يتعمرون للاخطار بسببها . حتى كان العامل اذا عزل صادروه في أمواله .  
وعندئذ يوه لا استخراجها منه . ولم يصف أحد هذه الحالة بمثل ما وصفها به ( ابو الحسين  
ابن عياش ) مذحكي عن نفسه قال :

كان لي اختصاص بسليمان بن الحسن قبل ان يتولى الوزارة . فلما وليها قصدته  
يوم الموكب . واذا ببابه عطاء المملكة محجوبون . فلما رأني حاجبه ادخلني على الوزير  
وهو في حجرة خلوته . يريد الركوب الى المقنذر . فطاولني في الحديث الى ان فرغ  
وشد سيفه ومنطقة وتبخر والتقى عليه سواده<sup>(١)</sup> وخرج وانا معه . فتأقاه الناس بالتجبل  
وساروا خلفه واختلطت بهم . واذا واحداً من اصدقاء ابي يجذيني من طيلسانى .  
فألقت اليه . فإشار علي ان اتبعه خارج الموكب . وقال يا فلان أفي بيتك خمسون  
الف دينار ؟ قلت لا والله . قال : أنتقوى على خمسين الف مقرعة وصفعة ؟ قلت  
لا . قال : فلم تدخل الى الوزير وعلى باب العطاء أمثال فلان وفلان محجوبون يتمنون  
الوصول اليه . ثم تخرج معه من خلوته وليس معه غيرك وغدا اذا نكب نكبت معه

(١) سواده اي لباسه الرسمي و يكون اسود عادة لان شعار بني العباس السواد

وعنهم اخذه العثمانيون .

بداعي انك من خواصه . وليس معك خمسون الف دينار تقدي نفسك بها . ولا تطيق خمسين الف مفرعة . فقلت : يا عم ! لم أعلم . انا رجل فقيه . ومن اولاد التجار ولا عادة لي بالتردد على هؤلاء العظما . فقال يابني لا تعاود . فان هذا بجر عليك نقا . قال فمن يومئذ جعلت أن تجب الدخول على صديقي الوزير في مواكبه العامة . ولكن كانوا مع هذه المخاطرة في طلب المناصب لا يضعون فرص الاستفادة وجر المغانم .

ومن شواهد ذلك ان ابا بكر الشافعي كان من أخصاء ( علي بن عيسى ) الوزير فلما عزل عن الوزارة وتولاها ابن الفرات أمسك ابا بكر المذكور ونكّل به . ثم عاد صاحبه علي بن عيسى الى الوزارة فكانت له عنده منزلة عظيمة بسبب ما وقع به من التنكيل . وجعل ابو بكر يستثمر تلك المنزلة . ويتوسط لدى الوزير بالشفاعات وتقديم رقايع أصحاب الحاجات . فكان يوقع فيها . ويغض عن كثرتها . الى أن قدم اليه يوماً رقايعاً كثيرة جداً أضجرت الوزير وظهر الضجر في وجهه . قال ابو بكر : فقلت له ( ايها الوزير ! اذا كن حظنا من اعدائك في ايام نكبتك الصّنع . وحظنا منك في ايام وزارتك المنع . فمتى ياترى يكون النفع ؟ ) قال فضحك الوزير . ولم يعد يضجر منه مها كثرت الرقايع .

وهكذا كان العاقل منهم يستفيد بجاه صديقه بعد ان يكون أحلص في خدمته . ومساعدته في نيل بغيته : فقد حدث ابن ابي عوف قال : اختبأ عندي ( عبيد الله ان سليمان ) فمآزحته يوماً قائلاً : خبي لي هذا المعروف الى وقت انتفع به . وبعد ايام استوزره المعتضد . فقال لي ادني اذهب اليه . قلت كلاً لا اطلب ثمن معروف صنعته . ولو كان في الوزير خير لدعاني اليه . فلما كانت يوم الاحتمال بالخلع طلبني فدخلت عليه فقام اليّ وعانقني امام جمهور الحنفلين وقال في أذني : هذا وقت ننفع فيه بقيامي لك . ثم أجلسني على طرف الدست<sup>(١)</sup> فقبلت يده وهنأته . لكن لم ألبت ان رأيت حاجب الخليفة يطلبه اليه . فذهب . وامتدت اليّ عيون الناس وخاطبوني باجل خطاب ثم عاد الوزير ضاحكاً واخذ بيدي الى دار الخلو . وقال : ويحك يا فلان !

(١) الدست للوزير كالعرش للملك والمنبر للخطيب .

ان الخليفة استدعاني بسببك وذلك أنه كتب<sup>(١)</sup> بمخبر قياسي لك في مجلس الوزارة وقال لي: نتبذل مجلس الوزارة بالقيام لتاجر!! ولو كان قيامك لاحد عمال الاطراف لكان محظورا بل لو كان لولي العهد لكان كتييرا» فقلت اعرف هذا يا امير المؤمنين ولكن حكايي مع الرجل ماذا استقرت بداره كيت وكيت . وقد قال لي وقلت له كيت وكيت . فقال اما الآن فقد عذرتك واما بعد ذلك فلا تعاود . فقلت نعم وانصرف . ومع هذا فقد بقي الوزير يحسن الى صديقه .

وكانوا يذهبون كل مذهب في الوسول الى اغراضهم من طريق الشتمات . وأخذت التوضيحات . ولكن كان بعض المتهورين لا ياتي تروير كذب على اسان الوزراء لاحل نبل الأمانة وقضاء الوطر . ورووا في ذلك حكايات عمدة :  
منها ما حكاه القاضي ابو الحسن بن عباس . قال : رأيت صديقاً عالماً جالساً على زورق مربوط بحجاب حمر بغداد على نهر المدحله في يوم ربيع سديده . وهو يكتب فقلت له ويحك!! أي مثل هذا الموضع! ومثل هذا الوقت! فقال أريد ان أزوتر كتاباً على رجل مرتعس الابدني . ويدي لا تساعدي . فعمدت الحلوس ههنا لتبترق الزورق بالموج في هذه الريح فيسيء حظي مرتعسا يتسه خطه .

ومع هذا التدياس والروير الذي كان يقع في تقليد الوظائف كانت الوزارة وكبار القضاة يتسدون في انقضاء العمال وبتدول الوسع في البحث عنهم : فكانت القضاة مثلا لا يقبلون شهادة كل أحد . فهم يعينون من قبلهم اصحاباً مكرهين لتبهم . ويعلمون أنه من أراد ان يعتقد عقداً من عقود المبيعات وسائر المعاملات فعليه ان يشهد احد هؤلاء : امثلاً يشهد غيرهم فلا يكون مكره عدلاً . وتسمى هذه الطائفة المعينة للشهادة بالشيود والعدول . ولكن ما أسد عناية قضاة ذلك الزمن بانتخاب هؤلاء العدول .

قال ابو القاسم الهاتمي : قيل لناخي ابو عمر سهادتي وأعلن اني من العدول . ثم بعد ذلك حلوت به مره . فجاء ذكر الملاهي . فقلت : ان فلاناً يضرب بالرباب

(١) اي انه كان للجانبة في مجلس الوزير عيون وجواسيس يقولون اليه الاخبار حتى جبرها تاسة الوزير وحفاوته بصديقه . وكان هؤلاء الجواسيس يسمون (اصحاب الاخبار)

فصاح قائلاً : هو ذا تهبأ بنا! هو ذا نتمس<sup>(١)</sup> علينا! ما هذا الكلام؟ قلت ما الخبر  
أيّدالله القاضي؟ قال : نقول ( يضرب الرباب ) كأنك لا تعلم ان الرباب يُجرُّ  
جرّاً ولا يُضرب ضرباً ( يعني انك تنظاها أمامي بورعك وانك لاتسمع الملاهي ) .  
فخافت له بأيمان مغلظة أي ما رأيت الرباب قط . فقال : ان هذا آفة وسبيل  
الصالح ان يعلم طرق الفساد ليحنبها على بصيرة لا على جهل<sup>(٢)</sup> . قال فعدت الى داري  
وقلت لسائس دابتي : ويا لك! اطلب لي رباباً : فجاء به جره بين يدي . فاذا هو كما  
قال مولانا القاضي . يجرُّ جرّاً . ولا يُضرب ضرباً .

الى هذا الحد بلغ نظرم في الامور . ودقّتهم في ادارة الاعمال . فالخمس<sup>(٣)</sup>  
مثلاً كان يدور في الاسواق بنفسه ويهتم حد الاهتمام بافناء وظيفته .  
ولما تولى ( ابو التماسم الجهني ) الحسبة في البصرة قال المسنون من أهلها إنهم  
ما رأوا ولا سمعوا من بلغ مبلغه في ضبط العامة . ورفع الغش . وتفحص البضائع  
والامتعة . وتد طالب الناس بمطالبات صعبة . فانتشر له حديث جميل في البلد .  
وهية في قلوب العامة . ومما انفق له ان اجتاز يوماً في بعض السكك . وبين يديه  
أعدوانه . وكن هناك مؤذن يؤذّن . فتصارخ الناس الجهني الجهني !! فنتطّع  
المؤذن فرأه فقال : ( الحمد لله الذي لم يجعل لك عليّ طريقاً ولا بيننا معاملة ) .  
وأقبل على أذانه . اكن الجهني كان سمع قوله . فقال لرجاله خذوه الى الدار ( دائرة  
الحسبة ) ففجّح المسكين ونجح حيرانه . وذهبوا معه الى الدار . وتالوا للجهني : أمرت  
باحضار هذا المؤذن المسكين فاي طريق لك عليه؟ فلم يرد عليهم . والنفت الى  
المؤذن وقال : ( أريد أن تخاف لي انك لا تدخل المسجد بالنعل الذي تدخل به

(١) الخمس التاميس والحداع . (٢) على حد قول الشاعر :

( عرفت الشرّ لا انا - شر اكن لتوقيه )

( ومن لم يعرف الحق - ير من الشر يقع فيه )

(٣) وهو الذي يتولى الحسبة أعنى ملاحظة ما يقع في الاسواق من أمور  
البايعات والمكاييل والموازن والاسعار وحمل العامة على التزام الحدود الشرعية  
والادبية وتشبه هذه الوظيفة قديماً أعمال المجلس البلدي اليوم .

الكثيف . وان لا تؤذن الا بطهارة — «ولا نطلع الى الجيران من فوق المنارة» .  
فتضرع اليه المؤذن ان يعفيه من هذا الشرط . قال لا ! أو انك لا تؤذن . فما زال  
الجهمي به حتى حلف . فلما اراد الانصراف قال له : يا شيخ أعلمت ان لي اليك طريقاً ؟  
وان بيننا معاملة ؟ فقال : أخطأتُ أيدك الله ولا أعلم هذا . فقال : لا تعاود  
الكلام فيما لا تحتاج اليه . فان الفضول مضرة . والثرثرة معرّة .

نكن في مقابل هذه الشدة على الناس . والتشدد في ضبط العامة نجد من وزراء  
ذلك العهد وكبرائه كرمًا وسخاءً وتواضعًا وحياءً : فقد وقفت يوماً امرأة في طريق  
الوزير ( حامد بن العباس ) وشككت اليه الفقر ودفعت اليه قصة ( اي استدعاء ) فوقع  
لها فيها بمأتي دينار . ولما ذهبت الى ( الجهميد )<sup>(١)</sup> انكر المبلغ واستكثره ( لانه قريب من  
مئة ليرة وهي ترضى باقل من ذلك ) وراجع الجهميد الوزير . فقال الوزير هو ما ذكرت .  
لكنتي لما اردت ان اوقع لها بمأتي درهم جرى قلبي بمأتي دينار . ولن أرجع . فأعطها  
الدنانير . فأعطها اياها . وبعد ايام رفع رجل الى الوزير قصة . يقول فيها : إني وامرأتي  
فقيران . ومنذ ايام جاءني امرأتي بمأتي دينار نقول ان الوزير حفظه الله وهبها اياها .  
واخذت من يومئذ تستطيل عليّ وتكبر وتقول انها هي غنية وانا فقير معدم لا أصلح  
لها بعلا وكلفني طلاقها إذ لم يعد بطيب لها العيش ولا العشرة مع مسكين مثلي .  
فان رأى الوزير ان يكتب الى القاضي يأمره بجلب زوجتي وزجرها والنصح لها بطاعتي  
فعل . فضحك الوزير ثم وقع له بمأتي دينار أخرى . وقال له الآن صرت غنيًا مثلها فلم  
يعد حاجة للقاضي . فاستلم الرجل دنانير الذهب . ثم ودع القوم وذهب .

( المغربي )

—>o<—

(١) كلمة فارسية كانوا يربدهن منها ما نريده نحن اليوم بكلمة الصراف

## مصانع الشام<sup>(١)</sup>

« منذ عرف التاريخ »

ان قطعاً كهذا القطر البديع ، تعاقب الحكم عليه الحثيون والمصريون والبابليون والاشوريون والفرس والفينيقيون والاسرائيليون والرومان واليونان والعرب والترك والنتر والجر كس ، وأعجب الفائحون بخيراته ، واغتنبوا بالاستيلاء عليه ، لموقعه الممتاز بين الاقطار والقارات ، فجعلوه محط رحلم ، ومجازاً الى فتوحهم ، لايسغرب منه اذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانها بسلامة الذوق ، وجودة الابداع ، وعظمة الباني . ان الشعوب التي انشأت مصانع البتراء « وادي موسى » وجرش وعمان ومادبا وبلبك وتدمر والرقة وأفاميا ودمشق وحلب والقدس كانت ذات معرفة بالهندسة لا نقل عن اهل هذا العصر بها ، لان ما شادوه صارع الايام وصرعها ، وبقيت منه هذه البقايا على كثرة ما تناولها من الهدم والتخريق بايدي المخربين من الظالمين والمظلومين ، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية .

يتناولُ بحثنا الآن آثار الشام قبل الاسلام وبعده . ونعني بالشام ما عرفه العرب من البلاد الممتدة من عريش مصر الى نهر الفرات ومن سفوح جبال طوروس او الدروب الى البادية . وتنقسم هذه المصانع قسمين : مدني وديني فالمدني كالقلاع والحصون والابراج والناور والمراسد والقصور والجسور والسكرور والاقنية والمواني والطرق والدور والقبور والمستشفيات . والديني كالمعابد والبيع والاديار والكنائس والجوامع والمساجد والمدارس والربط والخانقاهات والملاجي وما شاكلها . تتكلم على الهندسة المتبعة في هذا القطر السعيد اجمالاً بحسب ما انتهى اليها من كتابات العرب والافرنج . ولا نستفيج الاحيث بعم الاستنتاج ، وندعم القول بصوص العلماء من اهل

(١) ألفت في ردهة المجمع العلمي يوم ٢٩ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

الانحصاء في العاديات والبناء ، ونقف عند حد ما رسموه لانهم المرجع وعلى كلامهم الفتوى .

لم يحدثنا التاريخ والحثيون والاسرائيليون من أقدم الشعوب السورية انه كان لهاتين الامتين هندسة خاصة ، بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الاشوريين اصول بنائهم وليس فيه ما هو خارق للعادة في اشكاله ووضعه ، بل هو محرف عن الطراز الاشوري تحريفاً مهزجاً . ولم يتمكن الاثريون الى اليوم من العثور على عاديات حثية حقيقية ليقفوا حق الوقوف على اصول هندستهم وبنائهم . وما اكتشف من هذا القبيل من الصور النصفية وغيرها لا ينم عن ذوق سليم ولا عن إبداع في حسن الهندسة .

ولقد انشأ الحثيون قلعة لهم على الفرات في كركيش ( جرابلس ) بقيت حسكة في حلق نينوى الى نحو سنة ٧١٠ ق . م حتى استولى الاشوريون عليها وكانت هندسة مصانعهم على مثال مصانع الاشوريين والبابليين مقتبسة اقتباساً رديئاً لا تخلو من جفاء وسذاجة .

وبنو اسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم ومطعمهم ، سوى آ نار ضئيلة ساروا في صنعها على تقليد الاشوريين والمصريين ، وقلدوا المصريين في الاكثر لقرب فلسطين من مصر ، بل لان مصر استولت زمنياً على فلسطين . وأهم ما بقي من آثارهم معبدهم في القدس او معبد سليمان الذي جمع اليه الصناعات والمهندسين من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ١٠١٣ ق . م وقد حرق هذا المعبد فرم غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ ق . م ولما عاد اليهود بعد اثنتين وخمسين سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الاول في الجملة وكانت دثرت محاسنه الاولى ثم وقع ترميمه في ادوار مختلفة ولم يُصب هذا المعبد باذى على عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المقدوني في الشام ولا في زمن بومبيوس الروماني لانه كان من عادة اليونان والرومان ولا سيما الرومان ان لا يقاتلوا الامم التي يدخونها على اربابها . وربما اقتبسوا من غلبهم على امرهم عباداتهم من غير تكبير .

وسع هيرودوس ملك اليهود الذي نصبه الرومان معبد سليمان ، وانتهى على عهد

نيرون ، وكان عمل فيه الف كاهن والوف من العملة دهرأ طويلاً . وقد قيل ان سليمان خزن من غنائه لبناء معبده مئة الف وزنة من الذهب ومليون وزنة من الفضة فُدرت بسكة زماننا بثمانئة وتسعة وثمانين مليوناً ونصف مليون جنيه ، وذلك ما عدا الحديد والنحاس والحشب فكل بناؤه سنة ١٠٠٥ ق . م وكان نجر أورشليم واجمل بناء في العالم . وقد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السواري اي العمد فادار الملوك المتأخرون هذا الرواق حول جميع البناء وبقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة الى ان خربه ملك بابل . والهيكل الذي رمه هيرودوس في محل الحرم الشريف تحيط به عدة دور منها دار الامم وهي الدار الخارجية ثم دار النساء ثم دار اسرائيل ثم دار الكهنة ثم الهيكل . وهدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠ م ولا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون يتقنون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد وكان غاصاً بالحشب الثمين الذي جيء به من ارز لبنان وغيره ومموهاً بالذهب والفضة ومحلىً بالعاج والاحجار الكريمة وفيه من الاواني الثمينة والمدى والاحواض وادوات البيوت ما صحح ان يعدّ خلاصة علم الفينيقيين بال صنايع والفنون النفيسة . والفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل ولا غرو فمدينة صور مسقط رأس أقليدس المهندس كما ان دمشق مسقط رأس بولودر المهندس الذي اقام عمود تراجان في رومية وبني حسراً هائلًا على الدانوب ( الطونة ) . هذا مع انه لم يشتهر الفينيقيون بانهم عنوا بالبناء والهندسة عنسايتهم بالريج والكسب وارتياق القاصية ، وكانوا كالاسرائيليين والكنعانيين والحثيين ينقلون هندسة مصانعهم عن الاسور بين والمصريين . ولقد اعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب التجارية التي اقامها الفينيقيون في سواطي يونان وايطاليا وصقلية وغاليا وابيريا وافر بيقية ، بيد ان هذا الشعب لم يحلف من آثار مدينته ادنى ما حلفتة الشعوب القديمة . وربما كان الباقي منها بل ما نبت قيامه على عهد حضارتهم ، اقل مما خلفته تدمر والبتراء . ولم ينبت ان بقي للفينيقيين معبد من معايدهم الى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ .

اما آثار الفينيقيين المدنية كالحصون والقبور وغيرها فان الباقي من اساس حصن صور الذي اعجز اقتحامه قدماء الفساحيين كسراغون وبخنصر والاسكندر لا يدل

على كبير امره ، وقد بنى الاسكندرز بين البر والجزيرة فيها سده الغريب ، وكان بناء صور الى عصر ابن بطوطة « ليس في الدنيا اعجب واغرب شأنًا منه » وقال ابن جبير : انه يضرب المثل بمصانئها وذلك انها راجعة الى باين احدها في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها من جهة واحدة ، فالذي في البر يفضى اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالبواب ، اما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين الى ميناء ليس في البلاد البحرية اعجب وضعًا منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدها من الجانب الآخر جدار معقود بالحصن . ولا يزال سور بانياس بين طرطوس واللاذقية قائمًا ولكن لا يعرف اذا كان من صنع الفينيقيين او البلاسجيين لانه اشبه بعمل البلاسجيين سكان ايطاليا ويونان القدماء . وهكذا يقال في اسوار بيروت وصيدا وجزيرة ارواد وعمريت ومعبد هذه على رأي رنان اقدم معبد بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذي بقي من آثار العنصر السامي اما قبور الفينيقيين فهي ام ما اكتشفت في بلادهم ، وكلها انقرضت في الصخر وهي مثلها في بلاد يهوذا والعرب ، اي عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها النواويس لأسرة برأسها . والقبور التي ظهرت في عمريت هي ام ما عرف من نوعها وكذلك ما ظهر في جبيل وصيدا ولا سيما النواويس الاربعة التي وجدت في هذه المدينة ولا تزال محفوظة في متحف الاستانة .

قلنا ان المصريين والاشوريين ادخلوا ايام استيلائهم على فينيقية عاداتهم واصول هندستهم ومصانعهم وكل ما هو من خصائص مدينتهم ، فكانوا اساتذة الفينيقيين ولكن هؤلاء لم يحسنوا التقليد ، وعلى عهد الاسكندر فقط دخل في البلاد روح جديد في البناء اي اصول الهندسة اليونانية .

ولقد يبحث الاثريون في فلسطين عن المعاهد الدينية في الاكثر وامتدوا في حفر ياتهم الى بلاد العرب للعثور على مدينة يعتقد بها سبقت الرومان واليونان ، وكل ما عثروا عليه تافه في الحقيقة . وقد تبين لهم ان الهيوت كانت كقصور الملوك تحتوي على دائرتين : دائرة الرجال او الثوي وهو المكان المبعد للضيف « السلامك » ودائرة الحريم شأن قصور الشرق الاسلامي لهذا العهد . وما قصر هر كان في عراق

الامير، وحصون القدس، وبرج انطونينا، الا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية .  
 ونقل في فلسطين وشمالى غربى بلاد العرب القبور التي يرد عهدها الى الزمن الذي  
 سبق العصر اليونانى . وقبور مدائن صالح التي نحتت في الصخر، لا يستدل منها الا انها  
 مثال من امثلة البناء الاشوري . وقد اختلف الظنون في هذا الشأن والاثريون  
 يوالون حفرياتهم ليكشفوا شيئاً يستدلون منه على مدينة اقدم امة نزلت  
 الارض المقدسة .

\*\*\*

وأقيمت عدة انصاب في الشام للملوك الرومان منها ما عثر عليه الاثريون فقد ذكر  
 وادنكتوت كتابة وجدها في السويداء كأنها كتبت تحت نصب اقيم لاحد ملوك  
 الرومان فيه « للملك اليوس قيصر ادريانوس انطونينوس بهوس العاهل » ووجد مع  
 كتابة في قرية ام الجمال في حوران كتب فيها « للعاهل القيصر مرقس اورليوس  
 انطونينوس اغسطس فاهر الارمن والبرتبين » . ولهذا القيصر كتابة أخرى في  
 سهوة الحضر من جبل حوران وأخرى في التهبة المسماة فيليبولي نسبة الى الملك  
 فيلبس العربي ووجد في السويداء ايضاً كتابة يونانية مؤذنة باقامة اثر تكرمه للملك  
 كومود اقامه له دوميتيوس بروكستر والى العربية ذكره جلب الماء الى المدينة  
 وضواحيها سنة ١٨٧ ووجد في جنوبي اللاذقية على مقربة من عدوة النهر الكبير كتابة  
 تدل على محطة عسكرية . وفي دير القلعة في لبنان على الصخر الذي في جانب البئر  
 كتابة فيها « بسلامة مولانا القيصر لوستيوس سبتيموس ساو يروس برتينكس اغسطس  
 اقام هذا النصب بومبايوس انجيوس نذراً للمشتري .

وبعد فان البحث في مصانع الشام وحدها يحتاج الى مجلد قد يضطر مؤلفه الى ان  
 يرمي الكلام على عواهنه لصعوبة الحكم على كل اثر بعينه ونسبة كل بناء الى الامة  
 التي اقامته وكل واحدة منها تركت على الاغلب اثرًا مخلصاً متلاً تفاخر به . فالطرق  
 الرومانية التي أنشئت من القدس الى بلاد النبط جنوبي بحيرة لوط ومن شمالها وطريق مادبا  
 الى البتراء والعقبة حتى الحجر الاحمر وطريق جرش — وادي موسى والطريق الملبط  
 شرقي صرخد الممتد الى العراق وكان يسمى بالزصيف هي من الآثار المعجمة كالمسك

الروماني في أذرح قرب معان وآثار قتوات وشبهة وسالة. ودامية العليا ولبن .  
 عدت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها ومنها الهياكل  
 الجلييلة والدور الفخمة والاندبية والمجالس والقصور والحمامات والمسارح والمدافن  
 والمسلات وقد رأى فيها دوماً زفسكي آثار الهندسة المصرية واليونانية والرومانية  
 والسورية . واهل البتراء عرب من النبط شيدوها حوالي القرن السادس ق م  
 وارتقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين الى ان زاحمتها تدمر في القرن الثالث للميلاد .  
 ومن اجمل ما في وادي موسى اليوم خزنة فرعون وهي دار الحكم نقرت في الصخر  
 وجعلت ثلاث قاعات وبهواً . ومن مفاخرها الملعب العظيم المنحوت في الصخر قطره  
 ١١٧ قدماً وفيه ٣٣ صفاً من المجالس يسع من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ من المنترجين ولكن  
 الملعب الروماني في عمان اي ربة عمون هو اكبر الملاعب في الشام وهو مركب من  
 ثلاثة مراتب جعلت المرتبة الاولى خمسة صفوف من المقاعد والمرتبة الوسطى اربعة  
 عشر صفاً من المقاعد والمرتبة الثالثة ستة وعشرون صفاً من المجالس وهو يسع اربعة آلاف  
 ناظر ايضاً . وفي اسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الأُسود والنمورة والتاسيح .  
 ويرد تاريخ ارتقاء جرش الى القرون الاولى للمسيح وتاريخ بنيتها الى امبراطرة القرنين  
 الاول والثاني وهي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني حتى في الاصقاع البعيدة .  
 وكانت جرش من جملة المدن المهمة للغاية من بين مدن بلاد العرب وعمدها الماثلة  
 للعيان ومنها ما بلغ طوله ١٤ متراً وقطره خمسة اقدم وملاعها وهياكلها وساحتها  
 وحماماتها تذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض البلاد المهمة التي تولوا الحكم عليها .  
 وصف شيخ الربوة خرائب جرش وعمان في القرن الثامن بقوله : « ذكروا ان بدمنة  
 مدينتي عمان وجرش بالشام ملبين ، فاما جرش فمنها تلال وجبال وحجارة منقولة ،  
 وبعض بناء ابوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعاً ، وبهذه الدمنة موضع كهورة  
 نصف دائرة مقطوعة بمحائط وذلك الحائط به مجلس للملك ، واما النصف المستدير  
 فانه مدرج درج بعضها فوق بعض ، وهي دوائر وكل دائرة فوقانية اوسع من السفلى ،  
 وبين هذه الدرج الدائرة ابواب ومسالك وكل درجة وعليها مرتبة من الناس وكلهم  
 ينظرون الى الملك وهو ينظر اليهم كلهم لا يجحجون عنه ولا يجحجج عنهم في ذلك

المجلس وكانما هو ليوم الحكم العام فقط ، و بالقرب من هذا الملعب ايضاً ملعب وفيه عمد طوال قائمات وفي كل منهن بكرة وهن مستديرات المراكز كصورة دائرة وكانما كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود الى عمود وفوق ذلك ابنية لاهلها وآثار شاهدة ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين الا بمدينة بعلبك وبباب البريد بدمشق اه» .

وذكر بعض الاثريين ان مدينة تدمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة حتى اصبحت في اوائل النصرانية احدى المدينتين اللتين جمعنا بين تجارة اوربا وآسيا واعني البتراء وتدمر . قال ياقوت واهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليه السلام باكثر مما بيننا وبين سليمان ولكن الناس اذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه اضافوه الى سليمان والى الجن . قلنا وكان القدماء يعتقدون ان بعض مدن ساحل سورية بناها الآلهة قال المعري :

وقد كانت ارباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن  
وقال النابغة الذبياني :

الا سليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحدها عن الفند  
وآخيس الجن افي قد امرتهم يبنون تدمر بالصَّفاح والعمد  
وقد كان من جملة التصاوير التي بتدمر صورة جارتين من حجارة من بقية  
صور كانت هناك فربها اوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر اوس الذي في البصرة  
فنظر الى صورتين فاستحسنهما فقال :

فتاتي اهل تدمر خبراني  
قيامكما على غير الحشايا  
فكم قدمر من عدد الليالي  
وانكما على مر الليالي  
وقال محمد بن الحاجب يذكرها :

اتدمر صورتاك هما بقلبي  
افكر فيكما فيطير نومي  
غرام ليس يشبهه غرام  
اذا اخذت مضاجعها النيام

اقول من اتعجب اي شيء  
 املكنا قيام الدهر طبعاً  
 كأنهما معاً قرنان قاما  
 يمر الدهر يوماً بعد يوم  
 ومكثتھا يزيدھا جمالاً  
 وما تعدوها بكتاب دهر  
 اقامها فقد طالب القيام  
 فذلك ليس يملكه الانام  
 ألجها لدى قاض خصام  
 ويمضي عامه يتسلوه عام  
 جمال الدر زينه النظام  
 سجيته اصطلام واخترام

وقد اقام الرومان بين دمشق وتدمر الى الفرات اثنتين وخمسين حصناً او قلعة  
 بعد كل منها عن الاخرى ثلاث ساعات ولا شك في ان الحرس الروماني كان  
 في بعضها وبنى الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى ودمشق ليأمنوا عيث  
 البادية وبعد ان فتحت الزبء او زينب او زونبا سلطنة تدمر المشهورة القطر المصري  
 عمرت الابنية التي جلبت اليها الامم من اقطار الارض ولا سيما اليونان وما كان من  
 الامبراطور اورليانوس الروماني الا ان داهمها سنة ٢٧٢ وخربها وبعثرابيتها وقوض  
 هبا كلها ودك اسوارها وهدم قلاعها فاصبحت كأن لم تكن بالامس الى ان جاء  
 بوستينيانوس سنة ٥٢٧ فجدد بناء الاخرية وشيد ابنية أخرى فيها وجعل لها سوراً ثم  
 سطت عليها الزلازل كثيراً وما يرى اليوم من الاثر الضئيل الباقي من عادياتها شاهد  
 على ما كان هناك من عمران ممتد الرواق وما استخرج ولا يزال يستخرج من ارضها من  
 التماثيل والانصاب والشواهد يدل على فضل ذوق وحسن هندسة وقد كان لهؤلاء  
 الرومان اغراب كما قال الثعالي في خرط التماثيل والابداع في عمل النقوش  
 والتصاوير حتى ان مصورهم يصور الانسان ولا يفادر شيئاً الا الروح ثم  
 لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكاً ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الثامت  
 وضحك الخجل وبين المتبسم والمستغرب وبين ضحك المسرور وضحك الهازي فيركب  
 صورة في صورة وصورة في صورة ٠ او كما وصف الارجاني شبذير وعلى مثل هذه  
 التماثيل يصدق وصفه :

ومن كل انواع الانام مصور  
 ومجلس انس يفسح الطرف ملؤه  
 شباب وشمط يمرحون وشيب  
 قيان تغني وسطه وشروب

وصرعى وقتلى في قتال عساكر  
فمن جانب اصحمت تصب مدامة  
خليطات هذا للقرع معبس  
وقد حققوا التصوير حتى وجوههم  
وكل يماني شغله غير انه  
ملاعب فيها الملك رام بطرفه  
وعاشوا طويلاً ثم فرق شملهم  
فلولا مكان الدين قل لفقدهم  
ملوك اقاموا ما اقاموا اعزة  
وخيل للرأي ليذكر عهدهم  
خيال لهم يهدى الى كل امة

\*\*\*

وان بقايا هيكل الشمس او المستري وهيكل الزهرة وهيكل باخوس ودار المذبح  
او البهو الكبير المائلة الى اليوم في قلعة بعلبك لا كبر دليل على ارتفاع فن الهندسة حتى  
في العصور التي سبقت الرومان واليونان . وفي بعلبك هيكلان كبيران طول اصغرهما  
٢٢٥ قدماً وعرضه ١٢٠ قدماً وكان محاطاً باعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها  
٤٥ قدماً وطول هيكل الشمس ٣٢٤ قدماً وكان محاطاً باربعة وخمسين عموداً يبلغ  
قطر الواحد منها ٧ اقدام وعلوه من قاعدته الى قمته ٨٩ قدماً وقد بلغ طول بعض  
الحجارة المبني منها الهيكل ٦٤ قدماً وسمكه ١٢ نالوا وكانت هياكل بعلبك تضاهي  
هياكل اليونان بعظمة بنائها ولكنها دونها بالترتيب والزخرفة .

قال شيخ الروبة وبقلعة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعاً وهو من  
كل جهة ثلاثون ذراعاً وسقفه حجر وفي وسط السقف نسر حجر فارس اجنحته وسيفه  
اربع قرن السقف اربعة اصنام واسماؤها ودّ وسواع و يغوث و يعوق و بمقطع الحجارة  
حجر رابع للثلاثة التي بالقاعة متروك الى وقتنا هذا والى ما يشاء الله منال للناس يعني ان من  
هنا حملنا الاحجار الثلاثة المبنية بالقلعة — وهو الحجر المعروف اليوم بحجر الجبلى —

و بالحصن أيضاً عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعاً وفي الارض منها نحو اربعة اذرع  
 ودوره نحو ذراعين واكثر وعددها نحو ستين عموداً وكان على رؤوسها عتبات وفوق  
 العتبات البناء المحكم ١٠ وان آثار بعلبك بما فيها من العمدة الضخمة ومنها من النوع المعروف  
 بالمحبيب الذي جلب من بلاد السودان على ما يظهر وما جاء عليها من القرون ولم ننته  
 تدل دلالة صريحة على ان كل هذا من صنع الرومان وبايدي مئات الالوف من العملة  
 المتخزين المتعبدين وهكذا قامت جميع آثار الرومان بارهاق الانسان للانسان .

و يصدق على قلعة بعلبك في الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادي في اهرام  
 مصر انها صبرت على عمر الازمان بل على عمرها صبر الزمان ، فانك اذا تجررتها وجدت  
 الاذهان الشريفة قد استهانت فيها والعقول العافية قد افرغت عليها بمجهودها  
 والانس النيرة قد افاضت نلها اشرف ما عندها لها، والملكات الهندسية قد اخرجتها  
 الى الفعل مثلاً هي غاية احكامها حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالم ولنطق  
 عن علومهم واذهانهم وترجم عن سيرهم واخبارهم . او ما قاله في براني مصر : فالحكاية  
 عن عظمتها واتقان صنعتها واحكام صورها وعجائب ما فيها من الاشكال والنقوش  
 والتصاوير والخطوط مع احكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر .  
 ومن اجل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة :

خرب حارت البرية فيها	فئنة السامعين والنظار
معجزات من البناء كبار	لاناس ملء الزمان كبار
البستها الشمس نفويف در	وعقيق على رداء نضار
وتحلت من الليالي بشاما	ت كنه يقط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع	شربتها ظلومي الانوار
زدها الشيب حرمة وجلالاً	توجتها به يد الأعصار
رب شيب اتم حسناً واولي	واهن العزم صولة الجبار
معبد للاسرار قام ولكن	صنعه كان اعظم الاسرار
مثل القوم كل شيء عجيب	فيه تمثيل حكمة واقنصار
صنعوا من جهاده قرأً يجب	خى ولكن بالعقل والابصار

وضروباً من كل زهرانيق لم تفتها نفسارة الازهار  
وشموساً مضيئة وشعاعاً باهرات لكنها من حجار  
وطيوراً ذواهباً آهيات خاللات الغدو والايوبكار  
في جنان معلقة زواه بصنوف النجوم والانوار  
وأسوداً يخشى التحفز منها ويروع السكوت كالنزار  
عابسات الوجوه غير غضاب باديات الاياب غيرضواري  
في عراقينها دخان مثار وبالحاظها سيول شرار  
تلك آياتهم وما برحت في كل آن روائع الزوار  
ضمها كلها بديع نظام دقّ حتى كأنها في انتشار  
في مقام للحسن يعبد بعدال -عقل فيه والعقل بعدالباري  
منهى ما يجاد رسماً وابهى ما تحج القلوب في الانظار

هذا اجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار وهندستها ومن أم آثارها انطاكية التي بناها انطيوخوس واكمل زخرفها سلوقس سنة ٣٠٠ ق م وكان فيها عجائب من الهندسة اليونانية .الم يكتب ليونان ان تعمل مثله في ارضها ولولا ان الزلازل تحيبتها سيفي ادوار محتلثة لكانت اليوم من أم ما يقصد للزيارة . وكانت انطاكية عاصمة الشرق ايام اغسطس قيصر كما كانت رومية عاصمة الغرب . ومن يدخل انطاكية ويذكر ما كان فيها من القصور والدور والمعابد والهياكل والحمامات والاقنية ودور التمثيل يبكي لبلد انقعت الآفات السماوية والارضية على تخريبه ولم يبق من عظمتها التاريخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة .

ومن جملة آثار الهندسة الرومانية او اليونانية بحيرة قدس او خزانات حمص وقناة سلمية وجسر قنوات وآثار سبسطية ومنها مصانع حلب وهي صورة تامة من نشوء الهندسة وقد غنيت هذه المدينة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية والدينية والمدنية وما يبرح معظمها بحاله . ومن أم ما في شمالي سورية ملمعب أفامية ( قلعة المضيق ) وملمعب دفنة وكان فيها معبد ابولون رب الشمس والنور والصنائع والآداب والطب عند قدماء اليونان ونصب فيها برياكسيس المهندس الاثيني تمثالاً للرب

اشتهر بين العارفين بالصنائع الجميلة وهو قابض بده على قيثاره وقد صورت صورته على نقود انطاكية وفيها معبد ديان والزهرة وغيرها من الارباب . ومن اهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذي كان يجرقها من الشرق الى الغرب اي من الباب الشرقي الى باب الجابية وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبه رواقان من العمد وهو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور والحوازيت وكانت مقسوماً الى ثلاثة اقسام الوسط للدواب والمجلات والرصفان بجانبه للذاهبين والجائنين والباب الشرقي اليوم على مايرى هو احد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك ان الشارع لم يكن عرضة اقل من خمسة وثلاثين متراً .

ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران واحصن مدن باشان ومعقل الرومان شرقي الاردن شاهدة بما كان في تلك المدينة من الفخامة والعظمة وكان طولها داخل السور كما قال بورتز ميلاً وربع ميل وعرضها ميلاً ويحيط بالسور ريبض كبير المباني ومحيطها خمسة اميال لها سور عالي الجدران ونيق البنيان وقلمة لاحصن منها في عامة بلاد الشام ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه وشوارع رجة وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة وبدائع البناء والاسباب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابج وركام الانقاض وبهوت الاقدمين وقوس نصر أقيم لقائد فيلبس الذي صار امبراطوراً وهو من اهالي بصرى والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدماً وهو مكسوف من الاعلى . مثل كل المشاهد الرومانية وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس او عشرة مساجد عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات واقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة وبعضها ما يصلح ان تزدان به اعظم عواصم اوربا الآن .

ولقد شوهد في معظم المدن التي بناها الرومان في هذه الديار وفي غيرها انها متشابهة في مرافقها الا قليلاً ففي كل مدينة ساحة عامة ( فوروم ) وما يتبعها من المرافق ومعبد الكابول او معبد المشتري وجونون ومينرفا ( ربة الحكمة والفنون والحرب ) وكانت في المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية في مدن اوربا الحديثة وفيها اسواق ذات نضائد من الحجر وفوارات ومقاسم ماء ذات اقنية لا تزال ترى

الى اليوم آثارها ومراحض عامة وخاصة واما كن للاستحمام فيها مغاطس باردة وحرارة وبهوت للتعريق وقاعات للرياضة والمخادنة ومماش للنزهة وافران واقواس نصر وابواب تغلق ليلاً ودور تمثيل لا يزال في أكثرها مصاطبها المدرجة ومساكن خاصة .

ومن أهم الآثار في سورية جسر المعاملتين وجسر جبل بين البلدة ومدافنها القديمة ومنها قناتان تمتدان بين نهر الكلب وجونيه والثانية القاة الكبرى التي كانت تنقل مياه الجبل الى بيروت وهي من عجائب الآثار القديمة . ومنها هيكل دير القاعة بالقرب من بيت صري في لبنان وهيكل افقا عند منبع نهر ابراهيم وهيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذهبان في سفح جبل صنين وفي لبنان هياكل رومانية أخرى كهيكل بزيروناوس في جهات اميون قرب طرابلس وتماتيل كثيرة .بعثرة وفي البتروف حصن منيع وملعب . وفي بيروت مسرح ومن قلاعهم قلعة صربا وفقرا ويحمور ومن اجمل حماماتهم حمام شهبه الذي يذكر بخرائبه الفخمة كما قال ري بحمامات كراكالا في رومية وكنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في رومية قال ولا شك انها اجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع بلاد حوران .

\* \* \*

لما انتشرت النصرانية في هذه الديار اخذ من دابواها في بناء الكنائس والاديار على اسلوب الابنية القديمة ومالت الهندسة السورية الى السداجة واجتناب كل زينة زائدة لتؤثر بمتانة البناء المعمول بالحجارة الفخمة وجمال الحجم وترتيب الاجسام . وقد نشأت بين القرن الرابع والقرن السادس للميلاد في الشام هندسة متينة راقية مختلفة عن الهندسات الاخرى تعرف حالتها من خرائب المدن العديدة في سورية العليا وحوران . قال جلابرت : ومن المصانع المنوعة في الهندسة السورية شيتان يلفتان النظر خاصة وهما البيع والابنية ذات السطوح وكان المهندسون السوريون فيها عالة على الشرق ويسترشدون بأراء مهندسي فارس وقد أثرت الهندسة السورية اذ ذلك في هندسة كتير من الامم ولا سيما في بيزنطية واخذت بيزنطية من سورية او من طريق مصر عن سورية اصول كثير من الابنية . وقال ايضاً والحق يقال

ان في سورية الوسطى مجالاً واسعاً للأبحاث العلمية ودرس العاديات فان فيها ما لا يحصى من الابنية العادية كالمهاكل الوثنية والكنائس المسيحية ودور الخاصة والاندية الممومة من اواخر القرن الاول قبل السبع والقرن السابع للبلاد ولاكثرها كتابات تاريخية تزيل الريب في زمانها وهذه الآثار نثوالى سنة بعد سنة حتى لوجعلت على سباق متواصل لما وجدت عشرة اعشار من السنين خالصة من آثار او آثار حجة ومجمل رأي بوتلر احد اعضاء البعثة الاميركية التي بحثت في آثار سورية الوسطى بين عامي ١٨٩٩ - ١٩٠٠ بعد معاينة كل هذه الآثار المتعددة واتخاذ اقيستها وتدوين رسومها انه كان لاهالي شمالي سورية الوسطى هندسة قائمة بذاتها مبانة لفن البناء الذي اشاعه الرومان في سورية وهو بناء قد يدعى بالطرز السوري لا اثر فيه للطرائق البنائية الرومانية والشرقية المحضة لكن له علاقة ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في انطاكية وهذه العلاقة اُبين وأظهر في اول استعمالها ثم امتزجت به على توالي الاجيال عناصر شرقية حتى نجم اخيراً عن اختلاطها طرز مركب شاع في القرون الاخيرة . واذا حولت رائد البصر الى الجنوب وامعنت النظر في ابنية حوران وجدت طرائقها البنائية مختلفة اختلافاً عظيماً عن الهندسة الشمالية نعم ان فن البناء الروماني ليس يمتثل على ابنية تلك الانحاء الا ان آثار نفوذ الفنون البنائية الشرقية اوفر واعظم وبذلك قد تألف طرز وطني سبق عهد دخول حوران في اقليم سورية مع مبانة للطرز اليوناني الذي ادخله السلوقيون .

\* \* \*

عدّ ابن خرداذبة من عجائب البنيان ملعب فاميه وتدمر وبعلمك ولدّ و باب جيرون قال والروم نقول : ما من بناء بالحجارة ابهي من كنيسة الرها ( اورفة ) ولا من بناء بالخشب ابهي من كنيسة منبج لانها بطاقات من خشب العناب ولا بناء بالرخام ابهي من قسيان انطاكية ولا بناء بطاقات الحجارة ابهي من كنيسة حمص . وبيعة القسيان في انطاكية هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على اساطين وكان بدور الهيكل اروقة يجلس عليها القضاة للحكومة والطلبة للدرس وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً اثني عشرة ساعة ويعد

اعلاه خمس طبقات في الخلمسة منها حمامات وبساتين ومناظر حسنة تحرق منها المياه وهناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجرع . وكنيسة حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة وهي احدى عجائب العالم . ومن العجائب آثار عسقلان واشتهرت الشام بطراييلها اي صوامعها وكان في الشام اديار كثيرة ذكر بعضها ياقوت منها دير باعنتل من جوسية على مرحلة من حمص وفيه عجائب منها أزج - بيت بني طولاً - فيه صور الانبياء محفورة منقوشة فيها وهيكل مفروش بالمرمر وصورة مريم في حائط منتصبه كما ملت الى ناحية كانت يمتها اليك . وبظاهر انطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد وكان له من الارتفاع في كل سنة عدة قناطير من الذهب والفضة . وكان دير مران المطل على دمشق من جهة حدائق الصبار مبنياً بالجص وأكثر فرشه بالبلاط الملون وهو دير كبير في هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني وفي الجبل المشرف على كفرطاب قرب معرة النعمان دير آخر اسمه دير مران وبقراب المعرة دير النقيرة . ودير مار مارون شرقي حماة وشيزر كان ذا بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة كان فيه من آلات الذهب والفضة والجواهر شي لا عظيم .

قال ابن بطريق : ان كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلونها ويسكنون فيها . وفي الشام اديار وبيع كثيرة لم يحدث التاريخ عنها الا اجمالاً . ومن اهم الكنائس كنيسة القيامة بالقدس وكنيسة بيت لحم ومنها كنائس الناصرة وفي لبنان اديار كثيرة قديمة واقدمها على الغالب لا يرتقي الى اكثر من مائتي سنة تراها كما قال لامنس اشبه بيوت القرى لا تختلف عنها الا بسعتها وليس لها طرز هندسي وكان للبنان في القديم طريقة هندسية لبناء كنائسه الا انها دثرت والنقوش والتصاوير فيها كلها من الشكل البيزنطي . وقال ابن الهندسة والتصوير والنقش وفنون الزينة اخذت تسير في طرق مستقلة عن النموذجات اليونانية والرومانية التي كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة في جميع الصنائع النفيسة وانشأ المهندس السوري يرفض استعمال الملاط بين الاجمار ويكتفي بحصن وضعها على صورة متوازنة تقوى بها بدون لحمه بين اجزائها واستعاض عنها الاجر المؤلف على عهد الرومان واليونان

بالحجر النخيت وبنى الكنائس ذات قباب فكثرت في البلاد البيع البديعة التي يعجب  
بجزائها العظيمة اليوم الاثريون وعنها اخذ بناء الكنائس الرومانية .  
ومن الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير  
في القرن السادس ان لها عند الروم في دمشق شأنًا عظيمًا وليس بعد بيت المقدس  
عندهم افضل منها وهي حفيظة البناء ننضم من التصاوير امرأ عجيبًا نُهبت الافكار  
وتستوقف الابصار ومرآها عجيب . وليس في دمشق الآن كنيسة اقدم من ستين  
سنة لانها حرقت كلها في حادثة سنة ١٨٦٠ م وكذلك لا ترى في حلب كنيسة  
يرد عهد بنائها الى اكثر من خمس وسبعين وفي الشام اديار كثيرة وبيع مثل اديار  
جبل الكرمل والطور واريحا وطبرية ودير الروم والروس وكنيسة الالمان في  
القدس ودير صيدنايا ومعلولا في جبل قلمون وكلها حديثة الا قليلاً ليست ذات شأن  
مهم وكذلك الحال في اديار شمالي الشام وسواحلها .

\*\*\*

كان العرب قبل الاسلام يختلفون الى بلاد الشام ينزلونها ويحجرون مع اهلها  
ويقنون المزارع والقرى فيها بل كان النبط وهم عرب هم الذين انشأوا آثار جرش  
والبتراء والغسانيون واليههم نسب آثار كثيرة في الشام الوسطى ومنها قصر النعمان  
ان المنذر في السويداء وفي حارب . وبنى جنة اول ملوكها جلق والقرية وعدة  
مصانع وبنى ابنه عمرو دير حالي ودير ايوب ودير الدهناء وبنى ثعلبة بن عمرو عقة  
وصرح الغدير في اطراف حوران مما يلي البلقاء وبنى جبلة بن الحارث من ملوكهم  
القناطر واذرح والقسطل وبنى الحارث بن جبلة وكان مسكنه البلقاء -- الحفير في  
البلقاء ومصنعه بين دجان وقصر ابيرو وبنى المنذر بن الحرث صربا ورزقا قريبا من  
الغدير وبنى جبلة بن الحرث قصر حارب وكان منزله بجارب ومحاربا زمنعة وبنى  
الايهم بن الحارث الاديار دير ضخم ودير النبوة وسعف وبنى عمرو بن الحارث قصر  
الغضا وصفاء العجلات وقصر منار وكان منزل جبلة بن النعمان بصفين وهو صاحب  
عين اباغ واصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة وكان بعض ملوك لخم خربها  
وكان الضجاعم قبل الغسانيين ملوك الشام وهم عرب ايضا . وحكم اللثوخيون شمالي

سورية قبل ان يجهشها جيوش العرب بقرون ولم نعرف للفجاجم والنوخين آثاراً تذكر . وآثار الصفا ولغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ وآثار بني سميذع العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك . قال البكري : ان اهل ثلاث بيوتات من العرب كانوا يتبارون في البيع وزيبها : آل المنذر بالحيرة وغسان بالشام وبنو الحارث بن كعب بنجران ويعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياح والمياه وكانوا يجهلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب . وقد نسب دوسو عدة ابنية في سيف البادية الى الفسائين . كتب ايليا بطريرك بيت المقدس الى انسطاس ملك الروم قد بعثت اليك بجماعة عبدالله ورؤساء رهبان برينتا وفيهم سابا الفاضل الذي قد صير برينتا مدائن واعمرها وهو نجم فلسطين . وفي سنة احدى وعشرين من ملك بوستينيانوس الملك ثار بفلسطين اهل السامرة وهدموا الكنائس كلها واحرقوها وقتلوا النصارى وعذبوهم عذاباً شديداً فاناد بوستينيانوس الكنائس وكتب الى عامله في فلسطين ان يعفي اهلها من الخراج ويعمر بها الكنائس والديارات وبنى بيارستاناً للغرباء في القدس

قال هوار : « ان القوافل عند عودتها الى الحجاز من سورية وقد سرحت الطرف في المصانع العظيمة على العهد الامبراطوري كانت تقص احاديث عجيبة مما رأت فأثربت النفوس تلك القصص وكان منها ان انشوا في صحاري شمال بلاد اليمن جنات النعيم وارم ذات العماد الغربية وقد بنيت في غالب الظن على مثال دمشق وتدمر وبعليك » . على انه من الثابت انه كان لحمير سكان اليمن الخضراء هندسة معمة قبل العهد الامبراطوري فان قصر غمدان في صنعاء من اعجب القصور انشاء ازال ابن قحطان بامر اخيه يعرب عشرين طبقة بعشرين سقماً بين كل سقف عشرون ذراعاً وجعل فيه مائة مسكن وكان اعلى غرفه مجرداً بالزجاج وقد بني على اربعة اوجه وجه احمر ووجه اصفر ووجه ابيض ووجه اخضر وقيل بني في داخله قصر على سبعة سقوف بين كل سقوفين منها اربعون ذراعاً وجعل في اعلاه مجلس بالرخام الملون وجعل سقفه رخامة واحدة وصير على كل ركن من اركانه تمثال اسد من شبه كاعظم ما يكون . فالامة التي تبني هذا كانت لها ولا جرم عناية بلغة بالبناء وبراعة في

تقديرها وهندستها وسواء اخذت العرب عن سورية الهندسة واخذ السور يون عن عرب الحيرة واليمن فان المهم ان يعرف ان العرب ليسوا كلهم بادية بل كان منهم من يشيد المدن امثال الجاهنين والى اليوم ظاهرة آثارهم البديعة على الانحطاط الذي طرأ على ذلك القطر العجيب بعاديته وخبراته .

جاء العرب المسلمون الى الشام ولم يكن لهم هندسة خاصة واختراروا باديء بدء ان يسكن جيوشهم في الخيام وكان جمهور من الروم في دمشق تحلوا عن دورهم ولحقوا بهرتل فنزلها الفاتحون ثم اخذوا في كل بلد ينزلونه يرمون ماعور من بنائه وربما بنوا بالمدر اي باللبن والطين اولاً ولكن عادوا الى استعمال الحجر فقد روي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه ان سعداً واصحابه بنوا بالمدر كتب : اكره لكم البنين بالمدر فاما اذا فعلمت فعرضوا الحيطان واطيلوا السمك وقاربوا بين الخشب وقد كان لبعض الصحابة الكرام ممن فتحوا دمشق دور وقصور منتشرة في أنحاء المدينة مثل دار ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وفضالة بن عبيد والعباس بن مرداس وابي العزير الازدي ووابصة بن معبد وطلحة بن عمرو وخالد بن اسيد والنعمان بن بشير الانصاري ووانلة بن اسفح وهبار بن الاسود وعمرو بن العاص واوس بن اوس ويزيد بن نبيشة وعبد الله بن عامر الى امثالهم ولا نعرف الامكان دار ابي عبيدة وكان في محلة حجر الذهب اي المحلة التي تعرف اليوم بالبيمارستان وكانت اجمل حيا في دمشق وقد اقام بعضهم مساجد في جوارهم . وكان معاوية يقيم احياناً في غوطة دمشق وينصب الابنية والاروقة والفساطيط قال اليعقوبي كان معاوية اول من بنى وشيد البناء وسخر الناس في بنائه ولم يسخر احد قبله . ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء لقبه خضراء بناها عليها عرفت الدار بها وذلك قبلي الجامع الاموي دخلها وفد الروم فقالوا : ما احسن ما بناها لاصفاير وفي رواية اما اعلاه فلاصفاير واما اسفله فللنار فهدمها وبنها بالحجر . والغالب انها ظلت عامرة الى القرن الثالث بدليل ما قاله ابن واضح من ان في دمشق خضراء معاوية وهي دار الامارة . ولما استخاف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء وهي دار الامارة بدمشق فاشتراها باربعين الف دينار واشترى منه اربع ضياع باربعة اجناد الشام اختار دن فاختر من فلسطين

عمواس ومن الاردن قصر خالد ومن دمشق الاندر ومن حمص دير ركا .  
وقد بنى الامويون بعده بهوتاً لهم كانت بجوار الجامع ومنهادار عمر بن عبدالعزيز  
مكان المدرسة السيمساطية الآن ودار هشام مكان تربة نور الدين وقصر سليمان بن  
عبد الملك مكان سقاية جيرون ودار مسلمة بن هشام بباب البريد قال الذهبي بنى سليمان  
ابن عبد الملك دار السلطنة وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز وكان  
لعائكة ابنة يزيد بن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق وقال ابن عساكر  
كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي . وقصر حجاج منسوب الى الحجاج بن  
عبد الملك بن مروان وقد بنى الامويون قصوراً لهم في الغوطة لانهم كانوا يملكون  
جانباً عظيماً منها ولكن لم يظور لها اثر ولا خبر .

وفي ايام الوليد بن عبد الملك كانت الناس نكلم في البنائيات والمائر لزيادة  
رغبته في البناء فبنت الناس المجالس الحسان وذلك لان الخليفة كان يرغب في  
البنائيات وانقاف المصانع وفي عهده دخلت دمشق في طور العواصم والناس على  
دين ملوكهم .

نال احد المؤرخين وكان الوليد عند اهل الشام محبوباً لانه صاحب عمارة وبناء  
عمر الضياع ووضع النار في الطرقات واعطى الجزين وافردهم وقال لا تسألوا واخدم  
كل مقعد خادماً واعطى كل ضرير قائداً وكتب الى جميع البلاد يهدم المساجد  
والزيادة فيها وتسهيل الطرق وحفر الانهار وان تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها  
المرضى وهو اول من فعل ذلك وهو اول من اجرى على القراء وقوام المساجد الارزاق .  
كن الامويون اذا ارادوا اقامة بناء عظيم تقدم مملكة بيزنطية الصنائع والرسوم  
التي يراد النقل عنها . ذكروا ان الوليد لما اراد في القرن الاول ان يعمر جامعي بيت  
المقدس ودمشق استفهم روماً من القسطنطينية للقيام بهذا الغرض فبدأت الهندسة  
العربية بالانتباس عن الامم الاخرى فلم تأت بابداع جوهرى في مبادئ البناء  
وقد استفهم العرب باديء بدء من المهندسين وارباب الصنائع من وجدوهم في البلاد  
التي افتتحوها فكانت أسلوب البناء الاسلامي في اول الامر سورياً في الشام  
وقبطياً في مصر .

قال سنيوبوس لم يكن للعرب كما للرومان صناعات وطنية خاصة بهم فكانوا اذا احتاجوا الى قصور او جوامع يعمرونها اولاً على الطرز الفارسي او البيزنطي مثل جامع دمشق ولكن ما لبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية ان اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية واجمل هذه الصناعات الجوامع والقصور . وقال احد علماء الافرنج ان التقليد في الحضارة الاسلامية محسوس ببدانه تقليد غير اعمى لان تأثيرات الاساتذة الاقدمين لا تمتنع من البحث العلمي والاختراع الحديث كما ان مشهد البنداع القديمة ودرسها لا يحولان دون الفنون ولطافة الابداع والاختراع . وفي الشرق نشأت هذه المدينة وكانت دمشق احدى مراكزها ومنبعث انوارها ولم يخلف العرب في النقش ولا الرسم آثاراً خارقة للعادة وما بقي مع هذا من آثارهم وعادياتهم الحجرية وانواطهم المنقوشة وعاجهم ومجوهراتهم يشهد باستعدادهم الفني اهـ . وقال هوار : كان بذخ ملوك المسلمين من الدواعي للصناع ان يرقوا الاساليب التي كانوا يأخذونها تقليداً عن اجدادهم شفاهاً فجددوها ولفننوا فيها فارقت مع عدة اشكال قديمة بعضها من اصل بيزنطي وهي وارثة اليونان ورومية والآخر ساساني من احلاف الدولة الاخمانية او اشوري او بابلي فارقت عدة فروع من الصنائع الاسلامية وهي ليست من اصل بيزنطي ولا فارسي .

ولقد لفنن العرب في التزيين الجميل في كل اجزاء البناء . وحسن الصناعة عند العرب يبدو في جوامعهم . فان ما يتجلى على الجدران والسقوف من ضروب الزخرف والخطوط المتلوية قد دعا الافرنج الى تسميته باسم ارابسك اي النقوش التي تمثل النباتات والاشجار ونسبوا للعرب حتى ان حروف الكتابات التي زيرت على الاجمار والعاديات تشبه صورة من صور الزينة اكثر مما تدل على اصل من اصول الخط . ولم يكتفوا بتصوير الاشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك في الجامع الاموي بل صوروا البلدان والاقاليم .

\*\*\*

ومن اهم الآثار التي نتم عن ذوق عربي في هذه الديار المسجد الاقصي وقد جرى ترميمه في اوقات مختلفة والقليل الذي بقي من آثار نقش العرب وتصويرهم

يدل على ما كان هناك من فكرة وقادة ويد صناع . وقد غشى الوليد قبة الاقصى بالنحاس اخذه من كنيسة في بعلبك وكذلك فعل مروان في قبة الصخرة مدة ولايته وكان صناع هذه القبة من الروم . فهندسة الجامع الاموي والمسجد الاقصى مقتبسة اذاً من الهندسة اليونانية وممزوجة باشياء اسلامية .

بعث ملك الروم الى الوليد كثيراً من البنائين والمقدرين اي المهندسين مع ما بعث اليه من المفصص اي السيفساء والذهب قال المقدسي : ان الوليد جمع لبنائه حذاق فارس والهند والمغرب والروم . وروى ابن شداد : ان الوليد اقتلع من كنيسة انطاكية عمداً عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر الى ساحلها . ولما كان البناء من صنع بنايين مختلفين ساغ ان تقول انه جمع اجمل ما في الهند وفارس وآثينة ورومية . اما طرز البناء فالغالب ان بعض الجدر بقيت بحالها كما كانت يوم كونها يبعه او معيداً للصاينة . ومساجد الشام وصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ اوسابيوس انها ذات افنية واراوين وفساقي ومساکن للقسس .

رالقد بلغ من نفنن الوليد بزخرفة الجامع الاموي ونقشه وتصويره ما يعجب منه ولا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير : ان ارض الجامع الاموي كانت مفصصة كلها وان الرخام كان في جدرانه الى قامات وفوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحجر والزرق والبيض وسقته مقرنص بالذهب والسلاسل المعاقمة فيه من ذهب وفضة . وقد أنق في حراج الشام سننين وفي رواية اربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار وكان حراج الشام على عهد بني أمية الف الف دينار ومائتي الف دينار . وذكر بعضهم ان الوليد اخذ ربع اعطيات اهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة واربعين الفاً يستعين بها على عمارة جامع دمشق . قال المقدسي والجامع جامع دمشق احسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع اكبر منه ومن اعجب شيء فيه تأليف الرخام الممزج كل شامة الى اختها ولو ان رجلاً من اهل الحكمة اختلف اليه سنة لافاد كل يوم صنعة . وقال المتدسي : رأى الوليد الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بهماً حسنة قد

أفئن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وبعملة لد والرُّها فاتخذ للمسلمين مسجداً في دمشق شغلهم به عنهن وجعله احدى عجائب الدنيا .

ومما رواه صاحب مطالع البدوران اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق وبنون فيها وفي معالماتها من حوران وغيرها البنايات الغربية العجيبة حتى كان بعد المسيح عليه السلام بمدة نحو من ثلثمائة سنة فنصرت اهل الشام على يد قسطنطين بن قسطنطين الذي بنى المدينة المشهورة في بلاد الروم وبنى له هذا الملك التي نسب اليه الطائفة الملكية منهم كتناس ككيرة بدمشق وغيرها حتى يقال انه بنى في زمانه اثنتي عشرة الف كنيسة . وقد غلب حب البناء على بني امية فكان منزل سليمان بن عبد الملك قبل الخلافة الرملة وهو انشأ مسجداً جامعها ونقل الناس اليها من لدّ وكنت المدينة التي يزها الناس فاخذ يهدم منازلهم بلدّ والبيان بالرملة وعاقب من اذنع من ذلك وهدم منازلهم وقطع الميرة عنهم حتى انقلوا وخرب لدّ .

دخل المؤمنون مرة جامع دمشق ومعه اخوه المعتصم ويحيى بن اكرم فازدادوا عجباً فقال المؤمنون لها : اي شيء يعجبك من هذا المسجد فقال المعتصم : ذهبه فاننا نضعه في قصورنا فلا تمضي عليه عشرون سنة حتى يحول وهذا بحاله مع طول الزمن كآب الصانع فرغ منه الآن . فقال المؤمنون : ما اعجبني هذا . فقال يحيى بن اكرم الذي اعجب امير المؤمنين تأليف زخارفه فان فيه عقوداً ما يرى مثلهما . فقال المؤمنون : كلا بل اعجبني انه بنى على غير مثال سوهد .

ومع ان تلك الانارات الجميلة في الجامع ذهبت في الحريق الاول سنة ٤٦١ هـ ثم الحرائق الخمس التي حدثت في اوقات مختلفة وآخرها سنة ١٣١٠ هـ فقد بقي في الغالب سوره الاول . وصف ان جبير قبة الرصاص في الجامع الاموي فقال انها من اعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغربية وهياكلها الهائلة البنيان وقال انها مستديرة كالكرة وذاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد يعطف كل ضلع عليها كالدائرة وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب اعلاها وداخل هذه القبة وهو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالاً عجيباً وهي كلها مذهبة بابدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين

بديعة القرنصة وفي الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطير . قنطرة لا تنقلها الفيلة فضلاً عن غيرها فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك فسبحان من أله عباده الى هذه الصنائع العجيبة اه .

اما المسجد الاقصى في القدس فقد كاد المؤرخون والجغرافيون من العرب يجمعون على انه احسن من جامع دمشق عمر عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم والقبة الكبرى التي فوق الصخرة على اسلوب جميل لم يسبق اليه . قال بعضهم ان شكل قبة الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية ثم هدم الكنييسة التي كان شيدها يستنياس وبنى موضعها المسجد الاقصى وندوق في تخييقه واكمل البناء سنة ٧٢ وقلوا ان اساس المسجد الاقصى من عمل داود وهو على زاوية الحسن والايحكام كما قال ياقوت مبني على الاعمدة الرخام الملونة والنسيفساء التي ليس في الدنيا احسن منه لا جامع دمشق ولا غيره . وروي ابن العديم ان جامع حلب كان يضاحي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والنسيفساء وان سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنيق في بنائه ليضاحي به ما عمله اخوه الوليد في جامع دمشق .

\* \* \*

وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال : دخلتها فاذا هي دار مخصصة حيطانها وسقوفها وفيها وصفاء ووصائف عليهم ثياب صفر وحلي الذهب ثم ادخلت داراً اخرى فاذا حيطانها وسقوفها خضر واذواصفها ووصيفاتها عليهم ثياب خضر وحلي الزمرد وان ولي العهد قاعد على سرير معه امرأته . ووصف حماد الراوية دار هشام بن عبد الملك في دمشق فقال انها دار قوراء مفروشة بالرخام وهو في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب حمر من الخنز وقد تضحخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في اوافى ذهب يقبله بين يديه فنفوح رائحته وفي المجلس جارتان لم ير مثلها قط . والله اعلم اكان ذلك حقيقة ام خيالاً .

وقد ادعت ميس بل انه لولا حوادث القرن السابع اي لولا دخول العرب

الفاتحين بلوغ السور بون طريقة في هندسة الابنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم وان امتزج بها شيء من هندسة الامم الاخرى فرد عليها لامنس بان هذه المدينة مدينة دمشق لم تمس عاصمة كبرى الا في عهد بني أمية وبمهمتهم . قلنا ولو لم يُحفّ بنو العباس آثار بني أمية في الشام لرأينا فيه احسن صورة تامة من صور بنائهم . وكان منه ما هو في المدن ومنه ما هو في البداية او ما يقرب منها لان الامو بين كانوا على الاغلب يتحامون نزول دمشق لرطوبتها وحمياتها فمنهم من نزل قصر الموقر او المقور وقصر المشتى والزيزاء والفدين والازرق والاعدف والبخراء والابيض والقسطل والرصافة وازيتونة والجاية وحوارين والصنبرة ودابق وبتنان حبيب وأياير في البلقاء وشمالى سورية وشرقها وبني هشام حصن المثقب على يد حسان بن ماهون الانطاكي وحوله خندقاً وحصن بوقا من اعمال انطاكية وبعض هذه القصور لاتزال أسسه ماثلة للعيان مثل قصر الموقر والمشتى لم ينسها العباسيون كما نسفوا آثار المدن ونقضوا مثلاً سور دمشق يوم فتحوها حجراً حجراً واخرى بوا ايضاً قصور الامو بين في حلب مثل قصر سليمان بن عبد الملك بالحاضر وقصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب ومنازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل سنير وقصري هشام في الرصافة وابقوا في الغالب على قصر خناصره من ارض الاحص لعمرو بن عبد العزيز لانهم احترموه ولم يبقوا على غير قبره من قبور بني أمية . والظاهر من كلام المقدسي المعروف بالبناء الذي ولد سنة ٣٣٦ ان آثار بني أمية كانت موجودة في عهده خلافاً لما هو المعروف من ان العباسيين اتوا عليها كلها والغالب ان بعض الابنية لم تعور كثيراً ورمّت فاطلق عليها اسمها الاصيلي ونسبت الى بانيتها الاول .

قال الجاحظ : من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم وان يمتوا ذكر اعدائهم فقد هدموا بذلك السبب المدن واكثر الحصون كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية وعلى ذلك هم في الاسلام كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام (الحصون) التي كانت بالمدينة وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وكما هدم اصحابنا (يعني العباسيين) بناء مدن الشامات (قد تسمى الشام بالشامات) اما بنو العباس فلم تبق الايام من آثارهم مصنعا يعتد به في الشام لتحكم على عظمتهم

وكان من اهمها قناة قرية منين التي جرها المأمون الى معسكره بدير مران في جبل قاسيون . وهذا عمل مهم مما بلغنا خبره لان الطريق من منين الى قاسيون يحتوي على اودية وشعاب ونجاد كثيرة ذكر ذلك ابن عساكر . وقد بني للمتوكل العباسي قصر بين داريا ودمشق فلم يعثر له على اثر وفي سنة ٢٦٢ هـ بنى الامير النعمان داراً عظيمة في بيروت وحصن سور المدينة وقلعتها اما المنغلبة على الملك في زمن العباسيين مثل الفاطميين والطولونيين والحمدانيين والسلجوقيين فاننا لانعرف عن آثارهم كبير امرايضاً ولاسيا بنوطولون وبنوعبيد فانهم آثروا ان يجعلوا مصانعهم في معمر مقر ملكهم كما آثر العباسيون ان يجعلوها في العراق وخراسان ومما بناه ختكين والي دمشق للحاكم بامر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على نهر بردى وسخر الناس لاجل عمله واخذاه والمهم .

ومن اجمل ابنية دمشق دير مران كان عامراً الى القرن الثالث وكان فيه قصر خمارويه وفيه فنل وللشعراء فيه قصائد جميلة . ذكر ابن عساكر ان حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضي دمشق من قبل الفاطميين جدد في دمشق مساجد ومناير وقنوات واجرى الفواراة التي في جبرون . وذكر انه وجد في تذكرته سبعة آلاف دينار صدقة في كل سنة وهو الذي انشأ القيسارية المعروفة بالفخرية توفي سنة ٤٣٤ وكان الشمس الدين بن المقدم من كبار امراء الدولتين النورية والصلاحية ( ٥٨٤ ) دار كبيرة بدمشق الى جانب المدرسة المقدمة ثم صارت لصاحب حماة ثم صارت لقراسنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان وكان الملك الاجمد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب ولعلها دار المشيرية اليوم .

وقد نشأت في القرن الرابع وما بعده في سورية حركة مباركة في العمران قام بها مهندسون من العرب انتهت اليها تراجم بعضهم وقليل من اعمالهم مثل ابي بكر البناء المهندس الذي ابني ميناء عكا لابن طولون . قال المقدسي ولم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها فاحب ان يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء فجمع صناع الكورة وعرض عليهم

ذلك فقيل لاهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جدنا ابو بكر البناء وقيل ان كان عنده احد علم هذا فعنده فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى انهضه اليه فلما صزر اليه وذكر له ذلك قال هذا امر هين عليّ بفلق الجميز الغليظة فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البري وخيط بعضها ببعض وجعل لها باباً من الغرب عظيماً ثم بنى عليها بالحجارة والشيد وجعل كما بنى خمس دوامس ربطها باعمدة غلاظ ليشدد البناء وجعلت الفلق كما ثققت نزلت حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى اخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك وكما بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به ثم جعل على الباب قنطرة فالمرآب في كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسلة مثل صوراه . قلنا و بنى احمد بن طولون قلعة يافا ولم يكن لها قلعة من قبل .

ومن المهندسين الذين رأينا اسماءهم مكتوبة على المصانع التي عمرها ابراهيم ابن غنّام المهندس الذي بنى القصر الابلق في الميدان القبلي بدمشق وهو قصر عظيم مبني من اسفله الى اعلاه بالحجر الاسود والاصفر بتأليف غريب واحكام عجيب بناه الظاهر بپرس البندقداري وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الابلق بقلعة الجبل بمصر . قال ابن فضل الله : وامام هذا القصر اري ابلق دمشق دركاه<sup>(١)</sup> يدخل منها الى دهليز القصر وهو دهليز فسح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن المؤزر بالرخام المفصل بالصدف والقص المذهب الى سقف السقف وبالدار الكبرى به ايوانان متقابلان تطل شبابيك شرقيهما على الميدان الاخضر وغربيهما على شاطيء واد اخضر يجري فيه نهر وله رفارف عالية بناغي السحب تشرف من جهاتها الاربع على جميع المدينة والغوطة . قال شيخ الربوة

(١) الدرگاه البيت المستطيل امام الدار يرتفق به وهو فارسي اخذه العرب من الفرس كما اخذوا لفظ الهنداز بمعنى الحد عن اندازه ومنه المهندس المقدر بمباري القني والابنية واخذوا البركار ايضاً وكما اخذوا الشاذروان للفؤارة تشتق منها فوارات كثيرة والايوان والدهليز والبازار والحركاه والبهارستان والحائقاء وكثيراً غيرهما ومن ذلك يستدل على كثرة تأثير الاوضاع والهندسة الفارسية في الاوضاع والهندسة العربية .

سمي بالقصر الابلق لكونه مبنياً بالحجارة البيض والحجارة السود . وقد بقي هذا القصر عامراً الى عهد العثمانيين رآه ابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ وقرأ تاريخه ٦٦٨ وقال ان على أسكفته ضرباً من رخام ابيض وسطه مكتوب عمل ابراهيم بن غنائم المهندس . وقد قال العارفون ان التكية السلمانية قامت على انقاض ذلك القصر . و ابراهيم بن غنائم هذا هو الذي هندس ايضاً المدرسة الظاهرية بدمشق ونقش اسمه على يسار الداخل من الباب في الزاوية الشمالية هكذا « عمل ابراهيم بن غنائم المهندس » . ولا تزال اسماؤه بعض المهندسين ظاهرة في بعض آثار طرابلس على عهد المالك منهم المعلم محمد بن ابراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي . وامن بلغنا خبره علم الدين قيطر المعروف بتعاسيف المهندس بنى للملك المظفر في حماة ابراجاً وطاحوناً على العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعاونه في عملها المهندس القاضي جمال الدين بن واصل .

وصف بهاء الدين الموصللي قصر الابلق بدمشق فقال : وقصرها الابلق ليس بالعقوق من شاهد بديع معانيه سها عن العاشق والمعشوق قد شام في غمده مشهور غمدان، واسبل على ايوان كسرى ستر النسيان، يبهر الناظر حسن معناه، ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه ، الماء مرفوع في اقطاره ونواحيه ، فتصب في فوار بركه لتميز ناظره ، يتكسر جمعه على شاذرواناته مجروراً باضافته الى مجاريه ، فقد اجتمع لقاطنه اضافة المعنى والحسن الباهر ، ولم يكمل ذلك البهاء الا بكمال جمال الظاهر ، اعين شبابهك الى ميدانه الاخضر ناظرة ، قد جمع الصادح والباغم والالفاظ والطاعم به الطباة الاوانس ، والمها الكوانس ، اقطاره عريضة طويلة لا ترجع الابصار من السفر في دمنه الا كليله ، اجملت خمائله الأيك والغصون ، ولذا القائف بالسوان عن اقنفاء اثر السلوك في معانيه التي كلها عيون ، وقف الابلق حين جرى الى منتهاه ، وادر كد الاعياء فسكن باقواه ، وشاهد الشقراء ترح في ميدان واديتها فاراد الوصول اليه فعواده الاضطراب ، فقطعت عليه الانهار الطريق وضرب بينهما بسور له باب .

ولما قويت حركة العمران في عهد الدولتين النورية والصلاحية بدمشق وحلب والقدس وحماة وطرابلس والمرة وبلبك وغيرها واخذوا ينشئون فيها المدارس

والجوامع والرُّبُط والمستشفيات والقلاع والجسور كانت منها ما هو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء هذه المدرسة العادلية التي شرع بنائها نور الدين ولم يتمها ولما ولي العادل ازال ما بناه نور الدين وبنائها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء المحكم الذي لا نظير له في بنايات المدارس . ومن البدائع واجهة مدخل المستشفى القيمري في صالحة دمشق وهندسة مدرسة الصهبية في حلب وكذلك المدرسة التي كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال ومن اطرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتح كله بيوتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم شمرغباً فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متديلاً امامها فيمد الساكُن فيها يده ويخنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة . وقد قيل ان منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الاسلامية .

ولقد بنى الملك الاشرف بن الملك العادل بدمشق قصوراً ومباني حسانة وكانت عمارة اللاذقية في الحروب الصليبية من احسن الابنية واكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف انواعه كما قال ابن الاثير فحرب المسلمون كثيراً منها ونقلوا رخامها الى دمشق وغيرها وخرّبوا البيع التي قد غرم على كل واحدة منها الاموال الجليلة المقدار ولما تسلمها نبي الدين عمر حصن قلعته وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والقرى الواقعة عليها كما فعل بقلعة حماة .

\*\*\*

وبعد ان كانت دمشق في القرن السادس اكثر مدن الارض سكاناً كما قال ابن جبير وكانت في القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي اجمل مدينة في العالم بل اغنى مدينة احرق تيمورلنك بعض احيائها ومدارسها وغرّمها ملايين من الدنانير وحمل معه المهندسين والبنائين والنقاشين في جملة من حمل من ارباب الصنائع الى سمرقند كما فعل السلطان سليم العثماني في مصر لما فتحها في الربع الاول من القرن العاشر فحمل الى القسطنطينية كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصناعاتها النفيسة .

وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام افردها ابن عبد الهادي في رسالة

كما كان في عصره الف جامع ومسجد في دمشق وضاحتها وناهيك ببلدة فيها هذا القدر من آثار العمران ولا غرو بعد هذا ان قال فينا ابو الفضل بن منقذ الكناني يوم كان لنا القدح المعلي في العائر :

واذا مررت على المنازل معرضاً عنها قضى لك حسنها ان تقبلا  
ان كنت لا تسطيع ان تُمثل الفر - دوس فانظرها تكن ممتثلا  
واذا عنان الالحظ اطلقه الفتى لم يلق الا جنة او جدولا  
او روضة او غيضة او قبة او بركة او ربوة او هيكل  
او وادياً او نادياً او ملعباً او مذبناً او مجدلا او موثلا  
او شارعاً يزهو بربع قد غدا فيه الرخام مجزئاً ومفصلا

ومن قصور - اب في القرب الثالث دار واليهازكا الاعور ودار حاجبه فيروز ودار سيما الطويل ودار كورة الخراساني ومنها قصر السلطنة بدمشق . قال ابن الجوزي : هدم اهل دمشق قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه وكان عظيماً يسع الوفا من الناس . وقصر بطناس في حلب كان عامراً الى عهد ابن العديم في القرن السادس . وقد خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العارة في فتنه القرامطة سنة ٣٦٣ وكان فيها على رواية ابن القلانسي من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء ما لم ير مثله وهو احسن مكان كان بظاهر دمشق . وقال ابن شاكر : ان اللؤلؤيين كانوا منظرين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غرباً وكاننا من أعجب البناء . احرقها المصريون بنا حاصروا دمشق . وفتنة سنجة التي قال فيها ابن حوقل ليس في الاسلام فتنة احسن منها ويقال انها من العجائب وفتنة بالقرب من منبج . وقال ابن القلانسي من اقتراحات تميم الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته ومضاء همته ومستحسن ابتدائه ما احده من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق الاوسط منها وباب جسر الخندق الشرقي منها وهو الثالث لها انشي ذلك في سنة ٥٢٧ مع دار المسرة بالقلعة والحمام المحذثة على قضية اخترعها وبنية اقترحها وصفة آثرها نجأت في نهاية الحسن والطيبة والنقوم والاعتدال . من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الاتابكية والايبوية . مثل حماة

فلم يكن لها في القديم نباهة ذكر وكان الصيت لمحص دونها فلما آلت الى ملك بني ايوب مصروها بالابنية العظيمة والقصور الفسائقة والمساكن الفاخرة وفي جوامعها اثر من آثار الصنائع في القرون الوسطى وما قبلها . ومنها ما قام على انقاض الكاتدرائية القديمة ومنها ما حرق وخرب واستعويض عنه مكاناً آخر مثل طرابلس في سنة ٦٨٨ ففتحت طرابلس واخرب سورها وكان من الاسوار العظيمة وامر السلطان بتجديد مدينة على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس وكانت في يد الفرنج من سنة ٥٠٣ ومثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري في القرن التاسع للهجرة : ان فيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة مايورث العجب وتسمى دهليز الملك . وكان سور عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسع اذرع وفي مواضع عتبر اذرع . وقال ابن فضل الله في بعلبك : انها مختصرة من دمشق في كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيارستان والاسواق الحسنة . وقال آخر وبقلعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الايوبية آثار ملوكية جلييلة . وكانت منبع ذات مدارس وربط عليها سور بالحجارة المهندسة حصينة جداً . ومن هذه المدن ما اصبح الآن كالقري مثل قيسارية التي قال فيها المقدسي ليس على بحر الروم بلد اجل ولا اكثر خيرات منها ومثل المعرة معرة النعمان التي ترى الى اليوم مسافة ما بين ابوابها ساعة على السائر .

وقد انشأ جامع طرابلس الاشرف خليل ٦٨٩ -- ٦٩٣ على عهد حكومة عز الدين ايبك الخزنه دار وازهرت طرابلس على عهد سيف الدين اسندمر الذي بنى القلعة وحماماً وسوقاً وانشأ فيها مجاري المياه الغربية في تقسيمها الى جميع طبقات الدور ليأمن ساكنوها من الحمى في الطبقات الارضية وقد عمر فيها هذا الملك سنة ٧٠٩ حماماً عظيماً اجمع من رأوه انه ما عمر مثله في البلدان وعمر قيسارية وطاحوناً وانشأ المالكه بها مساكن حسنة البناء تجري المياه اليها بالقنوات ومنها ما يطلع الى اعلاها وتجري في طباقها وعمر ايضاً بعض القلعة وأقام ابراجاً وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس — قاله النويري .

في ير الشام، كثير من القلاع من ببناء القرن الخامس والسادس والذي بعده مثل قلعة صرخد . قال ابن تغري بردي : في حوادث سنة ٤٦٦ وفيها بني حسان ابن سمار الكلي قلعة صرخد وكتب على بابها أمر بعبارة هذا الحصن المبارك الامير الاجل .مقدم العرب عزالدين نجر الدولة عدة امير المؤمنين يعني المستنصر صاحب مصر وذكر عليها اسمه ونسبه ومثل قلعة حلب وان كان تاريخها يرد الى ابعد من هذا القرن والمعم من ابنيها بدأ في عهد الاسلام .

وكذلك قلعة دمشق التي سميت « الاسد الرابض » وهي من ببناء تاج الدولة نثس سنة ٤٧١ هـ جعل بها دار اماراة وسكنها ثم زاد الملوك بعده فيها وسكنها كثير منهم . وكانت دار الامارة قبله تسمى « القصر » بناها العباسيون بعد ان دكوا الخضراء وقصور الأُ . وبين مغرب القصر في بعض فتن الفاطميين .

وفي سنة ٦٩١ مكل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبعة الزرقاء في قلعة دمشق لجأت في غاية الحسن والكمال والارتفاع وانثي فيها قاعة اسمها قاعة الذهب وفرغ من جميع ذلك في سبعة اشهر وجاء في غاية الحسن . وصف ابن حجة الحموي قلعة دمشق عندما حوصرت في الوقعة المشهورة : ونظرت بعد ذلك الى القلعة المحروسة وقد قامت قيامة حربها حتى قلنا اذفت الازفة وقد ستروا بروجها من الطارق وهم بتلون : ( ليس لها من دون الله كاشفة ) واستجليت عروس الطارمة عند زفتها وقد تجيزت للحرب ولم ترض بغير الارواح مهراً وقد عقدت على رأسها تلك العصائب وقد توشحت بتلك الطوارق وادارت على معصمها الابيض سوار الذير وغازات بجواجب قسيها ورمت القلوب من عيون صرامها بالنبال واهدت الى العيون من مكاحل نازها الحلالاً كانت السهام لها اميال وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب وشمخ وهو على فرسه بنفسه الغالية وراموا كشفها وهم في رقعة الارض كأنهم لم يعملوا بان الطارمة عالية وتالله لقد حرست بقوم لم يتورعوا بغير آية الحرس في الاستحار وقد استيقظوا لجل قسيهم ولم نتم اعينهم عن الاوتار فاعيد رواسيها التي كالجبال الشامخة بن اسس الحجوج واحصنها قلعة بالسماء ذات البروج .

واشتهرت في القرن الخامس دار ابن بني عقيل صاحب صور (٤٦٥) دخلها أسامة ابن منقذ فراها وقد تهدمت ونغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الايات :

احذر من الدنيا ولا تغتر بالعمر القصير  
وانظر الى آثار من صرعه منا بالغرور  
عمروا وشادوا ما ترا من المنازل والقصور  
وتحولوا من بعد سكنها الى سكنى القبور

وذكر سبط ابن الجوزي ان أسامة الحلبي بنى داراً بدمشق بانقاض بيوت الناس فغربت على يد ايوب بن الكامل محمد في سنة ٦٤٧ وكان أسامة قد غرّم عليها اموالاً عظيمة واخذ اراضي الناس والآلات بدون الطيف وصح فيه قول القائل الحجر المغصوب في البناء اساس الخراب وكانت هذه الدار سبب هلاك أسامة .

ومن جملة قصور الحكومة في الدولة الجركسية دار السغادة وكانت مكان دائرة المشيرية امس ودار حكومة دمشق اليوم . ومن القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على مثال قلعة دمشق . وهي اقدم من الاسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في ادوار مختلفة دع القلاع والحصون الكثيرة في الشمال والجنوب مثل شقيف ارنون وشقيف تيرون وهونين وتنين وكوكب وعجلون وقاقون والصيبية والصلت والمارونية وبيت لاها وحصن ابي قبيس وصافيتا وعريمة ولوقا وتل باشر وعكار وحارم وصهبون وبغراس ودر بساك ودر كوس واسفونا وبسرفوت وبلأطس وحصن الاكرادوشيزر والمنيطرة والشعر وبكاس وارسوف وبيت جبرين وحبزون وارتاح والاتارب وبارين وبارة واعزاز وصرفند وعدلون وبرج الرصاص وحصن الاسكندرونة والتينات وحلبا وعرقه وبرزيه وختناصرة وقسطون وتل اعدى وحصن الحبيس والقدموس ومصيات والكهف والعليقة والخوابي وغيرها من القلاع المعروفة بقلعة الدعوة اي الدعوة الباطنية او الاسماعيلية . هذا الى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس وقلعة حماة وحمص وعكا والكرك والشوبك وصرخد وصفد وشميميس . ومعظمها نناطح السحاب بعلوها وتشبه الجبال بمناحتها وما احلى ما قاله القاضي الفاضل في وصف حصن كوكب : ووردنا حصن كوكب وهو نجم في سحاب ، وعقاب في عقاب ، وهامة ، لها الغامة عمامة ،

وانملة ، اذا اخضبها الاصيل كان الهلال لها قلامه . ووصف شهاب الدين محمود حصناً فقال : حصن قد نقرط بالنجوم ، ونقرط بالغيوم ، وسما فرعه الى السماء ورسا صله الى التخوم ، شمال الشمس اذا علت انها لن تنقل في ابراجه ، و بطن من سها الى اليها انها ذبالة في سراجها ، لا يعلوه من نسر السما غير نسر السما و زمانه ، ولا يرمق متبرجات بوجه غير عين الشمس والمقل التي تطرف من النجمة ، وحوله كل شايخ تهيب عقاب الجو قطع عقابه ، ونقف الريح حسرى اذا تعرفت في هضابه ، تخفق العيون اذا رمقته سلوك مادونه من الحجر ، ويحيل الفكر صورة الترقى اليه لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر ، وحوله من الاودية خنادق لا تعلم منها الشهور الا بانصافها ، ولا تعرف فيها الالهة الا باوصافها .

وبدا منذ القرب الخامس الغرام ببناء القلاع والحصون لان المدينة او الموقع الحربي اذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين ان يجتاحها ومن كتاب فاضلي في وصف حصن بيت الاحزان : « وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر اذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع اذرع الى ما فوقها وما دبرنها وعدتها تزيد على عشرين الف حجر لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقل في بيانه الا باربعة دنانير فما فوقها وفيما بين الحائطين حثو من الحجارة الصم المرغم بها انوف الجبال الشم وقد جعلت سقيته بالكس واحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه وصاحبه باوتق واصلب من جرمه واوعز الى خصمه من الحديد بان لا يتعرض لهدهمه »

وكثيراً ما كان سلاطين هذه الديار منذ استولى عليها الاتابك زنكي الى اواخر عهد المماليك يربون الحصون التي استولوا عليها او التي كانوا بنوها اثلا يعود اعداؤهم فيسنولوا نايها وينقدموا في داخلية البلاد . وقد ألف جمهور الناس ان ينقضوا البنين القديم ويعمروا به بناءهم الحديث ولهذا امتلأ كثيرة في تاريخ العمران في هذه البلاد خاصة . فقد ذكر الاماد الكاتب ان اللاذقية لما استغلت من ايدي الصليبيين وقع من عدة من الامراء الزحاه على الرخام ونقلوا منه احمالاً الى منازلهم بالسام « فتوهوا وجوه الاماكن ومحو سنا الحاسن » وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة باجزاء الاجزاع مرصعة وبالوان الرخام مجزعة واجناس تصاويرها متنوعة ولما دخلها الناس اخرجوا رخامها وشوهوا اعلامها .

وذكروا ان سييبي كافل الشام في الدولة الجركسية لما اراد بناء جامع في باب الحايبة بدمشق خرب عدة جوامع ومدارس واتى باحجارها فسمى العلماء ما بناه « جمع الجوامع » ولما ارادوا في اواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر بردى من صدر الباز الى داخل مدينة دمشق حملوا اليه من ضخام الاحجار التي كانت في قائمتها . وربما هدم بمثل هذا العامل ما كان في اكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز وهو اول من اتخذ من الخلفاء الخانات للمسافرين كما اتخذ دار ضيافة وانشأ معاوية قبله البريد . وقصر الفقراء الذي بناه نور الدين في ربوة دمشق ووقف عليه قرية داريا ليطاط الفقراء الى جانب الاغنياء ردار العدل التي بناها نور الدين ايضاً في دمشق وهي اول واحدة من نوعها بناها لكشف الظلمات وسماها دار العدل — كان يجلس فيها لفصل الحصرمات مرتين في الاسبوع وعده القاضي والفقهاء وبنى نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع ( على الليطاني ) كما جدد كثيراً من الجسور والخانات وقنوات السبل في اعمال دمشق وغيرها . وما كان في قم الجبال من المناور التي كانت توقد فيها النيران للاعلام بمركات العدو في الليل وما كان شديد في البلاد من ابراج حمام الزاجل لنقل الاخبار في النهار . ومن ذلك دنة القبتين المائتين في قنة جبل قاسيون وكان فيه مرصد فلكي بناء المأمون فدثر في جملة ما دثر . ومما اشتهر جسر منبج اتخذ في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه للصوائف ويقال بل كان له رسم قديم .

\* \* \*

دخلت سورية في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية وغيرها وهي هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور والكنائس ولا سيما في طرابلس وبيروت وعكا واهتم الصليبيون ببناء القلاع والكنائس في البلاد التي احتلوها من ارض الشام ولا سيما طرابلس وصور وانطاكية وعكا والقدس حتى قال بعض الباحثين : اذا استثنينا الدور الروماني فانه لم يأت على الشام زمن توفرت الهمة فيه على البناء مثل عهد الصليبيين فان كل مستعمرة تجارية في الموانئ البحرية كانت تحاول ان يكون لها على الاقل كنيسة وخانات وحمامات ومن ذلك العهد يرد تاريخ الكنائس الكثيرة وبعضها عظيم

ثم القلاع التي غصت بها البلاد وهي احسن نموذج للهندسة الحربية في القرون الوسطى . وانشاء الكنائس في الشام يرد الى عهد قسطنطين في سنة ٣٣٠ م فكثرت بكثرة عنايته ورفعه من شأن الكنيسة وقال فان برشم ان على طرابلس صبغة المدن الايطالية اثرت فيها منذ الحروب الصليبية كما اثرت هندسة المدن الايطالية الكبرى على جميع المواني البحرية في سورية وكان للطراز الايطالي التقدم على غيره لان الطليان اهل البندقية وبيزة وجنوة وطسقانا كانوا اسبق ام الغرب الى الاختلاط بسكان الشام للقرب وللعلاقة الدينية بين رومية ونصارى الشرق العربي قبل الحروب الصليبية وكان عدد الصليبيين من جمهوريات ايطاليا اكثر من غيرهم من الامم قال الاثري فان برشم : لما كانت سواحل سورية محط رحال الصليبيين ونقطة حركتهم الحربية تشعبت اينيتها بالروح الايطالي خصوصاً لان الطليان كانوا اذ ذاك اكثر عدداً في هذه الحملات من العنصر الفرنسي . ومن هذه المدن ما اثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان ومنها ما هو بق مثل انطاكية وبيروت واللاذقية وعكا . وفي مدينة طرابلس من بين المدن كلها يتجلى الروح الايطالي الباقي من القرون الوسطى في اينيتها وهدستها ولا تزال قلعة الحصن او حصن الاكراد والكرك كما يدعواها فرسان الصليبيين محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هي عليه وهي آية في باب الهندسة العسكرية في القرون الوسطى ناطقة باسان حالها بان الصليبيين نزلوا الارض المقدسة .

قلنا فاذا كان الطليان يبعون هندستهم في البناء ونقشهم ورسومهم من الامم الغربية حتى اليوم فاحر بهم ان يبيعوها من اهل القرون الوسطى هنا . ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وارواد وصور وصيدا ودير البند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شربل في معاد وكنيسة انفة هذا الى غير ذلك من البيع في شمالي لبنان وجوار البترون وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصناً في البلاد التي احتلوها .

قال رنان الظاهر ان البناءات المربعة الشكل الضخمة الحجم هي من عمل الطليان وفرسان الهيكليين . وان البناءات ذات البرج المدور هي من صنع الفرنسيين وفرسان الاستالبيين وكثيراً ما كانت تأتير هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم — وكانت

البلاد خاصة بها — تعدل ذوق الافرنج الخاص في هذا المعنى . قال وفي طرطوس قامت اهم هذه الآثار واستدل مما فيها ان منزل الصليبيين في هذه البلاد لم يكن منزل قلعته بل وطدوا انفسهم على احتلالها احتلالاً دائماً وان في طرطوس بيعة هي اجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز العوتي في هذه الديار .

ونجحت الهندسة الايطالية في الابنية الحديثة التي أنشئت منذ ستين سنة في بيروت ولبنان وطرابلس وحيفا وبافا وصيدا وغيرها من مدن الساحل فان معظمها من الطراز الايطالي لا تحوي شيئاً من روح الهندسة العربية الا كونها نامت في صميم بلاد العرب . لا جرم ان علاقة سورية بايطاليا اقدم من الاسلام . علاقتها ببلادنا منذ كنا ولاية رومانية تحكمتنا رومية عاصمة تلك الامة العظيمة .

\* \* \*

برع مهندسو العرب في هذه الديار في علم عقود الابنية وهي ما يتعرف منه احوال اوضاع الابنية وكيفية شق الانهار وتقنية القنيّ وسدّ البثوق وتضيد المساكن ولولم يدعوا في كيفية ايجاد الآلات الثقيلة لنقل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والمنازل والجموع والمدارس هذا التمكن الذي بهرنا اليوم مع علمنا بقلّة الآلات المحركة في عهدهم وفقدان وسائل الفنّين . ولو كان مؤلفو التراجم يعنون باخبار المهندسين والفلكيين والكياويين مثلاً عنايتهم بالقطاط اخبار الشعراء والمتأدبين والمتزهدين لجاءنا منهم سلسلة طويلة واملنا من اسباب فننهم وعلومهم الشيء الكثير وما ندري ان كانت هذه الموضوعات افردت بالتأليف فضاعّت في جملة ما ضاع في الفنّ في بغداد ودمشق وخرنطرة .

لم يبلغنا ان في البلاد دوراً يرد تاريخها الى الف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن في عهد ارتقاء البلاد على عهد الحكومات العربية كما بقيت . مثلاً بعض دور قنوات في جبل حوران محفوظة كما كانت بنوافذها وابوابها الحجرية . ولكننا على مثل اليقين من ان طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين وقبلهم بعصور وان هذا الطراز في بناء هوت دمشق خلاصة أسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الاخيرة .

ومنه مثال حي من مدارس المذاهب الاربعة ودور القرآن والحديث والمستشفيات والرُّبُط وغيرها في دمشق . وعن هذا المثال نقل الأُمويون أسلوبهم في بناء البيوت بقرطبة وغرناطة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الاندلس اقتبسوا أسلوب بناء الدور من دمشق على ما يظهر كأن لا تكون الدار أكثر من طابقين احدهما شتوي وهو الاعلى والاخر صيفي وهو الادنى وللدار مدخل او دهليز يتصل بفناء واسع فيه حوض ماء وفي صحن الدار اشجار وازهار وفوارات . قال احد المهندسين المعاصرين ان التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة ودار عربية فقد كانت الدور تشاد ولا تجعل لها نافذة على الشارع ويكتفى بطبقان للتهوية ولها فناء دارداخلي تحف به زخرف ومخادع وفي وسط الفناء اى الصحن فوارة او حوض ماء . لا جرم ان المسلمين قد اخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط ولا تزال نجد فيه مثالا في اسبانيا حيث يسمى الفناء الداخلي باسم « باتيو » او الفناء المبلط .

وكانت دمشق تعتمد في ابنيتها على الحجر غالبا . وزاد الاعتماد على الخشب والطين في الادوار الاخيرة . قال المقدسي : ان منازل دمشق ضيقة وازقتها غامة واكثر اسواقها مغطاة ولم سوق على طول البلد مكشوف لا ترى احسن من حماماتها ولا اعجب من فواراتها . هذا في القرن الرابع للهجرة . وقال ابن جبير في القرن السادس ان اكثر ابنيتها بالقصب والطين . وقال ابن فضل الله في الثامن ان غالب بناء دمشق بالحجر ودورها اصغر مقادير من دور مصر لكنها اكثر زخرفة منها وان كان الرخام بها اقل وانما هو احسن انواعا قال وعناية اهل دمشق بالمباني كثيرة ولم في بسايتهم منها ما تفوق به وتحسن باوضاعه وان كانت حلب اجل بناء لعنايتهم بالحجر فدمشق ازين واكثر رونقا لتحكم الماء على مدينتها وتسليطه على جميع نواحيها ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلا من خشب النخل الا انه لا يقضى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره واشرف دورها ما قرب واجل حاضرتها ما هو في جانبها اه . قلنا وهذا يتنافى ما كان يراه العرب في تخيير اما كن بيوتهم فقد كانوا اصطلمحوا على ان الاطراف منازل الاشراف قال المجتري :

عجب الناس لاعتزالي وفي الاطراف تلقي منازل الاشراف  
ولذلك كنت ترى في سفح جبل الصالحية والربوة والشرف الاعلى الشمالي  
والشرف الادنى الجنوبي من ظاهر دمشق قصوراً انيقة يزلها القضاة والحكام وكبار ارباب  
الاملاك والاشراف ولكنها دثرت بالفتن المتواترة ولم تقو على عوادي الايام حتى  
نحكم على ما عمله الدمشقيون وأسلوبهم في هندسة مصانعهم على العهد الاسلامي  
الاوسط وقد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين . ويقول كاتب جلبي : انه كان في  
المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى ايفاؤها حقها من الوصف  
لا سيما ابنية البرامكة وآثارهم فانها لم تزل باقية الى هذا العهد ( القرن الحادي عشر )  
وروى الظاهري : ان دمشق تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة وبها طارمة مشرفة  
على المدينة بها تنعت الملك مغلبي لا يكشف الا اذا جلس السلطان عليه وقال ايضاً :  
ان ما في الميدان الاخضر في دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب وهذا  
في القرن العاشر .

وآثار العثمانيين في هذه العاصمة التكيان السليمانية والسليمانية والجامعان السنانية  
والدرويشية . بنوها على الاسلوب التركي البيزنطي ولهم مثل ذلك في حلب ومنها  
المدرستان البديعتان مدرسة الحسروية والمدرسة العثمانية . قال سوبرنيم الاثرية  
ان عدداً عظيماً من مصانع حلب يرد الى زمن المماليك والعثمانيين وما عدا الجوامع  
الكثيرة مثل جامع الاطروش والطون بغا والطواني ومناراتها المختلفة الهندسة  
— وبفضلها تذكر حلب بصورة القاهرة في هذا المعنى — فان حلب قد احتفظت  
بالمستشفى الجميل الذي بناه ارغون سنة ٧٥٥ و بكثير من الخازن والخانات والحمامات  
والدور والسلسبيلات . وفي هذا المستشفى افاريز وبقوش من اجمل ما نقش النقاشون  
تزينه فجعله بهجة للناظرين . ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها  
العسكري والديني والمدني وكلها بما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد ان  
يتصور اصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالي سورية اه . ومن اجمل آثار  
الهندسة في حلب محراب مدرسة الفردوس التي بنتها ضيفة خاتون التي ملكت حلب  
ست سنين وهي ابنة ابي بكر بن ايوب الملك العادل ولو كتب البقاء على الاقل للقصر

الذي بناه بقرية بطياس من ضواحي حلب صالح بن علي العباسي وقصر الدارين الذي بناه عبد الملك بن صالح خارج باب انطاكية وقصر مرعش الدولة احد موالي بني حمدان وقصر سيف الدولة بن حمدان الذي بناه بالحملة من ضواحي حلب ونهاها في حسنه وعمل له اسواراً وقد احرقه الروم في احدى غزواتهم فلم يعمر بعد ذلك . او قصر آخر من قصور الحمدانيين — لو كتبت الاقدار ذلك لساغ لنا ان نحكم حكماً صحيحاً على هندسة دور الشهباء في القديم . والغالب ان هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال في دمشق عن الطراز القديم . ويقول الظاهري ان الميدان الاخضر في دمشق كان فيه من القصور الحسنة ما هو عجيبة من العجائب . وفي سنة ٦٩٢ كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذي شرع ببنائه سيف الدين ارقطاي المنصور الناصري كافل السلطنة ايام الملك المنصور بن قلاوون وكان بناؤه بعدما خرب الجسر الذي اقامه السلطان انطونيوس الحلبي الذي تملك على رومية بعد المسيح بمائة واربعين سنة وهو الذي قطع الصخور وبنى البرج ومشي في الطريق الذي على شاطئ البحر الموصل الى مدينة بيروت كما هو مكتوب على الصخر قبال الجسر القديم مما يلي قبليه على هذه الصورة مكتوب: الامير ادوار قيصر مارقوس اورليوس انطونيوس الحلبي السعيد اغسطس كبير الجرمانين الحبر الاعظم قطع الجبال المستقلة على نهر ليقا ونهج الطريق مهلاً ولقبه بالطريق الانطونياني وهذا النهر تلقب بالكلب لكونه بعدما صلحه انطونيوس الملك نصب به قائمة ( نصباً ) من حجر كبير على صورة الكلب وقيده بسلسلة حديد في الصخر وجعلوا قدامه تقيراً لاجل الطعام .

لما اراد نائب الشام في اواخر النصف الاول من القرن الثامن عمارة جسر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت بعد ان لم يبق في السواحل مثل هذا النهر بغير جسر وكان عمراً مرة فاقام سننين فاخذه السيل ثم عمّر ولم يبق الا بعض الشتاء لضعف الاساس انتدبوا لذلك مهندساً خبيراً بالاعمال الاحلية يقال له ابو بكر بن البصيص البعلبكي وهو الذي عمر جسر نهر الكلب وله غير ذلك من الاعمال الثقال ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة . وكذلك جسر الظاهر برفوق الذي بناه على نهر الأردن اي الشريعة وطوله مائة وعشرون ذراعاً وعرضه عشرون . وقالت فيه

السيدة عائشة الباعونية الدمشقية :

بني سلطاننا برفوق جسراً  
بامر والانام له مطيعه  
بجاز في الحقيقة للبرايا  
وامر بالمرور على الشريعة

وعمر قاضي دمشق سنة ٩٣٢ سوقاً تجاه باب جيرون بدمشق فبني اقواساً  
بجملون فيها قباب مبنية بالأجر اذ رآه احكم في البناء لانه لا يحتاج الى طين  
ويؤمن من حره .

\*\*\*

من القاعات في دمشق وحلب ما يرجع تاريخه الى القرن التاسع والعاشر  
والخادي عشر والثاني عشر ومنها نعرف كيف كانت هندسة القوم فمنها القاعة  
المشهوره بباب جيرون وباب السلسلة انشأها الامير محمد بن منجك الذي عمر العمارات  
الفائقة بدمشك فانه تأتق في عمارتها بالقاشان والرخام وعمر القصر المعروف به في  
الوادي الاخضر (١٠١١)؛ منها عمارات الامير منصور بن الفريخ امير البقاع المقتول سنة  
١٠٠٢ بقرية قب الياس وكانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلي دار السعادة قال  
الحبي لم يرسم مثلها جعل بابها بالرخام الابيض والحجر الاحمر المعدني ونقل لها الرخام  
من بلاد السواحل والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسخرة . وفي سنة ١٠٣٤  
بني الامير منذر بن الامير سليمان بن علم الدين بن محمد النوحى سرايا عظيمة في قرية عبيه  
في الشحار من الغرب في لبنان وبقى مدة اربعين سنة ولم يكملها لزيادة اتساعها وكان  
البنائون من اسلامبول . وامر الوزير احمد باشا الكوبرلي الذي ولي دمشق سنة ١٠٧١  
بعمارة قاعة معظمة داخل دار الامارة بدمشق فبنيت كما قال الحبي على اسلوب عجيب  
ووضع غريب . وقال المؤرخون ان الامير بشير الشهابي كان كالامير فخر الدين المعني يجب  
البذخ والرفاهية وبتظيم اصطبالاته وبطوته حتى اصبح مضرب الامثال في ذلك وعمر  
في بيت الدين قصراً ملوكياً وجلب اليه الماء في ساقية طولها ثلاثة فراسخ . قال  
بعض المؤرخين جر الامير بشير بواسطة رجل دمشقي قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب  
نهر الصفا الى منزله في بيت الدين من بعد ثلاث ساعات وعمر على ذلك زهاء مائتي  
الف درهم وكانت جميع اهل البلاد تحضر في كل سنة يومين تعمل في هذه القناة

بغير اجرة اكراماً له ومدة العمل اثنان وعشرون شهراً وعمر الامير بشير بابعاز من والي عيدا جسراً على نهر الدامور في طريق صيدا الى بيروت فجمع اهل الصناعة اليه فكانوا اكثر من مائة وخمسين رجلاً فاتمه في شهرين وغرم عليه نحو مائة الف درهم ومن الابنية التي اشتهرت في عصرها قاعة حسين بن قرنق في صالحية دمشق عمرت سنة ١٠٧٧ . وكان يضرب بها المنل وهي على الارجح في رأس العقبة مكان دار بني الشريف دثرت في القرن الماضي . ومن محاسن دمشق في هذا القرن الداران اللتان عمرهما في القنوت الامير المنصور الشهابي امير وادي التيم وابن عمه الامير علي وذلك على اسلوب منقن محكم وزخرفاهما بانواع الزخارف والنقوش وجلبا اليهما الرخام من بلادهما قال الحبيبي : ولعمري انهما ابدعا ونوعا واجادا في صنعها .

وذكر المؤرخون ان الامير نضر الدين المعني جلب مهندسين من الغرب ولعلمهم من ايطاليا ليضعوا له خطط قصوره في بيروت وصيدا . وذكروا ايضاً انه بنى عدة بنايات وقلاعاً وحصوناً كثيرة ولما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفنا واتى بنو سيفنا صحاب طرابلس فاحرقوا ونهبوا الشوف قيل انه اقسم هكذا : وحق زنم والنبي المختار لاعمر ك يادير بيجر عكار . وهكذا لما فاز على بني سيفنا وحاصر قلعة الحفون واخذها وهدمها جعل الجمال بالالوف تحمل الحجارة من قلعة عكار الى دير القمرو وبني جميع الدور القديمة في دير القمرو وزرع في جدرانها من حجارة عكار وهي الحجارة الصفراء الموجودة في الحرج وفي جميع بنايات بيت معن القديمة وهي باقية الى الآن . ومن امثلة البناء الجميل دار اسعد باتسا العظم في جوار جامع بني أمية بدمشق شرع بانشائها سنة ١١٦٣ وانتهت سنة ١١٧٤ قيل ان ما انفق عليها اربعمائة كيس كل كيس بخمسمائة قرش وهذا اجور العملة واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من املاكه وبساتينه عدا من سخرم للبناء من الناس وكان عدد العملة ثمانمائة قيل ان داخل الدار اما كن عديدة لانتشبه الواحدة الاخرى وجميعها بماء الفضة والذهب واللازورد والبلاط والرخام العظيم ونقل بعض السائحون ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراي الملك المعظم . وهذه الدار بما حوت من الفناء والقاعات والردهات والابهاء والفساقي والفوارات والحمام من الطف ما هندس المهندسون في

ذاك القرن وكذلك يقال في قصره في حماه وهو على مثال داره في دمشق على صورة مصغرة والنقوش وانواع الزينة فيها فارسية فاستدل من ذلك ان النقاشين كانوا فرساً او تأثروا بالاسلوب الفارسي ومن اجل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها انها كانت عامرة اكثر من اليوم ودار اسعد باشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا ورمتها وجعلتها متحفاً وداره في حماه اشترتها جمعية وجعلتها مدرسة وهي عامرة ايضاً ومن اجل الآثار في دمشق ايضاً خان اسعد باشا العظم وواجهته ورتاجه «بوابته» وقد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس الى الرأس وعرضه ومن اجل آثار ذلك القرن جامع الجزائر في عكا وداره في البهجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذلك القرن وسراي بيت الدين انشئت في اوائل القرن التاسع عشر ومهندسوها ايطاليون والبنائون دمشقيون وحلبيون واتراك من الاستانة وهي على الطرز التركي الممتزج بالطرز الايطالي ومن البيوت الجميلة قصور بني جنبلاط في المختارة في لبنان وفي الحلايلة قرب صيدا وقصر بني شهاب في حاصبيا وسرايهم في رامتيا فان هذه القصور مثال من نفن اعيان ذلك الزمان في تجميل بيوتهم وحسن هندستها وقد تبين مما سلف ان الهندسة في الشام اصبحت في القرون الاخيرة سورية عربية وانما اذا شاهدت ماتادوا ونضدوا ونقشوا ورصعوا رأيتهم يبنون كما قيل بناء الجبايرة وينقشون نقش الصياغ .

وانا اذا تأملنا الابنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام نراها طرزاً طليانياً في الاكثر قد لا ينطبق مع روح البلاد ومصطلحها في اشادة البيوت منذ القرون الاولى وقد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت ولبنان اولاً ثم امتد الى طرابلس ويافا وحيفا والقدس ودمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن وما دور بني سرقس في بيروت وصوفر ودور بني بسترس والويوني وغيرها في بيروت والدور المعلقة في مدينة طرابلس ودور الجميلية والعزيرية في حلب ومصايف لبنان في عاليه وصوفر وكفيا وغيرها وبعض الدور المحدثه في دمشق الامثال منها ومن امم ابنية الشام المحدثه دير الكزانوفا في الناصرة ودير الامان ودير الروس في القدس ومدرسة اليسوعيين والجامعة الاميركية ودار المفوضية العليا في بيروت ومحطة السكة الحجازية في دمشق ومحطة سكة بغداد في حلب وغير ذلك من القصور الخاصة

والفنادق والمدارس والملاجئ والمباني والمستشفيات في القدس وطبرية وبيروت ولبنان وغيرها ومن اهم دور القرن الماضي في دمشق دار القونلي وشامية وعنبر وشمعايا واستانبولي والحلبوني ويسرع البلي الى ما كان بناؤه منها من الخشب والطين او بعضها منها على الاغلب واكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها نذبو عنه العين والزخرف في داخلها قال البحري :

وتأملت ان تظل ركابي بين لبنان طلعاً والسنير

مشرفات على دمشق وقداء - رض منها بهاض تلك القصور

ومع ان المقالع قرية من دمشق وفيها ضروب الحجر الجميل من ابيض ومائل الى الصفرة او الحمرة فان القوم يستسهلون او يسترخصون البناء بالخشب والابن او الحجر الاسود الناري فيبنون به كما يبني اهل حمص . واجمل الحجر الحجر الرملي في بيروت وحجر حلب ولم يزل بناء بيت المقدس - كما قال القاضي الفاضل - من الرخام الذي يطرد ماؤه ولا ينطرد لألأؤه قد لطف الحديد في تجزيعه ، وانفن في توسيعه ، الى ان صار الحديد الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيده ، فما ترى الامقاعد كالرياض لها من بهاض الترخيم رفرق ، كالاشجار لها من الثبت اوراق . وان بعض القاعات اذا كتب لها البقاء فلانها بنيت بالحجر الصلب وتعاونتها ايدي العقلاء فرمتها يوم احتاجت الى الترميم بطاري . طراً عليها .

قادت في الشام قصور افراد الناس من التجار والصناع والزراع كما تشهد في الغرب مثلاً لان اهل البلاد كانوا يفتنون في كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير ارباب الدولة او من كان يعد في جهتهم وكان سائر الناس يحاذرون ان نشأ لهم شهرة في الثروة والثروة تجلي في الدار والفرش والدابة واللباس فيتظاهرون بال فقر لتنجوا من محالب العمال الذين كانت مصادرة الاموال اسهل سي . عليهم وقتل من يريدون استصفاء ارضهم ومقارمهم وعروضهم من المباحات . ولذلك كان ذو الغنى كثيراً ما يدفن امواله في مكان مجهول من داره ودكانه وربما خاف من زوجه وولده فكتم عنهم ما يملك وقد يموت وتبقى دفينته مجهولة حتى يجي بعد دهر طويل من ينش الارض او الجدار ويعثر بالعرض على ما جمعه ذلك الغني الحروم . والناظر الى مدارس دمشق وصالحيتها وهي لا تقل عن زهاء ثلاثمائة مدرسة

ومدارس حلب وهي تربو على مئة يدرك انهما من عمل السلاطين والعمال وقليل من التجار واهل الخير وكان منهم من يتوخى منها ان تكون توليتها ابنه من بعده ليعيشوا منها اذا صودرت املاكهم . وقل ان رأينا جماعة انفقوا على اقامة عمل من هذا القبيل يتختر به اللهم الا قليل من المساجد ولو فعلوا لامنت اعمال الجماعات من اعتداء المعتدين ولما استصفيت واستحل هدمها او نهبها معالمها من لا يمايرون الله ولا عباده ولبات ممثلة العظمة الحقيقية في الامة . انشأ المسلمون هذا القدر من المدارس في اكبر مدن القطر دع مدارس حماة وطرابلس وبعلمك والقدس والمرة ومنبج بدأوا في القرن السادس وانتهوا في القرن التاسع فحاء من بعدهم من ينسهاواحدة تلوا الاخرى فتداعت واكلوا اوقافها فاخرجوها عن الغاية الشريفة التي وضعت لها :

مدارس آيات خلت من تلاوة و منزل وحي مقفر العرصات

هكذا كان حظ المدارس والجوامع فما بالك في غيرها من المصانع . وكم ادركنا وادرك آباؤنا واجدادنا في هذه الديار من اثر بديع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته وكم من كتابة تاريخية عني اثرها جهلاً وغباوة . اجناز القاضي ابو يعلى المعري ببلدة شيات ظاهر معرفة النعمان والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به . موضعاً آخر فقال :

مررت يرسم في شيات فراعي به زجل الاحجار تحت المعاول

تناولها عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل

انلنفا شلت يمينك حلها لمعتبر او زائر او مسائل

منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم ار احلى من حديث المنازل

وبعد فقد علمنا بما مر بنا من العبران الشام لا يحفظ بآثاره وبنيانها الا يوم ننتأ فيه ادارة للعاديات يكون سلطانها نافذاً على الكبير والصغير كما فعلت مصر منذ امد قاحظنطت بالبقية الباقية من اعمال العابرين وخدمت احباب الآتار وغلاة الهندسة من المحسدين . واهم من هذا ان يترجى في الامة الذوق في الجمال و ينتشر العلم بالصنائع النفيسة حتى بين الاطفال ويعرف كل وطني معنى هذه التذكارات المطبوعة بطابع الاجداد والاجيال وعندئذ يصح التام كله متحمناً نفيساً دونه اجمل المتاحف وانغم ببهوت المفاخر والمآثر .

محمد كرد علي

# فهارس كتاب المحاضرات

« الجزء الاول »

## الفهرس الاول في اسماء المحاضرات

	صفحة
	الفاحة .
للشيخ عبد القادر المغربي	١ معلقة طرفة بن العبد
للسيد محمد كرد علي	١٧ الحسبة في الاسلام
للككتور مرشد خاطر	٢٥ الوبالة ( الملائيا ) وكيفية الوثاية منها
للسيد محمد كرد علي	٣٨ الجباية في الشام
للسيد نارف النكدي	٧٤ القضاء في الاسلام
للسيد انيس سلوم	١١٢ العلم
للشيخ سعيد مراد الغزي	١٣٠ الحقوق المدنية في العالم القديم ومنابعها الثابتة
للسيد عيسى اسكندر المعلوف	١٤٠ حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها
للشيخ عبد القادر المغربي	١٦٧ أحيية بن الجراح
للسيد عيسى اسكندر المعلوف	١٧٨ كيف تحقق الآثار التاريخ
للسيد انيس سلوم	٢٠٠ العمل بالعلم
للسيد فارس الحوري	٢٢١ ارتباط البلاد على اصول الاتحاد
للشيخ عبد القادر المغربي	٢٣٧ طرفة أدب من آداب العرب
للسيد انيس سلوم	٢٥٩ الكتيب والمطالعة
للسيد عيسى اسكندر المعلوف	٢٨٠ صناعات دمشق القديمة
للشيخ عبد القادر المغربي	٣١٣ صفحة من تاريخنا الاجتماعي
للسيد محمد كرد علي	٣٢٩ مصانع الشام منذ عرف التاريخ

## الفهرس الثاني في اسماء المحاضرين

انيس سلوم	صفحة ١١٢ و ٢٠٠ و ٢٥٩
سعيد مراد الغزي	= ١٣٠
عبد القادر المغربي	= ١ و ١٦٧ و ٢٣٧ و ٣١٣
عارف النكدي	= ٧٤
عيسى اسكندر المعلوف	١٤٠ و ١٧٨ و ٢٨٠
فارس الخوري	= ٢٢١
محمد كرد علي	= ١٧ و ٣٨ و ٣٢٩
مرشد خاطر	= ٢٥

—••••—

## الفهرس الثالث في موضوع المحاضرات

اثريه فنية	( ١٧٨ و ٣٢٩ )
اجتماعية	( ٣١٣ )
ادبية علمية	( ١١٢ و ٢٠٠ و ٢٥٩ )
ادارية	( ٢٢١ )
اقتصادية	( ٣٨ )
تاريخية	( ١٤٠ )
تاريخية ادبية	( ١ و ١٦٧ و ٢٣٧ )
حقوقية	( ١٣٠ )
صحية طبية	( ٢٥ )
صناعية	( ٢٨٠ و ٣٢٩ )
قضائية	( ٧٤ )
مدنية	( ١٧ )
هندسية	( ٣٢٩ )

\* اصلاح أم الخطأ المطبعي \*

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	١٨	التجرد	المتجرد
١٠	٢١	لا ينفذ	لا ينفذ
١١	١٠	أخمل	أخمل
١١	١٩	الصمد	المصمد
١٣	١٢	فهم	م
٣٠	٢٤	غارة وجه الحجر	غاب وجه الحجر
٧٨	١٥	صيفي	صيفي
٧٩	١	واليمين على ادعى	٠٠٠ من ادعى
٨٢	١	واجتهاد	واجتهاده
٨٣	٨	والمذاهب	المذاهب
٨٣	٨	رضيها	رضيتها
٨٤	السطر (٢) من الحاشية <sup>(١)</sup>	يرشح	يرجع
٩٣	١٧	ومع هذا في فقد قضي عليه خصومة	ومع هذا فقد قضي عليه في خصومة
٩٥	آخر سطر	ملنم	ملجم
١٠٠	١٤	او الحق الالهي	الحق الالهي
١٠٢	آخر سطر	بين امر المتنازعين	بين المتنازعين
١٠٣	٢٢	ضرب الاول	ضرب للاول
١٠٥	٧	في	نفي
١٠٦	١٦	لا يكون مداراً	لا يكون الاقرار بالاكراه مداراً
١٠٦	٢٤	واوجبوا في	واوجبوا التبرئة في
١٠٨	٥	يجنس	يجبس
١٠٨	٢٤	يقام له الحد	يقام الحد
١١٣	١	جميع	جمع

صفحة	سطر	خطأ	ضواب
١١٥	٢١	منا	مناب
١١٦	١٤	يمكن	مكن
١١٦	١٥	تمن	من
١٢٤	٢٢	والحديد من	والحديد اقل من
١٢٦	٢٣	عليهم	علمهم
١٢٨	٢	ونشيط	ونشط
١٢٨	٢٣	يراسلون	يرسلون
١٨١	قبل الاخير بسطر	بيروسيوس	بروشيوس
١٨٢	١	ما علامة الآثار	ما علاقة الآثار
١٩٩	٨	شؤونها	شؤوننا
٢٠٢	٤	حيلة	حلية
٢٠٥	٢٢	يكون	يكونوا
٢٠٦	١٩	الفريقين	الغريبين
٢٥٢	١٠	لاخافن	لاخالفن
٢٥٩	١	حين الدهر	حين من الدهر
٢٦٤	١٢	بجميع	بجمع
٢٦٩	١٩	مثلها	وما مثلها
٢٧٢	١٢	المزلفة	المؤلفة
٢٧٤	١٨	بعضهم	بعضها
٢٧٧	٨	عند	عنه
٢٧٨	٢٢	وهنت	وهبت
٢٩١	١١	ابن العربي	ابن عربي
٣١٨	٩	قصره	لقصره

هذا عدا حروف وتقط ساقطة او زائدة مما لا يخفى امره عن اللبيب \*







